اللغز الآسيوي المتجلّي في تاريخ

نُصَيرية بلاد الشام

ودينهم ووضعهم الحالي

تأليف: صموئيل لايد

ترجمة وتحقيق: سيدي محمد ولد زكي

الطبعة الأولى 2018



THE

ASIAN MYSTERY

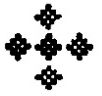
ILLUSTRATED IN THE HISTORY, RELIGION, AND PRESENT STATE OF THE

ANSAIREEH OR NUSAIRIS OF SYRIA

BY

THE REV. SAMUEL LYDE, M.A.

FELLOW OF JESUS COLLEGE, CAMBRIDGE: AUTHOR OF "THE ANSYREEH AND ISMAELEEH"



LONDON

LONGMAN, GREEN, LONGMAN, AND ROBERTS

1860

مقدمة المترجم

يَسُرُّني أن أضع بين أيدي القراء الأعزاء كتابًا في موضوعٍ قلت بحوثه، وندرت كتبه باللغة العربية؛ آملًا أن يسهم هذا الكتاب، على قدر حجمه المتواضع، في سد ثغرةٍ معرفيةٍ، لا تخطئها عين باحثٍ ولا مهتمٍ؛ فالمكتبة العربية تفتقر إلى بحوثٍ حقيقيةٍ عن الدين النصيري والنصيرية الذين باتوا يُعرفون اليوم باسم "العلويين".

لو أراد المؤلف أن يعيد عنونة كتابه منتقيًا أقل ما يمكن من كلمات عنوانه الطويل، لاختار، حسب ظني، "اللغز الآسيوي"؛ ولو كان الرأي رأيي، والخيار خياري، لاخترت "نصيرية بلاد الشام". ومهما كان الفارق بين العنوانين كبيرًا، فإنه لا يعكس اختلافًا منهجيًا في فهم مضمون الكتاب، بقدر ما يعكس نسقًا فكريًا مختلفًا في السياق الثقافي والزمني، وهذه ضرورةٌ يحتمها تغير الزمان والمكان والقارئ.

ولد صموئيل لايد مؤلف هذا الكتاب في إنجلترا عام 1825، وتخرّج في كلية يسوع[I] التابعة لجامعة كامبريدج، وحصل على شهادة الماجستير عام 1851؛ ثم سافر إلى سوريا عام 1853 لأداء مهامَ تبشيريةٍ، وعاش في جبال النصيرية، وتحديدًا في قرية بحمرة[II]، حتى عام 1859، وتوفي في الإسكندرية إثر مرضٍ ألمّ به عام 1860.

صموئيل لايد مبشرٌ بروتستانتيٌ إنجليزيٌ، ألَّف هذا الكتاب منذ أكثر من قرنٍ ونصف؛ حين كان للدين تأثيرٌ لا يستهان به في المجتمع الإنجليزي. ففي عصره، كانت نسبة رواد الكنسية ما يقرب من 40% من السكان القادرين على الحضور[III]؛ ومن جهةٍ أُخرى، كانت الجريمة والدعارة متفشيتان في بعض أحياء المدن. وأثرت الفلسفات الحديثة آنذاك سلبًا في المسيحية، فأصبح كثيرٌ من معتنقيها كالريشة في مهب الريح، تتقاذفهم الأفكار الجديدة ذات اليمين وذات الشمال، وفقد بعض الناس إيمانهم بعد قراءة كتب تشارلز دارون، وكارل ماركس، ودايڤيد شتراوس[IV]، وأمثالهم الذين ألْقت كتبُهم قراءَها في خضمٍّ من التّساؤلات الحائرة.

ومع كل الاكتشافات والتغيرات التي حصلت، بقي لغز قوة الماسونية، واستمرارها محيرًا للكنيسة طوال قرونٍ من العداء لها ولتنظيماتٍ تشبهها مثل فرسان الهيكل. وربما وجد صموئيل لايد تفسيرًا لهذا اللغز بعد إقامته في بلاد الشام (في آسيا)، والتعرف على عقائد الفرق السرية والباطنية عمومًا، والنصيرية على وجه الخصوص. فقد وجد تشابهًا في هيكلية تلك التنظيمات والفرق، وطريقة إدارتها، ومعايير قبول الوافدين الجدد، وطقوس قبولهم، وطرائق ضمان ولائهم الأعمى، ولم يغب عن ذهنه لونا لباس فرسان الهيكل، وفدائية فرقة الحشاشين: الأبيض والأحمر؛ وقد أشار إلى احتمال أن يكون فرسان الهيكل قد استفادوا من خبرة فرقة الحشاشين في أثناء الاحتكاك بها في بلاد الشام إبَّان الحروب الصليبية. ومن هنا أتى عنوان الكتاب؛ فاللغز الآسيوي هو لغز الفرق السرية التي ظهرت في آسيا مثل الإسماعيلية، والنصيرية، والدروز، وغيرها من الفرق؛ وسيُبدي لنا المؤلف كيف تجلّت آثار هذا اللغز، وظهرت في دين النصيرية، وتاريخهم، وطريقة عيشهم.

النصيريون هم أتباع الدين النصيري، وقد غير المستعمرون الفرنسيون في القرن الماضي اسمهم، وألحقوهم بالدين الإسلامي لأسبابٍ سياسيةٍ بحتةٍ، تخدم مصالح الدول الكبرى التي رسمت من جديدٍ خريطة المنطقة السياسية والجغرافية على نحوٍ يضمن استمرار الهيمنة عليها بعد استقلالها. والدين النصيري دينٌ قائم الذات، وليس أحد مذاهب الشيعة، كما يُصوِّر أو يتصور كثيرٌ من الناس، وسُمِّي باسم مؤسسه الأول أبو شعيب محمد بن نصير النميري

[I] Jesus College, Cambridge University.

[II] قرية تابعة لمنطقة القرداحة في محافظة اللاذقية، ويبلغ عدد سكانها 1028 نسمة (إحصاء عام 2004).

[III] Mann, H. (1854). Census of Great Britain, 1851. Religious Worship in England and Wales. London: George Routledge and Co.

[IV] "أصل الأنواع"، "بيان الحزب الشيوعي"، "حياة يسوع"؛ بالترتيب.

(توفي 883 م) الذي عاصر آخر ثلاثةٍ من الأئمة الاثني عشر. ولا يمكن أن تُعدَّ العقائد الجديدة التي أتى بها ابن نصير مذهبًا فقهيًا شيعيًا؛ لمجرد أنه ولد وعاش في بيئةٍ شيعيةٍ؛ فالخلاف بينهما يشمل مصادر التلقي، والأصول، والفروع من عقائد، وعباداتٍ، وسرديةٍ كونيةٍ تُفسِر مفاهيم الخلق والمآل. إذ يؤمن النصيرية بأن عليًا هو الله، وأنه خلق الكون والبشر وكل شيءٍ من نوره، ويؤمنون بتناسخ الأرواح، وينكرون الجنة والنار وفروض الصلاة والصوم والزكاة والحج التي يؤديها الشيعة، ويقدسون الخمر؛ والقائمة تطول. يُعَدُّ الدين النصيري انشقاقًا عن الدين الشيعي، ومفارقةً له، وتنصلًا منه؛ أما الفتاوى الحديثة التي أقرت بأنهم مسلمون أو شيعةٌ، فقد صدرت لأسبابٍ سياسيةٍ في مخالفةٍ واضحةٍ للدين الذي صدرت باسمه؛ إذ أجمع علماء المسلمين والشيعة تاريخيًا على أن النصيرية ليسوا مسلمين.

أما وَصفي لمحمدٍ بن نصير بالمؤسس الأول؛ فلأنني أعتقد أن للدين النصيري مؤسسٌ ثانٍ، وهو المؤسس الفعلي الذي أضاف عليه الكثير، ولولاه لما كان الدين على ما هو عليه اليوم، واسمه حسين بن حمدان الخصيبي (توفي نحو 358 هـ، 969 م). عُرف النصيرية تاريخيًا بهذا الاسم، ولم يكن لهم اسمٌ آخر قبل قدوم المستعمر الفرنسي، باستثناء النميريين نسبةً إلى محمد بن نصير النميري، ويسمون أنفسهم بالفلاحين، وبنبي نصير، وبالخصيبيين نسبةً إلى الخصيبي. وهم خليطٌ من العشائر الأصيلة والوافدة[I]، جمعهم الدين والجغرافيا، وربما براغماتية بعض جيرانهم الأكراد والتركمان[II] الذين أصبحوا نصيريةً بحكم الجوار والمصلحة، مع أن الدين النصيري مغلقٌ لا يقبل معتنقين جُددًا. وينقسم النصيرية إلى طوائف مذهبيةٍ أهمها الشمسية والقمرية.

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر حوادث وتغييراتٍ كبيرةً، تأثر بها النصيريون وغيرهم من سكان المنطقة، على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري. ففي تلك الأثناء بدأت طلائع المبشرين المسيحيين بالوصول إلى أراضٍ خاضعةٍ لسيطرة الدولة العثمانية حين كانت قلب العالم الإسلامي، وأخص بالذكر مبشري مجلس المفوضين الأمريكيين للإرساليات الأجنبية[III]. وكان للمجلس نظرياتٌ خاصةٌ بخصوص آخر الزمان، فهم يعتقدون انتشار الإنجيل في العالم، وعودةَ اليهود إلى فلسطين وإيمانهم بالمسيح، وسقوطَ البابا، وانهيارَ الإسلام[IV]. يتضح بذلك أن هدفهم الأساسي كان تبشير غير المسلمين، بما فيهم المسيحيين غير البروتستانتيين؛ فقوانين الدولة العثمانية ما كانت تسمح للمسلمين صراحةً بتغيير دينهم، على الرغم من إلغاء عقوبة إعدام المرتد عام 1844، وضمان حرية المعتقد للجميع في فرمان الإصلاحات عام 1856، مع عدم ذكر جواز الردة أو منعها بوضوحٍ.

في عام 1831 خرج والي مصر محمد علي باشا من عباءة السلطان العثماني، واجتاحت جيوشه بلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا الذي أصبح حاكمًا عليها حتى عام 1840. أدخل إبراهيم باشا إصلاحاتٍ اقتصاديةً وتعليميةً وعسكريةً، فرحب به النصيرية في بادئ الأمر، وظنوا أنه سيخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم بدأ اليأس يدب إلى قلوبهم، ويزعزع كيانهم، فثاروا عليه لاحقًا؛ بسبب سياساته في مصادرة الأسلحة والتجنيد الإجباري. وحدث أول صدامٍ بينهم في عام 1834 حين هاجم مقاتلون نصيريون جنود إبراهيم باشا على الطريق الواصل بين حلب واللاذقية، فقتلوا نصفهم، ثم هاجموا مدينة اللاذقية، ودمروا المباني الحكومية فيها، واستولوا على أموال "الميري". كان رد إبراهيم باشا قاسيًا ومزلزلًا، فسخَّر جيشه وحلفاءه الموارنة والدروز[V] لقتالهم؛ فقتلهم، ودمر قراهم، وردم آبارهم، وأحرق محاصيلهم.

[I] عشائر سنجارية أتت مع حملة الحسن بن مكزون السنجاري، واستوطنت في المنطقة.

[II] الرشاونة أصولهم كرديةٌ، انضموا إلى عشيرة الكلبية؛ والخزرجية أصولهم كرديةٌ، انضموا إلى عشيرة الخياطين؛ والقراطلة أصولهم تركمانيةٌ، انضموا إلى عشيرة الحدادين.

[III] American Board of Commissioners for Foreign Missions.

[IV] Kieser, H.-L. (2001). Muslim Heterodoxy and Protestant Utopia. The Interactions between. *Die Welt des Islams*, 92.

[V] يتناقل بعض النصيرية قصة ذبح أجدادهم لخمسمائة درزيٍ من جنود إبراهيم باشا على حجرٍ، سموه "حَجرة الدم"، في موقعٍ قريبٍ من قرية المريقب التابعة لمحافظة طرطوس في سوريا. ومن الواضح أن الرقم مبالغٌ فيه.

في عام 1839 أصدر السلطان العثماني فرمان التنظيمات، ثم تبعه في عام 1856 فرمان الإصلاحات، وقد طالت إصلاحات الفرمانين أُمورًا إداريةً وتنظيميةً ودينيةً واجتماعيةً وعسكريةً واقتصاديةً. ومع ذلك، لم يكن لها أثرٌ كبيرٌ في حياة النصيرية، باستثناء ازدياد عدد البعثات التبشيرية التي بدأت تنتشر بكثرةٍ بعد منتصف القرن التاسع عشر. ووصل صموئيل لايد إلى جبال النصيرية في زمانٍ كان فيه النصيريون يعانون كثرةَ الضرائب، وظلمَ زعمائهم الذين كانوا يحكمونهم، ويديرون شؤونهم، وضعفَ سلطة الحكومة الذي أدى إلى تفشي السلب والنهب والجريمة والاقتتال بينهم. وكانت تلك حقبةً مفصليةً في تاريخ المنطقة، إذ بلغت العلة بالدولة العثمانية منتهاها، فأصبحت في حالة موتٍ سريريٍ، وإن تأخر الإعلان رسميًا عن وفاتها أكثر من نصف قرنٍ؛ وكان للقناصل الأوروبيين ودولهم نفوذٌ كبيرٌ، وتأثيرٌ لا يستهان به في شؤون الدولة العثمانية.

ألّف صموئيل لايد كتابين: "النصيرية والإسماعيلية، زيارة الفرق السرية في شمال بلاد الشام[I]"، وقد نُشر عام 1853، بعد رحلته الأولى والقصيرة إلى سوريا؛ وأما كتابه الثاني[II] والأهم، فهو الذي تقرأون مقدمة مترجمه الآن، وقد نُشر بعد وفاته عام 1860. اعتمد في تأليف كتابه هذا على مصادر معلوماتٍ مختلفةٍ، أذكر منها ملاحظاته الشخصية، وما رآه وسمعه من سكان المنطقة، وكتبًا ألفها مؤرخون وجغرافيون ورحالةٌ ورجال دينٍ معروفون، عربٌ وفرسٌ وأوربيون وأمريكيون، ومجلاتٍ بحثيةً، وثلاثَ مخطوطاتٍ نصيريةً عزَّ نظيرها وقل مثيلها في ذلك الزمن:

1. كتاب تعليم الديانة النصيرية: وهو عبارةٌ عن أسئلةٍ وأجوبةٍ عن الدين النصيري، نَشر أجزاءً منه -بعد ترجمتها إلى الألمانية- المبشرُ والمستشرق الألماني الدكتور جوزيف ڤولف في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام 1849، ومن النسخة الألمانية تُرجم إلى الإنجليزية، ونشر صموئيل لايد هذه الترجمة في الفصل العاشر من كتابه. أما النص الموجود في هذه النسخة العربية من الكتاب، فهو النص الأصلي الكامل المنقول من المخطوطة العربية[III]. ويبدو أنه كتابٌ لتعليم الشبان الذين أُدخلوا في الدين حديثًا.

2. كتاب مجموع الأعياد لميمون بن القاسم الطبراني (توفي نحو 427 هـ، 1036 م): كتابٌ مهمٌ في العقيدة النصيرية، يعدد الأعياد، ويشرح مغزاها، وصلواتها، وأدعيتها، وخطبها. الكتاب عبارةٌ عن مخطوطةٍ، تَرجم أجزاءً منها إلى الفرنسية جوزيف كاتافاغو الذي كان يعمل مترجمًا لقنصل پروسيا العام في بيروت في منتصف القرن التاسع عشر.

3. كتابٌ نصيري كان في حوزة المستكشف الألماني كارستن نيبور. لم يَذكر اسمه ولم يعط أية معلوماتٍ مفيدةٍ عنه.

4. مخطوطةٌ نصيريةٌ[IV]، تحتوي على "كتاب المشيخة"، وهو دليلٌ للمشايخ، يشرح كيف تقام الصلوات، والقداسات، والابتهالات. يليه "العقاد"، وهو العقد بين السيد والشاب الذي يراد إدخاله في الدين؛ وبعده "خطاب التلميذ"، وهو وصفٌ لطقوس عملية الإدخال في الدين؛ وأخيرًا بابٌ في آداب حضور الاجتماعات الدينية، وما يحرم على النصيرية.

[I] Lyde, S. (1853). The Ansyreeh and Ismaeleeh, a Visit to the Secret Sects of Northern Syria. London: Hurst and Blackett.

[II] Lyde, S. (1860). The Asian Mystery Illustrated in the History, Religion, and Present State of the Ansaireeh or Nusairis of Syria. London: Longman, Green, Longman, and Roberts.

[III] المخطوطة العربية محفوظةٌ في المكتبة الوطنية الفرنسية في پاريس بالرقم "ARABE 6182".

[IV] المخطوطة العربية محفوظةٌ في المكتبة القديمة في كلية يسوع التابعة لجامعة كامبريدج بالرقم "1422, Jesus, No 17".

يقول المؤلف إنه اشترى مخطوطة كتاب المشيخة بمبلغ 10 جنيهاتٍ إسترلينيةٍ[I] في مدينة اللاذقية عام 1859 من تاجرٍ مسيحيٍ، حصل عليها في الأيام العصيبة في عهد إبراهيم باشا. وبعد وفاة المؤلف، اختفت المخطوطة، ولم يعرف مكان وجودها حتى أُعلِنَ العثورُ عليها في مقالة "إعادة اكتشاف كتاب المشيخة الخاص بصموئيل لايد[II]" في "مجلة الجمعية الملكية الآسيوية" عام 2013. وقد أوصى المؤلف بالمخطوطة إلى كلية يسوع في الأول من مارس عام 1860، وهذا مكتوبٌ على المخطوطة بخط يده. يقول ناسخ المخطوطة بعد نهاية باب المشيخة إنه فرغ من كتابتها يوم الأحد في العشر الآخر من شهر صفر سنة 1239 (أكتوبر/نوفمبر 1823)، ويُعرِّف عن نفسه بأنه "محمد ابن الشيخ[III] ابن الشيخ جابر ابن الشيخ جمعة من قرية أهالي بشراغي[IV] الجرانة، حسبًا ونسبًا، سلالة الشيخ فراس الحمام، رحمة الله عليه آمين؛ وهي برسم الولد العزيز والذهب الإبريز عليٍّ ابن الشيخ عيد ابن الشيخ أحمد[V]". وفي نهاية المخطوطة يذكر الناسخ مرةً أُخرى أنها "برسم ولد عمنا الشيخ عليّ عيد"، دون ذكر التاريخ، ويعتذر عن سوء الخط متحججًا بالحبر: "ولا تعتب علينا في وحش الكتابة ما شي حبر ينفع".

يتكتم النصيريون الذكور على تعاليم دينهم، ويُمنع عليهم البوح بها لرجلٍ غريبٍ أو لامرأةٍ، ولو كانت نصيريةً. ويُعد إفشاء أسرار دينهم جريمةً كبرى، تبيح دم مرتكبيها. وفي ظل تلك الأحوال، بقيت كتبهم مخفيةً عن أعين الغرباء، ولم يستطع الباحثون عنها الوصول إليها؛ وبقي ما رشح عن دينهم، موضع شكٍ مع وجود استثناءاتٍ قليلةٍ. وكان هذا الكتاب عند نشره عام 1860 غنيًا بمعلوماتٍ تُنشر أول مرةٍ عن الدين النصيري، فوفَّر زادًا معرفيًا للباحثين، وعثر فيه كثيرٌ من المهتمين على ضالتهم المنشودة، وكان ذلك قبل ثلاثة أعوامٍ من صدور كتاب "الباكورة السليمانية" لمؤلفه سليمان الأذني في بيروت عام 1863.

كان سليمان نصيريًا، وتحول إلى المسيحية، فقرر أن يكشف أسرار دينه القديم، فألف كتاب "الباكورة السليمانية"، ودفع حياته ثمنًا لذلك. وعلى الرغم من وجود أسبابٍ شخصيةٍ قد تحد من موضوعية مؤلفه، إلا أن ظهور كتب النصيرية الدينية إلى العلن في السنوات الماضية أكد صحة ما ورد في كتاب الباكورة السليمانية، مع وجود بعض المآخذ عليه. وظهر بعد ذلك كتاب "تاريخ العلويين" لمحمد أمين غالب الطويل الذي طبع في اللاذقية عام 1924؛ وفيه تدليسٌ وتلبيسٌ كبيران، إذ يتعمد الكاتب الخلط بين النصيرية والاثني عشرية، فيسرد تاريخ الشيعة الاثني عشرية قائلًا إن هؤلاء هم العلويون، دون إعطاء أية فكرةٍ عن العقيدة النصيرية. وهو ليس أول ولا آخر كاتبٍ يجعل شعوره الوجداني معيارًا للحقيقة، ولم يكن كتابُه الأخيرَ من هذا النوع. وبعد أن أصبح للنصيرية شأنٌ سياسيٌّ، ازدادت الكتابات الدعائية؛ فشابت على تناولها أقلام المغرضين؛ ويمكن تصنيف تلك الكتابات في خانة التاريخ الزائف (Pseudohistory)، على الرغم من أن بعضها وُضع في قالب بحثٍ علميٍ رصينٍ؛ ولكن في الواقع، لم يتخذ مؤلفوها الاستقراء، ولا الاستنباط منهجًا في البحث العلمي، وربما كانوا أقرب إلى الاستعباط من الاستنباط. ولهذا يتمتع كتاب صموئيل لايد بميزةِ خلوِ لاشعورِ مؤلفِه من صورٍ نمطيةٍ عن النصيرية، عادةً ما تحدد مسار قلم الكاتب؛ بالإضافة إلى أنه شاهد عيانٍ غريبٌ عن المنطقة، ما يجعله أقرب إلى الحياد، وأبعد عن الانتقائية في نقل الأخبار، وتوصيف الأمور.

[I] حسب معلومات التضخم العام التي ينشرها مكتب الإحصاء الوطني في بريطانيا، نحتاج إلى ما يقرب من 122 جنيهًا إسترلينيًا في العام 2018 لشراء سلعٍ كان ثمنها جنيهًا واحدًا عام 1859، مما يعني أن 10 جنيهاتٍ عام 1859 تعادل 1220 جنيهًا عام 2018.

[II] Krieger, B. T. (2013). The Rediscovery of Samuel Lyde's Lost Nuayrī Kitāb alMashyakha. Journal of the Royal Asiatic Society, 1-16.

[III] تبين بالبحث أن الكلمة الناقصة في المخطوطة هي "عليّ"، وأن اسمه ونسبه: محمد بن علي بن جابر بن جمعة بن نور الدين بن جمعة بن جابر بن غدير بن جمعة بن صبح بن فراس بن خضر بن فراس الحمام.

[IV] بشراغي قريةٌ تابعةٌ لناحية القطيلبية، منطقة جبلة، محافظة اللاذقية، ويبلغ عدد سكانها 657 نسمة، (إحصاء عام 2004).

[V] قد يكون الولد عليّ ابن الشيخ عيد ابن الشيخ أحمد جدَّ الزعيم النصيري الشيخ صالح العلي المولود عام 1882، فالمعروف أن والدة صالح العلي اسمها حبابة بنت الشيخ علي عيد من قرية بشراغي.

نُشر هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه، فلم يتمكن الناشرون من العودة إليه لطلب الإيضاح أو التصويب، فوقعت على عاتقي، كمترجمٍ، أعباءٌ إضافيةٌ شملت، على سبيل المثال لا الحصر، التدقيق في أسماء المراجع، والعودة إليها، إن أمكن، للتأكد من صحتها، بالإضافة إلى تصويب أسماء الأماكن، والأعلام، والمراجع، وعمل فهارس لها، ذَيَّلتُ بها آخر الكتاب؛ فسلكت مسلكًا توثيقيًا للتعريف بها؛ لأن معظمها كان مجهولًا من غير تعريفٍ ولا تحقيقٍ. وقد أضفت بعض الخرائط المفيدة، وفهرسًا مفصلًا لمحتويات الكتاب، وملخصًا لشرح أهم العقائد النصيرية التي وردت فيه، ليعود إليها القارئ إن شاء استزادةً وتفصيلًا. وأضفت تعليقاتي الخاصة في الحواشي، ووضعت تعليقاتي على حواشي المؤلف بين قوسين بهذا الشكل {}، أما التعليقات في المتن، فهي للمؤلف؛ وفي حال وجود اقتباساتٍ من مصادرَ عربيةٍ، نَقَلتُ النص الأصلي إن وجدتُ إلى ذلك سبيلًا، لاستدراك النواقص، وإتمام الفائدة، وتلافي سلبيات الترجمة العكسية. وقد نقلت النصوص من المخطوطة بما فيها من أخطاءٍ قواعديةٍ، وإملائيةٍ، ليس من مبدأ "خطأٌ شائعٌ خيرٌ من صوابٍ مندثرٍ"، ولكن حفاظًا على روح النص، وليتمكن القارئ من رؤية الصورة الحقيقية دون تجميلٍ. وبذلك تكون عبارات ﷺ إضافاتي الوحيدة في المتن، بالإضافة إلى الاقتباسات التي نقلتها من مصادرها العربية الأصيلة.

أرجو أن أكون قد وفقت في نقل الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يُكتب له القبول؛ على الرغم من علمي بوجود تحدياتٍ في فهم بعض نصوصه، بسبب طبيعتها الغامضة، وجملها المعقدة. وربما أسهمت في ذلك لأني فضلت الإقناع على الإمتاع، والترجمة الدقيقة على اللغة البديعة في مواضعَ كثيرةٍ، تعاملت فيها مع النص كعملٍ بحثيٍ، ولم أتعامل معه كعملٍ أدبيٍ بحتٍ، أو كقطعةٍ روائيةٍ. وأخيرًا لا يسعني سوى القول لكم سواءً أكنتم ممن ينقبون في كهف مقارنة الأديان أم من الباحثين عن قصص الأجداد، إن بين أيديكم كتابًا شائكًا وشائقًا، يحمل في طياته أبعادًا عدة ذات دلالاتٍ مختلفةٍ، كلٌ يفهمها بطريقته، بعضها قصدها الكاتب، وأُخرى جاءت عفويةً.

محمد أبو زكي

إنجلترا، 2018

مقدمة المؤلف

حاولت في هذا الكتاب إنجاز عملٍ عن فرقة النصيرية، على غرار العمل الذي أنجزه دي ساسي[1] عن فرقة الدروز، وما يجعلني أهلًا لتلك المهمة:

أولًا: علاقتي التي استمرت لعدة سنين مع النصيرية، فقد كنت الأوروبي الوحيد الذي عاش بين ظهرانيهم في جبالهم التي سكنوا فيها وحيدين، دون أن يختلطوا بعشائر أُخرى.

ثانيًا: اطّلاعي على معتقدات النصيرية وعاداتهم، كما وردت على لسان خدمٍ مسيحيين وأشخاصٍ آخرين، نشأوا في مناطق النصيرية، وأخص بالذكر خادمًا نصيريًا، تسنت له فرصٌ كثيرةٌ للاطلاع على معلوماتٍ تخصهم.

ثالثًا: حصولي على كتاب الشعائر النصيرية، المسمى "كتاب المشيخة" الذي يوضح جميع النقاط الأساسية في المنهج النصيري، سواءً أعقائديةً كانت أم شعائريةً.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد راجعت أعمال المؤرخين والمؤلفين العرب وغيرهم ممن يُعتقد أنهم سلطوا الضوء على موضوع النصيرية، وبحثت في جميع وثائق النصيرية المنشورة التي سمعت بها، وتمنيت لو حصلت على فرصٍ أكثر لتَفَحّص كتابات النصيرية الأصلية. في الواقع، أنا ميالٌ إلى تأخير كتابة عملي هذا، آملًا أن يزيد اكتمالُه في المستقبل، لكنني أشك في أن يتسنى لي تحقيق ذلك؛ بسبب وضعي الصحي السيئ؛ وإني متأكدٌ أن هذا العمل بوضعه الحالي سيصبح جسرًا يعبر عليه من يريد أن يسلك الطريق نفسه من بعدي.

ولهذا فقد وظفت ما يفسحه مرضي من وقتٍ؛ آملًا أن يعزز ذلك الجهودَ المبذولة في تبشير الشعوب المهملة. إن تسليط الضوء على الأشياء المخبئة في الظلام أمرٌ يصب في صالح ازدهار المسيحية في العالم، ببركة الرب.

صموئيل لايد

القاهرة، 1860

---

[1] أنطوان إيزاك سيلفستر دي ساسي (1758-1838)، مستشرقٌ فرنسيٌّ، ومؤلف كتاب "عرض ديانة الدروز". المترجم

ملحوظة: ألمانيا وفرنسا البلدان الرئيسيان في نشر الوثائق عن النصيرية.

كارستن نيبور[I] (رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة، الجزء الثاني، ص 357 وغيرها). يخبرنا عن كتابٍ نصيريٍ كان في حوزته.

أنطوان إيزاك سيلفستر دي ساسي (عرض ديانة الدروز، الجزء الثاني، ص 580، الحاشية). يتحدث عن هذا الكتاب، وكأنه استعاره من نيبور وترجمه.

تحدث نيبور ودي ساسي عن كتابٍ درزيٍ معادٍ للنصيرية[II]، وعرض دي ساسي مقتطفاتٍ كثيرةً منه.

يوهان لودڤيك بوركهارت[III] (رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة، ص 151). يتحدث عن كتابٍ نصيريٍ وصل إلى يدي جان باپتيست جوزيف روسو[IV] "الذي دبر أمر ترجمته إلى الفرنسية، ويعتزم نشره"، وتحدث روسو بنفسه عن النصيرية (السجلات الجغرافية والتاريخية للرحلات، الدفتر 42).

ذُكر كتاب تعليم الديانة النصيرية في التقرير السنوي للجمعية الشرقية الألمانية[V] للعامين 1845-1846، وقد أُرسل إلى ملك پروسيا مع ترجمته إلى الفرنسية. ونَشر الدكتور جوزيف ڤولف[VI] مقتطفاتٍ كثيرةً منه في الجزء الثالث، ص 302 وغيرها، في المجلة الصادرة عن الجمعية نفسها.

أكثر المعلومات اكتمالًا عن النصيريين موجودةٌ في بحوث جوزيف كاتافاغو[VII] في مجلات الجمعيات الاستشراقية الفرنسية والآسيوية والألمانية. وفي المجلة الآسيوية[VIII] الصادرة في فبراير 1848، أخبرنا كاتافاغو عن كتابٍ يتحدث عن صلوات النصيرية وأعيادهم[IX]، بالإضافة إلى ثلاثة قداساتٍ نُشرت في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية[X]"، الجزء الثاني، ص 388.

وفي عدد "المجلة الآسيوية" الصادر في يوليو 1848، نشر كاتافاغو فهرس محتويات كتابٍ نصيريٍ، فاستنتجْتُ أنه الكتاب نفسه الذي في حوزتي؛ مما يعني أنه قد استعاره أيضًا. ولقد اشتريت الكتاب بعشرة جنيهاتٍ من تاجرٍ مسيحيٍ في اللاذقية، حصل عليه في عهد إبراهيم باشا[XI] العصيب، حين أُخرج النصيرية من بيوتهم.

وأخيراً، كتب السيد ڤيكتور لانجلوا[XII] بحثًا قصيراً عن النصيرية، نُشر في "مجلة الشرق[XIII]"، في يونيو 1856؛ وقال إنه استمد المعلومات الواردة فيه من مخطوطةٍ محفوظةٍ في مكتبة مفتي طرسوس، وإنها صحيحةٌ بالمجمل.

[I] كارستن نيبور (1733-1815)، مستكشفٌ ألمانيٌ، شارك في حملة استكشافٍ لصالح ملك الدانمارك في ستينيات القرن الثامن عشر. المترجم

[II] يقصد "الرسالة الدامغة في الرد على الفاسق النصيري" لمؤلفها حمزة بن عليّ الزوزني. المترجم

[III] يوهان لودڤيك بوركهارت، مستشرقٌ ورحالةٌ سويسريٌ (1784-1817)، درس العربية في جامعة كامبريدج، ثم سافر إلى حلب عام 1809، ومكث فيها أكثر من عامين، ومنها انطلق إلى مصر، ثم الجزيرة العربية. المترجم

[IV] جان باپتيست جوزيف روسو (1780-1822)، القنصل الفرنسي في حلب. مؤلف مقالة "مذكرات عن إسماعيليي ونصيرية الشام، موجهة من روسو إلى سيلفيستر دي ساسي" في مجلة "السجلات الجغرافية والتاريخية للرحلات"، الدفتر 42، پاريس 1810. المترجم

[V] الجمعية الشرقية الألمانية. Deutsche Morgenländische Gesellschaft. المترجم

[VI] جوزيف ڤولف (1795-1862)، مبشرٌ ألمانيٌ من أصلٍ يهوديٍ، زار مصر، وبلاد الشام، وفارس، والعراق في عشرينيات القرن التاسع عشر. المترجم

[VII] جوزيف كاتافاغو، أوروبيٌ مستعربٌ، ولد في حلب، وعمل مترجمًا لقنصل پروسيا العام في بيروت؛ انتقل للعيش في إنجلترا. المترجم

[VIII] مقالة "ملاحظة على النصيرية" في "المجلة الآسيوية" فبراير، 1848. المترجم

[IX] كتاب "مجموع الأعياد" لميمون بن القاسم الطبراني. المترجم

[X] Jahresbericht der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. المترجم

[XI] إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد عليّ باشا الذي حارب الجيش العثماني، واستولى على الشام، وحكمها بين العامين 1831-1840. المترجم

[XII] مؤرخٌ ومستشرقٌ فرنسيٌ (1829-1869)، اختص في التاريخ الأرمني، وأرسلته الحكومة الفرنسية إلى كيليكيا لعمل بحوثٍ في العلاقات الفرنسية الأرمنية في أثناء الحروب الصليبية. المترجم

[XIII] مقالة "دين النصيرية وعقيدتهم"، في "مجلة الشرق"، يونيو، 1856. المترجم

تصدير

توفي المبجّل صموئيل لايد في مدينة الإسكندرية في الأول من أبريل عام 1860، وذلك بعيد انتهائه من كتابة عمله الذي نشره بعد وفاته أقرباءُ له، كان عزيزًا عليهم. كان مراده أن يتوسع في بعض النقاط، بعد العودة إلى مراجع لم يتمكن من الوصول إليها في أثناء إقامته في المشرق، ولكن العمر لم يمتد به ليحقق ذلك. تابع أُناسٌ آخرون مهمَته التبشيرية[I]. وإن أخاه على استعدادٍ لتزويد المهتمين بالمعلومات، ويمكن الحصول على عنوان أخيه من الناشرين.

[I] تابع المهمة مبشران أمريكيان من الكنيسة المشيخية الإصلاحية: روبرت دودز، وجوزيف بيتي. المترجم

الفصل الأول

وصف بلاد النصيرية وجغرافيتها

إذا أخذ القارئ خريطةً دقيقةً لبلاد الشام، ونظر إلى الساحل البحري، سيجد على خط العرض 35° 30' مدينة اللاذقية، مدينة سلوقس المنصور التي كان اسمها لاوديكيا[I]، والتي تشتهر اليوم بتصدير التبغ الذي يزرع في الجبال المجاورة لها.

تمتد تلك الجبال التي تعد الموطن الخاص للنصيريين[II] من الشمال إلى الجنوب شرق مدينة اللاذقية، وتتعدد أسماؤها بتعدد الخرائط.

ويفصل مدخلُ حماة جنوبَ جبال النصيرية عن جبال لبنان، وهو وادٍ يمر فيه الطريقُ الواصل بين طرابلس وحماة، والطريق الواصل بين طرطوس وحمص، ويجري فيه نهر ألوتارس الذي أصبح اليوم اسمه نهر الكبير[III]. ويُعدُّ جبل الأقرع النهاية الغربية البارزة لتلك الجبال التي يفصلها عن الجبال الشمالية ممرٌ ووادٍ يمر فوقه وعبره الطريقُ الواصلُ بين اللاذقية وحلب.

لا يقتصر وجود النصيرية على تلك الجبال وحدها، مع أن أنهم ساكنوها شبه الوحيدين، فسمّيت باسمهم، وأصبحت تُعدُّ قلب الأُمة النصيرية. وقد ملّكتهم الحكومةُ أراضيهم مباشرةً[IV]، في تلك الجبال، وفي السهول المجاورة لها التي يحكمها زعماؤهم.

إنهم المزارعون الأساسيون في السهل الذي يمتد غرب الجبال من وادي قنديل -الذي يقع على بعد ما يقرب من أربع ساعات أو اثني عشر ميلًا شمال اللاذقية (حيث تبدأ الأرض بالارتفاع نحو جبل الأقرع)- إلى قضاء صافيتا ونهر الكبير[V]، على بعد اثنتين وعشرين ساعةً، أو ستة وستين ميلًا جنوبًا. ويتبع لهم الشريطُ الضيق بين الجبال ونهر العاصي، ويمتد جنوبًا من جسر الشغور على طريق حلب لمسافة ثلاثين ميلًا. وعندهم قرىً في السهل الواسع الذي يمتد شرقًا نحو حمص وحماة التي يعيشون فيها في مناطق بائسةٍ.

توجد أعدادٌ كبيرةٌ منهم جنوب نهر الكبير، وفي منطقة قلعة الحصن، وجنوبًا في قضاء عكار.

شمال وادي قنديل يصبحون جزءًا من فلاحي الجبال التي يحدها غربًا جبلُ الأقرع، ويحدها من الناحية الشرقية والشمالية نهرُ العاصي. وهم موجودون بأعدادٍ كبيرةٍ في وادي العاصي في سهول أنطاكيا، ابتداءً من السويدية على ساحل البحر قرب مدينة سلوقية القديمة على بعد خمسة عشر ميلًا غرب أنطاكيا، إلى جسر الحديد[VI] على بعد اثني عشر ميلًا شرقًا، حيث يقطع نهر العاصي الطريق الواصل بين حلب وأنطاكيا. تقع قلعة حارم على بعد ثلاث ساعاتٍ

[I] سمّاها لاوديكيا باسم أُمه، نحو العام 300 قبل الميلاد، ولكنه ليس أول من استوطن المكان، فمدينة راميتا سبقتها بعشرة قرونٍ. المترجم

[II] يطلق عليهم الكّتاب العرب اسم النصيرية، وانا أقول انصيري لأنها أقرب محاكاةٍ إنجليزيةٍ لهذا اللفظ كما ينطقونه، وهم عادةً يسمون أنفسهم فلاحين. {أظن أن تسمية أنفسهم فلاحين لها مدلولٌ طبقيٌ لا عرقيٌ، فهم ينقسمون إلى ثلاث طبقاتٍ: المشايخ، والمقدمين، والفلاحين؛ أو طبقة رجال الدين، والزعماء، وعامة الشعب. وبما أن المقدمين كانوا وكلاء السلطة العثمانية، يمكننا اعتبار المقدم اصطلاحًا سياسيًا، بالإضافة إلى مدلوله الطبقي. المترجم}

[III] المقصود هو نهر الكبير الجنوبي الفاصل بين سوريا ولبنان. المترجم

[IV] ربما تكون إشارةً ضمنيةً إلى قانون الأراضي العثماني الذي صدر عام 1858. المترجم

[V] المقصود هو نهر الكبير الجنوبي الفاصل بين سوريا ولبنان. المترجم

[VI] تقع اليوم في تركيا، واسمها Demirköprü. المترجم


أنطاكيا
قلعة حارم
تركيا
جبل الأقرع
الروج
جبل التركمان
جبل الأكراد
جسر الشغور
وادي قنديل
جبال النصيرية
اللاذقية
أفاميا
جبلة
سوريا
بانياس
حماة
مصياف
الرستن
طرطوس
حمص
لبنان

أو تسعة أميالٍ شرق نهر العاصي عن يمين الطريق المتّجه إلى حلب. وتوجد مجموعةٌ من القرى النصيرية على الجبال الممتدة جنوب قلعة حارم، وفي منطقة الروج المحاذية شرقًا.

وهم أحد المكونات السكانية الكبيرة في أنطاكية، ونجدهم على طول الساحل وصولًا إلى إسكندرونة، وعلى الأخّص بجوار أرسوز التي ذكرها بطليموس باسم روسوس[I].

ولو قطعنا خليج إسوس[II] القديم مغادرين بلاد الشام، سنجدهم بكثرةٍ في مناطق أضنة وطرسوس. وتوجد ثلاث قرىً نصيريةٍ (عين فيت[III]، وزعّورة، والغجر[IV]) بعيدًا جنوب الشام عند الطرف السفلي لوادي التيم بالقرب من بانياس[V] التي كان اسمها قديمًا قيصرية فيلپس.

ما يزال أثرهم باقٍ في ذلك البلد الشرقي الذي كان مهد ديانتهم، فقد زارني شيخٌ نصيريٌ من بغداد، ومكث عندي يومين في جبال النصيرية، وأكّد لي وجود خمسمائة نصيريٍ في بغداد، وكذلك أكد وجود مدينةٍ في بلاد فارس جميع سكانها نصيريةٌ.

قبل التحدث عن تقديرات أعداد النصيرية، سأبدأ بإعطائكم فكرةً عن جغرافية (الجغرافيا الطبيعية وغيرها) جبال النصيرية، والمناطق المجاورة لها.

يرتفع جبل الأقرع شمال اللاذقية عند مصبّ نهر العاصي على شكل مخروطٍ ضخمٍ يصل ارتفاعه إلى 5000 أو 5700 قدمٍ[VI]؛ ويتصل بجبال النصيرية عند مستوياتٍ أخفض بكثيرٍ، حيث يمر الطريق الواصل بين اللاذقية وأنطاكيا عبر قرية أوردو[VII] المُسْلمة التي تقع في منتصفه. وتبعد اللاذقية عن أوردو ما يقرب من اثنتي عشرة ساعةً، ونحتاج عشر ساعات أُخرى للوصول إلى أنطاكيا، وبذلك تبلغ المسافة الكلية ستةً وستين ميلًا أو اثنتين وعشرين ساعةً. وتُقدر المسافة بين اللاذقية ومصبّ العاصي بستين ميلًا أو عشرين ساعةً، ومن أنطاكيا إلى إسكندرونة (أو الإسكندرية)[VIII] بثلاثةٍ وثلاثين ميلًا أو إحدى عشرة ساعة.

وكما ذكرت سابقًا، تبدأ جبال النصيرية جنوب الطريق الواصل بين حلب واللاذقية بعد تقاطعه مع ممرٍ جبليٍ بالقرب من البهلولية، وهي قريةٌ نصيريةٌ شمال شرق اللاذقية، وتبعد عنها نحو ست ساعاتٍ، ويستمر الطريق إحدى عشرة ساعةً في واد منعرجٍ عبر قرية بداما[IX] التركمانية إلى جسر الشغور، المدينة المُسْلمة الكبيرة، حيث يتقاطع الطريق مع نهر العاصي، ومن هناك تستغرق رحلة الوصول إلى حلب يومين، أو مسيرة ست عشرة ساعةً؛ وبذلك تبلغ المسافة بين حلب واللاذقية نحو تسعةٍ وتسعين ميلًا أو ثلاثٍ وثلاثين ساعةً.

[I] وصف كارل ريتر روسوس في كتابه "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه"، الجزء 17، الفصل 27.

[II] خليج إسكندرون. المترجم

[III] نزح سكان عين فيت وزعّورة إثر النكسة عام 1967، ولم يبق فيهما سوى بضعة مبانٍ مهدمةٍ. المترجم

[IV] عندما كنت في طريقي إلى تلك القرى، مُنعت من زيارتها؛ ولذلك سأُعطيكم المعلومات التي حصلت عليّها من صديقي المبجّل ج. ا. فورد المبشر الأمريكي في صيدا، والذي حصل على تلك المعلومات من مصادرَ مختلفةٍ. يبلغ عدد سكان عين فيت ما يقرب من 320 نسمةً معظمهم قمرية، 150 نسمة في زعّورة معظمهم قمرية، و250 نسمة في الغجر معظمهم شمسية، وتقع تلك القرى في نطاق نصف ساعةٍ غرب وشمال غرب بانياس، ويشكك فورد في قدرة من اختلط بهم على التميز بين الشمسية والقمرية؛ وقد أخبرني أحدهم يومًا أن جميعهم شمسيةٌ، وفي الخرائط الأخيرة تظهر تلك القرى جنوب بانياس.

[V] بانياس الحولة، إحدى قرى الجولان في سوريا. المترجم

[VI] 5633 قدم أو 1717 متر. المترجم

[VII] تقع اليوم في تركيا، واسمها يلاداغي، "Yayladağı". المترجم

[VIII] أصل الكلمة واحدٌ، فقد سميت باسم الإسكندر المقدوني الذي يسمّى في اليونانية أليكساندر. المترجم

[IX] وردت "Bedawa" في النص الإنجليزي، ولم أجد قريةً بهذا الاسم، وربما كان المقصود بداما؛ فهي تقع على الطريق بين اللاذقية وجسر الشغور بعد الوادي الذي ذكره المؤلف. المترجم

ولكن قبل متابعة الحديث عن جبال النصيرية، سأعود قليلًا إلى جبل الأقرع، وقد يكون هذا أفضل وقتٍ للتحدث عن الأقسام السياسية للبلد؛ وبذلك يثْبُت فهمنا لهذه الأقسام التي تفصل بينها حدود طبيعية، والعكس صحيحٌ أيضًا.

يقع في سنجق اللاذقية الجزءُ الأكبر للمنحدرات الغربية لجبال النصيرية، بالإضافة إلى جبل الأقرع، ويمتد قضاء بوجاق من وادي قنديل على طول الساحل باتجاه أوردو، ومعظم سكانه من التركمان، حسب ما قال الرحالة المغربي ابن بطّوطة منذ ما يقرب من 500 عامٍ. قضيت إحدى الأمسيات مع حاكم القضاء حافظ آغا ابن أخي زعيم أوردو، وقد رحب بي كثيراً. وكان يخشى نصيريةَ الجنوب الهمجيين كثيراً، وأشاد بما لي من حظوةٍ عندهم، لأنني أعيش في أحد أقوى أقضيتهم.

يقع قضاء باير[I] الصغير ذو الأغلبية المُسْلمة شمال شرق قضاء بوجاق، ويقع شرقًا جبل الأكراد ذو الأغلبية الكردية شمال الطريق الواصل بين اللاذقية وجسر الشغور وحلب. وقد مررت بمحاذاة تلك الجبال في أثناء توجّهي جنوبًا إلى مدينة الشغور الصغيرة، وربما كانت قريةً، وقبل ذلك عبرت جزءًا من الجبل، ثم التففت حول قاعدته متوجهًا إلى أنطاكيا من المكان نفسه. ويُدعى الحاكم الحالي للمنطقة[II] محمد آغا يومسو[III].

تقع جبال النصيرية مقابل تلك الجبال جنوبًا، وسنعود لاحقًا للحديث عنها، فقد كانت تعرف قديمًا باسم جبال برجيلوس، وأطلق عليها الجغرافيان العربيان ابن حوقل[IV] وأبو الفداء اسم جبال اللكام، وسُمّي جزؤها الجنوبي، حيث يسكن النصيرية، جبل السمّاق وجبل عامل. وهي أخفض من جبال لبنان كثيرًا، إذ يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف قدمٍ. وفي الغرب تمتد هذه الجبال على شكل دوائر حول سهول اللاذقية وطرطوس الواسعة، وتتشعب منها نتوءاتٌ، وعند قلعة المرقب[V] تصل تلك النتوءات إلى البحر وتحاذيه. وفي الشرق تمتد الجبال بخطٍ مستقيمٍ مطلةً على نهر العاصي، لتنخفض نحو الوادي انخفاضًا يبدو للناظر شديدًا، مع وجود وديان سحيقةٍ وأخاديد وغاباتٍ كثيفةٍ وقرىً كثيرةٍ، وللناس في هذه الجهة من الجبل صلات قرابةٍ مع جيرانهم في الجهة الأُخرى، وقد وفد كثيرٌ منهم من الشرق، كما سأوضح لاحقًا. ذكر بوركهارت أسماء قرىً على الجانب الشرقي للجبال، وسأكرر بعض هذه الأسماء، بعد أن تحققت من صحتها بنفسي. ابتداءً من الشمال توجد قرية مرداش، موطنُ محمد بن جعفر زعيم العمامرة الشرقيين، وقد قابلت ابنه الذي كان يتلقى العلم من قريبه الشيخ حافظ في قرية دريوس. وفي السهل قرية الخندق التابعة لمحمد عليّ خضرو الذي يعيش في قرية عنابٍ شمالًا، وهو النصيري الوحيد الذي لم يستطع إبراهيم باشا إخضاعه. فقد كان يتخذ من الوديان والغابات ملجأً، أما من الناحية الشرقية، فالمنطقة تحميها مستنقعات نهر العاصي[VI] التي لا يمكن عبورها إلا بواسطة القوارب في أماكنَ محددةٍ عبر خطوطٍ مائيةٍ عميقةٍ بين نباتات السُعد[VII]. ويبدو أن نفوذ محمد عليّ خضرو قد تعاظم في ذلك الجانب من الجبال، وهو رجلٌ همجيٌّ، حسب كل الأوصاف. لم أُحقق رغبتي في زيارته قطّ، ومع ذلك، في أحد الأيام، تناقشت مع شيخٍ كبيرٍ في أمور الدين؛ فضَجَّت الجبالُ بهذا

[I] ناحية ربيعة في جبل التركمان باللاذقية. المترجم

[II] وصف كارل ريتر في كتابه "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه" مناطق جبل الأقرع مثل القصير، وأوردو، وجبل الأكراد، وغيرها، الجزء 17، الفصل 16. {أظن أنه يقصد قرية القصير في تركيا والتي أصبح اسمها اليوم Altınözü. المترجم}

[III] وردت "Yumisu" في النص الإنجليزي، وأظن أن الأصح يونسو. المترجم

[IV] ابن حوقل، (أوزلي، لندن، 1808) ص 38. {ترجم أوزلي كتاب "المسالك والممالك" إلى الإنجليزية، وأصبح عنوانه الجديد "جغرافيا الشرق لابن حوقل". المترجم}

[V] "فينيقيا"، جون كينريك، ص 4. يقول بعد أن ضلله أحد الرحالة: "المنطقة بين اللاذقية وجبلة جبليةٌ، أما بعدَ جبلة فتمتد سهولٌ محوطةٌ بجبال الأنصارية أو النصيرية". تبدأ السهول بعد اللاذقية شمالًا، وتلتف حول جبلة شرقًا وصولًا إلى قلعة المرقب.

[VI] كان سهل الغاب يحوي مستنقعاتٍ مائيةً مساحتها 35 ألف هكتار، قبل تجفيفها في خمسينيات القرن الماضي. المترجم

[VII] تحتوي الفصيلة السعدية على أنواعٍ عديدةٍ من النباتات، والنوع الذي ينمو في تلك المنطقة اسمه السعد البردي ويطلق عليه سكان المنطقة اسم البردي. المترجم

الحدث، وقال لي أحدهم إن محمد عليّ خضرو طلب من سكان المنطقة التي أعيش فيها على الجانب الآخر من الجبال أن يسمحوا له أن يجلب معه خمسةً وعشرين رجلًا؛ لإنهاء مهمتي التبشيرية.

وإلى الجنوب تقع قرية عين الكروم التي يقطن فيها أقارب عشيرة النواصرة الهمجية المنتشرة على الطرف الغربي. وقال بوركهارت إنهم كانوا ثائرين في ذلك الوقت.

يعيش محمد بدور زعيم الدراوسة في قرية دريوس على الجزء الغربي من الجبال[I] في أقصى الشمال، ولهذا الرجل نفوذٌ عند جميع الفلاحين النصيرية في جبل الأقرع، وقرب أنطاكيا؛ فهم ينتمون إلى الطائفة نفسها. ينقسم النصيريون، كما سأوضح لاحقًا، إلى طائفتين رئيستين: الشمسية ويسمون أيضًا الشمالية؛ لأن معظمهم يعيش في الشمال، والطائفة الثانية تُسمى القمرية؛ ولأن أتباعها يعيشون في الجنوب فقد أعطوا الشمسيةَ الاسم المذكور سابقًا. وعلى بعد مسيرة ساعتين غربًا، تقع قرية قشبة، وهي برجٌ قديمٌ يعيش فيها عليّ آغا حسن، قريب أحمد بدّور الذي أصبح مسلمًا. وقد قضيت معه إحدى الليالي، بعد أن وصلت إليه قادمًا من قرية الحفّة في قضاء صهيون في رحلة استمرت ثلاث ساعاتٍ. وفي الطريق مررت بقرية بهلولية، ثم قرية شريفا التي تقع على حدود قضاء البهلولية، وفيها مزروعاتٌ بديعةٌ على طول المنحدر إلى الأخدود الذي يوصل إلى جسر الشغور. وبعد عبورها، وقَّفني بعض الرجال عند وصولي إلى قرية أرض الحمرا بالقرب من قرية بابنا، وأخذوني إلى صهيون[II] حيث تركوني؛ فتابعت رحلتي إلى قرية القشبة. ومن القشبة ذهبت لزيارة قبر النبي يونس، أو يونان، راكبًا مدة ثلاث ساعاتٍ باتجاه الشرق أو الشمال الشرقي. وقد بدت كأنها أعلى نقطةٍ في هذه المنطقة من الجبل، وبالقرب منها جنوبًا يقع جبل النبي متى الذي بدى لبوركهارت، عندما نظر إليه من الشرق، كأنه أعلى نقطةٍ في جبال النصيرية. ويوجد في هذا الجزء من الجبال أبراجٌ كثيرةٌ، تطل على الطريق الواصل بين اللاذقية وحلب.

في الشتاء والربيع، يعيش سكان قرية دريوس في بيوتٍ على أطراف مستنقعات العاصي، وبمشاركة النصيرية على الجانب الشرقي للجبال، ينزلون إلى سهل الغاب، ويعبرون نهر العاصي، ويسرقون مواشي التركمان، ويقول بوركهارت إن التركمان لا يظنون بهم ظنًا حسنًا. ويُعدُّ الدراوسة عصاةً همجيين، وقد حصلوا، تحت إمرة زعيمهم الحالي، على استقلالهم من حكامهم السابقين في بيت الشلف.

ومن دريوس باتجاه الجنوب الغربي، بدأت رحلتي إلى قرية عين التينة التي تقع تحت نتوءٍ جبلي يرتفع بوضوحٍ على طرف السهل شرق اللاذقية في خط يتربع على قمته قبر النبي روبيل أو روبين[III]. يمر الطريق في وادٍ عميقٍ، وفوق سهلٍ مرتفعٍ لمسافةٍ بين الساعة والساعتين ركوبًا. ومن هنا استغرقت رحلتي إلى قرية الجنجانية المدة نفسها، وذلك بعد عبور وادٍ عميقٍ جدًا، والمرور بمحاذاة جبلٍ يمتد من الحدبة الشرقية فوق سهلٍ مرتفعٍ باتجاه الغرب. تتميز الجنجانية بموقعها الجميل بين جبلين، وهي موطن العجوز عليّ حبيب مقدم[IV] أو زعيم العمامرة، وقد مررت بها في الطريق من دريوس. ويمتد وجودهم جنوبًا، حيث يبلغ الجبلُ ذروته في الارتفاع خلف مناطق المهالبة والكلبية، وشرق الجبال كما ذكرت سابقًا. أما مقدم القسم الجنوبي فهو محمد سعيد. وهم مجموعةٌ كبيرةٌ، ويتحلون بسلوكٍ حسنٍ؛ لأنهم يأخذون الدين على محمل الجد، وهم معارضون للسرقة؛ وهذا تناقضٌ صارخٌ مع جيرانهم. إنهم دراوسة شمسيون، ولكنهم كانوا قمريةً في السابق، وسأعود لهذا الموضوع لاحقًا.

[I] تقع دريوس في ناحية صلنفة، منطقة الحفّة، محافظة اللاذقية؛ وهي أقرب إلى حدود الجبال الشرقية من حدودها الغربية. المترجم

[II] ربما يقصد قلعة صهيون (قلعة صلاح الدين)، أو قضاء صهيون. المترجم

[III] ليس البطريرك روبين، لأن نيبور تحدث عن روبيل محددٍ هو ابن صالح النبي العربي. {روبين/روبيل ابن النبي يعقوب لا صالح. المترجم}

[IV] المقدم لقبٌ أعلى من الشيخ، وأدنى من الأمير عند بعض العشائر العربية؛ أما عند النصيرية فهو لقب زعيم قريةٍ أو منطقةٍ تشمل عدة قرى؛ في حين يُلقب زعماء الإسماعيلية بالأمراء (أمير القدموس)، ويُلقب زعماء المسلمين بالأغاوات، باستثناء زعماء قضاء صهيون الذين يُلقبون بالأجناد. المترجم

وبعد أقل من نصف ساعةٍ من الجنجانية وصلت إلى قرية المزيرعة التي تُسمى الناحية باسمها، وتضم تلك المنطقة الجزء الجبلي الذي كنا نتحدث عنه، بالإضافة إلى جزءٍ من السهل. تعد هذه القرية مستوطنةً للروم، وهم عرب الكنيسة اليونانية الذين هاجروا من حوران منذ ما يقرب من 150 عامًا. وتوجد بعض القرى المسيحية في تلك الجبال، ومن بينها قرية عرامو الأرمنية قرب مقر عليّ آغا حسن، وقرية ضهر صفرا المارونية جنوب قلعة المرقب.

وبعد مسيرة مدةٍ قصيرةٍ باتجاه الجنوب، نصل إلى قضاء المهالبة الذي ينتمي سكانه إلى الطائفة الشمسية، على عكس جميع سكان الجنوب الذين ينتمون إلى الطائفة القمرية. وتوجد في تلك المنطقة قلعةٌ يطلق عليها الناس اسم قلعة بلاطنس[I]، حسب ما أخبرني به الراحل الدكتور إيلي سميث[II] الذي عاش في بيروت. ولذلك، لابد أنها القلعة نفسها التي ذكرها أبو الفداء[III] حين قال إنه بعدما أخذ صلاح الدين اللاذقية، وقلعة صهيون[IV]، "فرق عسكره في تلك الجبال، فملكوا حصن بلادنوس (الذي يشير إليه في مقطع آخر باسم بلاطنس)، وكان الفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه".

وفي أقصى الجنوب الشرقي لهذه المنطقة يقع جبل الأربعين بشكله المخروطي اللافت للنظر، وهو أخفض من قمة الجبال التي تقع خلفه، لكنه يرتفع عاليًا فوق السهل الذي تربطه به تلةٌ عاليةٌ تنحدر شرقًا وغربًا، فتفصل منطقة المهالبة عن منطقة الكلبية. وعلى تلك التلة يوجد مزارٌ[V] له قبتان، ويمكن من هناك مشاهدة المناظر الرائعة للسهل والجبال المحيطة به. وهو بالفعل مَعْلمٌ مميزٌ، ولذلك فقد زاره منذ عهدٍ قريبٍ، بهدف الرصد، النقيب بروكر من سفينة المسح تارتاروس التابعة لجلالتها[VI].

ومن هناك يمكن النزول بسهولةٍ عبر وادٍ ذي ماءٍ وافرٍ إلى قرية المرج[VII] الكبيرة التي تقع في محيط مناطق الكلبية، ولا تبعد سوى نصف ساعةٍ عن قرية بحمرة، حيث يقع البيت الذي أمارس فيه مهمتي التبشيرية. تدل طبيعة الناس وتحالفاتهم وقراباتهم في هذه المنطقة على أنهم الأقوى في تلك الجبال، ولذلك فقد سمع بهم نيبور، وڤولني[VIII]، وبوركهارت، وقد أخطأوا كثيرًا فيما كتبوه عنهم، باستثناء ڤولني الذي كانت أخطاؤه صغيرةً. وفي شرق المنطقة، يقع وادي ناصر العميق الذي قد يَكون سكانه الأكثر همجيةً وشراسةً بين سكان تلك الجبال. وهم يعيشون مختبئين في أخاديد واديهم المقفرة، ولا يخرجون منه إلا للسرقة، أو لمساعدة أصدقائهم الكلبية في قتالهم مع الحكومة، أو مع سكان المناطق المجاورة. ويتصل الوادي بجبل جعفر الطيار[IX] الذي يتربع على قمته مزارٌ معروفٌ[X]. ويقع الجبل شرق جبلة مباشرةً، وقد استغرق الوصول إلى قمته خمس ساعاتٍ ونصف الساعة من منزلي الذي يبعد مسيرة ثلاث ساعاتٍ شمال شرق جبلة، وطبقًا لحساباتي، فإنه يبعد 20 ميلًا عن ساحل البحر. وبما أنني أهتم بأدق التفاصيل، أستطيع القول إنه يقع في عمق الجبال التي تلتف حول اللاذقية، ويمكن تمييزه بسهولةٍ؛ بسبب قمته الجرداء وارتفاعه الشاهق. وبعد مقارنته بالعين المجردة مع جبل النبي يونس، وجبل النبي متى، تبين لي أنه أعلى من الجبلين الآخرين، وبناءً على ذلك، فهذه أعلى نقطة في جبال النصيرية. تعد القرداحة القرية الأساسية للكلبية، ويسمى القضاء باسمها، وتنحدر أراضي الكلبية وصولًا إلى البحر، وهي ذات تنوعٍ جميلٍ بتلالها الممتدة غربًا، وبينها وديانٌ غنيةٌ بمزروعاتها،

[I] قلعة المهالبة. المترجم

[II] مبشر بروتستانتي أمريكي (1801-1857)، استقر في بيروت عام 1833، وبدأ ترجمة الإنجيل إلى العربية؛ لكنه توفي قبل إنهاء الترجمة، فأكملها زميله، ونُشرت ترجمته في ستينيات القرن التاسع عشر. المترجم

[III] الجزء الرابع، ص89. {هذا اقتباس من كتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء. المترجم}

[IV] قلعة صلاح الدين. المترجم

[V] مزار الأربعين. المترجم

[VI] يقصد الملكة ڤيكتوريا. المترجم

[VII] الاسم الكامل للقرية هو "مرج معيربان". المترجم

[VIII] قسطنطين فرانسوا ڤولني، مستشرقٌ وفيلسوفٌ فرنسيٌ (1757-1820)، زار بلاد الشام ومصر في ثمانينيات القرن الثامن عشر، قبل تأليف هذا الكتاب بنحو 80 عامًا. المترجم

[IX] اسمه الحالي جبل الملك، والمقصود الملك جعفر الطيار. المترجم

[X] مقامات بني هاشم. المترجم

وخصوصًا وادي بيت أحمد في أقصى الجنوب؛ وبعده جبلٌ يمتد غربًا ليفصل هذا القضاء عن قضاء بني عليّ، وتقع معظم القرى في تلك المنطقة عند ذلك الجبل. تُعدُّ عين شقاق[I] القرية الرئيسة في السهل أو القسم الغربي، أما في القسم الشرقي أو الجبلي فالقرية الرئيسة هي البودي.

وإلى الجنوب الشرقي لقرية البودي تقع قرية حرف المسيترة، حيث قضيت ليلةً مع محمد ساتر[II] مقدم القسم الشمالي للقراطلة الهمج، أقرباء سكان منطقتي الكلبية. وإلى الجنوب تقع قرية مَتْوَر، وهي مقر إقامة الشيخ الراحل حبيب الذي ينتمي إلى عائلةٍ وصل مشايخها إلى أعلى المراتب الدينية. وسأبقى أُطلق على هذه القرية اسم مَتْوَر، على الرغم من انتقاد الأستاذ العالم كارل ريتر الذي خلط بينها وبين النبي متى؛ ولذلك وجب كتابتها بطريقةٍ مختلفةٍ[III]، ولكن يبقى الاسم اسمًا، على الرغم من محاولات النقّاد.

تقع قلعة بني إسرائيل[IV] في أخدودٍ عميقٍ جنوب قرية مَتْوَر، وقد استطعت تفحصها في أثناء زيارتي الثانية إلى الشيخ حبيب. على الأرجح، كانت هذه القلعة للصليبيين، وحمت هذا الأخدود الذي يمتد إلى السهل غربًا، وبقيتْ مع قلعة بلاطوس أو المهالبة تحت سيطرة النصيرية الذين يسكنون في هذا القسم من الجبال. ووجدت أنهم ينتمون إلى عشيرة الصرامطة، وهم من أكثر الناس توحّشًا. يسكن هؤلاء مع بيت ياشوط، ومع القسم الشمالي من القراحلة (الذين يتزعمهم بيت الجحجاح) في قضاء سمت قبلي[V] الذي يقع جنوب قضاء بني عليّ في الجنوب الأقصى للمناطق الجبلية في اللاذقية، وجميع سكان تلك المنطقة نصيريون، ويحكمهم زعماء نصيريون.

وصلنا الآن إلى قضاء المرقب حيث توجد في طرفه الغربي قلعةٌ تسمى باسمه، وتقع فوق تلّةٍ عند التقاء الجبال بالبحر بالقرب من سهول اللاذقية. وسنعود الآن للحديث عن المنطقة السهلية التي تقع تحت القسم الشمالي لجبال النصيرية. إنه قضاء البهلولية الذي يتزعمه المقدم النصيري أحمد سلهب الذي أحرق الدراوسةُ منزلَه، وأخرجوه منه بعد زيارتي الأولى له. وينتمي هو وعشيرته إلى الطائفة القمرية، ويحد المنطقة شمالًا وادي قنديل، وجنوبًا قضاءُ صهيون؛ وهي منطقةٌ مُسْلمةٌ تتوضع حول قلعة صهيون التي أخذها صلاح الدين من فرسان الهيكل في أثناء زحفه شمالًا بعد معركة حطّين الكارثية -قرب طبريا عام 1187- التي شتت قوى الصليبيين آنذاك. ومنذ ذلك الوقت يحكمها زعماء مُسْلمون يُسمَّون أجنادًا[VI]، وهم في حالة عداءٍ مع النصيرية، ويتساوون معهم في الهمجية والشراسة؛ ولكنهم يتفوقون عليهم في الثروة والمعرفة[VII]. ويعيش في هذه المنطقة بعض المسيحيين، وكثيرٌ من النصيرية.

جنوبًا يعيش الجهنية الذين يتزعمهم شمسين سلطان من سكان بيت الشلف، ولهم صلات قرابةٍ مع الكلبية الذين يسكنون في المنطقة التي أعيش فيها، وهم لصوصٌ كبارٌ وثائرون مثلهم. ومنذ شهرين، دخلوا في صراعٍ مع الحكومة التي حولت السهل إلى مكانٍ خاوٍ أكثر من أي وقتٍ مضى؛ بعد أن حرقت قراهم المنخفضة. لا يملك الجهنية أراضٍ واسعةً في الجبال، لكنها تكفيهم إذا ما تراجعوا إليها وقت الضرورة. وهم ينهبون البلاد من وادي قنديل إلى اللاذقية، مثلما ينهب الكلبية المنطقة الممتدة بين اللاذقية وجبلة، ومثلما ينهب بني عليّ والقراحلة المناطق الواقعة بين جبلة

[I] وردت "Ali Sukkur" في النص الإنجليزي، والاسم الأقرب لذلك هو عين شقاق، وهي الأكبر في المنطقة كما ذُكر. المترجم

[II] جدهم عبد الله الساتر الذي سميت القرية باسمه، واسمها في الأصل حرف المساترة. المترجم

[III] "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه"، كارل ريتر، فينيقيا، في أماكنَ متفرقةٍ من النص.

[IV] اسمها الشائع اليوم هو قلعة بني قحطان. المترجم

[V] ناحية القطيلبية، منطقة جبلة، محافظة اللاذقية. المترجم

[VI] كان حاكم القضاء المسلم يلقب بالآغا، باستثناء قضاء صهيون الذي لقب زعماؤه بالأجناد، والأقضية المسلمة هي: اللاذقية، والخوابي، والمرقب، وجبلة، وصهيون، وجبل الأكراد، والباير، والبوجاق. المترجم

[VII] وصف المؤرخ إلياس صالح اللاذقي في كتابه "آثار الحقب في لاذقية العرب" المسلمينَ الذين عاشوا في جبال وسهول اللاذقية في تلك المدة بما يلي: "لا يميلون للتشويش، ولا للسرقة وقطع الطرق، ما خلا أهالي مقاطعة صهيون، فإنهم ولئن كانوا مسلمين، لكنهم مماثلون للنصيرية في دناءة معيشتهم، وتعدياتهم، وحبهم للفتن، وميلهم للسلب، وقطع الطرق، وسفك الدماء". المترجم

وقلعة المرقب؛ ولا تقتصر سرقاتهم على تلك المناطق. وتصل سرقات الكلبية إلى قلعة الحصن جنوبًا، وجبل الأقرع، وما بعد أنطاكيا شمالًا، وخصوصًا في الأوقات التي تضعف فيها الحكومة.

معظم سكان سهول اللاذقية الشمالية من الطائفة الشمسية، وتحيط قراهم باللاذقية من جميع الجهات، ولكن لا يوجد في مدينة اللاذقية ولا في مدينة جبلة سكانٌ نصيريةٌ[I]. وتنتهي أسماء كثيرٍ من القرى بحرف الواو (مثل: دمسرخو، بخضرمو، سلاغو)، مع أن الكلمات العربية لا تنتهي عادةً بهذا اللفظ[II]. تقع قرية الشلفاطية النصيرية على نهر الكبير[III]، وتبعد مسيرة نصف ساعةٍ شرق اللاذقية، وقد تحدث عنها موندريل[IV] بدهشةٍ، حين قال إنها مسكونةٌ بجنسٍ من البشر يلعنون أبا بكرٍ وعمر. يفترض الأستاذ كارل ريتر[V] أن هذا النهر كان الحد الفاصل بين دولة أرواد الفينيقية ولاوديكيا، بينما يفصل نهر الكبير أو نهر ألوتارس[VI] بين دولة أرواد وصيدا. على الأرجح، أُعيدَ بناءُ لاوديكيا نحو العام 290 قبل الميلاد على يد سلوقس المنصور[VII]، وسمِّيت بهذا الاسم على شرف والدته، وقد كان اسمها الفينيقي القديم راميتا. يقول هيرودوت[VIII] إن فينيقيا تمتد من خليج إسوس إلى الكرمل، وإنه منقوشٌ على رقيم تاجرٍ فينيقيٍ في ديلوس[IX] أن لاوديكيا تقع في فينيقيا. وربما كان الفينيقيون أول من استوطنها، وقد امتد سلطانهم من جبل الأقرع شمالًا على امتداد الساحل باتجاه هرقليا وپوسيديون[X].

ترتوي السهول الواقعة جنوب اللاذقية جيدًا من نهر الكبير[XI] الذي يزداد عمقه، وتخف سرعته في الشتاء، ويتكون نهر الصنوبر -الذي يُعدّ سيلًا سريعًا شديد الخطر- بعد يومٍ أو يومين ماطرين، وترتوي السهول أيضًا من نهر المضيق. وخارج النتوءات الجبلية شمال المرقب يجري نهر السن القصير والعميق، الذي ارتكبت بالقرب منه على أيدي الكلبية وغيرهم أعمالٌ دمويةٌ، يمكن إخفاؤها بسهولةٍ في المغارات والكهوف القديمة. لقد عبرت كثيرًا فوق الأنهار الثلاثة المذكورة سابقًا في الظلام، وفي أوقاتٍ عاصفةٍ، عبر السهول المقفرة الممتدة من اللاذقية إلى منزلي على التلّة المنخفضة، لمسافة ثمانية عشر ميلًا باتجاه الجنوب الشرقي. ومع أنها أكثر الأراضي غنىً وخصوبةً؛ إلا أن بطش الحكومة، وعنف النصيرية، لم يتركا سوى بضع قرىً قليلةٍ بائسةٍ، ولن أذكر الآن أسماءها.

نعود الآن إلى الجبال حيث وصلنا قلعة المرقب. أخذ قلاوون[XII] سلطان مصر المملوكي هذه القلعة من فرسان القديس يوحنا عام 1285، ومنذ ذلك الحين أصبحت نواةً للمستوطنين المسلمين الذين استطاعوا الحفاظ على وجودهم وسط السكان النصيريين، فأصل معظم سكان المنطقة نصيريون مع وجود أقليةٍ مسيحيةٍ. ويبدو أن هذه القلعة كانت تحت سيطرة الإسماعيليين مدةً من الزمن، والآن يسيطر عليها شخصٌ مسْلمٌ اسمه محمد عدرا، كان جده منذ قرن أو قرنين كيخيا[XIII] عند مالك القلعة، فقتله وأعلن نفسه سيد القلعة. وقد أخبرني بذلك حاكم طرطوس الذي قال معلقًا إن السيف لا يفارق بيتَه. وفي الوقت الحاضر، عنده ما يكفي من المهام للحفاظ على سلامته في مواجهة القراحلة في الشمال، فقد دخل معهم في صراعٍ دمويٍ في أثناء وجودي هناك.

[I] راجع فصل "نفوس اللاذقية وجبلة عام 1866" في آخر الكتاب. المترجم

[II] يُعتقد أن هذه الأسماء سريانية، وإضافة الصوت "و" واردة جدًا في السريانية الغربية. المترجم

[III] المقصود هو نهر الكبير الشمالي. المترجم

[IV] هنري موندريل (1665-1701)، كاهنٌ من كنيسة إنجلترا، ومؤلف كتاب "رحلة من حلب إلى القدس في فصح العام 1697". المترجم

[V] "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه"، كارل ريتر، كما يظهر سابقًا.

[VI] المقصود هو نهر الكبير الجنوبي الفاصل بين سوريا ولبنان. المترجم

[VII] سلوقس الأول المنصور. المترجم

[VIII] هيرودوت أو هيرودوتس، مؤرخٌ يونانيٌ عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. المترجم

[IX] جزيرة يونانية "Delos". المترجم

[X] يُعتقد أن پوسيديون كانت تقع في رأس البسيط شمال مدينة اللاذقية. المترجم

[XI] المقصود نهر الكبير الشمالي. المترجم

[XII] المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي. المترجم

[XIII] في العهد العثماني كان كيخيا أو كتخدا لقب معاون أو نائب كل موظفٍ كبيرٍ في الدولة. المترجم

وصلنا الآن إلى إحدى مناطق الجبل التي كانت مقر الفرع الشامي للإسماعيليين ذائعي الصيت أو الحشّاشين، كما سمّاهم وِلْيَمْ الصوري[I] وغيره ممن كتب عن الحملات الصليبية. هنا عاش شيخ الجبل[II] المشهور الذي كان اسمه يثير ذعر النصيرية في الماضي. أطلق عليهم الجغرافيون والمؤرخون العرب، أمثال الإدريسي، وأبو الفداء، وابن الوردي، والمقريزي وغيرهم، اسمي الإسماعيليين والفاطميين، وذكروا أسماء قلاعهم. قال وِلْيَمْ الصوري إن لهم عشر قلاعٍ في الجبال قرب أنترادوس (طرطوس)، وقد أخطأ ڤون هامر[III] في ذكر أسمائها. من بين قلاعهم: القدموس، مصياف، الخوابي، الكهف، العلّيقة، المَيْنَقَة، المُنيفة[IV]، الرصافة، القليعة. في الوقت الحاضر يوجد في القدموس مئتان وخمسون عائلةً إسماعيليةً، وكذلك في مصياف، ويوجد خمسون عائلةً في العلّيقة. ولا يفترض أن يزيد عدد الإسماعيليين في الشام على 4000 أو 6500 كحدٍ أقصى، وهم يتضاءلون مقارنةً بالأعداد الغفيرة للنصيرية الذين يكونون أغلبية سكان المنطقة، بما في ذلك الأقضية التي يحكمها زعماء إسماعيليون مثل القدموس ومصياف.

يقع القضاء الذي يسمى باسم قلعة القدموس إلى الشرق من قلعة المرقب. ويقع قضاء الخوابي الذي سمّي باسم القلعة جنوب شرق قلعة المرقب، حيث تبتعد الجبال عن البحر وتلتف حول سهول طرطوس، وهي مقر العائلة المُسْلمة التي تحكم المنطقة[V]، وترتبط بصلات قرابةٍ مع زعماء المرقب وطرطوس. يقول الإدريسي[VI] إنها تبعد مسافة خمسة عشر ميلًا جنوب شرق طرطوس، وقد بنيت على الجبل، بالقرب من الجانب الغربي.

غادرنا أقضية اللاذقية الأربعة عشر[VII] إلى قلعة مصياف على الجبال التي تقع شمال شرق الأقضية الثلاثة المذكورة سابقًا، ويسمّى ذلك القضاء باسم قلعته ويتبع لسلطة حماة. زار بوركهارت القلعة ووصفها، وكذلك زارها المبجل فريدريك والپول[VIII] الذي تحدث عن ذعر أميرها الإسماعيلي من جيرانه النصيرية.

وفي أولى رحلاتي في الجبال انطلاقًا من القدموس[IX] اتجهت جنوبًا إلى قضاء صافيتا الذي كان مقر الزعيم النصيري صقر[X] في زمن بوركهارت[XI]، وكان تحت سلطانه كل الجزء الجنوبي من جبال النصيرية. تُعدّ هذه المنطقة إحدى أبرز مناطق النصيرية، ويحكمها منذ مدةٍ قريبةٍ إسماعيل خير بيك، الذي كان في الأساس لصًا كبيرًا مثل بقية أبناء عشيرته المتاورة، فذهب إلى الإستانة وعاد منها مشرفًا بصفته حاكم قضاء صافيتا، وليس هذا الأمر غريبًا. ولكن طموحه كان أكبر من ذلك، وقد التقيته في اللاذقية حيث كان معه حاشيةٌ كبيرةٌ، وكان قد أتى لإظهار نفسه في محاولةٍ للتوسط بين الحكومة وسكان المنطقة التي أعيش فيها. منذ نحو العام ثار على الحكومة، وإثر هزيمته، لجأ إلى إحدى القرى

I مؤرخ وأسقف صليبي 1130-1185. المترجم

II المقصود زعيم الحشاشين سنان بن سلمان راشد الدين. المترجم

III "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ترجمة وود، ص 121. {نقل ڤون هامر أسماء القلاع من كتاب "Cihannümâ" أو "صورة العالم" لمؤلفه حاجي خليفة الملقب بكاتب جلبي. المترجم}

IV لم أعثر على قلعةٍ بهذا الاسم في بلاد الشام. وإن لم تكن موجودةً؛ فربما وردت في أحد الكتب العربية صفةً لإحدى القلاع (قلعةٌ منيفةٌ) بمعنى مرتفعةٌ، فظنها الناقل اسم القلعة. ويحتمل أن تكون قلعة المَيْنَقَة نفسها، فقد ورد ذكرها باسم "المنيقة" في كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (توفي 1418 م). المترجم

V أعتقد أنه يقصد آل عدرا. المترجم

VI جوبير، باريس، 1836، ص 35. {لم يُذكر اسم الكتاب؛ ولكن جوبير ترجم كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" وعنونه "Géographie d'Edrisi"، أو "جغرافيا الإدريسي" ونُشر عام 1836. المترجم}

VII الأقضية الأربعة عشر: الخوابي، المرقب، القدموس، سمت قبلي، بني علي، القرداحة، جبلة، المهالبة، بيت الشلف، صهيون، البهلولية، جبل الأكراد، البابر، البوجاق؛ بالإضافة إلى ساحل اللاذقية. المترجم

VIII فريدريك والپول (1822-1876)، ضابطٌ وسياسيٌ بريطانيٌ، زار المنطقة، وألف كتاب "النصيرية أو الحشاشون". المترجم

IX "النصيرية والإسماعيلية"، صموئيل لايد، ص 238.

X لا بد أن يكون صقر المحفوض آل شمسين (1742-1814). المترجم

XI زار بوركهارت المنطقة عام 1812. المترجم

النصيرية شرق الجبال، فقطع السكان رأسه ورأس قريبين من أقربائه المقربين؛ بسبب الضيم الذي لحق بهم في أثناء حكمه[I]. كان شابًا متسلطًا بطبعه، ومن بين جميع زعماء النصيرية في زمانه، كان الأقوى أو الأبرز على أقل تقديرٍ.

بعد أن وصلنا إلى أقصى جنوب جبال النصيرية، سنعود إلى شمال سهل طرطوس، الذي تفصله عن سهل اللاذقية جبالٌ تمتد بمحاذاة الساحل من المرقب باتجاه الجنوب. يتسع السهل كثيراً شرق طرطوس، وهو مرويٌّ جيدًا، وقد تعلّمت ذلك من حسابي، فقد بدأت رحلتي انطلاقًا من منزلي في يومٍ ماطرٍ في الثالث من مارس، ووصلت في الليلة الأولى إلى قرية قرفيص[II] التي تقع على نتوءٍ جبليٍ فوق نبع نهر السن، وقبل الوصول إلى القرية، سلم عليّنا زعيم القراحلة الذي كان بصحبة جماعته في حرجٍ كثيفٍ عند أسفل التلّة، حيث كانوا يرصدون فريسةً. وعند مصب نهر السن يوجد مخيمٌ لعربٍ رحلٍ يسمى عرب الملك. وبعد عبور بانياس تحت قلعة المرقب، مررنا بضهر صفرا حيث بدأ السهل بالاتساع، ثم وصلنا إلى طرطوس بعد ست ساعاتٍ. وفي اليوم الثالث تابعنا مسيرتنا مدة ست ساعاتٍ، وعبرنا بصعوبةٍ كبيرةٍ نهر الأبرش الذي كبر حجمه، والذي يبعد المسافة نفسها عن طرطوس، ثم قضينا ليلةً تعيسةً في خيمة زعيمٍ عربيٍ، لم تحمنا بما فيه الكفاية من المطر والريح. وفي تلك السهول يتنقل عرب الجحيش. لم تكن نظرات الزعيم إلى رفيقي النصيري نظرات استحسان، بسبب معاناته الدائمة من سكان الجبال. ومع كل الجهود التي بذلناها في اليوم التالي فوق السهل المنبسط الذي كانت المياه تغمر معظم مساحته، احتجنا إلى يومٍ كاملٍ لنتمكن من عبور نهر الكبير[III]، والوصول إلى خان نهر البارد، مع أنه لا يبعد سوى ثلاث ساعاتٍ عن نهر الأبرش. وهنا ينتهي السهل بجبلٍ يمر فوقه طريقٌ يوصل إلى طرابلس في ثلاث ساعاتٍ. كان هذا السهل الرائع جزءًا من أراضي مملكة أرواد الفينيقية (حزقيال 27: 8-11)[IV]، وكانت حاضرتها أرواد تقع في جزيرةٍ صغيرةٍ مقابل طرطوس التي كانت تسمى قديمًا أنترادوس. وذُكر الأروادیون (التكوين 10: 17-18)[V] مع السينيين (قرب نهر السن في الشمال)، والصماريون الذين تحتفظ باسمهم بلدة صيميرا[VI] المهدّمة شمال[VII] طرطوس، والعرقيون من تل عرقة[VIII] جنوب نهر الكبير حيث أخذ الصليبيون قلعةً في تلك المنطقة. وعلى بعد خمسة عشر ميلًا جنوب اللاذقية، تقع مدينة جبالا، وتسمى اليوم جبلة، وكانت في أقصى شمال أراضي الأرواديين. وأقل الطرق أمنًا في الشام هو الطريق الذي يمتد جنوب طرطوس لثلاث أو أربع ساعاتٍ. يسمى هذا الطريق هيشة طرطوس[IX]، ويحتوي على أحجارٍ وقبورٍ محطمةٍ تنتشر بين أشجار الآس؛ فتصبح مأوىً للمجازفين، وكثيراً ما تؤوي نصيريين معدومي الرحمة، يأتون من الجبال المجاورة للسهل. تبدو هذه الجبال منخفضةً للناظر من البحر، حيث يمكن رؤية قممٍ أعلى وراءها.

امتلك فرسان الهيكل قلاعًا كثيرةً جنوب جبال النصيرية، وكانوا جيرانًا مزعجين للحشّاشين، إذ أجبروهم على دفع الجزية، وكانوا يسيطرون على صافيتا التي أخذها منهم سلطان مصر المعروف بيبرس[X] عام 1271، والذي أخضع الحشّاشين أيضًا، وأخذ جميع قلاعهم عام 1272، وتحدث المقريزي[XI] عن هجوم جنوده على الفرنج من كل الجهات

[I] هرب إسماعيل خير بك زعيم عشيرة المتاورة من السلطات، ولجأ إلى خاله عليّ الشلّة في قرية عين الكروم، فغدر به وقتله، ويقال إنه سلم رأسه إلى الحكومة. المترجم

[II] وردت "Djelasa" في النص الإنجليزي، ولا يوجد قريةٌ بهذا الاسم؛ ولكن الوصف ينطبق على قرية قرفيص.المترجم

[III] المقصود هو نهر الكبير الجنوبي الفاصل بين سوريا ولبنان. المترجم

[IV] "8 كَانَ أَهْلُ صِيدُونَ وَإِرْوَادَ مَلاَّحِيكِ، وَحُكَمَاؤُكِ الْمَهَرَةُ يَا صُورُ الَّذِينَ كَانُوا فِيكِ هُمْ رَبَابِينُكِ، 9 شُيُوخُ جُبَيْلَ وَصُنَّاعُهَا الْمَهَرَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيكِ هُمْ قَلاَّفُوكِ الَّذِينَ يَسُدُّونَ شُقُوقَكِ. جَمِيعُ سُفُنِ الْبَحْرِ وَمَلاَّحُوهَا قَدِمُوا إِلَيْكِ لِلْمُتَاجَرَةِ مَعَكِ. 10 أَقْوَامٌ مِنْ فَارِسَ وَلُودَ وَفُوطَ انْخَرَطُوا فِي جَيْشِكِ وَكَانُوا مِنْ رِجَالِ حَرْبِكِ. عَلَّقُوا عَلَى أَسْوَارِكِ أَتْرَاسًا وَخُوَذًا، وَخَلَعُوا عَلَيْكِ بَهَاءَكِ. 11 أَبْنَاءُ إِرْوَادَ مَعَ جَيْشِكِ قَائِمُونَ عَلَى أَسْوَارِكِ الْمُحِيطَةِ بِكِ، وَتَمَنَّعَتْ أَبْرَاجُكِ بِرِجَالٍ أَبْطَالٍ، عَلَّقُوا أَتْرَاسَهُمْ عَلَى أَسْوَارِكِ الْمُحِيطَةِ بِكِ، وَأَكْمَلُوا جَمَالَكِ". المترجم

[V] "17 وَالْحِوِّيِّينَ وَالْعَرْقِيِّينَ وَالسِّينِيِّينَ، 18 وَالأَرْوَادِيِّينَ وَالصَّمَارِيِّينَ وَالْحَمَاتِيِّينَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْتَشَرَتِ الْقَبَائِلُ الْكَنْعَانِيَّةُ ". المترجم

[VI] وكثيراً ما ترد "سيميرا" المترجم

[VII] تقع جنوب مدينة طرطوس. المترجم

[VIII] تسمى اليوم قرية عرقة، وتقع في قضاء عكار في لبنان. المترجم

[IX] ربما سُمِّيَ باسم قرية "الهيشة". المترجم

[X] الظاهر ركن الدين بيبرس. المترجم

[XI] "تاريخ السلاطين المماليك"، إيتيان مارك كاترمير، الجزء الأول، القسم 2، الصفحة 27.

في جبل عامل. ومن بين القلاع التي كانت تتبع للفرنج في الجبال قلعة رفنية على بعد ساعتين جنوب مصياف، وقلعة بعرين أو مون فيراندوس التي كانت تحت سيطرة فرسان أورشليم.

وكان حصن الأكراد[I] وقلعة عرقة من بين القلاع التي أخذها بيبرس في العام نفسه الذي أخذ فيه صافيتا، ويوجد اليوم أعدادٌ كبيرةٌ من الفلاحين النصيرية في تلك المنطقة.

كانت قلعة الحصن تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا، وهي تقع في أقصى شمال جبل لبنان الذي يفصل بينه وبين جبال النصيرية، كما ذكرت سابقًا، مدخلُ حماة والطريقُ بين حمص -إميسا قديمًا- ومرفئها طرطوس أو أنترادوس - الواقعة غربها تقريبًا- وتبعد حمص عن طرطوس رحلة يومين حسب ما قال الإدريسي. يوجد الكثير من النصيرية في هذه المنطقة التي تسكنها أغلبيةٌ مسيحيةٌ من طائفة الروم، وهم مقاتلون يستطيعون حشد ألفي بندقيةٍ كما قيل لي. وفي الجبال الجنوبية التي تسمى جبل الشعرة[II]، يعيش عرب الدنادشة الذين قيل لي أنهم أتوا من بغداد منذ ما يقرب من ثلاثمائة عامٍ، وعندهم خمسمائة فارسٍ. ذكرتهم فقط لأقول إن الحكومة تستخدمهم أحيانًا لمهاجمة النصيريين، وحدث أن نجحوا في قتل سبعين منهم، كانوا يتجولون على الأقدام، فتقدموا أكثر مما يجب في السهول شرق الجبال، وفي أثناء عودتهم من إحدى رحلات النهب، تفاجأوا بخيالةٍ من الدنادشة. وجنوبًا يقع جبل عكار المنقسم إلى ثلاث مناطق، إحداها تسمى الدريب، حيث يعيش فلاحون نصيريون كثرٌ، يحرثون أراضي بيكوات عكار المسلمين.

لم أزر نصيريي جبال قلعة حارم، مع أني مررت بمحاذاة تلك الجبال في طريقي إلى حلب، وما زرت نصيريي قضاء الروج الملآن بالمستنقعات التي شاهدتها من جبل النبي يونس.[III]

رأيت نصيرية مرسين، مرفأ طرسوس البعيد عنها، وكثيرًا ما سمعت من أولئك الذين زاروها أن الطعام رخيصٌ، والأجور جيدةٌ فيها، ولكن الحصول عليهم سيكلف الإصابة بالحمى المستوطنة هناك، والتي تُسببها المستنقعات المنتشرة في السهول. يذهب كثيرٌ من الناس إلى هناك لأسبابٍ مختلفةٍ، وطبقًا لأحد الكُتاب في "مجلة الشرق[IV]": "منذ أكثر من نصف قرنٍ، بدأ النصيرية بالهجرة إلى إيالة أضنة، للتخلص من المضايقات التي كانوا يتعرضون لها في الشام على أساس الدين، ولذلك فإن سكان سنجق اللاذقية يهجرون مناطقهم أكثر فأكثر، يومًا بعد يومٍ".

لإعطائكم فكرةً تقريبيةً عن عدد النصيرية في بلاد الشام، وهو بلا شك ليس عددًا صغيرًا كما رأينا، أستطيع القول إنه حسب ما نَشر ڤانديك، من مجلس البعثات التبشيرية الأميركي، في كتاب الجغرافيا باللغة العربية في بيروت، فإن عدد الدروز مئة ألفٍ، ويبلغ عدد النصيرية والإسماعيلية مجتمعين مئتي ألفٍ، وكما قلنا فالإسماعيليون أعدادهم قليلةٌ.

يفترض وجود ما يقرب من 2550 أو 3500 نصيريٍ في قضاء عكار، 29100 في قضاء صافيتا، وبين 70 ألفًا و75 ألفًا في أقضية اللاذقية المختلفة، 3750 في الجبال شرق العاصي، وخمسة آلافٍ في قضاء الروج المجاور. لا تشمل هذه الأرقام النصيريةَ الذين يعيشون على الجانب الشرقي للجبال، ولا في أنطاكيا وجوارها، ولا أولئك الذين يعيشون على سواحل إسكندرونة، ولذلك يمكن القول، وربما دون مبالغةٍ، إن عدد النصيرية في الشام يبلغ قرابة مئتي ألف نسمةٍ[V].

[I] قلعة الحصن. المترجم

[II] جبل النبي شيث. المترجم.

[III] وصف كارل ريتر الروج في كتاب "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه" الجزء 17، ص 1069، من مخطوطةٍ للراحل الدكتور إيلي سميث.

[IV] يونيو، 1856. {الكاتب هو ڤيكتور لانجلوا. المترجم}

[V] بعد كتابة ما ورد سابقًا، تكرم عليّ المبشر الأمريكي المبجل هنري هاريس جيساپ بإرسال إحصاء الحكومة لعدد السكان الذكور في سنجق طرابلس. وحسب ذلك، فالعدد هو 15623 في قضاء صافيتا و100(!) و500 (!) على التوالي في قضاء عكار، والشعرة. يقول جيساپ: "أعتقد أن تقديرات أعداد النصيرية ناقصةٌ، والجداول تضم الذكور البالغين فقط؛ ما يجعل عدد النصيرية في قضاء صافيتا يزيد على أربعين ألفًا".

يقول المبشر الأمريكي الدكتور تومسون[I]: "يؤكد السيد باركر[II] أن ما يقرب من ثلث سكان طرطوس نصيريون، وأنهم يعيشون بأعدادٍ كبيرةٍ في جبل بيلان فوق إسكندرونة، وفي جبال الأناضول. ويتطابق ذلك مع شهادات الناس الذين أجمعوا على وجودهم في جبل سنجار، وبلاد فارس. تبلغ أعدادهم أضعاف أعداد الدروز، ولكنهم منتشرون على مساحاتٍ أوسع، ولا يمكن أن يقل عددهم عن مئتي ألفٍ، ويقول العارفون منهم إن الرقم أكبر من ذلك بكثيرٍ. يسكن معظمهم سهول اللاذقية وجبالها، ولذلك سميت جبال النصيرية، وعندهم قرىً كثيرةٌ في قضاء صافيتا فوق طرطوس، والحصن، وعكار، ويكونون ثلث سكان أنطاكيا، ويعيشون بأعدادٍ كبيرةٍ في الجبال فوقها[III]".

الأراضي في تلك البقعة التي نتكلم عنها أفضل أراضي العالم وأخصبها. وبعد أن عبر الدكتور تومسون طرابلس باتجاه الشمال لاحظ الفرق بين جنوب ذلك المكان وشماله. في الجبال المنخفضة، لم أشاهد ميزان الحرارة يشير إلى درجة أعلى من 95 درجة فهرنهايت[IV] في الظل، على الرغم من هبوب رياحٍ شرقيةٍ مزعجةٍ من صحراء ما بين النهرين. يمر الشتاء سريعًا، ونادرًا ما تثلج في السهل، ومع ذلك فقد رأيت جليدًا في اللاذقية في صباح التاسع من شهر مارس، عندما كانت الريح شماليةً. ينتشر التهاب العين والحمى في الصيف؛ نتيجةً للتعرض للحرارة عند الحصاد في الحقول، وبسبب التهاون في النظافة. ويزداد المناخ ضررًا بالصحة شرق الجبال، حيث يصبح لون من يعيشون قرب مستنقعات العاصي شاحبًا، ويصابون بالحمى التي تسبب انتفاخًا في البطن[V]. ويغزو تلك المنطقة بعوضٌ من الحجم الكبير، تكلمت عنه في أثناء وصفي لرحلتي السابقة عبر الوادي الذي يصل إلى منتصف الطريق الصاعد على الجبل، وقد أخبرني أحد نصيرية الجبل الغربي بأن البعوض أجبرته على الهرب مع رفيقه -على الرغم من سماكة بشرتهما- عندما كانا يقضيان إحدى الليالي في قريةٍ تقع في الجانب الشرقي.

وشمالًا بالقرب من أنطاكيا تنمو أشجارٌ من جميع أصقاع الأرض تقريبًا، وعلى وجه الخصوص في قرية بتياس التي تقع على الجبل المواجه لأنطاكيا، حيث يتضح مفهوم الجنة على الأرض.

تكتسي الجبال القريبة من جبل الأقرع بغاباتٍ جميلةٍ من أشجار الصنوبر والسنديان، حيث يمكن لروبين هود أن يتجول هناك، وقد استخدمت البحرية المصرية تلك الأشجار كثيرًا في عهد إبراهيم باشا.[VI] وتنمو أشجار الجوز في أماكن كثيرةٍ.

جبال النصيرية أخصب من جبال لبنان بكثيرٍ؛ لأنها أخفض، وصخورها أقل، وقد ذكر الجغرافي ابن الوردي جبل السمّاق، الذي سمّي بهذا الاسم؛ لأن نبات السمّاق ينمو فيه، وقال بأنه مليءٌ بالخيرات، وقد وجدته على هذه الحال حين مررت به في طريقي من القدموس إلى صافيتا.

لا تقل المنطقة الشمالية التي أعيش فيها خصوبةً عن هذه المنطقة، على الرغم من تقطيع أشجار التوت والتين والزيتون في أثناء المعارك مع بربر[VII] وغيره، وقد دُهشت من سرعة نمو أشجار التوت والتين التي زرعتها منذ سنواتٍ قليلةٍ[VIII]. تنمو في ذلك الجزء من الجبل أشجارٌ دائمة الخضرة، وأنواعٌ أُخرى من البلوط مثل السنديان العذري الذي

[I] أظن أنّ المقصود هو ويليام مكلور تومسون. المترجم

[II] جون باركر (1771-1849)، دبلوماسيٌّ إنجليزيٌّ، وقنصل شركة المشرق في حلب (1799-1825). المترجم

[III] "إذاعة المبشرين"، مارس، 1841.

[IV] تعادل 35 درجةً مئويةً. المترجم

[V] يقتات الناس على حبوب الدُخن التي يحصدونها بين نباتات السُعد التي تنمو على ضفاف العاصي، ويقطعونها حين تبدأ إخراج براعمها، ثم يحرقون السُعد. ويحصدون أوراق التبغ الخشنة المتجعدة، وعندهم قطعان ضخمةٌ من الماعز والثيران.

[VI] كان منع والي عكا وصول الخشب إلى مصر أحد الأسباب المعلنة لحملة محمد علي على بلاد الشام، فقد كان يُحدِّث جيشَه، ويحتاج إلى الخشب لبناء أساطيله. المترجم

[VII] متسلم طرابلس مصطفى آغا بربر، توفي عام 1834. استعانت به الحكومة في قتال النصيرية. المترجم

[VIII] أكثر الأعشاب إزعاجًا في مزرعتي هو الآس الذي ينمو من جديد في حال بقيت ولو قطعة صغيرة من جذوره في الأرض، وينتشر بكثرةٍ في سهول وجبال هذه المنطقة في الشام، وفي الربيع تنبعث روائح أزهاره الطيبة من جنوب منزلي، حيث توجد تلةٌ مغطاةٌ بكاملها بالآس.

يُستعمل حطبه في تدخين التبغ. وتكسو الجانب الشرقي للجبل غاباتٌ واسعةٌ من أشجار السنديان التي تثمر جوز العفص. وفي الطريق إلى جبل جعفر الطيار[I]، مررت بغابات الزان والبلوط، ولم أشاهد أشجارًا كبيرة الحجم، وشاهدت أيضًا اللبلاب الأصفر أو المحمودية.

تُحضّر الأراضي لزراعة القمح، والشعير، في شهري أكتوبر ونوفمبر، ليتم الحصاد في نهاية شهر مايو، ثم تُراحُ الأرضُ حتى الشتاء التالي، حين تُحرث وتُحضر من أجل محاصيل صيف السنة التالية التي تزرع في الربيع وتحصد في الخريف. ويشمل ذلك الدُخْن، والقطن، والسمسم، وأحيانًا العدس، والحمص، والخروع؛ وتزرع الأراضي الندية بالبطيخ الأصفر، والخيار، والبندورة، والترمس، والباذنجان، وغيرها. لا يعيش قمح اللاذقية مدةً طويلةً؛ لأنه عرضةٌ للتسوس؛ وأهم صادرات اللاذقية مما تنتجه: الدخن، وبذور السمسم، وتبغها المشهور.

تقع اللاذقية على خط العرض 35، حيث تبلغ درجة الحرارة بين 15°- 25°، ما يجعل موقعها مناسبًا لإنتاجه؛ إذ ينمو أفضل أنواعه في جبال اللاذقية الشمالية العالية الصخرية، ويؤمِّن المورد المالي الأساسي للدراوسة والعمامرةِ، فيزرعونه بعنايةٍ فائقةٍ على مساحاتٍ صغيرةٍ أمام بيوتهم، حيث تُنتج من نوع "أبو ريحة[II]" كمياتٌ صغيرةٌ، لكنها ثمينةٌ. وبعد ذلك يُدخنون أوراق التبغ على دخان حطب العذر[III]، فيصبح جاهزًا للتسويق، ويُشحن من اللاذقية إلى مصر، والإستانة على الأغلب. وينمو في الجبال المنخفضة نوعٌ أرخص من التبغ، يسمى شَك البنت.

هذا النبات من نوع التبغ الصدئي[IV] الذي يزرع في الصين، ومعظم مناطق آسيا؛ وأوراقه أقصر وأعرض من التنباك وتبغ ڤرجينيا، وكذلك فإن أزهاره أصغر، وأوراقه مدورةٌ، وليست مدببةً. له رائحةٌ نفيسةٌ، ومثل سيجار هاڤانا، تبلغ فيه نسبة القلوي المتطاير السام الذي يُسمى نيكوتينًا 2%، في حين تبلغ نحو 7% من تبغ ڤرجينيا.

يزرع التبغ في أرضٍ تربتها مُفَتتةٌ إلى قطعٍ صغيرةٍ، ومسمدةٌ جيدًا بروث الماعز؛ يُزرع أولا في مستنبتٍ، وبعد ريه بالماء مرةً واحدةً فقط، يُخرج، ويُزرع في الأرض. ثم تُقطف الأوراق بعد الانتهاء من حصاد القمح، وتُثبّت على خيوطٍ من شعر الماعز، وتُعلق في الظل حتى تجف قليلًا، ثم تُعلق تحت أسقف المنازل؛ حيث تُدَخَّن، وتترك حتى موعد جباية الضرائب[V]، فتباع حينها في أحمالٍ، تتكون من 100 أو 120 خيطًا[VI].

هذه صورةٌ عاديةٌ عن بلادٍ يسكنها النصيرية الهمجيون؛ بلادٌ كانت عامرةً بالسكان، أما الآن فهي خاليةٌ لدرجة أنها أصبحت أقل المناطق اعتناءً بين كل الأراضي التي يسيطر عليها الأتراك، ونادرًا ما يزور الأوروپيون سكانها الجهلة والقساة. إن قراءة قصص الأقوام الذين تعاقبوا على المرور من هنا، تمكننا من تعقب الخراب التدريجي للبلدان، وازدياد هَجْرها، وخلوها من السكّان، وهذا ما يحدث الآن قرب اللاذقية؛ بسبب حرق القرى، والموت الحاصل نتيجة اقتتال سكانها الدائم لأسبابٍ تافهةٍ. منذ أن ضعفت الحكومة في أثناء الحرب الروسية[VII] وبعدها، سمعتُ، ورأيتُ بنفسي مشاهد دمٍ وخرابٍ، ستنتهي على ما يبدو بالدمار الشامل للبلد، وهلاك سكانه، ما لم تصطلح أمورهم.

I اسمه الحالي جبل المَلك، والمقصود الملك جعفر الطيار. المترجم

II أبو ريحة تبغٌ مدخَّنٌ يميل لونه إلى السواد، وقد اكْتُشِفت عملية التدخين مصادفةً، ففي إحدى السنوات لم يتمكن المزارعون من بيع محصول التبغ بسبب الخلافات مع الحكومة، فوضعوه داخل البيوت، وبعد تعرضه لنار التدفئة، تغير لونه، فباعوه بسعرٍ أرخص حين سمحت لهم الحكومة. أُعجب الناس بهذا التبغ، وكثر راغبوه؛ فأصبح تعريض التبغ للدخان جزءًا من عملية تصنيعه. المترجم

III نوعٌ من البلوط. المترجم

IV راجع "كيمياء الحياة العامة"، جيمز فينلي وير جونستون، الجزء الثاني، ص 11.

V أظن أنه يقصد جمرك التبغ الذي يبدأ التزامه في شهر يونيو من كل عامٍ. المترجم

VI كانوا يسمون الخيط شكًا، والحمل يتكون من 117 شكًا، أو حمل دابةٍ. المترجم

VII حرب القرم 1853-1856. المترجم

سأعطيكم صورةً حيةً لشمال بلاد الشام في الماضي والحاضر: "لا تحظى بلاد الشام بقدسيةٍ كبيرةٍ؛ لكنها تبقى أرضًا تاريخيةً، يحدها من الجنوب الخطُ الذي يرسمه نهر ألوتارس[I] عبر مدخل حماة والتلال، نحو الشرق مرورًا بحمص.

"يعتقد بطليموس أن فينيقيا تنتهي عند نهر ألوتارس، لكننا نعتقد أن أراضي الفينيقيين امتدت شمالًا أبعد من ذلك، وكانت أرواد إحدى أقدم مستوطناتهم، وعندنا أسبابٌ، تجعلنا نعتقد أنهم من أسس اللاذقية، وجبلة، وإسكندرونة. سقط القسم الفينيقي لشمال بلاد الشام سقوطًا محزنًا، فقد تحطمت الموانئ وهُجرت معظم المدن، وأصبح الساحل المجاور بلا سكانٍ تقريبًا. التربة غنيةٌ، لكن المزروع منها أقل من عشر مساحتها.

"كانت أرض حماة العظيمة أحد أقدم أقسام شمال الشام، وشملت السهول الواقعة على ضفتي نهر العاصي الأعلى، وهي بقعةٌ ذات خصوبةٍ لا نظير لها، وربما شملت أيضًا جبال النصيرية المشهورة بمزارع العنب في زمن سترابو[II].

"كان شمال بلاد الشام قلب المملكة السلوقية، وقد وصلت البلاد إلى أوج قوتها في عهد تلك السلالة الحاكمة. وبرزت مدنٌ عظيمةٌ إلى الوجود؛ كأن ذلك حصل بسحر ساحرٍ، ومن تلك المدن: أنطاكيا، وسلوقية، وأفاميا، واللاذقية؛ وتُعدّ تلك البلاد جنّة الله على الأرض. ويصبوا الباحثون عن الملذات في أصقاع الأرض إلى حدائق الحربيات[III] الخلابة. بقيتْ السماء الصافية والمناظر الخلابة؛ وما تزال الآثار المنتشرة في أنحاء البلاد شاهدًا صامتًا على غنى وروعة الأيام الغابرة.

"وبعد السلوقيون أتى الرومان، فقسم هادريان[IV] الشام إلى ثلاث مناطق، كانت أنطاكيا عاصمة المنطقة الأولى التي حضنت جميع البلاد.

"وبدأ انحطاط شمال بلاد الشام مع الفتوحات الإسلامية، وكانت بعض المدن ما تزال مأهولةً بالسكّان عندما مرَّ بها الصليبيون[V]، وكان الحكم المحمدي[VI] مُهلكًا للجميع تقريبًا، فهُجِرت سلوقية، وأفاميا، والرستن، وشيزر؛ وأصبحت أنطاكيا مدينةً من الدرجة الرابعة بعدد سكانها البالغ 6 آلاف نسمةٍ؛ وتحولت مساحاتٌ واسعةٌ من البلاد إلى صحراء[VII]".

[I] نهر الكبير. المترجم.

[II] أو إسطرابون، مؤرخٌ وجغرافيٌ يونانيٌ، عاش في القرن الأول قبل وبعد الميلاد. المترجم

[III] قرية تقع جنوب أنطاكيا. المترجم

[IV] إمبراطور روماني من القرن الأول الميلادي. المترجم

[V] عبر بيرتراند تلك البلاد عام 1432 بعد الغزو التتري، وذكر أنه لم يشاهد سوى بيوتًا مدمّرةً في بعض الأماكن بين حماة وأنطاكيا. "بواكير الرحلات إلى فلسطين"، تأليف رايت: هـ بوهن. {المقصود هو بيرتراندون Bertrandon de la Broquière. المترجم}

[VI] إلى ما يقرب من مئة عامٍ خلت، كان الغربيون يستخدمون لفظي المحمدية والمحمديين للدلالة على الإسلام والمسلمين، وهو مشتقٌ من اسم محمدٍ ﷺ، كما اشتق لفظ المسيحي من المسيح. لكن المسلمين يعدّونه مسيئًا؛ لأن الإسلام يعني تسليم الأمر إلى الله، والله فقط، دون أحدٍ من البشر، ولو كان نبيًا. ولأن المسيح هو الله نفسه، حسب اعتقاد المسيحيين؛ لم يجدوا في تسميتهم بالمسيحيين أي حرجٍ. وعلى كل الأحوال، كان الغربيون يستخدمون لفظ "المحمدية" قياسًا على "المسيحية"، دون أي قصدٍ خبيثٍ. المترجم

[VII] "دليل المسافرين إلى بلاد الشام وفلسطين"، جوسياز ليزلي پورتر، مري، الجزء الثاني، ص 590.

الفصل الثاني

تاريخ الفرق الإسلامية السرية المبتدعة

قبل الحديث عن تاريخ النصيرية، لا بد من التعريج على بعض الفرق المبتدعة الأُخرى التي خرجت من رحم الإسلام، مثل القرامطة، والدروز، والإسماعيلية أو الحشّاشين. هذا الأمر ضروريٌ للذين لم ينتبهوا لصعود المحمّدية[I] وتقدمها، وهو يساعد فعليًّا على إيضاح تاريخ النصيرية. لم تحظ هذه الفرقة بالشهرة، وبالتالي لم يَتناول موضوعَها الكتابُ المحمّديون[II] إلا قليلًا، من وقتٍ لآخر، ولم يصل إلى أيادي الأوروپيين إلا قليلٌ من كتب النصيرية. كتب هؤلاء الجهلة قليلةٌ، وعندما يتعلق الموضوع بأُصولهم؛ نراهم إما يتكتمون على ذلك أو يخدعون الناس عمدًا؛ وعاقبة ذلك هي أن يصبح ذكرهُم بالسوء أسهلُ من ذكرهم بالخير، وأن يقال عنهم ما ليس فيهم، بدلًا من إظهار حقيقتهم؛ ولهذا يجب علينًا التعرف على تلك الطوائف المرتبطة بهم.

أحد الأخطاء الشائعة هو الافتراض أن المحمّدية بقيت دون تفرّقٍ ولا بدعٍ، مقارنةً بالمسيحية التي انقسمت إلى عدة طوائفَ. ويُروى عن محمّدٍ ﷺ حديثٌ يُظهر أن هذا الافتراض لا أساس له. فيُروى عنه قوله إن المجوس افترقت على سبعين فرقةً، واليهود على إحدى وسبعين فرقةً، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وسيفترق أتباعه على ثلاثةٍ وسبعين فرقةً؛ ويَعتقد المؤلفون المسلمون الراشدون[III] أن فرقةً واحدةً فقط سينجيها الله. وفي الواقع، لو أحصينا عدد الطوائف المبتدعة التي ظهرت للوجود بعد وفاة محمّدٍ ﷺ، سنجد أنه يزيد على العدد السخي الذي يُنسبُ قولُه إلى محمّدٍ ﷺ[IV].

يرتبط الدين والحكومة المدنية في المنهج المحمّدي بعلاقةٍ وثيقةٍ؛ وقد حصل أول انشقاقٍ لاعتباراتٍ سياسيةٍ، وأعني تحديدًا حقَ خلافةِ حكم الدولةِ المحمّدية بعد وفاة مؤسِسها[V].

تُوفي محمّدٌ ﷺ في بيت زوجته عائشة، ويقول الشيعة أتباع عليٍّ إنها أخفت تعيينَه عليًّا خليفةً له في الحكم المدني، وإمامًا للولاية الدينية للإسلام أو المحمّدية. ويعني هذا أنهم يقولون إن محمّدًا ﷺ أراده أن يكون أميرَ المؤمنين، وإمامَ المسلمين؛ ومازالوا يحتفظون بحقه الذي لا يُلغى في كلا المنصبين؛ ويستحيل على إنسانٍ مهما بلغت قدرته أن يأخذ منهم الإمامة، ولو حرمه إياها الظالمون، وحرموها أبناءه من بعده. ومع أن معظم أصحاب محمدٍ ﷺ صوتوا لأبي بكرٍ بإجماعٍ كبيرٍ؛ كان لعليٍّ حقٌ أكبر في المطالبة بالخلافة[VI]. أسلم أبو بكرٍ مبكرًا، وكان الصحابي المفضل، وهو أبو عائشة زوجة النبي؛ أما عليٌّ فكان من بين أول ثلاثةٍ أسلموا، وهو يرتبط بقرابةٍ مع محمّدٍ ﷺ، فهو ابن أبي طالبٍ

[I] إلى ما يقرب من مئة عامٍ خلت، كان الغربيون يستخدمون لفظي المحمدية والمحمديين للدلالة على الإسلام والمسلمين، وهو مشتقٌ من اسم محمدٍ ﷺ، كما اشتق لفظ المسيحي من المسيح. لكن المسلمين يعدّونه مسيئًا؛ لأن الإسلام يعني تسليم الأمر إلى الله، والله فقط، دون أحدٍ من البشر، ولو كان نبيًا. ولأن المسيح هو الله نفسه، حسب اعتقاد المسيحيين؛ لم يجدوا في تسميتهم بالمسيحيين أي حرجٍ. وعلى كل الأحوال، كان الغربيون يستخدمون لفظ "المحمدية" قياسًا على "المسيحية"، دون أي قصدٍ خبيثٍ. المترجم

[II] راجع الحاشية السابقة. المترجم

[III] أهل السنة. المترجم

[IV] راجع مقدمة "القرآن"، ترجمة سيل، التي تتحدث عن بعض هؤلاء، القسم 8.

[V] يميز المؤلف بين الزعامة الدينية، والزعامة السياسية للدولة الإسلامية، ويريد القول إن الانشقاق الأول، ويقصد التشيع لعليٍّ، حصل لأسبابٍ سياسيةٍ. المترجم

[VI] الجملة تناقضُ نفسها. كيف لعلي حقٌ في الخلافة بعد أن فاز أبو بكرٍ بالتصويت؟ إلا إذا كان يعتقد أنه الخلافة حقٌ إلهيٌ، ولا داعي للتصويت أصلًا؛ وقد يكون تنوع المصادر (عربيّة، فارسية، شيعية) التي اعتمد عليها المؤلف السبب في هذا التناقض. المترجم

عم محمّدٍ ﷺ الذي رباهُ وحماه، وقد تزوج عليٌّ بفاطمةَ، وهي ابنة محمدٍ ﷺ المفضلة، وبفضل شجاعته أسهم إسهامًا كبيرًا في نجاح ابن عمه.

وتنمُّ تصرفاتُ عليٍّ اللاحقة، بمقتضى النور الذي بداخله، عن شخصيةٍ لطيفةٍ وجديرةٍ بالثناء؛ فقد تحمّلَ تفضيل منافسيه عليه برباطة جأشٍ، لم يمتلك مثلها شيعتُه المتحمِّسون.

بعد موت أبي بكرٍ تأجلت مطالب عليٍّ بالخلافة إلى ما بعد خلافة العنيف عمر، وبعد وفاة عمر، تأجلت إلى ما بعد خلافة الشيخ الضعيف عثمان زوج بنتي النبي؛ ولم يُعترف بحق عليٍّ في الخلافة إلا بعد موت عثمان، وأصبح لعن من وقف في طريق عليٍّ فريضةً دينيةً عند الشيعة؛ وهم أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وبالأخصّ عمر الذي أجبر عليًّا على إفساح الطريق لأول المذكورين[I].

لم تنتهِ معارضة عليٍّ بتوليه الخلافة، فأعلن عليه الحربَ الصحابيان طلحة والزبير؛ وعائشة المحسومة عداوتها له، ولكنهم هُزموا، فأُسرت عائشة، وقُتل طلحة والزبير. وتبين لاحقًا أن معاوية -الذي عيّنه عمر واليًا على الشام، ثم عزله عليٌّ- خصمٌ أكبر؛ إنه ابن أبي سفيان الزعيم القرشي الذي قاوم محمّدًا ﷺ مدةً طويلةً، وأسلم متأخرًا بحد السيف. واستمر معاوية في ثورته ضد عليٍّ إلى أن اغتيل عليٌّ عام 661 ميلادي. وبعد إجباره الحسن -أكبر أبناء عليٍّ- على التنازل عن الخلافة أصبح هو الخليفة[II]، دُونَ آل بيت محمّدٍ ﷺ. أسس معاوية الأُسرة الأُموية (نسبةً إلى أحد أجداده المسمّى أُمية) التي حكمت العالم المحمدي حتى تولى العباسيون -خلفاء بغداد- الحكمَ عام 750 ميلادي؛ ويتحدَّر العباسيون من عباس عم محمّدٍ ﷺ؛ ثم تبين لاحقًا أن عداء هذه الأُسرة الحاكمة لذريّة عليٍّ لا يقل ضراوةً عن عداء سابقتها له.

لم يتزوج عليٌّ بغير فاطمة في حياتها، وأنجب منها ثلاثة بنين: الحسن، والحسين، والمحسن الذي توفي صغيرًا؛ وبعد وفاتها تزوج بثماني نساءٍ، وأصبح عنده خمسة عشر ولدًا، أبرزهم محمد بن الحنفية[III] الذي تبجّله طوائف عديدةٌ[IV] غالت في تبجيل ذكرى عليٍّ. كان القضاء على ذريةٍ كبيرةٍ بهذا الحجم صعبًا جدًا، وكان أبناء الحسين النسلَ الأهمَ، فلُقب بنسل الأئمّة الاثني عشر المعروفين؛ وسأسرد عليكم المختصر المفيد من تاريخهم.

حرض أهل الكوفة الحسين على الثورة، ثم تخلوا عنه في كربلاء قرب بغداد، ولم يبق معه سوى 70 رجلًا شجاعًا من أتباعه، أحاطوا به في مواجهة جيش يزيد بن معاوية. يستحيل على المرء قراءة قصة موت الحسين وشجاعته، دون أن تجيش نفسه بالعواطف؛ وإحياءُ ذكرى استشهاده في فارس والهند مناسبةٌ سنويةٌ، تَظهر فيها جليةً علاماتُ الحزن الشديد، ويسميه النصيرية الإمام الثالث وشهيد كربلاء.

عندما توفي الحسين، كان ابنه عليًّا في الثانية عشر من عمره؛ رفض المشاركة في الشأن العام؛ وتوفي عام 712 ميلادي. واشتهر بالتقوى؛ فلقب بزين العابدين.

وعاش ابنه محمد الباقر الإمام الخامس حياةً منعزلةً مثل أبيه، فكرّس حياته للعِلم، ولقّبه الشيعةُ بصاحب السر[V]، أو الباقر (الباحث). وتوفي مسمومًا عام 734 ميلادي، بعد أن روّعتِ الخليفةَ الأمويَ توجهاتُ الآراء الداعمة لآل بيت عليٍّ.

[I] يتضح هنا أثر الروايات الفارسية. المترجم

[II] تنازل الحسن عن الخلافة عن طواعيةٍ. المترجم

[III] نُسب إلى أُمه خولة بنت جعفر الحنفية؛ لتمييزه عن إخوته أبناء فاطمة بنت محمد ﷺ. المترجم

[IV] الكيسانية فرقةٌ منقرضةٌ قالت بإمامته. المترجم

[V] صاحب السر لقب الصحابي حذيفة بن اليمان. أفضى إليه الرسول بأسماء المنافقين الذين أطلعه الله عليهم، فكان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله. المترجم

أما ابنه جعفر الملقب بالصادق فهو سادس الأئمة، وله مكانةٌ وتعظيمٌ خاصان عند شيعة عليٍّ وآل بيته. يقال إنه ألّف كتاب الجفر الأصغر الذي يحتوي على تنبؤاتٍ فلكيةٍ، بعد أن ألّف عليٌّ كتاب الجفر الأعظم؛ وما زالوا يعتقدون أن هذا الكتاب تنبأ بكل ما حدث، وما سيحدث، على الرغم من الهزات العنيفة التي عصفت بالمجتمع المحمدي في أماكنَ متفرقةٍ من العالم. توفي سنة 765 بعد أن آلت الخلافة إلى العباسيين، وكما أشرت سابقًا، لم يغير هذا الحدث طريقة التعامل مع آل بيت عليٍّ.

سأطلب من القارئ أن ينتبه جيدًا؛ لأننا لو فهمنا بوضوحٍ ترتيب تعاقب الأئمة؛ سنقدر على فهم تاريخ الطوائف المختلفة والتمييز بينها. عيّنَ جعفرُ ابنَه إسماعيل خليفةً له، ولكن قبل وفاته عام 762/3 عيَّن ابنه الثاني موسى خليفةً له. وبعد أن أصبح لإسماعيل أولادًا، رفض الشيعة -الذين يؤمنون بأن الإمامة أمرٌ وراثيٌّ- حقَ جعفر في عمل تعيينٍ ثانٍ، وألفوا فرقةً سُمّيت بالإسماعيلية، خرج منها خلفاء مصر الفاطميون الذين ادّعوا أنهم من نسل إسماعيل (وربما كانوا حقًّا من نسله)؛ وقد خرج من تلك الفرقة إسماعيليو فارس والشام أو الحشّاشون. أما الدروز فهم أتباع أحد الخلفاء الفاطميين المسمّى الحاكم بأمر الله، وهم يعبدونه لاعتقادهم أنه الصورة البشرية التي ظهر فيها الله.

اعترف ملوك فارس الصفاريون[I] بموسى إمامًا سابعًا، وادعوا أنهم من نسله، وما يزال هذا الرأي سائدًا في فارس حتى اليوم. النصيريةُ إماميةٌ، مما يعني أنهم يعترفون بالأئمة الاثني عشر، وبإمامة موسى الذي يلقبونه بالكاظم. وبذلك يختلفون عن الإسماعيلية والدروز والقرامطة الذين افترقوا في تسلسل الإمامة عند إسماعيل بعيدًا عن موسى ونسله من بعده. اغتيل موسى سرًا بأوامر من هارون الرشيد بطل "ألف ليلة وليلة"، وأعلن المأمون -خليفة هارون- عن تعيين عليٍّ بن موسى (الذي يلقبه النصيرية والإمامية بالرضا) خليفةً له؛ فأثار ذلك الفتن بين ثلاثين ألفًا من أحفاد العبّاس؛ فاضطر المأمون إلى الأمر بدس السم له عام 816.

محمد بن عليٍّ الإمام التاسع؛ عاش في عزلةٍ في بغداد، وتوفي شابًا عام 835؛ ونظرًا لكرمه؛ لقبه النصيرية بالجواد.

عليٌّ الإمام العاشر؛ كان طفلًا حين توفي أبوه، وبقي طيلة حياته حبيسًا مع رقابةٍ مشددةٍ في مدينة عسكر[II] عند الخليفة المتوكل العدو الأبدي للشيعة. تظاهر بالتفاني في طلب العلم والعبادة؛ ولم ينفع ذلك في نزع الغيرة من قلب الخليفة الذي أمر بدس السم له عام 868، ولقبه النصيرية بالهادي.

ابنه حسن الإمام الحادي عشر؛ لُقب بالعسكري نسبةً إلى المكان[III] الذي عاش ومات فيه مسمومًا كأبيه.

الإمام الثاني عشر والأخير محمدٌ الذي توفي أبوه وعمره ستّة أشهر آنذاك. بقي محتجزًا في عزلةٍ عند الخليفة، وبعد بلوغه الثانية عشر اختفى فجأةً. يعتقد السنة أو المسلمون الراشدون أنه غرق في نهر دجلة[IV]؛ بينما ينكر النصيريةُ وإماميةٌ آخرون وفاتَهَ، ويؤكدون أنه دخل سردابًا، وسيظهر في نهاية الزمان؛ لينصر أتباع عليٍّ ويعاقب أعداءه. يلقبه النصيرية بما يلي: الحجّة، السيّد، المدبّر، المبشّر، النذير، المؤمَّل، صاحب العصر والزمان المنتظر. منذ إخماد الثورة في الهند، يعتقد المسلمون في لاهور وأماكنَ أُخرى أن المدبر قد ظهر وسيستعيد لهم سلطانهم[V].

[I] حكموا فارس بين 861-1003. المترجم

[II] مدينة سامراء في العراق. المترجم

[IIIII] عَسْكَر، وتعرف اليوم باسم سامراء. المترجم

[IV] الاعتقاد الغالب عند أهل السنة أن المهدي لم يُخلق أصلًا، وأن الحسن العسكري مات، ولم يكن له ولدٌ. المترجم

[V] لمعرفة أخبار الخلفاء الأربعة الأوائل والأئمة الاثني عشر، راجع كتاب وِلْيَمْ كوك تايلور "تاريخ المحمدية وطوائفها" الذي نشرته جمعية المعرفة المسيحية، الفصلان الخامس والسادس؛ فهو كتابٌ مختصرٌ ومفيدٌ، على الرغم من احتوائه على أخطاء تافهةٍ مثل تأكيده بأن الإمامية عند النصيرية توقفت عند عليٍّ. يصف جيبون ببضع لمساتٍ لبقةٍ صعود المحمدية، وتاريخ خلفاء محمد ﷺ. ومن المؤسف أنه لم يستطع قراءة كتب المؤرخين العرب بلغتهم؛ ليتعلم منهم الإيجاز البليغ الذي يترك في العقول انطباعًا مميزًا أكثر من إطالات جيبون. راجع "تاريخ الحشاشين" فون هامر، الكتاب الأول، وراجع أيضًا "تاريخ المسلمين" لمؤلفه سايمون أوكلي. {أظن أن المقصود هو المؤرخ الإنجليزي إدوار جيبون الذي لا تعجب أفكارُه المتدينين، والإشارة إلى كتابه "تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية". المترجم}

نعود الآن إلى زمن عليٍّ لنَصِفَ الظهور التدريجي للطوائف المختلفة التي غالت في تعظيمه.

يقول المقريزي في كتاب وصف مصر النفيس[I]: "وحدث أيضًا في زمن الصحابة -رضي الله عنهم- مذهب التشيع لعليٍّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- والغلو فيه، فلما بلغه ذلك أنكره، وحرق بالنار جماعةً ممن غلا فيه وأنشد:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا   أججت ناري ودعوت قنبرا".

وكان عليٌّ قد أعتق قنبر من العبودية. ولم يخفف ذلك من حماسة أتباعه، "وقام في زمنه عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبأي، وأحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ بالإمامة من بعده، فهو وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفته على أمته من بعده بالنص، وأحدث القول برجعة عليٍّ بعد موته إلى الدنيا، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضًا، وزعم أن عليًّا لم يُقتل، وأنه حيٌّ، وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيء في السحاب وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلًا كما مُلئت جورًا. ومن ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، وصاروا يقولون بالوقف؛ يعنون أن الإمامة موقوفة على أناسٍ معينين، كقول الإمامية بأنها في الأئمة الاثني عشر، وقول الإسماعيلية بأنها في ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، وعنه أيضًا أخذوا القول بغيبة الإمام والقول برجعته بعد الموت إلى الدنيا، كما يعتقد الإمامية إلى اليوم في صاحب السرداب [الإمام الأخير محمد] وهو القول بتناسخ الأرواح، وعنه أخذوا أيضا القول بأن الجزء الإلهي يحل في الأئمة بعد عليٍّ بن أبي طالب، وأنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحق آدم عليه السلام سجود الملائكة، وعلى هذا الرأي كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر، وابن سبأ هذا هو الذي أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى قتل؛ وكان له عدة أتباعٍ في عامة الأمصار، وأصحابٌ كثيرون في معظم الأقطار، فكثرت لذلك الشيعة".

وكان حكيم بن هاشم[II] من أوائل المبتدعة الذين حرضوا على الثورة، وهو من أهالي خراسان في فارس، حيث ظهر فساد العقيدة المحمدية بأوضح صوره؛ وبسبب تشوهه ورغبته في إظهار نفسه على أنه ليس مجرد بشر؛ كان يرتدي قناعًا فضيًّا؛ فسُمي بالمقنع. ظهر أيام خلافة المهدي عام 778 ميلادي، واستطاع عن طريق الشعوذة أن يقنع كثيرًا من الناس أنه أتى بمعجزاتٍ؛ واستطاع في أشهرٍ قليلةٍ أن يجمع جيشًا كبيرًا، ويستولي على عدة حصونٍ منيعةٍ. ولكن بعد أن أُطبق عليه الحصار في أحدها؛ سمَّمَ جميع أفراد الحامية، وسمَّمَ أسرتَهُ، ثم رمى نفسه في وعاءٍ به سائلٌ أكّالٌ؛ كي يظن الناس أنه رُفع إلى السماء. ما يزال بعض الناس يعتقدون ذلك؛ مع أن إحدى محظياته اختبأتْ وشاهدتْ كل ما فعله. وكانوا يلبسون الأبيض لإظهار عدائهم للخلفاء العباسيين الذين تميزوا باللون الأسود. وفي عام 810 ظهر بعده في العراق في أثناء خلافة المأمون ثائرٌ أكبر منه اسمه بابك[III]؛ ويقال بمبالغة الشرقيين إنه قَتل بدمٍ باردٍ 250 ألفًا، ماعدا من قتلهم في المعارك، وبعد عشرين عامًا هُزم وقُبض عليه وعُذّب ثم قُتل.

ثم ظهر عبد الله بن ميمون القداح في زمن محمد بن إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق الذي أشرنا إليه إشارةً خاصةً. وبعد أن رأى إخفاق المقنع وبابك؛ قرر العمل بطريقةٍ مختلفةٍ، عن طريق الترويج لعقيدته بدلًا من شن حربٍ معلنةٍ. يعتقد دي ساسي احتمال وجود الفرقة الإسماعيلية -التي تُبجل إسماعيل أكثر من أي شيءٍ- قبل ذلك الوقت، ولكن عقائدهم لم تُجمع في منهجٍ واحدٍ إلا في عهد عبد الله بن ميمون نحو العام 250 هجرية أو 863 ميلادي. ويعتقد أنهم كانوا فرقةً شيعيةً عاديةً حتى زمن عبد الله بن ميمون الذي جاء بفكرتي المادية والكفر.

[I] طبعة بولاق، القاهرة، الجزء الثاني، ص 352. {يقصد "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي، طبعة بولاق. وقد نقلت الاقتباس من الكتاب نفسه. المترجم}

[II] يقصد هاشم بن حكيم (المقَنَّع). المترجم

[III] وردت "Baber" في النص الإنجليزي، وأعتقد أنه يقصد بابك الخرمي. المترجم

لا أود الآن الحديث عن العقائد التي نشرها، وسأترك ذلك لفصلٍ لاحقٍ، ولكنني سأُخبركم بشيءٍ عن تاريخه؛ كمقدمةٍ لتاريخ قرمط مؤسس القرامطة؛ إذ يعتقد بعض الناس وجود تماثلٍ بين الفرقتين، وأنهما مترابطتان إلى حدٍ ما.

قال النويري[I] إن عبد الله بن ميمون اضطر إلى الفرار من الأهواز (في خوزستان، منطقة في فارس محاذية للعراق العربي، بالقرب من رأس الخليج الفارسي) إلى البصرة ثم فرَّ منها، والتجأ إلى السلمية في الشام (مدينة على حدود الصحراء، ولكنها تقع في منطقةٍ خصبةٍ على بعد عدة أميالٍ جنوب شرق حماة)، ثم توفي هناك، وأصبح ابنه أحمد الزعيم الأعظم للإسماعيلية. أرسل أحمدُ إلى العراق داعيةً اسمه حسين الأهوازي، فوصل إلى منطقةٍ زراعيةٍ في الكوفة، يطلق عليها العرب اسم "السواد"، حيث التقى حمدان بن الأشعث؛ فأدخَلَهُ في دينه ثم عينه خلفًا له عند موته. وحسب رواية النويري، سُمي قرمط نسبةً إلى اسم ثورهِ، وقال آخرون أن الكلمة تعني الرجل قصير الرجلين متقارب الخطو، وقال غيرهم إنها محرّفةٌ عن الكلمة النبطية "كرميته".

وهناك روايةٌ أُخرى عن أبي الفرج[II] في "تاريخ مختصر الدول"[III]، وروى النويري عن ابن الأثير[IV] روايةً أُخرى، وكذلك توجد روايةٌ أُخرى عن بيبرس المنصوري، وأبو الفداء، اللذان يقتديان بابن الأثير حسب اعتقاد دي ساسي. ويروي دي ساسي عن بيبرس المنصوري هذه القصة: قدم رجلٌ من ناحية خوزستان إلى أرضٍ في الكوفة تسمى "النهرين"، واستقر فيها، وعاش هناك حياة زهدٍ، وأعلم من تحدثوا إليه أن الله فرض على الناس خمسين صلاةً في كل يومٍ، وعاش عند فلاحٍ يحرس أشجار النخيل، وبسبب مرضه، اعتنى به حمدان كرميته، فعلمه عقيدته، واختار اثني عشر نقيبًا. فحبسه الهيصم حاكم تلك المنطقة، لكن جارية الهيصم أخرجته من حبسه، وبعد ذلك بمدةٍ قصيرةٍ، ظهر لبعض أتباعه الذين يعملون في أراضٍ بعيدةٍ عن القرى، وأخبرهم أن الملائكة أنقذته، ولكنه ذهب إلى الشام خوفًا على حياته. سُمِّي قرمط باسم كرميته الرجل الذي استضافه.

يتضح أن القرامطة انشقوا عن الإسماعيليّة، ولكنهم مارسوا العنف علنًا، بدلًا من الاكتفاء بالدعوة السرية لنشر مذهبهم.

بافتراض صحة القصة السابقة، يمكن أن نكملها بالقول إن حمدان قرمط أرسل داعيةً إلى السلمية، ووجد أن آل ميمون القداح، كانوا عازمين على تعظيم أنفسهم بدلًا من تشريف محمد بن إسماعيل، الذي يجلّه الإسماعيليون كما يجّلون أباه، وغالبًا ما يخلطون بين الاثنين.

نقل الداعية عبدان حقيقة الوضع إلى قرمط الذي توقّفَ عن نشر عقيدة عبد الله بن ميمون القداح. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ اختفى قرمط، وذهب ممثل آل قداح لمقابلة عبدان، ولكنه رفض مقابلته؛ وبسبب هذا الرفض اغتاله - بتحريض من زكرويه- رجلٌ من آل القداح اسمه يحيى، يلقبه القرامطة بالشيخ. بعث زكرويه رسلَه إلى الشام؛ لنشر عقيدته بين القبائل العربية من بني كلبٍ، وأصبح له منهم أتباعٌ كثيرون، ثم ثار بنو كلبٍ سنة 901 ميلادية، وهُزموا، ومات سليل آل القداح قرب دمشق، ومات بعده زكرويه، ولكن بعد أن استولى القرامطة على السلمية، وبعلبك، وغيرهما من المدن، وقتلوا أعدادًا كبيرةً من المسلمين.

[I] اعتمد دي ساسي كثيرًا على النويري (انظر كتاب "عرض ديانة الدروز" الجزء الأول، المقدمة، ص 73) الذي استمد الوقائع التي ذكرها من أبي الحسن، الذي يدعي أنه من نسل محمد بن إسماعيل، وتفصله عنه خمسة أجيالٍ فقط. وقال إن المقريزي والنويري استقا معلوماتهما من المصدر نفسه على الأرجح؛ لأنهما يستخدمان التعابير نفسها تقريبًا، ويمكن تصحيح أحد نصيهما بناءً على النص الآخر.

[II] يقصد ابن العبري. المترجم

[III] "تاريخ مختصر الدول"، غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبري. المترجم

[IV] تحدث ابن خلكان (ص 218، تأليف وِلْيَمْ مكين دي سلان) عن عظمة كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، وقال بأنه يقتبس من وصفه الشامل للقرامطة. {ذُكر رقم الصفحة، وأغفل عنوان الكتاب، وتبيّنَ أنه يقصد"Ibn Khallikan's Biographical Dictionary"، وهو الترجمة الإنجليزية لكتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان. المترجم}

لكن قرامطة البحرين[I] (الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية، على الخليج الفارسي، جنوب بغداد والكوفة، والبلاد التي حصلت فيها كل هذه الأحداث) كانوا أنجح منهم. قال ابن الشحنة[II] إن القرامطة بدأوا حركتهم في قرىً قريبةٍ من الكوفة عام 888 ميلادي، وفي عام 899 بدأت انتصارات أبي سعيد[III] زعيم قرامطة البحرين، ثم خلَفه ابنه أبو الطاهر الذي كان بلاءً أكبر من أتباع الخلفاء العباسيين المسلمين الراشدين. استمرت الحرب في بلاد الكلدان، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد الشام؛ وأُخذت مدينتي البصرة والكوفة بعد ذبح معظم ساكنيهما. وفي آخر المطاف اجْتيحَتْ مكة، وقُتِلَ 30 ألف مسلمٍ، وامتلأت بئر زمزم بجثث القتلى، وتدنس مكان العبادة بعد أن دفنت فيه 30 ألف جثةٍ، وسُلِبَ الحجر النيزكي المشهور أو الحجر الأسود، واستعمل في أمورٍ لا تليق به. توقف الحج مدةً من الزمن، ثم سُمح بالحج مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال؛ وأخيرًا أُعيدَ الحجر بطلب من خليفة مصر الفاطمي. بدأت قوة القرامطة في التراجع التدريجي، وفي عام 971 هَزَمَ الحسنُ الأعصم -حفيد أبي سعيد- قوات خليفة مصر الفاطمي في الشام، ثم توجه إلى مصر حيث هزمه الخليفةُ المعزّ لدين الله جد الحاكم بأمر الله إله الدروز.

لم نسمع كثيرًا عن قرامطة العراق والشام بعد عام 989، ولكنهم حافظوا على وجودهم في البحرين حتى سنة 1037/8، واستمروا إلى ما بعد ذلك في ملتان[IV] في الهند. في أثناء النزاع الذي كان دائرًا بين القرامطة وعبد الله[V] الخليفة العباسي في بغداد، ذهبَ داعيةٌ إسماعيليٌّ[VI] من السلميةِ إلى المغرب الذي يقع في الغرب على سواحل أفريقيا الشمالية، وكان يحكمه الأغالبة بعد أن أعلنوا استقلالهم عن دولة الخلافة في بغداد. وبعد أن أصبح سيدَ البلاد، أرسل في طلب عبيد الله[VII]، ويقول دي ساسي أن عبيد الله يزعم بإصرارٍ أنه من أحفاد الإمام إسماعيل، مع أن أعداءه العباسيين سعوا إلى التأكيد على أنه من سلالة ميمون القداح. كانوا يسمونه سعيدًا في السلمية، وعندما أصبح سيد الغرب؛ أصبح اسمه عبيد الله، وجعل القيروان -تسمى قديمًا سايرين[VIII]- عاصمةً له، وفي عام 910 نشأت سلالةُ الفاطميين التي سمّيت بهذا الاسم؛ نظرًا لتحدرهم من فاطمة زوجة عليٍّ. نَقَلَ المعزُ لدين الله -الخليفة الثالث بعد عبيد الله- عاصمة الدولة إلى مصر، وبنى القاهرة عام 970؛ وأصبح حفيدهُ ميمون[IX] -الذي يجلّه الدروز- الخليفةَ عام 996، ولقّبَ نفسه بالحاكم بأمر الله، وبعد وقتٍ قليلٍ بدأت تظهر شخصيته الشريرة والغريبة الأطوار. كان متعصبًا، وبائسًا، ودنيئًا، ومجنونًا؛ وقتل في أثناء حكمه اليهودَ تارةً، والمسيحيين تارةً أُخرى، وقتل المسلمين أيضًا في مصر والشام. وفي النهاية اختفى فجأةً إثر اغتياله في أثناء إحدى جولاته الليلية عام 1021. وقبل ذلك بمدةٍ قصيرةٍ، زعم نشتكين بن إسماعيل الدَرَزي أن الإمام الغائب ظهر في الخليفة، فهو إلهٌ تجب عبادته. اعتمد الحاكم هذه الفكرة البالغة الإطراء، لكن الحماسة المتهورة للدَرَزي اضطرته إلى الاستعجال في الانتقال من مصر إلى وادي التيم[X] قرب دمشق، حيث يوجد الكثير من المتعاطفين مع العقيدة الإسماعيلية، وهم جاهزون لتلقي تعاليمه. وكان يُعَلّمُ تلكَ العقيدة من قَبلهِ رجلٌ فارسيٌّ اسمه حمزة بن عليٍّ، وقد تتلمذ الدَرَزي على يديه. وكانت تصرفات حمزة أكثر حذرًا، وتُعَدُّ كتاباتُه من أهم كتب الدروز الذين يضعونه في المرتبة التي تلي الحاكم بأمر الله.

ذكرتُ سابقًا أن في وادي التيم كثيرٌ من الناس على استعداد لتلقي تعاليم الدَرَزي، وقد كوَّن هؤلاء فرقةً جديدةً، سميت فرقة الدروز؛ وكانت الشام، في الواقع، ملأى بالطوائف المبتدعةِ التي بينها الكثير من القواسم المشتركة. يقول

[I] البحرين اسمٌ قديمٌ للمنطقة الممتدة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية من جنوب البصرة إلى شمال عُمان. المترجم

[II] مؤرخ حلبي. المترجم

[III] أبو سعيد الجنابي. المترجم

[IV] تقع اليوم في دولة پاكستان. المترجم

[V] يقصد أبي عبد الله محمد المعتز بالله. المترجم

[VI] يقصد أبي عبد الله الشيعي. المترجم

[VII] عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية. المترجم

[VIII] بنى عقبةُ بن نافع مدينة القيروان (في تونس) عام 670 ميلادي، ولم يكن لها اسمًا يونانيًا قبل ذلك. سايرين هو الاسم اليوناني القديم لمدينة شحات في ليبيا. المترجم

[IX] يقصد "منصور"، وهو الحاكم بأمر الله. المترجم

[X] يقع اليوم في لبنان، وأكبر مدنه حاصبيا. المترجم

المقريزي[I]: "هذا وأمر الشيعة يفشو في الناس حتى حدث مذهب القرامطة المنسوبين إلى حمدان الأشعث المعروف بقرمط، من أجل قصر قامته، وقصر رجليه، وتقارب خطوه، وكان ابتداء أمر قرمط هذا في سنة أربعٍ وستين ومائتين، وكان ظهوره بسواد الكوفة، فاشتهر مذهبه بالعراق، وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال والمدثر والمطوق، وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابي، من أهل جنابة[II]، وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده حتى أوقعوا بعساكر بغداد، وأخافوا خلفاء بني العباس، وفرضوا الأموال التي تحمل إليهم في كل سنةٍ على أهل بغداد واليمن، وغزوا بغداد والشام ومصر والحجاز، وانتشرت دعاتهم بأقطار الأرض، فدخل جماعاتٌ من الناس في دعوتهم؛ ومالوا إلى قولهم الذي سموه علم الباطن (المعنى الباطني للقرآن في مقابل معناه الظاهر)، وهو تأويل شرائع الإسلام، وصرفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند أنفسهم، وتأويل آيات القرآن، ودعوا هم فيها تأويلًا بعيدًا، انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم، فضلوا وأضلوا عالمًا كثيرًا ..... وقوي مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين في أفريقيا وبلاد المغرب، وجهروا بالإسماعيلية، وبثوا دعاتهم بأرض مصر، فاستجاب لهم خلقٌ كثرٌ من أهلها، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام؛ فانتشرت مذاهب الرافضة في عامة بلاد المغرب، ومصر، والشام، وديار بكرٍ، والكوفة، والبصرة، وبغداد، وجميع العراق وبلاد خراسان، وما وراء النهر مع بلاد الحجاز، واليمن، والبحرين، وكانت بينهم وبين أهل السنة من الفتن والحروب والمقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته، واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، والخوارج، والروافض، والقرامطة، والباطنية[III]، حتى ملأت الأرض[IV]".

يقول مؤلفٌ آخر[V]: "أظهر عبيد الله أبغض أصناف التشيع"، وفي الواقع، كان الخلفاء الفاطميون على المذهب الإسماعيلي، وشجعوا بكل ما أُوتوا من قوةٍ توسيعَ رقعة الجماعة الإسماعيلية، ولم يمنحوا المناصب، إلا لمن اطّلع على خفايا عقيدتهم. أنشأوا في القيروان مركزًا إسماعيليًا، ثم نقلوه إلى القاهرة مع دار الحكومةِ؛ وكان داعي الدعاة يجتمع بالرجال والنساء مرتين في الأسبوع يومي الاثنين والأربعاء. وكان لهم مركزٌ اسمه دار الحكمة مجهزٌ تجهيزًا جيدًا بالأساتذة والكتب، وما يلزم؛ وحضر الخلفاء كثيرًا من الخطب والمجادلات؛ وكان الأساتذة يلبسون الخِلعة، ويعتقد ڤون هامر أن لباس الجامعات الإنجليزية ما يزال يحتفظ بالشكل الأصلي للخلعة أو القفطان العربي.

مهّد دعاة الخلفاء الفاطميين الطريق لدعاة ألوهية الحاكم بأمر الله الذين وجدوا نصيريةً في الأماكن التي ذهبوا إليها. تكلمنا سلفًا عن القرى النصيرية الثلاث بالقرب من وادي التيم[VI]، وسنكتشف الآن وجود نصيريةٍ في الوادي حين وصل الدَرَزي إليه؛ وقد ذكرنا في السابق وجود نصيريةٍ في الجبال شرق نهر العاصي. وعلى تخومهم الشرقية يرتفع جبل الأعلى، الذي لجأت إليه عائلة التنوخي الباطنية[VII] التي تحول أفرادها إلى الدين الدرزي. ما يزال الدروز يعيشون هناك، وكانت أعدادهم كبيرةً في السابق، ولكن المسلمين أخرجوهم، وأجبروهم على الفرار واللجوء إلى إخوانهم في جبل لبنان وحوران، حيث توجد أماكن تجمعات الدروز الأساسية.

بدأ الإسماعيليون الغربيون أو المصريون بالانحدار مع بداية انحطاط قوة الخلفاء الفاطميين (الذين انتزعوا مصر والشام من الخلفاء العباسيين في بغداد)؛ وتزامنًا مع ذلك، ظهر فرعٌ جديدٌ للفرقة الإسماعيلية في فارس، ثم في الشام؛ ولقبهم الكتاب العرب بالإسماعيلية المشرقية، وسماهم الكتاب الفرنجة "الحشاشين".

[I] "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، ص 357، تتمةٌ لاقتباسٍ سابقٍ.

[II] مدينة إيرانية اسمها اليوم بندر جناوة أو بندر غناوة، تقع على الساحل الإيراني المقابل لدولة الكويت. المترجم

[III] كانت الإسماعيلية قديمًا تُسمى "الباطنية"، أما اليوم فمصطلح الباطنية يشمل جميع الفرق التي تفسر القرآن تفسيرًا باطنيًا، يختلف عن معناه الظاهر، بما فيها الإسماعيلية والدروز والقرامطة والنصيرية. المترجم

[IV] "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، المقريزي، ص 358.

[V] "نشوء السلالة الفاطمية في أفريقيا"، المسعودي، نيكلسون، توبنجين، 1840، ص 112. {مخطوطةٌ عربيةٌ نسبت بالخطأ إلى المسعودي، وترجمها جون نيكولسون إلى الإنجليزية. مؤلف المخطوطة هو المؤرخ عريب بن سعد القرطبي. المترجم}

[VI] عين فيت، وزعّورة، والغجر. المترجم

[VII] يقصد الإسماعيلية. المترجم

أسس هذه الفرقة المشهورة حسن بن محمد الصبّاح، وهي تشبه تنظيماتٍ على غرار فرسان الهيكل أكثر مما تشبه المماليك؛ على الرغم من القوة والسلطان الكبيرين اللذين حظيت بهما. كان أبوه عليٌّ من شيعة خراسان البارزين، وكان حسن في الأصل من المؤمنين بالأئمة الاثني عشر، ثم تحول، إثرَ مرضٍ ألمّ به، إلى العقيدة الإسماعيلية التي يرأسها خلفاء مصر. رحل إلى مصر، واستقبل بحفاوةٍ في بادئ الأمر، حتى اختلف مع أمير الجيوش[I] على أحقية الخلافة[II]؛ فسجنه في دمياط، واستطاع الهرب من هناك إلى الشام بطريقةٍ توحي بأنه يمتلك قدراتٍ خارقةً. وبعد عودته إلى فارس استطاع عام 1090 امتلاك قلعة آلموت[III] الحصينة بالقوة والحيلة معًا، وتقع تلك القلعة في منطقة رودبار في فارس. ادَّعى أنه الحجة والإمام الغائب[IV]، وأصبح له أتباعٌ من الفرقة الإسماعيلية، وأمثالهم من أصحاب البدع والعقائد الفاسدة، ونجح في إقناعهم أن الموت من أجل الإمام أو الفرقة سيجلب لهم السعادة. وبدأ يكسب قلاعًا في فارس الواحدة تِلوَ الأُخرى، وعظمت قوته، وبدأ يغتال الخلفاء والوزراء؛ فبث الرعب في قلوب الجميع.

تزامن ظهور الحشاشين في الشام مع ظهور الصليبيين الذين أخذوا القدس عام 1099، وفي عام 1100 انحاز حاكم حلب المسمى رضوان[V] إلى طرف الإسماعيليين. وكان أولَ من قتل الصليبيون صاحبُ حلب[VI] في أثناء محاولة فك الحصار عن قلعة الحصن عام 1102، بعدما هاجمها الصليبيون بقيادة الكونت دي سان جيل[VII].

حكم حسن الصبّاح مؤسس فرقة الحشاشين مدة 35 عامًا، وخلفه في الحكم أحد قواده المسمى بزرك آميد؛ لأن حسن قتل جميع أبنائه. وكان عهد خلافة أبناء بزرك آميد له من بعده، وحتى القضاء على التنظيم، ملآن بقصص التشويق والقتل: قتْلُ الأبِ لابنه، والابن لأبيه؛ فقد أراقوا دماءً كثيرةً، ولم يوفروا دماء أقرب الناس إليهم. وفي النهاية قضى هولاكو حفيد جنكيز خان المشهور على حكم الإسماعيليين أو الحشاشين في فارس بعد حصار جميع قلاعهم، وقَتْلِ ركن الدين أخر زعمائهم. سقط حكمهم عام 1257، وسقط بعدهم مباشرةً خلفاء بغداد العباسيين.

وفي ذلك الزمن كان للإسماعيليين أو الحشاشين وجودٌ مستقلٌ نوعًا ما في جبل السمّاق، وهو الجزء الجنوبي من جبال النصيرية. قال الذهبي[VIII]: "ثم بعث داعيا من دعاتهم في حدود الخمسمائة[IX] أو بعدها إلى الشام، يُعرف بأبي محمد، فجرت له أمورٌ، إلى أن ملك قلاعًا من بلد جبل السمّاق، كانت في يد النصيرية [X]".

قدم رجل اسمه بهرام إلى الشام، وعمل في خدمة طغتكين[XI] صاحب دمشق، فمنحه قلعة بانياس[XII] في قيصرية فيلپس[XIII]، وعظم شأن الإسماعيلية في الشام. "وكان بوادي التيم، من أعمال بعلبك، أصحاب مذاهب مختلفةٍ من النصيرية، والدرزية، وغيرهم، فسار إليهم بهرام وقاتلهم، فهزموه، وقتلوه تحت إمرة أمير الوادي[XIV]، عام 1128[XV]".

[I] يقصد بدر الدين الجمالي. المترجم

[II] المقصود أن يخلف المستنصر ابنُه الأكبر نزار كما أراد الصباح، أو ابنه المستعلي كما أراد الجمالي، فانشق الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية. راجع باب أئمة الشيعة في آخر الكتاب. المترجم

[III] تقع على قمةٍ جبليةٍ تسمى آلموت (عش العقاب) على بعد ما يقرب من 100 كم شمال غرب العاصمة الإيرانية طهران. المترجم

[IV] "سفينة الراغب ودفينة المطالب"، محمد راغب باشا، مطبعة بولاق، القاهرة، ص 216.

[V] المقصود هو الحاكم السلجوقي رضوان بن تتش الذي تعاون مع الإسماعيلية والصليبيين. المترجم

[VI] ليس صاحب حلب، بل صاحب حمص جناح الدولة حسين بن ملاعب. المترجم

[VII] معروف لدى المؤرخين العرب قديمًا باسم صنجيل. المترجم

[VIII] شمس الدين الذهبي، عالمٌ ومؤرخٌ إسلاميٌ (1274-1348). المترجم

[IX] 1107 ميلادية. المترجم

[X] اقتباس شارل فرانسوا ديفريميري من مخطوطةٍ عربيةٍ في "بحث في الإسماعيلية والباطنية في الشام"، "المجلة الآسيوية"، مايو، ويونيو 1854، ويناير 1855.

[XI] أبو منصور ظاهر الدين طغتكين. المترجم

[XII] بانياس الحولة، إحدى قرى الجولان في سوريا. المترجم

[XIII] سلمهم القلعة دفعًا لشرهم، وقطعًا لتسلطهم على المسلمين، فقاموا بتسليم القلعة إلى الفرنج. المترجم

[XIV] الضحاك بن جندل، أخو برق بن جندل الذي قتله بهرام دون سببٍ، فثأر الضحاك لمقتل أخيه. المترجم

[XV] شارل فرانسوا ديفريميري، من ابن الأثير، ص 412، من "المجلة الآسيوية"، مايو ويونيو 1854. راجع أيضًا "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 78.

وقُتِلَ منهم مسلمو دمشق 6 آلافٍ عام 1129 ميلادي إثر محاولتهم الفاشلة تسليم المدينة إلى الفرنجة[I]. اضطر الإسماعيلية إلى تسليم قلعة بانياس إلى الفرنجة، وعوضوا عن خسارتهم لها بامتلاك قلعة القدموس، وذلك بشرائها من صاحبها المسلم[II]. وهناك بدأوا يوطدون أقدامهم عام 1132/3، ومنها انطلقوا للتحرش بالفرنجة والمسلمين. اغتالوا الآمر بأحكام الله خليفة مصر عام 1130؛ لأنه أخذ مكان عمه نزار المصطفى لدين الله المدعوم من حسن الصبّاح. كان الإسماعيليون يعدّون خلفاء مصر ممثلين عن الإمام الغائب، وفي عام 1140 أخذوا قلعة مصياف من صاحبها المسلم بالحيلة، كما أخذوا قلاعًا أُخرى، ذكرناها في الفصل الأول؛ وقد ساعدهم في تحقيق ذلك الباطنية[III]، وفرقٌ سريةٌ آخرى تعيش في تلك المناطق وفي شمال الشام. عندما أخذ الفرنجة سرمين -التي تبعد رحلة يومٍ عن حلب- كان فيها كثيرٌ من الباطنية[IV]؛ وفي عام 1110 أخد تانكرد من الباطنية قلعة كفرلاتة التي تبعد رحلة يومٍ عن حلب[V]. ومن بين الوثائق الدرزية التي ذكرها دي ساسي، الرسالة التي بُعِثَتْ نحو العام 1137 إلى سكان جبال السمّاق، والرسالة التي بُعِثَتْ إلى "الموحدين" في المنطقة نفسها[VI].

وكما ذكرنا في الفصل الأول، أصبح الإسماعيليون أو الحشاشون جيرانًا للفرنجة الذين ملكوا قلاعًا كثيرةً في جبال النصيرية، والقسم الجنوبي المسمى جبل عامل، أو جبل السمّاق. وكانوا في حالة عداءٍ مستمرٍ مع الصليبيين، وفي عام 1152 قتلوا ريمون الأول أمير طرابلس في كنيسة طرطوس[VII]. وبسبب ذلك؛ أصبحوا عرضةً لهجماتٍ ناجحةٍ من جيرانهم فرسان الهيكل، الذين دخلوا أراضيهم ودمروها؛ فاضطروا إلى دفع جزيةٍ سنويةٍ تبلغ قيمتها ألفي قطعةٍ ذهبيةٍ[VIII].

وفي ذلك الزمن ظهر راشد الدين سنان بن سلمان البصري، كزعيمٍ للحشاشين في الشام، وحاز شهرةً واسعةً، وترك كتبًا، تُعد مراجع كبيرةً عند الإسماعيليين في الزمن الحاضر. وقد ذَكَرَ رحالةٌ وغيرُهم من عربٍ وفرنجة أحوال جبل السمّاق، وذكروا قوة الإسماعيليين في ذلك العصر.

يقول الإدريسي -الذي أكمل كتاب الجغرافيا بالعربية[IX] عام 1154- يعيش الإسماعيليون في الجبال التي فوق طرطوس، وإن: "أهلها حشيشية خوارج في الإسلام لا يعتقدون شيئًا من البعث ولا القيامة من بعد الموت، لعنوا بمذهبهم[X]". مرَّ الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي في شمال الشام عام 1163، وتحدث عن جبلة التي تقع جنوب اللاذقية قائلًا: "تقيم بظاهرها طائفة الحشيشيين، وهم لا يؤمنون بدين محمدٍ ﷺ، بل بدين قرمط الذي يعدّونه مثل النبي.

[I] بعد مقتل بهرام، خلفه شخصٌ اسمه أبو الوفا، وعظم أمره حتى صار الحكم له في دمشق، فاتفق مع الفرنج على تسليمهم المدينة، لكن الخطة انكشفت؛ فانتقم مسلمو دمشق بقتل آلاف الإسماعيليين الساكنين فيها. المترجم

[II] قال أبو الفداء في "المختصر في أخبار البشر" إن الإسماعيلية اشتروا حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون سنة 527 هجرية. المترجم

[III] يقصد الإسماعيلية. المترجم

[IV] معتمدًا على ويلكن.

[V] ذكر پول بيتاڤ، وويليام كامدن كيف وجد الفرنجةُ التركَ، والمسلمين، والعرب، وكفارًا آخرين في المعرة، وأريحا، وكذلك ذكرهم رئيس الأساقفة بلدرينوس.

[VI] ويذكر ابن بطوطة (الذي سافر إلى الشام بين العامين 1325-1350) على نحوٍ عرضيٍ الأعدادَ الكبيرة للمبتدعة في شمال الشام، ويتحدث عن عدم وجود زاويةٍ، ولا حديقةٍ لقبر عمر بن عبد العزيز، ويعلل ذلك قائلًا: "وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس، يبغضون العَشرة من الصحابة وكل من اسمه عمر". ثم يذهب إلى سرمين "وهي حسنةٌ، أهلها سبابون يبغضون العَشرة، ولا يذكرون لفظ العَشرة؛ ولهذا السبب بها مسجدٌ عظيمٌ فيه تسع قباب". ويذكر أيضًا في اللاذقية قصة رجل صاحب أفكارٍ مبتدعةٍ؛ فأدانوه بذلك ثم قتلوه؛ وعاش في اللاذقية أفرادٌ من عائلة التنوخي النبيلة والمبتدعة.

[VII] ريمون الثاني وليس الأول، وقتل عند إحدى أبواب طرابلس. المترجم

[VIII] سكَّ الصليبيون في القدس قطعةً نقديةً سموها "بيزنطية"، عليها كتابةٌ بالخط الكوفي، وهي نسخةٌ عن الدينار الذهبي الذي كان الفاطميون يسكونه في مصر، ولكنها أقل وزنًا منه. تزن البيزنطية 3.9 غرامًا، وتحتوي على 80% من وزنها ذهبًا. مما يعني أن 2000 بيزنطية تحتوي على 6.24 كغ من الذهب. المترجم

[IX] يقصد "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق". المترجم

[X] جوبير، پاريس، 1836، ص 35. {لم يُذكر اسم الكتاب، ولكن جوبير ترجم كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، وعنونه "Géographie d'Edrisi"، أو "جغرافيا الإدريسي"، ونُشر عام 1836. المترجم}

يأتمر بأمره سكان الجبل، ويطيعونه طاعةً مطلقةً للموت أو للحياة، يسمونه شيخ الحشيشيين، أما مقامه فحصنٌ يدعى القدموس؛ وهم في نزاعٍ مستمرٍ مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشام[I]".

يقول وِلْيَمْ الصوري مؤرخ الحروب الصليبية المشهور الذي توفي عام 1183 ميلادي إنه كان للحشاشين عشر قلاعٍ حول أبرشية طرطوس بين العامين 1169-1173، وإن عددهم كان 60 ألفًا أو أكثر. وتحدّث عن فرسان الهيكل الذين سكنوا في قلاعٍ مجاورةٍ لهم، وذكر أن الحشاشين كانوا يدفعون لهم جزيةً سنويةً تبلغ ألفي قطعةٍ ذهبيةٍ. وأخبرنا عن رسولٍ بعثه الحشاشون إلى عموري ملك أورشليم، يعدونه أن يعتنقوا المسيحية إن أعفاهم من دفع الجزية لفرسان الهيكل؛ وفي طريق العودة، قتل فرسان الهيكل الرسولَ، بعد أن علموا نية الحشاشين[II].

كما كتب عن ذلك جاك دي ڤيتري أسقف عكا المتوفى عام 1213، والذي كان يرأسُه وليم الصوري؛ فقال إن الحشاشين يعيشون قرب طرطوس، ويزيد عددهم على 40 ألفًا. وقال إنهم كانوا يدفعون لفرسان الهيكل جزيةً تبلغ ألفي قطعةٍ ذهبيةٍ؛ لكي يعيشوا بأمانٍ؛ فقد كانوا عرضةً لإيذاء الفرسان الذين كانوا يعيشون بالقرب منهم. ويتابع: "كان أغلبهم محمديين، ولكن شريعتهم مخفيةٌ، يُمنع إظهارها، إلا لأبنائهم، عندما يصبحون بالغين"، ويضيف أن النساء والأطفال قالوا إنهم يؤمنون بدين أقربائهم دون أن يعرفوه؛ وأن القتل دون رحمةٍ؛ سيكون مصير الابن الذي يكشف الدين لأُمه[III].

وتحدث عن الإسماعيليةِ العربيُ الأندلسيُ ابن جبير، وهو في الطريق إلى حماة في أثناء رحلته إلى الشام عام 1183؛ فقال إن وراء المعرة جبل لبنان، "وفي صفحته حصونٌ للملاحدة الإسماعيلية، فرقةٌ مرقت من الإسلام، وادّعت الألوهية في أحد الأنام قيض له شيطان من الأنس يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالاتٍ، موه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمحالها؛ فاتخذوه إلهًا يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل في مرضاته الردى[IV]".

قال بورشارد من دير جبل صهيون[V]: "توجد جبالٌ منخفضةٌ شرق طرطوس تسمى أرض الحشاشين".

تحدث ابن الوردي عن جبل السمّاق مقتبسًا من ابن الأثير، ومن كتاب "مروج الذهب" للمسعودي، فقال: "يشتمل على مدنٍ، وقرىً، وقلاعٍ وحصونٍ، وأكثرها للإسماعيلية والدرزية، وهو منبت السمّاق[VI]".

تحدث أبو الفداء -صاحب حماة من 1310 إلى 1330- عن مدينة مصياف، فقال إن لها قلعةٌ حصينةٌ، وإنها مركز الفرقة الإسماعيلية[VII].

[I] ص 59 تأليف أشر. {ذُكر اسم الكتاب ورقم الصفحة ولم يذكر عنوانه، وتبين أن أدولف أشر ترجم كتاب بنيامين التطيلي من العبرية إلى الإنجليزية، وعنوانه "مذكرات رحلة الرابي بنيامين التطيلي" أو "The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela". المترجم}

[II] الجزء 15، ص 31، 32.

[III] "أفعال الرب على أيدي الفرنج"، جيبير دي نوجان، ص 1143.

[IV] ابن جبير (رايت، لايدن، 1852)، ص 256. {تبيَّن أنه "رحلة ابن جبير"، وهو النص العربي لمخطوطةٍ عربيةٍ موجودةٍ في جامعة لايدن في هولندا، وقدم له بالإنجليزية ويليام رايت، ورقم الصفحة الصحيح 251. المترجم}

[V] "العالم الجديد"، (بازل، 1532) المجلد 301. {تبيَّن أنه "مناطق العالم الجديد وجزره القديمة"، س. جريناس، ج. هاتيش. المترجم}

[VI] مخطوطة عربية. {تبيَّن أنه كتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" لسراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي، وينسب هذا الكتاب خطأً إلى جده القاضي المعروف عمر بن مظفر بن الوردي المعرّي الكندي، مؤلف "تتمة المختصر في أخبار البشر" المعروف باسم "تاريخ ابن الوردي". المترجم}

[VII] "الجغرافيا"، (رينو وسلان) ص 229. {ذُكر رقم الصفحة، وأغفل عنوان الكتاب؛ وتبيّنَ أنه يقصد "Géographie d'Aboulféda" وهو النص العربي لكتاب "تقويم البلدان" لأبو الفداء، مع مقدمةٍ باللغة الفرنسية. المترجم}

وذكر حشاشي فارس والشام ماركو پولو الذي مر في آسيا عام 1271[I].

عاش سنان في قلعة الكهف، ويقال إن في عام 1176 ميلادي، استغل بعض سكان جبل السمّاق بعض كلامه بأن لا يجوز لأحد أن يمنع عن أخيه شيئًا؛ فمارسوا الفجور وزنا المحارم؛ فأمر بقتل بعضهم. ويقول ابن جبير[II] إنه قبل وصوله إلى الشام (عام 1183) بثمانية أعوامٍ، فسد بعض الإسماعيلية (الذين وصفهم بأنهم كثيرون، لا يحصي عددهم إلا الله) في قرية الباب قرب حلب؛ فقاتلهم المسلمون وقضوا عليهم[III].

حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين العظيم أكثر من مرةٍ عندما كان قرب حلب؛ فذهب للهجوم على مصياف عام 1176، ولكن خاله[IV] صاحب حماة حثه على أن يفك الحصار عنها، واقتنع صلاح الدين بسبب خوفه من الحشاشين بعد أن نجى بصعوبةٍ من محاولتهم قتله. في عام 1192 قتل اثنان من الحشاشين كونراد الأول[V] بتحريضٍ من ريتشارد قلب الأسد، ولا توجد أسبابٌ حقيقيةٌ للشك في صحة ذلك. توفي سنان عام 1192/3 ميلادي، وفي عام 1250 طلب شيخُ الجبل هديةً من لويس التاسع في عكا، لكن فرسان الهيكل والإسبتارية[VI]ردوا عليه بطلب هديةٍ للملكِ، وحصلوا عليها.

وشارفت قوى الصليبيين، وفرسان الهيكل، والإسبتارية، والحشاشين، على الانتهاء في مواجهة قوة سلطان مصر المملوكي المشهور بيبرس أو الملك الظاهر. وبعد أن زادت الضغوط على الإسبتارية أو فرسان القديس يوحنا، أرسلوا إليه سفراءهم، وتوسلوا إليه أن يبقي مناطقهم المجاورة للإسماعيليين في حالة سلامٍ، فوافق على ذلك بعد أن دفعوا له الجزية التي كانوا يتلقونها من الإسماعيليين، والتي تبلغ مئتي[VII] قطعةٍ ذهبيةٍ، ومئة مكيالٍ قمحًا. وفي عام 1269 أخذ بيبرس القلاع الرئيسة لفرسان الهيكل، وفرسان القديس يوحنا في تلك المناطق، وتحديدًا قلعة صافيتا، وقلعة الحصن، ودفع الإسماعيليون له الجزية التي كانوا يدفعونها لفرسان الهيكل. وبعد مدةٍ قصيرةٍ أخذ بيبرس بقية قلاعهم الواحدة تلو الأُخرى، وكان آخرها المَيْنَقَة، والكهف، والقدموس عام 1272، حيث بدأت تقام صلاة الجمعة[VIII].

ولم يَعُدْ يُسْمَعُ كثيراً عن إسماعيلية الشام بعد نهاية القرن الثالث عشر. فقد زار الرحالة العربي[IX] المغربي ابن بطوطة الشام بين عامي 1325-1350، وتحدث عن قلعة صهيون، ثم قال: "فمررت بحصن القدموس، ثم بحصن المَيْنَقَة، ثم بحصن العلّيقة، ثم بحصن مصياف، ثم بحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفةٍ يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية[X]، ولا يدخل عليهم أحدٌ من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر[XI]، بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق، وغيرها، ولهم المرتبات"، ويضيف: "ولهم سكاكينُ مسمومةٌ يضربون بها من بُعثوا إلى قتله[XII]". ولذلك نقرأ بين الفينة والأُخرى عن اغتيالاتٍ تنسبت إليهم. ويقول أحد المؤلفين العرب المتوفى في دمشق عام 1349 إن الإسماعيلية امتلكوا

[I] الجزء الأول، فصل 21. {ذُكر رقم الصفحة، وأغفل عنوان الكتاب، وتبيّنَ أنه يقصد "كتاب السيد ماركو پولو" الذي ترجمه إلى الإنجليزية هنري يول. المترجم}

[II] مثلما ذكر سابقًا، ص 251.

[III] النص الأصلي كما ورد في كتاب "رحلة ابن جبير": "قرية كبيرة تعرف بالباب، هي باب بين بزاعة وحلب، وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية لا يحصي عددهم إلا الله، فطار شرارهم، وقطع هذه السبيل فسادهم وأضرارهم، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية، وحركتهم الأنفة والحمية، فتجمعوا من كل أوب عليهم، ووضعوا السيوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم". المترجم

[IV] شهاب الدين الحارمي صاحب حماة. المترجم

[V] المقصود كونراد من مونفيراتو، وليس الملك الألماني كونراد الأول. المترجم

[VI] فرسان القديس يوحنا. المترجم

[VII] أعتقد أنه خطأٌ مطبعيٌ، فالجزية المفروضة كانت 1200 قطعةٍ ذهبيةٍ. المترجم

[VIII] "تاريخ السلاطين المماليك"، المقريزي، كاترمير، پاريس، 1840، الجزء الأول، القسم 2، الصفحة 3.

[IX] ابن بطوطة عربي اللسان، أمازيغي الأصل. المترجم

[X] أو الفدائية. المترجم

[XI] المقصود ليس صلاح الدين، بل ناصر الدين محمد بن قلاوون. المترجم

[XII] "رحلات ابن بطوطة"، منشورات الجمعية الآسيوية، پاريس، 1843.

في زمانه مصياف وغيرها، وكان لبيبرس نوابٌ في قلاعهم[I]. ومن المحتمل أن أُمراء القلاع الحاليين يتحدرون منهم، فهم أخبروا بوركهارت حين زار قلعة مصياف بأنهم ملكوا القلعة منذ عهد الملك الظاهر بيبرس، مثلما أقر فرمان الباب العالي[II]؛ لكن الإسماعيلية المعاصرين أخبروا الدكتور إيلي سميث حين زارهم عام 1848 وعام 1850 أنهم قدموا من الشام عام 1010، وأقروا للسيد والپول[III] أنهم طردوا النصيريةَ من القلاع.

زار عبد الغني النابلسي القدموس عام 1693، ووجد أن أمير القدموس وأخاه أمير مصياف من عائلة التنوخي التي استقرت في جبل الأعلى في العهد البيزنطي، وهم من الباطنية[IV]، ومنهم دروزٌ في زمننا الحاضر.

وصف نيبور رحلته إلى بلاد الشام عام 1764، وتحدث عن الإسماعيلية باختصارٍ، وأخطأ في كلامه القليل عنهم، إذ قال: "أعدادهم ليست كبيرةً، ويعيشون أساسًا في مدينة كِلّس بين الشغور وحماة، وفي جبل الكلبية بين حلب وأنطاكيا على مسافةٍ ليست بعيدةً عن اللاذقية. ويسمون كفتين نسبة إلى اسم قرية في هذه البلاد[V]"

يقول ڤون هامر[VI]: "ما تزال آثار الإسماعيلية باقيةً في فارس والشام كواحدةٍ من كثيرٍ من الفرق الإسلامية المبتدعة. وبسبب انعدام الوسائل اللازمة لاسترجاع أهميتهم التي نسوها على ما يبدو؛ لم يعودوا يطالبون بالسلطة، وأصبحتْ غريبةً عليهم العقيدةُ السريةُ لتخريب الدول التي كانت سياسةً اتبعها الإسماعيليون الأوائل، وقد أصبحتْ غريبةً عليهم أساليبُ الحشاشين في القتل. وكذلك أصبحت غريبةً عليهم مساكنهم الأصلية في فارس والشام، ومساكن أجدادهم في جبال العراق، وفي أسفل جبال لبنان الشرقية.

"يعتقد إسماعيليو فارس أن زعيمهم هو إمامٌ يتحدر من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو يسكن بحماية الشاه في قرية كهك الواقعة في منطقة قم. الإمام، حسب عقيدتهم، تجسيدٌ للإله، ولأن إمام كهك ما زال حتى يومنا هذا يتمتع بقدراتٍ إعجازيهٍ؛ يحجُ إليه الإسماعيليون للتبرك، قادمين من ضفاف نهري الغانج والسند في الهند البعيدة. وما تزال قلاع منطقة رودبار في جبال آلموت مأهولةً بالإسماعيليين حتى يومنا هذا، ويلقبون بالحسينيين، حسب ما قال أحد الرحالة الذي توفي منذ زمنٍ قريبٍ[VII]".

وبهذا نكون قد قصصنا عليّكم باختصارٍ تاريخ الطوائف المحمدية السرية المبتدعة، مثل الإسماعيلية الأصلية والقرامطة، والإسماعيلية الغربية التي انشقت عنها فرقة الدروز، والإسماعيلية المشرقية أو الحشاشين؛ وهذا أمرٌ ضروريٌ كمقدمةٍ لما نملكه من معلوماتٍ عن تاريخ الفرقة النصيرية التي ظهرت للوجود في زمن القرامطة. ولقد أغفلنا الحديث عن تاريخها لنخصص لذلك فصلًا كاملًا[VIII].

[I] شارل فرانسوا ديفريميري، "المجلة الآسيوية"، يناير، 1855. {لم يذكر اسم المؤلف في المجلة الآسيوية وتبيّن أنه ابن الوردي، والاقتباس من "تتمة المختصر في أخبار البشر" المعروف باسم "تاريخ ابن الوردي". المترجم}

[II] "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة". يوهان لودفيك بوركهارت، لندن، 1822، ص 152.

[III] المقصود فريدريك والپول مؤلف كتاب "النصيرية أو الحشاشون". المترجم

[IV] يقصد الإسماعيلية. المترجم

[V] ص 361. قد يتذكر القارئ أن الكلبيةَ نصيريةٌ، وأن كفتين هي أهم قريةٍ درزيةٍ في جبل الأعلى. {يريد المؤلف إظهار التناقض فيما كتبه نيبور؛ فمرة يقول إن كفتين درزيةٌ، ثم يعود فيقول إنها إسماعيليةٌ؛ ومثال آخر عن جبال الكلبية التي يسكنها النصيرية مرةً، والإسماعيلية مرةً أُخرى. تقع القرية الدرزية كفتين في محافظة إدلب السورية. المترجم}

[VI] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 211.

[VII] يقصد الرحالة والضابط الإسكتلندي جون مكدونالد كينير. المترجم

[VIII] للحصول على معلوماتٍ إضافيةٍ عن القرامطة؛ بإمكان القارئ مراجعة هربلو، "المكتبة الشرقية"، مقالة القرامطة. تاريخ الحاكم بأمر الله إله الدروز موجودٌ في "عرض ديانة الدروز" تأليف دي ساسي. كتاب ڤون هامر "تاريخ الحشاشين"، ترجمه وود. وللحصول على ملخصٍ مفيدٍ لهؤلاء المؤلفين؛ راجع "تاريخ المحمدية وطوائفها"، للمؤلف تايلور، ومقدمة "القرآن" تأليف سيل، القسم 8. يعطي جيبون وصفًا بليغًا عن القرامطة في الفصل 52. {كتاب جيبون المقصود هو "تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية". المترجم}

الفصل الثالث

تاريخ النصيرية

تتكون الشام في الأصل من منطقتين: الأولى، آرَام دِمَشْق (صموئيل الثاني 8: 6)، وقد استوطنها إرم[I] بن سام، وتضم آرَام صُوبَة (صموئيل الثاني 8: 3-5)، التي تمتد على الأرجح من الضفة الشرقية لنهر العاصي إلى حلب والفرات. وتضم المنطقة الثانية جلعاد، وكلَّ فلسطين الواقعة غرب الأردن، وسلسلةَ الجبال شمالًا وصولًا إلى مصب نهر العاصي؛ وقد استوطنها أبناء كنعان[II] بن حام[III]. تحدثنا سلفًا عن دولة أرواد الفينيقية، ومدينة راميتا[IV] الفينيقية التي أصبح اسمها فيما بعد لاوديكيا، وكانت تتبع لها السهولُ الواقعة تحت جبال النصيرية؛ وربما كان سكان غرب الجبال تحت حكمها، في حين خضع سكان شرق الجبال لسلطة حماة العظيمة[V]. ومن الطبيعي أن تكون تلك الجبال ملجأً للدول الواقعة على السهول المجاورة؛ عندما يغزو الشامَ الآشوريون، والمصريون، واليونانيون. من المحتمل، وربما من المؤكد أن قسمًا من النصيرية المعاصرين أحفادُ سكان تلك الجبال، ومن التجأ إليها؛ وهذا رأي الراحل الدكتور إيلي سميث، والدكتور ڤانديك، والدكتور تومسون، وغيرهم من المبشرين الأمريكيين في الشام، وذلك حسب ما عَلِمْتُ منهم في أوقاتٍ مختلفةٍ. فهم يعتقدون أن أولئك القوم تشبعوا بالهرقطات الغنوصية؛ فأصبحت هذه العقائد المسيحية الفاسدة جزءًا من دينهم.

يقول ڤولني[VI] إن وجود شعائر غنوصيةٍ[VII] قديمةٍ عند النصيرية احتمالٌ قائمٌ، وإنه "باستثناء أنطاكيا، وجوارها انتشرت المسيحية في تلك البلاد بصعوبةٍ بالغةٍ، ودخل قليلٌ من الناس فقط في الدين الجديد، واستمرت الأحوال على ما هي عليه إلى ما بعد عهد يوليان[VIII]. وكانت المدة الزمنية منذ ذلك الوقت إلى حين الغزو العربي[IX] أقصر من أن تتمكن المسيحية من إرساء قواعدها؛ لأن سرعة انتشار الثورات الفكرية في الريف تختلف عن سرعة انتشارها في المدن. وقد ساعد التقدم في انتشار تلك الديانة بين سكان الجبال الفظّين على تمهيد الطريق للمحمدية الأنسب لميولهم؛ ونشأ عن تلك العقائد القديمة والحديثة خليطٌ لا شكل له، يدين له شيخُ ناصرة[X] بنجاحاتِهِ". ليس عندي شكٌّ في أن قسمًا من سكان الجبال هم أحفاد الكنعانيين القدماء، الذين يزور النصيريون اليوم قبورَهم الموجودة على كل تلةٍ مرتفعةٍ. ومع ذلك من المحتمل أن تكون تلك الأفكار الغنوصية قد تسربت إلى ديانتهم في مهدها في الشرق[XI] من حيث أتت حتمًا، ثم وَجَدَتْ في بلاد الشام دون شكٍ قومًا جهلةً جاهزين لتلقيها، وربما لإضافة خرافاتٍ جديدةٍ إليها.

[I] ويسمى أيضًا آرام. المترجم

[II] كنعان بن حام بن نوح حسب التوراة. وعلى الرغم من عدم ذكر اسم كنعان في القرآن، فإن الظن الشائع بين المسلمين أن كنعان هو ابن (وليس حفيد) نوح الذي رفض الركوب معه في السفينة، وغرق. المترجم

[III] "دليل المسافرين إلى بلاد الشام وفلسطين"، جوسياز ليزلي پورتر، مري، المقدمة، ص 22، 23.

[IV] موقع مدينة اللاذقية في الزمن الحاضر. المترجم

[V] لا أظن أنه أراد تعظيم حماة، ولكنها وردت بهذا اللفظ في سفر عاموس، (6: 2). المترجم

[VI] "رحلات بلاد الشام ومصر"، قسطنطين ڤولني، الجزء الثاني، ص 6.

[VII] حركات دينية ظهرت في القرنين الميلاديين الأول والثاني، فحاربتها الكنيسة. المترجم

[VIII] بعد عام 363 ميلادي. المترجم

[IX] ما يقرب من 275 عامًا. المترجم

[X] يعتقد ڤون هامر أن النصيرية سمّوا باسم قرية "Nasar" أو "ناصرة" التي عاش فيها مؤسس الفرقة، وقد اقتبس ذلك من الكاهن الماروني يوسف سمعان السمعاني (1687-1768). المترجم

[XI] يقصد بغداد. المترجم

لكن الاعتقاد السائد والفروق في الأشكال والملامح، تثبت على نحوٍ قاطعٍ، أن سكان جبال النصيرية ليسوا جميعًا السكانَ الأصليين لتلك المنطقة؛ وأن قسمًا منهم، على الأقل، قَدم من المناطق التي أتت منها ديانتهم.

تنقسم الفرقة النصيرية إلى طائفتين رئيستين: الطائفة الشمسية[I]، نسبةً إلى الشمس، ويسمى أتباعها أيضًا مواخسة[II]، وغيبية[III]، وشمالية؛ والطائفة القمرية[IV]، ويسمى أتباعها كلازية[V]. وسأُبينُ الآن أن سكان الجبال الأصليون شمسيةٌ، وأن القمرية قدموا من الشرق من جبل سنجار في بلاد ما بين النهرين ومن أماكنَ أُخرى.

اتضح سابقًا أن كثيرًا من النصيرية يعيشون في بغداد، وأن الطريق من هناك يمرُّ بجبل سنجار، ومدينة السلمية -على بعد 4 ساعات ونصف جنوب شرق حماة- واصلًا إلى مكانٍ تحده من الغرب جبال النصيرية. وفي الطريق إلى الشام، من الطبيعي أن يروج دعاتهم لعقيدتهم بين القبائل العربية في بلاد ما بين النهرين. زارني في الجبل شيخُ بغداد الحاج محمد، وأكد لي أن عائلة الشيخ حبيب، الزعيم الديني للقمرية، أتت من سنجار، وكذلك الكلبية؛ واستدل على ذلك بوجود جبلٍ هناك يسمى سن الكلوب؛ وينتمي الحاج محمد للطائفة القمرية، وقد أتى من بغداد ومعه فَرَسٌ ثمينةٌ ليهديها للشيخ حبيب؛ وانتقد مشايخ الطائفة الشمسية، الذين حرض أحدهم -ويدعى الشيخ معروف من أنطاكيا- الحكومةَ ضده فاضطر إلى زيارة الشام.

وفي إحدى المرات أخبرني الشيخ حبيب بنفسه أن أهلَه وناسَه أقدمُ من العثمانيين في الشام (الذين أخذوها أيام السلطان سليم عام 1518)، وأنه بعد طردهم من جبل سنجار (الذي أصبح معظم سكانه اليوم يزيديين أو عبدة الشيطان) قدموا بإذنٍ من الحكومة إلى سهول حماة عام 603 هجرية (1205 ميلادي) بدعوةٍ من أبناء فرقتهم الضعفاء؛ لمساعدتهم على امتلاك البلاد. وسمحت لهم الحكومة بالهجوم على سكان الجبال؛ ففعلوا، وطردوا سكانها الكرد؛ كما تُثبت أسماء القرى التي تنتهي بحرف الواو؛ وقد أشرنا إلى ذلك في السابق. وأكد لي أن أجداده امتلكوا قلاع القدموس ومصياف وغيرها.

أخبرني الخادم النصيري الذي أشرت إليه في المقدمة أن هؤلاء القوم يُقسمون بالشيخ السنجاري، وقد وجد والپول[VI] عندهم الاعتقاد نفسه، وقالوا له: "في زمن خلفاء دمشق، عاش قومهم في جبال سنجار، وشن الخلفاءُ حروبًا على سكان جبال النصيرية، ومحقوهم".

من المؤكد الآن أن الكلبية قدموا من شرق الجبل في القرون الأخيرة، وفتحوا طريقًا لأنفسهم إلى البحر؛ وانتصروا على بني عليٍّ في الجنوب -الذين أكّد الكلبيةُ وغيرُهم أن أصلهم أكرادٌ اعتنقوا الدين النصيري- كما انتصر الكلبية في الشمال على المهالبة الشمسية الذين يُعدّون بالإجماع أقدم من سكن تلك الجبال. ينتمي الدراوسة إلى الطائفة نفسها، وأخبرني أحدهم أن المهالبة والدراوسة وعائلتان أُخريان في السهل يتحدرون من أخوين. في أسفل قريتي تقع قريةٌ مهجورةٌ كان يسكنها القراطلة، وهم جزءٌ من السكان الأصليين في مناطق الكلبية، ويقال إنهم من نفس طائفة المهالبة، ولهم أحفادٌ في قرية عين التينة؛ ويعيش أحد الفلاحين القراطلة في القرية التي يوجد فيها منزلي.

يتناقل الناس عفويًا أخبار قدوم الكلبية من الجهة الأُخرى من الجبل، ولا يوجد سببٌ للشك في صحة هذا الأمر. كان محمد بن مخلوف أول القادمين إلى غرب الجبال برفقة ابنه مهنا، وبنى معظم المزارات في المنطقة. وكان لمهنا ثمانية أبناءٍ: أحدهم الجد الأكبر لبيت حسون، والثاني جد بيت عليّ، والثالث جد بيت جركس، والرابع جد بيت أحمد؛

[I] يعتقدون أن عليًا يسكن في الشمس. المترجم

[II] نسبة للشيخ عليّ ماخوس. المترجم

[III] يعتقدون أن الله تجلّى في علي ثم غاب. المترجم

[IV] يعتقدون أن عليًا يسكن في القمر. المترجم

[V] نسبة لشيخهم محمد بن يونس الكلازي من بلدة كلازو قرب أنطاكيا في تركيا. المترجم

[VI] "النصيرية أو الحشاشون". فريدريك والپول، الجزء الثالث، ص 343.

وهذه هي العائلات الأربع التي تحكم عشيرة الكلبية؛ ويقال إن بيت علوش يتحدرون من أخي مهنا، ويوجد فرعٌ آخر قليل الشأن يتحدر من خادم المذكور؛ والمُسَلّمُ به أن هذا الأمر غير مؤكدٍ.

يبدو أن انتقال الكلبية من الشرق تزامن مع انتقال قمريةٍ آخرين مثل القراحلة وبيت محمد[I]. وكما قلت في الفصل الأول، إن العمامرة والعشائر الغربية الأُخرى التي لها أقرباء شرق الجبل كانوا قمريةً في الأصل.

أخبرني مقدم البهلولية أحمد سلهب أن عائلات بني عليٍّ الحاكمة قدمت أصلًا من شرق الجبال؛ وأخبرني أيضًا أن بيت شمسين سلطان من عشيرة الجهنية القوية ينتمون إلى الطائفة القمرية؛ وقد قدموا من الجهة الأُخرى للجبل. وأكد لي شيخٌ شابٌ وعاقلٌ من الجهنية، يعيش في قمين، أن أفراد عائلة شمسين يتحدرون من عائلةٍ مرموقةٍ أتت من سنجار منذ ما يقرب من 400 عامٍ، وسكنوا في قضاء القدموس في بادئ الأمر، ومنذ 120 عامًا انتقلوا إلى منطقتهم الحالية، حيث أصبحوا زعماءها، بعد أن قتلوا حكامها السابقين في أحد الأعياد. وأخبرني أخو شمسين سلطان أن العائلة قدمت من القدموس.

وبذلك نرى أن القمرية قدموا إلى البلاد في فتراتٍ متأخرةٍ نسبيًا، وعلى الأرجح من بغداد ومن جبل سنجار.

وقال لي شيخ قمين الشاب إن المهالبة أقدم من سكن تلك المنطقة حيث يعيشون حاليًا، والتي كان قسمٌ منها على الأقل كرديًا، وإن بني عليّ أصلهم من الأكراد، وإن كثيرًا من النصيرية الحاليين أصبحوا نصيريةً بعد أن عاشوا في أماكنَ غالبية سكانها نصيريةٌ، كما أخبرني أن القلاع في الجبال كانت ملكهم في زمنٍ مضى.

أخبرني م. ورتابيت[II] الذي عاش في حاصبيا أن سكان القرى النصيرية الثلاث القريبة من هناك من أقدم من اعتنق النصيرية، وهم من الطائفة الشمسية. يُعدُّ المهالبة والدراوسة من أقدم من اعتنق النصيرية في الشام، وهم من الطائفة الشمسية، وكذلك سكان الشمال والمناطق القريبة من أنطاكيا؛ ويبدو أن الطائفة القمرية كانت أقوى منهم، واستطاعت إخراجهم من الجبال. يعادي مشايخ الطائفتين بعضهم، ولا يتعلم أحد أبناء الطائفة عند شيخٍ من الطائفة الأُخرى، ويوجد ما يكفي من الفروق بين عقائد وعادات الطائفتين؛ وغالبًا ما يثير المشايخُ الحروبَ لتنفيس أحقادهم الطائفية. الشمسية أكثر تمسكًا بدينهم وإطاعةً لتعاليمه من القمرية، ويبدو أن مناطق سكن الطائفتين كانت بعيدةً عن بعضها أصلًا، وتوجد فروقٌ في الأشكال والملامح بين مختلف العشائر. عليّ القول إن لبني عليٍّ مظهرٌ كرديٌ خشنٌ، بينما لسكان السهول والشمسية عيونٌ براقةٌ، لا تختلف عن عيون الموارنة، ولكنها أجمل منها، والموارنة سكان لبنان الشاميون الأصليون الناعمون. أما الكلبية وغيرهم من القمرية، فملامحهم أقرب إلى ملامح الفرس والعرب؛ وقد يبدو هذا التفريق غريبًا، ولكن ليس كليًا؛ فكل العارفين بالشام، يدركون أن الملامح تختلف من قبيلةٍ لأُخرى. استطعت بنفسي أن ألحظ وجود علاماتٍ مميزةٍ للمتاولة[III] الذين يعيشون في الجبال التي تقع جنوب جبال النصيرية، وهم أصحاب دينٍ مطابقٍ تقريبًا لدين الفرس الحاليين. وبإمكان من يسافر إلى هناك في المستقبل أن يتابع ويتحقق من صحة هذه الآراء أو خطئها.

وبعد الحديث المطول عن الأصول العرقية للنصيرية، سأنتقل للبحث في أُصول التسمية.

يُطلق عليهم المؤلفون العرب اسم النصيرية، وتعود هذه التسمية إلى عام 1021 على أقل تقديرٍ، حين استعملها حمزة[IV]، وبهاء الدين[V] المعلم الدرزي العظيم.

[I] وردت "Beyt Ammon" في النص الإنجليزي، وربما كان المقصود أولاد عم القراحلة بيت محمد أو بيت أحمد. المترجم

[II] لم تُذكر أية معلومة عن هذا الشخص سوى لقبه؛ لكنني أعتقد أنه جريجوري م. وورتابيت "Gregory M. Wortabet"، المبشر الأمريكي الذي عاش في الوقت نفسه في لبنان، وله كتابٌ تحدث فيه عن المنطقة. المترجم

[III] اسم يطلق على الشيعة الاثني عشرية في لبنان. المترجم

[IV] حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني. المترجم

[V] بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن أحمد السموقي، خامس الحدود وآخرها. المترجم

يقول دي ساسي[I]: "يتحدث أحد الكتب الدينية الدرزية عن فرقةٍ تسمى النصيرية [وهي بالطبع فرقة النصيرية موضوع بحثنا]:

السؤال 44: وكيف انفصلت النصيرية عن الموحدين، وخرجوا عن دين التوحيد؟
الجواب: انفصلوا بدعوة النصيري لهم".

ويذكر حمزة تلك الفرقة بالاسم نفسه في رسالته التي رد فيها على أحد كتبهم[II]. وبذلك يتضح أن اسم الفرقة كان معروفًا منذ 1021 أو بعد ذلك بسنواتٍ قليلةٍ، وقد نسبها مؤلف الكتاب الديني الدرزي -الذي يعرف الكثير عن عقائد النصيرية- إلى شخصٍ اسمه نصير[III].

يوجد شكٌّ وخلافٌ على أن اسم نُصَيْر أصلُ التسمية التي أُطلقت عليهم، وكنت أنا في حالة شكٍ حتى وقت كتابة هذه الجملة، وقد قرأت بشغفٍ المخطوطات العربية التي كانت في حوزتي، وجميعَ ما اقتبسه المؤلفون من كتبهم. ولكنني عثرت على نصٍ في المخطوطات المذكورة سابقًا، وقارنت ذلك النص بما اقتبسه نيبور من كتب النصيرية، وبما قيل عن تلك الفرقة في كتاب الجغرافيا بالعربية لڤانديك؛ فلم يعد عندي شكٌّ في أن رأي المرجع القديم الجيد الداعية الدرزي حمزة لأصل التسمية كان صائبًا.

سأذكر الآن استنتاجاتٍ أُخرى لأصل التسمية؛ يقول ريتشارد پوكوك[IV] عن النصيرية: "قد يكونون أحفاد قومٍ كان اسمهم ناصريين، وقد ذكرهم پلينيوس الأكبر[V] (التاريخ الطبيعي، جزء 23) قائلًا إن نهر مارسياس يفصلهم عن أفاميا: [يفصل نهرُ مارسياس أفاميا عن تتراكية[VI] الناصريين]".

اقتبس دي ساسي من كتاب "التاريخ السرياني[VII]" لابن العبري الذي ينسب أصل الفرقة إلى رجلٍ كبيرٍ في السن عاش في قرية نزاريا (يسميها نصرانة في كتابه "تاريخ مختصر الدول"[VIII])، ويقول دي ساسي "يبدو من النص أن تسمية الفرقة النصيرية أتت من اسم القرية التي عاش فيها مؤسسها[IX]"؛ وفي مكان آخر يقول: "لا أستطيع الجزم بأن كلمة "نصيرية" مشتقةٌ من قرية نصرانة[X]".

في يومنا الحاضر، على الأقل، نادرًا ما يشير النصيريون إلى أنفسهم بهذه التسمية بوجود غرباء، وعادةً ما يسمون أنفسهم "فلاحين"، وهذا الاسم مناسبٌ حتمًا لأحوالهم. يظن بعض الناس أن أعداء النصيرية يعيرونهم بهذه التسمية، وأن النصيرية لا يعترفون بها؛ فالدروز يطلقون على أنفسهم اسم "الموحدين". وليس غريبًا على أبناء الطوائف أن يكرهوا تسميتهم باسم مؤسسها. فمن شأن ذلك إسقاط كل الأفكار المسبقة عن عيوب المؤسسين على العقائد التي يُعَلّمونها ويتبعها أنصارُهم. لا يشير النصيريون عادةً إلى أنفسهم بهذه التسمية علنًا، ولا في كتبهم، ولا حين يكونون

[I] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، پاريس، 1838، الجزء الثاني، ص 260.

[II] يقصد كتاب "الحقائق وكشف المحجوب" الذي ألفه نصيريٌّ مجهول الاسم، وشنع فيه على عقائد الدروز، فرد عليه حمزة بما يعرف باسم "الرِّسَالَة الدَّامِغَة للفَاسِق. الرَدُّ عَلَى النُّصَيْرِيِّ". المترجم

[III] أبو شعيب محمّد بن نصير العبدي البكريّ النميّري. مؤسس الديانة النصيرية. المترجم

[IV] "وصف الشرق وبلدان أُخرى"، ريتشارد پوكوك، 1738، الجزء الثاني، ص 208، في المخطوطة العربية، ص 86، يسمى عليّ "أبا السبطين" بمعنى قبيلتي بني إسرائيل. أخبرني محاسبٌ مسيحيٌّ أنه شاهد في إحدى رسائل الشيخ حبيب الخاصة، أن عبارة "السبطين الكريمين" استُعمِلت للإشارة إلى النصيرية. {السبطان هما الحسن والحسين. المترجم}

[V] المؤرخ الروماني پلينيوس الأكبر. المترجم.

[VI] نظام حكمٍ روماني، تتوزع فيه السلطة على أربعة أشخاصٍ أو حكوماتٍ، وربما قصد پلينيوس تتراپوليس اللاذقية وأنطاكيا وسلوقية وأفاميا؛ وتتراپوليس كلمةٌ يونانيةٌ تعني إقليمًا مكونًا من أربع مدن. المترجم

[VII] ألف ابن العبري كتاب تاريخٍ باللغة السريانية اسمه "تاريخ الأزمنة"، وتُرجم إلى اللاتينية بعنوان "التاريخ السرياني"، ثم ألف كتاب تاريخٍ باللغة العربية على غرار "تاريخ الأزمنة" في ترتيب فصوله، وعنوانُه "تاريخ مختصر الدول". المترجم

[VIII] وردت "نصرانة" في "تاريخ مختصر الدول"، ووردت "Nazaria" في كتاب "التاريخ السرياني" المترجم عن السريانية إلى اللاتينية. المترجم

[IX] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 565.

[X] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 567.

وحيدين (وسأُبين أنهم يستخدمون اسمًا آخر مشتقًا من اسم أحد مشايخهم المعروفين)، ولكنهم في أحيان كثيرةٍ، يلقبون أنفسهم بالنصيرية، ويستخدمون هذا الاسم بصفته أحد أسمائهم. يردد النصيرية عبارة "لا رحم الله أحدًا مات نصيريًا"، على سبيل الدعابة، وعند الجد، وعند الغضب. وقد سمعتهم مرارًا يرددون تلك العبارة، كما أكد لي الخادم النصيري، دون ترددٍ؛ ويستعمل النصيري تلك العبارة قاصدًا نفسه أو أبناء الطائفة على العموم. ويخطئ الدكتور ڤولف حين يقول إن الاسم مشتق من "نصراني" (مسيحي)، مفترضًا أن خصومَهُم يعيرون عليهم مزج النصرانية بدينهم، وإدخالها إليه؛ فيسمونهم "نصارى صغار[I]".

ونعود للأصل الحقيقي للتسمية؛ يقول الدكتور ڤانديك في كتاب الجغرافيا الذي ألّفه باللغة العربية إن الاسم مشتقٌ من شخصٍ يدعى نصير النميري[II]، وعند سؤاله عن المرجع الذي استند إليه، يجيب بأنه لا يتذكر. فقد أخذ ما قاله عن النصيرية من مراجع كثيرةٍ دون ذكرها كاملةً؛ لأن الهدف من الكتاب لم يكن يتطلب ذلك. ويقتبس من أبي الفداء الذي اقتبس أصلًا من ابن سعيد[III]: "يُنسبون إلى نصير مولى عليّ بن أبي طالب". وقد وجدت في مخطوطتي العربية بين "أسماء الأبواب في الأحد عشر مطلع التي منَّ الله علينّا بمعرفتها وأوصلنا إلى حفظها" (أول اسم هو الباب سلمان الفارسي المعروف) - وجدت أن اسمه ورد بصفته بابًا في المطلع الحادي عشر، والاسم هو "أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري العبدي، رحمة الله عليه! ويكنّى بأبي القاسم [لأن الرجل يكنى عند العرب بأبي فلان عند ولادة ابنه الأكبر، أبو شعيب مثلًا]، ومن كناه العربية أبو طالب، وأبو الحسن". ففي الاسم المذكور آنفًا: كنيته أبو شعيب نسبةً للابن، واسمه محمدٌ، أما ابن نصير فنسبةٌ لاسم الأب، والنميري وغيرها نسبةٌ لمكان الشخص أو صفته أو صفة أبيه. وقد ورد اسم "النميري" في كتاب "مجموع الأعياد" النصيري الذي نشره كاتافاغو في "المجلة الآسيوية"[IV]، وسنجد تطابقًا للاسم الأول للباب، مع اسم أحد دعاة النصيرية الذي ورد في اقتباسات نيبور[V] من أحد كتبهم. ومن بين الرسل النصيرية السبعة: محمد ﷺ، وسلمان[VI]، وحمدان عبد الله (ربما الأصح أبو عبد الله بن حمدان)[VII] ومفضل[VIII] (الذي يظهر اسمه في مخطوطتي العربية بصفته بابًا في المطلع الثامن)، ثم نجد اسم "أبو شعيب[IX]" وبذلك يكون هو الشخص نفسه المذكور آنفًا، ثم يقول إن الكاتب النصيري يذكر اسم إسحاق[X] على أنه أكبر أعداء النصيرية؛ "لأنه أراد قتل سيدنا أبو شعيب". إسحاق هذا هو مؤسس الفرقة الإسحاقية، وقد وضعها الشهرستاني في بابٍ واحدٍ مع الفرقة النصيرية[XI]، وسأؤكد الآن أنهم اشتقوا هذا الاسم الذي يُعرفون به اليوم في الشام من اسم "نصير".

ومنذ كتابة ما سبق، راجعت المخطوطة النصيرية التي في حوزتي مرةً أُخرى، فاكتشفت أمرًا سينهي هذا الجدل، مسنودًا بتأكيد الخادم النصيري الذي أخبرني أن قومه يقولون عن أنفسهم "بني نصير"، وأن جدهم هو نصير، كما أخبرني أنهم يلعنون إسحاق.

[I] "مجلة جمعية الاستشراق الألمانية" الجزء الثالث، ص 302، وصفحات أُخرى. الحاشية. راجع "المبشرون اليسوعيون". راجع "البحوث المسيحية في الشام والأرض المقدسة"، ويليام جويت.

[II] كتاب "الجغرافيا" باللغة العربية، نشر في بيروت، 1852، ص 106. كتب الدكتور ڤانديك "نمري"، وفي مخطوطتي النصيري "نميري" وهذا مثبتٌ في كتابٍ نصيريٍ آخر. النمر بن قاسط، ونمير بن عامر: سميت باسم كل منهما قبيلةٌ عربيةٌ، نمري ونميري.

[III] المقصود هو المؤرخ ابن سعيد المغربي الذي خلط بين الإسماعيلية والنصيرية في كتابه "تقويم البلدان". المترجم

[IV] فبراير، 1848، ص 153.

[V] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور، الجزء الثاني، ص 357.

[VI] سلمان الفارسي. المترجم

[VII] المقصود هو أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، وهو شيخٌ نصيريٌ نشر الدين النصيري في الشام، ويعدّ المؤسس الفعلي الذي أضاف على الدين الكثير، ولولاه لما كان الدين على ما هو عليه اليوم، وتوفي في حلب، وقبره في سكنة هنانو العسكرية، ويعرف هناك باسم الشيخ يبرق. المترجم

[VIII] المقصود هو أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي، ويجله أيضًا الشيعة الاثنا عشرية، فقد روى الكثير من الأحاديث عن جعفر الصادق وموسى الكاظم. المترجم

[IX] محمد بن نصير. المترجم

[X] المقصود هو إسحاق بن محمد النخعي الأحمر. المترجم

[XI] "الملل والنحل"، الشهرستاني، اقتباس پوكوك، "لمع من أخبار العرب" (أكسفورد، 1806، تأليف وايت) ص 261.

اكتشفت ذلك بعد أن حصلت على مفتاح اللغز في كتاب نيبور، الذي دفعني للبحث باهتمامٍ أكبر عن اسم أبو شعيب بن نصير. وجدت أن نصير وابنه أبو شعيب عاشا في زمن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري، وكما سنرى لاحقًا، أخذ النصيرية معظم عقائدهم وشعائرهم منه، أو نسبوها إليه، على الأقل.

يردد النصيرية في صلواتهم أسماء عليٍّ "بسائر اللغات المختلفة[I]"، ويعد هذا جزءًا مهمًا من الصلاة؛ حسب ما قرأت في كتابهم، وما سمعت من الخادم النصيري؛ وإن مصدر هذه الأسماء "الرسالة المصرية[II]". ويعتقد أن محتويات الرسالة أُخِذَتْ "عن الأمير معز الدولة[III]، عن محمد بن حيدرة بن مقاتل القطيعي، عن إبراهيم الرقاعي، عن السيد أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس الله روحه، عن أبو محمد عبد الله الجنان الجنبلاني[IV]، عن محمد بن جندب[V]، عن السيد أبي شعيب محمد بن نصير، عن المولى الحسن الأخير العسكري[VI]".

وبذلك نرى موقع نصير وابنه على خارطة تأسيس الفرقة، وأنه متقدّمٌ بجيلٍ أو جيلين على حسين بن حمدان الخصيبي الذي، كما سنبين لاحقًا، كان الداعية العظيم الذي نشر الدين النصيري "في سائر البلدان".

سأعود أولًا إلى نصٍ آخر في المخطوطة؛ لأثبت صحة ما ذكرتُه عن نصير وأبي شعيب؛ ورد هذا النص في إحدى أقدس صلواتهم (القداس الأول)، فبعد ذكر أسماء عليٍّ تضرعًا، نقرأ ما يلي: "نعني ونقصد ونشير كما شارت إليه الأولين ودلت على قدم ذاته الموحدين، من أول البدا إلى هذا الحين، نشير إليه كما شار شيخنا وسيدنا وتاج روسنا وفقيه عصرنا شيخ الأوان وقدوة الزمان أبي عبد الله الحسين بن حمدان، نشير إلى ما شار إليه شيخه وسيده أبو محمد عبد الله الزاهد الجنان، نشير إلى ما شار إليه يتيم الوقت محمد بن جندب[VII]".

وهنا نرى الأسماء نفسها بالترتيب نفسه تمامًا[VIII] كما في النص الآخَر، وأخر الأسماء[IX] هو يتيمُ الباب محمد بن نصير كما ذكرتُ سابقًا. يُسمَى "يتيم الوقت"؛ لأنه تتلمذ على يد أبي شعيب الذي تتلمذ على يد الحسن العسكري؛ ولذلك كان سيصبح هو ذاته في زمن الإمام الأخير محمد بن حسن العسكري[X]، الذي يسمّى صاحب العصر والزمان؛ لأنه آخرُ ظهورٍ للإله في صورةٍ بشريةٍ، ما يزال موجودًا على الأرض، ولكنه محتجبٌ.

سننتقل للحديث عن الاسم الآخر الذي يطلقه النصيرية على أنفسهم؛ فقد أُخذ الاسم من أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي الذي تجلّه الفرقة أعظم إجلالٍ، ويقال إنه من نشر دينهم في "سائر البلدان".

ذُكر الخصيبي في المخطوطة النصيرية التي في حوزتي في أماكنَ كثيرةٍ، وبتقديرٍ كبيرٍ، وبصفته مرجعًا لقسمٍ مهمٍ من العقائد والشعائر. ذُكر في الصفحة 73 بصفته مرجعًا لرواية ركعات الصلاة اليومية الواحدة والخمسين، وفي الصفحة

I راجع السؤال رقم 43 في الفصل العاشر. المترجم

II تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن البغدادي المهلهلي، ورواها عنه عصمة الدولة أبي الفتح محمد بن الأمير معز الدولة، وأضاف عليها، وسماها "منهج العلم والبيان". المترجم

III لا بد أنه معز الدولة أحد أبناء بويه الثلاثة الذي أصبح وزيرًا لبغداد عندما عظم نفوذ عائلته في فارس، وكانوا الحكام الحقيقيين في أثناء الخلافة العباسية؛ وقد أقصى معزُ الدولة الخليفةَ المستكفي عن الحكم. كان أكثرُ أتباعِ عليّ تعصبًا، وعندما تمكن من بسط نفوذه بالكامل، أمر بجعل العشر الأوائل من شهر محرم أيام حدادٍ على وفاة الحسين. دخل بغداد عام 945 ميلادي، وتوفي عام 965/6 ميلادي. راجع "تاريخ فارس"، مالكوم، الجزء الأول، ص 169. {ليس معز الدولة بل ابنه عصمة الدولة كما بينت في الحاشية السابقة. المترجم}

IV زعيم نصيري من بلدة جنبلا بفارس، وشيخ الخصيبي. المترجم

V ذكر بصفته أحد أيتام أبو شعيب في المطلع الحادي عشر.

VI المخطوطة، ص 77.

VII المخطوطة، ص 130، 131.

VIII يمكن تلخيص تعاقب مؤسس الفرقة، وتلاميذه، وفلسفاتهم في إحدى شهادات النصيرية التي تقول: "أشهدُ بأنّني نصيري الدين، جندبي الرأي، جنبلاني الطريقة، خصيبي المذهب، جلي المقال، ميموني الفقه". والمقصودون هم: محمد بن نصير، ومحمد بن جندب، وعبد الله بن محمد الجنان الجُنبلاني، والحسين بن حمدان الخصيبي، ومحمد بن عليّ الجلي، وأبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني. المترجم

IX يقصد محمد بن جندب. المترجم

X يعلل تسميته بيتيم الزمان بأن ابن نصير بالنسبة إلى الحسن العسكري، مثل محمد بن جندب بالنسبة إلى محمد بن الحسن العسكري. المترجم

77 ذُكر بصفته واحدًا من سلسلة رواة أسماء عليٍّ[I]، وفي الصفحة 130 ذُكر في القداس الأول، وفي الصفحة 133 عُدّ مرجعًا للقداس الثاني، وفي الصفحة 144 ذُكر بصفته من "شرع لنا الأديان فيساير البلدان[II]".

وفي ثالث القداسات الثلاثة التي تحدث عنها جوزيف كاتافاغو في الجزء الأول في "مجلة جمعية الاستشراق الألمانية[III]"، ذُكِرَ بلقبٍ رفيعٍ وهو "رب": "ولا رب إلا ربي شيخنا وهو شيخنا وسيدنا الحسين حمدان الخصيبي، سفينة النجاة وعين الحياة".

السؤال رقم 98 الوارد في كتاب تعليم الديانة النصيرية المنشور في الجزء الثالث من المجلة نفسها[IV]:

"من هو شيخنا الذي شرع لنا الأديان في سائر البلدان؟
الجواب: هو سيدنا أبو عبد الله الحسين بن حمدان".

في صلاة النوروز التي نشرها كاتافاغو في "المجلة الآسيوية[V]" يشار إلى "سيدنا الخصيبي" بأنه "أوضح في رسالته، وبين في مقالته في السياقة[VI]"، وذكَّر محاسن الفرس. وفي الكتاب نفسه الذي اقتبس منه نيبور، كان خامس من ذُكروا، وظهر بصورٍ مختلفةٍ في أزمنة ظهور الإله السبعة، وفي المرة السابعة والأخيرة كان اسمه حمدان[VII].

عند عدم وجود غرباء، يطلق النصيريون على أنفسهم اسم "الخصيبيين"، نسبةً إلى الخصيبي، واسمه حسين، واسم أبيه حمدان، واسم ابنه عبد الله. أخبرني الخادم النصيري أنه من المألوف أن يُقسموا بحق كل الشرائع التي أتى بها الخصيبي، ولكن لم يحصل ذلك بوجودي؛ مع أني سمعت كثيراً من الأيمان الأُخرى؛ ويقولون: "تأكل شيّات[VIII] ضربة الخصيبي"، بمعنى أنه سيعاقبك. توجد إشارةٌ إلى "الطائفة الخصيبية" في مخطوطتي[IX]، وفي كتاب تعليم الديانة النصرانية الذي نشره كاتافاغو[X]. يقول السؤال رقم 99:

"لماذا ندعى الطائفة الخصيبية؟
الجواب: لأننا تابعين تعليّم شيخنا ابن عبد الله الحسين ابن حمدان الخصيبي قدس الله سره".

وفي ملخص محتويات الكتاب النصيري[XI] الذي نشره كاتافاغو[XII]، قيل إن منتصف شهر شعبان هو نهاية "السنة الخصيبية".

أوضحنا أولًا أن النصيرية يعترفون باسمهم الذي يطلقه عليهم أعداؤهم، ومَن كتب عنهم، وأنه يُنْسب إلى شخصٍ اسمه نصير. يبدو أن أبا شعيب بن نصير كان أول الدعاة، وأخذ التعاليم مباشرةً من مرجع الفرقة الأساسي حسن

I رَوَوا أسماء عليٍّ: "سمته العرب عليًا، وسمي الأنزع البطين، وبيضة الوادي، وأصلع قريش، وسمته أمه حيدرة ....". المترجم

II ص 84. ذُكر بصفته مرجعًا لأسماء عليّ الأُخرى، وكونه روى هذه المعلومات عن حسن العسكري.

III ص 353.

IV ص 302.

V مقالة "ملاحظة على النصيرية"، "المجلة الآسيوية"، جوزيف كاتافاغو، فبراير 1848.

VI يعتقد النصيرية أن عليًّا هو الرب وهو خالق الكون، وقد ظهر سبع مراتٍ في صورٍ بشريةٍ، فقد ظهر أو احتجب الربُ أول مرة في شخص آدم باسم هابيل، وتوالى ظهوره حتى احتجب آخر مرة في محمدٍ ﷺ باسم عليٍّ، فالثالوث عندهم (المعنى، الاسم، الباب) وفي الظهور الأخير كان الثالوث (الرب عليّ، محمد ﷺ، سلمان الفارسي)؛ وتعني السياقة انتقال الثالوث عبر التاريخ ضمن سلسلةٍ منتظمةٍ من آدم إلى محمدٍ ﷺ، كما يذكر المؤلف في المقطع الذي يليه. راجع باب ملخص أهم عقائد النصيرية في آخر الكتاب. المترجم

VII "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور، الجزء الثاني، ص 315 وغيرها.

VIII أشياء. المترجم

IX ص 49.

X حيث ذكرت آنفًا.

XI المقصود هو كتاب "مجموع الأعياد" لأبي سعيد ميمون بن القاسم الطبراني. المترجم

XII "المجلة الآسيوية"، حيث ذكرت آنفًا.

العسكري والد الإمام الأخير[I]. ورأينا ثانيًا أن الداعية الذي نشر دينهم هو حسين بن حمدان الخصيبي، وقد عاش في زمنٍ لاحقٍ لزمن نصيرٍ، وسميت الفرقة نسبةً إليه حسب التسمية التي يتداولونها بين أنفسهم.

عليّنا الأن أن نبحث في مكان وكيفية ظهور الفرقة النصيرية، وهنا أخشى، مع كل ما يمكننا عمله، أن نبقى في دائرة الشك فيما يخص العلاقة التاريخية والعقائدية بينهم وبين القرامطة، كما وقعنا في الشك فيما يخص علاقة القرامطة بالإسماعيليين.

تحدث غريغوريوس -المعروف باسم ابن العبري والذي يطلق عليه العرب اسم أبو الفرج- عن أصل النصيرية في كتابه "التاريخ السرياني[II]" بما يلي: "لأن كثيرٌ من الناس يود معرفة أصل النصيرية، تقبلوا منّا ما يلي: في السنة اليونانية[III] 1202 (270 هجرية، 891 ميلادية) ظهر رجلٌ عجوزٌ في منطقة دير العاقول[IV] [يقول السمعاني أنها الكوفة نفسها] في قرية يطلق عليها سكانها اسم نزاريا". في حين سماها "نصرانة" في كتابه العربي "تاريخ مختصر الدول"، ثم تتابع القصة فتقول إن الرجل أظهر التقوى، وكان مثابرًا على الصوم، والصلاة، ونشر عقائده حتى نجح؛ فاختار 12 داعيةً ليبشروا بدينه. وحين بلغ خبره حاكمَ تلك الناحية سَجَنه وأقسم على قتلهِ، فتركته جاريته أو جارية السجان يَسْكر، ثم سرقت المفتاح من تحت وسادته، وأخرجت الرجل من حبسه. ولكي يتقي السجان شر الحاكم؛ قال إن ملاكًا أخرجه من حبسه؛ فانتشرت القصة. ويتابع غريغوريوس قائلًا إنه قابل اثنين من دعاته في مكان بعيدٍ جدًا عن سجنه، وأقنعهما أن ملاكًا أخرجه من السجن. ويتابع قائلًا إنه ألّف كتابًا ويقتبس منه[V]. ويقال إنه ذهب إلى الشام بعد ذلك واختفى فيها، بعد أن أدخل الجاهلين في تلك المناطق في دينه.

القصة التي رواها غريغوريوس أبو الفرج عن مؤسس الفرقة النصيرية في كتابه "التاريخ السرياني"، والاقتباس الذي أورده يتطابقان تقريبًا مع القصة نفسها والاقتباس في كتابه "تاريخ مختصر الدول[VI]"، ولكنها تشير إلى شخصٍ فقيرٍ قدم من خوزستان إلى سواد الكوفة. ويقول إن ذلك الرجل سمّي باسم الشخص الذي كان يبات عنده، وهو قرماطيه وتلفظ قرمطة للتسهيل، ويعده غريغوريوس مؤسس فرقة القرامطة[VII].

روى أبو الفداء، وجرجس بن العميد[VIII]، وبيبرس الدوادار المنصوري القصة نفسها عن مؤسس القرامطة. ويقول دي ساسي إن رواياتهم تتطابق مع القصتين اللتين رواهما غريغوريوس عن مؤسس النصيرية في المرة الأولى، ومؤسس القرامطة في الأخرى؛ وهما متطابقتان مع القصة التي رواها أبو الفداء ومؤرخون آخرون عن قرمط مؤسس القرامطة؛ وسيتذكر القارئ أنها القصة نفسها المروية عن أحد الرجال الذي تبين أنه مؤسس الفرقة الإسماعيلية. ويقول دي ساسي عن هذا الموضوع: "قد يُظَنّ أن نتائج مقارنة روايات المؤرخين المختلفين وبالأخص روايتي أبي الفرج العربية والسريانية تُفضي إلى الاعتقاد بأن النصيرية هم القرامطة وأنهم فرقةٌ واحدةٌ؛ ولكنني أعتقد أن هذا الاستنتاج ليس

[I] لا دخل للحسن العسكري بفرقة النصيرية؛ وكان الادعاء بأنه مرجعهم يهدف للحصول على المصداقية التي كانوا يفتقدونها. المترجم

[II] مقتبسة من "المكتبة الشرقية"، يوسف سمعان السمعاني، الجزء الثاني، ص 319، 320. يجب عليّ القول إني لم أتبع ترجمة السمعاني كلمةً بكلمةٍ، ولكن على العموم فإن العديد من المؤلفين ذكروا نسخًا مختلفةً للقصة نفسها، وكذلك وردت في كتاب "تاريخ مختصر الدول" لغريغوريوس الذي كان مطران اليعاقبة؛ ولد عام 1226 وتوفي عام 1286.

[III] يبدأ التقويم اليوناني أو السرياني في الأول من أكتوبر عام 312 قبل الميلاد. المترجم

[IV] وردت "Akab" في النص الإنجليزي، وهذا خطأٌ مطبعيٌّ، فقد تبين أنها "Akul" في النص اللاتيني لابن العبري وهو اسمٌ لمكانٍ قرب الكوفة، وقد ورد في كتب تاريخ عربية بلفظ "دير العاقول". المترجم

[V] راجع "النصيرية والإسماعيلية"، صموئيل لايد، ص 284 لترجمة القصة التي عرضها الدكتور ڤانديك (الجغرافيا العربية)، ومرجعه الأساسي فيها السمعاني.

[VI] "تاريخ مختصر الدول"، ابن العبري، تحقيق پوكوك، ص 5/274.

[VII] يقصد أن ابن العبري روى نفس القصة عن شخصين مختلفين: ابن نصير وقرمط. المترجم

[VIII] "تاريخ المسلمين"، ص 174. {اسم الكتاب الأصلي "المجموع المبارك"، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية باختصارٍ صموئيل پوركاس المتوفي عام 1626. المترجم}

فيه إلا القليل من الصحة. ينقسم القرامطة إلى فرقٍ عديدةٍ إحداها الفرقة الباطنية[I] التي نشأ منها الدروز؛ ومن المحتمل أن يكون النصيرية -أصحاب التعاليم التي لها علاقةٌ بتعاليم الباطنية- فرعًا من القرامطة الذين انتشروا في دول الخلفاء الفاطميين[II]".

وفي مقطعٍ آخر يقول: "يجب عليّ عدم التغاضي عن ملحوظةٍ مهمةٍ، بأننا نستنتج من القصص [المروية عن عدة مؤلفين] أن القرامطة والنصيرية فرقةٌ واحدةٌ، وأن الإسماعيلية الذين هم أصل القرامطة لا يختلفون عن النصيرية. ما تقوله كتب الدروز عن معتقدات النصيرية يثبت أنهم في الواقع يؤمنون بالكثير من معتقدات الإسماعيلية[III]".

يقول ڤانديك في كتاب الجغرافيا إن النصيرية فرعٌ من القرامطة الذين سُمّوا نسبةً إلى حمدان بن قرمط؛ ويروي القصة نفسها عن نصير النميري الذي ذهب إلى الشام للتبشير بعقائده. ونرى الآن أن ابنه أبو شعيب كان أحد الدعاة، ولكن من نشر الدين في جميع البلاد كان حسين بن حمدان الخصيبي.

من الصعب أن يكون حمدان أبو حسين هو حمدان بن قرمط نفسه؛ لأن الخادم النصيري قرأ على شيخٍ نصيريٍ مقطعًا من كتاب الجغرافيا للدكتور ڤانديك فقال الشيخ: "لعن الله ابن قرمط وكل طائفته"؛ ولو كان حسين بن حمدان الخصيبي قرمطيًا لما تجرأ الشيخ على قول ما قاله. يَلعنُ الدروزُ نشتكين الدَرَزي الذي يُنْسَبُ إليه اسمهم الذي يُعْرَفون به، وذكره معلمهم الأول حمزةُ بأقسى التعابير، ويضع الدروز حمزة في المرتبة التالية بعد الرب[IV] ولقَبُه "العقل الكوني"؛ وكان نشتكين قد تتلمذ على يدي حمزة إلا أنه استعجل في إعلان ألوهية الحاكم بأمر الله؛ لكي يبرز نفسه للناس؛ مما عَرّض أتباع الحاكم بأمر الله الذين غالوا في تعظيمه إلى المخاطر في أثناء الاضطرابات التي اندلعت في القاهرة نتيجةً لذلك. لا مكان لنشتكين الدَرَزي في الهيكل الهرمي لرجال الدين الدروز، ويقال إنهم يشتمونه واصفين إياه بالعِجْل.

على كل الأحوال، من الواضح وجود روابط وثيقةٍ بين النصيرية والقرامطة؛ كما هي الحال بين القرامطة والإسماعيلية الأصليين. في عام 971 ميلادي هاجم الحسنُ الأعصمُ حفيدُ الزعيم القرمطي المشهور أبي سعيد الخليفةَ الفاطمي المُعّز[V]، فكتب المُعّز لحسن قائلا إن عليه أن يتركه بسلامٍ؛ لأنهم يؤمنون بعقائد القرامطة[VI] نفسها. كان الخلفاء الفاطميون إسماعيليون، وتأسست الفرقة الدرزية على أيدي دعاةٍ إسماعيليين؛ ويقول عنهم دي ساسي: "قد يكونون فرعًا من القرامطة[VII]"؛ وبين كتابات الدروز توجد رسالةٌ إلى قوم أبي تراب (عليٍّ)، ويكنّيه النصيرية بالكنية نفسها[VIII].

يرتبط النصيرية بالقرامطة بالطريقة نفسها، فعلى سبيل المثال، يقال إن قرمط علّم تلاميذه أن الصلاة خمسين ركعةً في اليوم، وهو العدد نفسه -ناقصًا ركعةً واحدةً- الذي فرضَه الخصيبي أو قيل إنه فرضه على النصيرية[IX]. وكما هي الحال عند القرامطة، يُفرَضُ على النصيرية وضع خمس ما يملكونه سنويًا تحت تصرف إخوتهم، والاحتفال بعيد المهرجان والنوروز. ومع ما يبدو من وجود علاقةٍ بين النصيرية من جهةٍ، والقرامطة والإسماعيلية من جهةٍ أُخرى، فإن لعن الشيخ النصيري لفرقة القرامطة يدل على أن القرامطة والنصيرية ليسوا متطابقين تطابقًا تامًا. ولأن النصيرية

[I] يقصد الإسماعيلية. المترجم

[II] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 567.

[III] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 183.

[IV] يقصد الحاكم بأمر الله. المترجم

[V] معد المعز لدين الله. المترجم

[VI] شارل فرانسوا ديفريميري عن الإسماعيلية، "المجلة الآسيوية"، حيث ذكرت آنفًا.

[VII] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، المقدمة، ص 34. علاوةً على ذلك يتحدث كِتابٌ درزيٌ عن الإسماعيلية، ويسميهم قرامطة؛ "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 125. يميز حمزة بين الإسماعيلية والدروز، ويسمي القرامطة "موحدين"، ويقول إن قائديهم أبي سعيد وأبي طاهر خادما الله الحقيقيان، الجزء الأول، ص 240.

[VIII] المخطوطة، ص 117.

[IX] المخطوطة، ص 69. {"فالصلاة بالجملة والتفصيل هي السيد محمد ولها واحد وخمسون ركعةً لواحدٍ وخمسين شخص". المترجم}

إماميةٌ اثنا عشرية؛ فهم ينفصلون عن الإسماعيلية الذين لا يتبعون نفس خط الأئمة، بل يفترقون عنهم عند إسماعيل بن جعفر الصادق.

دعونا الآن نلخّص كل ما قيل عن أصل الفرقة، ونحاول تحديد زمن نشوئها التقريبي.

كما رأينا، يقول غريغوريوس أبو الفرج أن ذلك كان عام 891، وهو العام نفسه الذي ظهرت فيه فرقة القرامطة حسب هربلو[I]. قد يكون ذلك صحيحًا؛ باعتبار أن الإمام الأخير محمد غاب عام[II] 879، ومات الحسن العسكري قبل ذلك بعدة سنواتٍ. ولأن ظهور الفرقتين حصل في الوقت نفسه بعد غيبة الإمام الأخير بمدةٍ قصيرةٍ، أعتقد أن الفرقتين دعتا إلى العقائد نفسها تقريبًا في بادئ الأمر، وأن النصيرية كانوا القسم الذي اعتمد على النشر السري للدعوة بدلًا من الاعتماد على العنف العلني، أو أنهم القسم الشامي الذي هُزِم عام 901 بخسارة قُوّاده فدخل في طور الخمود. بينما يحتمل أن يكون الجزءُ الشرقيُ في البحرين قد انحرف بالتدريج عن المعتقدات الأصلية، وانشهر سلبًا أو إيجابًا باسم القرامطة.

قبل المضي في سرد تاريخ النصيرية الذي أصبح واضحًا بعد هذه النقطة، سيكون مفيدًا اطلاعكم على قائمة تُبين حكام بلاد الشام منذ الفتح المحمدي؛ فهذه التواريخ ستساعدنا على فهم تاريخ النصيرية[III].

بالعودة إلى سلسلة الرواة من حسن العسكري الذي أصبح إمامًا عام 868، إلى معز الدولة[IV] الذي دخل بغداد عام 945، نجد شخصين في تلك السلسلة[V] يفصلان بين الخصيبي وأبي شعيب بن نصير الذين تتلمذا على يدي الحسن العسكري ومعز الدولة. بالإشارة إلى ما سبق نجد أن المدة الممتدة بين عامي 900-920 هي المدة التي نشر فيها الداعية العظيم الخصيبي عقائد النصيرية في بلاد الشام؛ ويؤكد كتاب الدروز الذي أشرنا إليه، -وربما كتاباتٌ واعتباراتٌ أُخرى- وجود فرقة النصيرية نحو العام 1020 في الجبال التي تعد أماكن وجودهم الرئيسة في يومنا هذا، مع وجود آخرين من الفرقة نفسها في سهول ما بين النهرين. وفي جميع الأحوال، وجد الفرنج نصيريةً يعيشون في جبالٍ تسمى باسمهم في أثناء زحفهم إلى القدس عام 1099. ويقول غريغوريوس أبو الفرج[VI] الذي عاش بعد ذلك بقرنٍ واحدٍ متحدثًا عن ذلك الزحف في كتابه "التاريخ السرياني": "وفي أثناء تقدم الفرنج من مدينة المعرة (شرق جبال النصيرية) إلى جبل لبنان، قتلوا أعدادًا كبيرةً من الناس الذين يسمون نصيريةً".

يقول السمعاني[VII] إن وِلْيَمْ الصوري وجاك دي ڤيتري[VIII] ذكرا الحشاشين، ثم يضيف: "وهؤلاء هم النزارية[IX] (النصيرية)، وأنا مقتنعٌ بالزمان والمكان اللذين عاشوا فيهما، وكذلك مقتنعٌ أنهم ادعوا لنفسهم اسم النصارى". السمعاني مسيحيٌ

[I] مستشرق فرنسي 1625-1695. المترجم

[II] الرأي الغالب أن الغيبة بدأت عند وفاة الحسن العسكري عام 874 ميلادي، ويرى آخرون أنها بدأت عند ولادة محمد المهدي عام 869 ميلادي. وقد يكون التاريخ الذي ذكره المؤلف خطأً مطبعيًا. المترجم

[III] 633 الفتح المحمدي للشام، 661 معاوية مؤسس الأمويين، 750 العباسيون خلفاء بغداد، 969 الفاطميون خلفاء مصر، 1075 السلاجقة الترك، 1099 الصليبيون يأخذون القدس، 1187 صلاح الدين يأخذ القدس، 1258 هولاكو حفيد جنكيز خان يغزو الشام، وبعد مدةٍ قصيرةٍ يدحر السلطان بيبرس التتر إلى وراء نهر الفرات، 1291 المصريون يأخذون عكا آخر معاقل الصليبيين، 1401 تيمورلنك يغزو مصر، 1518 السلطان العثماني سليم يأخذ الشام.

[IV] أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي. المترجم

[V] سلسلة الرواة: "عن الأمير معز الدولة، عن محمد بن حيدرة بن مقاتل القطيعي، عن إبراهيم الرقاعي، عن السيد أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس الله روحه، ......". المترجم

[VI] معتمدًا على السمعاني، "المكتبة الشرقية"، يوسف سمعان السمعاني، الجزء الثاني، ص 320.

[VII] حيث ذكرت آنفًا.

[VIII] مؤرخ، وأسقف عكا (1160-1240). المترجم

[IX] خلط بعض الكتاب الغربيين بين الإسماعيلية والنصيرية. وربما كان السبب في ذلك امتزاجهم الجغرافي حسب رأي المؤلف، وأُرجح سببًا آخر لذلك، فبعد الخليفة الفاطمي المستنصر، انقسم الإسماعيليون إلى مستعلية ونزارية، وأصبح اسم إسماعيلي بلاد الشام "نزارية"، وهذا اللفظ يتشابه مع لفظ "نصيرية"، وخصوصًا عند من لا تحوي لغته حرف الصاد. المترجم

ماروني لبناني تفصلنا عنه مدة زمنية قصيرة، ولا قيمة له كمرجعٍ في هذا الموضوع؛ ومن المؤكد أن النصيرية كان لهم دائمًا اسمهم الخاص، وعقائدهم المختلفة عن الإسماعيلية أو الحشاشين.

وكما رأينا، فقد نقل ديفريميري[I] عن الذهبي أن الإسماعيلية أخذوا قلاعًا من النصيرية عام 1107، أو بعد ذلك، وقد أشرت إلى رواية النصيرية بهذا الخصوص[II]. يُنْسَبُ لراشد الدين الزعيم الإسماعيلي الكبير في النصف الثاني من القرن الثاني عشر كتابٌ إسماعيليٌ عن المعجزات؛ وكان عنوان أحد أبوابه "راشد الدين[III] يقضي على نصيريَين تجرءا على التحدث عنه بقلة احترام". في الواقع، يميز أبو الفرج وأبو الفداء بوضوحٍ بين الفرقتين اللتين كانتا في حالة عداءٍ مزمنٍ قديمًا في وادي التيم، كما قال بوركهارت[IV]، وكما ذكرنا آنفًا.

ورأينا كيف كان للصليبيين قلاعٌ في قلب بلادهم مثل قلعة بلاطوس في قضاء المهالبة، وقلعة المرقب وربما قلعة بني إسرائيل[V]. تناوب الصليبيون والمسلمون على امتلاك قلاع صهيون والشغور وأفاميا (قلعة المضيق)، وقلاعٍ أخرى شرق الجبال وغربها، وعلى أطرافها؛ مما يعني أن النصيرية في الجبال الشمالية خضعوا لهم بالكامل، في حين كان نصيرية الجنوب تحت الحكم المطلق للحشاشين في قلاعهم الحصينة مثل القدموس ومصياف وغيرهما. وقد ساعدهم الحشاشون في مواجهة أعدائهم المشتركين فهم ينسجمون معهم أكثر من انسجامهم مع الفرنج والمسلمين. وبسبب هذا الخضوع؛ لم يذكرهم المؤلفون المسلمون وغيرهم كثيرًا مثلما ذكروا الإسماعيلية الأقوياء والحشاشين؛ الذين خُلِطَ كثيرًا بينهم وبين النصيرية بسبب أصلهم ومناطق عيشهم المشتركة.

بناءً على ذلك، فقد بقوا خاضعين لجيرانهم المسلمين والصليبيين والحشاشين حتى سَلَّم حاكموهم قلاعَهم إلى بيبرس سلطان مصر المملوكي ومن خلَفَه بين العامين 1270-1285، وبقوا مع جيرانهم الإسماعيليين تحت حكم المسلمين حتى يومنا هذا.

زار الرحالة المغربي ابن بطوطة[VI] الشام بين العامين 1325-1350، وروى على نحو مسلٍ كيف تقبَّل النصيريون قوانين حكامهم الجدد، وقال متحدثًا عن جبلة: "وأكثر أهل هذه السواحل هم الفرقة النصيرية الذين يعتقدون أن عليًا بن أبي طالب إلهٌ، وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون، وكان الملك الظاهر ألزمهم ببناء المساجد في قراهم، فبنوا في كل قريةٍ مسجدًا بعيدًا عن العمارة، لا يدخلونه ولا يعمرونه، وربما أوَت إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم، فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون لا تنهق علفك يأتيك، وعددهم كثيرٌ". ثم يقول: "قصة: ذُكر لي أن رجلًا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية، وتكاثروا عليه، فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام، وكان يعين لهم البلاد، ويأمرهم بالخروج إليها، ويعطيهم من ورق الزيتون، ويقول لهم استظهروا بها فإنها كالأوامر لكم، فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها، فيقول له إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد؛ فيقول له أين الأمر، فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس. ثم أنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدأوا بمدينة جبلة، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفًا عند القتال، فغدوا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم، وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوا كيف شاءوا. واتصل الخبر باللاذقية فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعساكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فأتى أمير الأمراء بعساكره وتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا، وتحصن الباقون بالجبال، وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه دينارًا عن كل رأس إن هو حاول إبقاءهم، وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر [سلطان مصر 1310-1341]

I شارل فرانسوا ديفريميري، مستشرق فرنسي (1822-1883). المترجم

II وكذلك الإسماعيلية بالنسبة إلى السيد والپول.

III "المجلة الآسيوية"، نوفمبر-ديسمبر 1848.

IV "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة"، بوركهارت، ص 152.

V اسمها الشائع اليوم هو قلعة بني قحطان. المترجم

VI منشورات الجمعية الآسيوية، پاريس، 1853.

وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف؛ فراجعه ملك الأمراء وألقى له أنهم عمال المسلمين في حراثة الأرض، وأنهم أن قتلوا ضعف المسلمون لذلك فأمر بالإبقاء عليهم".

يتحدث أبو الفداء عن هذه الغزوة النصيرية لجبلة بالعبارات نفسها تقريبًا، ويقول إنها حدثت عام 717 هجرية أو 1317 ميلادي، قبل وصول ابن بطوطة إلى تلك البلاد بمدةٍ قصيرةٍ. ولكنه أعطى معلوماتٍ إضافيةً، فقال إن الرجل من جبال بلاطنس[I] (التي يسميها بلادنوس عندما تحدث عن أخذ صلاح الدين للقلعة من الفرنج[II]) ويقصد من جبل المهالبة شمال منطقة الكلبية، حيث المنزل الذي أُقيمُ فيه والذي تقع جبلة تحته على البحر. يقول أبو الفداء: "ظهر في جبال بلاطنس إنسانٌ من بعض النصيرية، وادعى أنه محمد ابن الحسن العسكري، ثاني عشر الأئمة عند الإمامية، الذي دخل السرداب المقدم ذكره"، ويضيف أنهم يعتقدون أن محمدًا[III] ما زال حيًا وأنه سيعود في نهاية الزمان. كان أبو الفداء صاحب حماة بين العامين 1310-1320، وقد عاصر الأحداث التي وصفها.

يتضح من تلك القصة أن أحوال النصيرية لم تتغير منذ 500 عامٍ، وبقيت أوضاعهم كما وجدها كل الرحالة الذين زاروهم. وحتى يومنا هذا يتداول النصيرية فيما بينهم القول إن الله أعطى أبناء المحمديين شيئًا، وأعطى المسيحيين شيئًا آخر، وأعطى أجدادهم "نصير" المهماز.

كما رأينا، لم يتغير وضع النصيرية منذ زمن ابن بطوطة، ولذلك، لا داعي للأسف على عدم قدرتنا على التحدث عن أحوالهم في الفترة الزمنية الممتدة بين وصفه لهم، ووصف الرحالة الفرنج من بعده.

تحدث عنهم القس موندريل[IV] في وصفه لرحلته من حلب إلى القدس عام 1697؛ فسرد قصةً مدهشةً عن استقباله في قرية الشلفاطية النصيرية في سهول اللاذقية، والتي بقيت حتى يومنا هذا على ما كانت عليه في ذلك الوقت؛ فيقول: "يعيش في ذلك الجزء من الجبال فوق جبلة قومٌ يسميهم التركُ نصيريةً، وعندهم طباعٌ غريبةٌ فريدةٌ، وهم يتبعون قاعدة عدم اتباع ديانةٍ معينةٍ؛ فيتلونون كالحرباء بلون ديانة الشخص الذي يتحدثون معه. يدّعون المسيحية مع المسيحيين، ويصبحون مسلمين صالحين مع الأتراك، ويهودًا مع اليهود؛ وبسبب تقلبهم الديني؛ لم يستطع أحدٌ اكتشاف هيئة ونوع وجدانهم؛ وكل ما يمكن تأكيده أنهم يصنعون نبيذًا جيدًا، ويشربون كثيرًا". ما يزال وصفُه لازدواجيتهم الدينية ينطبق عليهم حتى يومنا هذا، ولكن كروم العنب تدمرت بعد ذلك، ولم يعودوا يصنعون خمرًا، ولا شيئًا من هذا القبيل.

ذكر المبشرون اليسوعيون النصيريةَ، فكتبوا:[V] "في الوقت الحاضر، لا نعلم بوجود قومٍ في هذا المكان يسمون بالحشاشين، ويعيش الكسبية [يقصد الكلبية]، في الجبال التي تبعد يومين عن طرابلس، ويعيش النصيرية وهم قومٌ آخرون في السهول الساحلية، ومن المحتمل أن يكون الكسبية والنصيرية خليفة الحشاشين. يعيش القومان في البلد نفسه، ويوجد شبهٌ كبيرٌ بين ديانتيهما الحاليتين، والديانة التي اعتنقها الحشاشون.

"يجب اعتبار الكسبية والنصيرية أُمةً واحدةً، ولكن اختلفت أسماؤهم باختلاف البلاد التي يعيشون بها. يسمّى من يعيش في الجبال كسبية نسبة إلى البلد كسبية؛ أما الآخرون الذين يستوطنون السهول فيسمون نصيريةً بمعنى نصارى غير صالحين، وهذه إحدى صفاتهم؛ فقد اتخذوا لأنفسهم ديانةً من خليط عجيبٍ من المسيحية والمحمدية، جعلتهم يغالون في أسرارنا المقدسة".

[I] "تاريخ المسلمين"، جرجس بن العميد، الجزء الخامس، ص 320. {اسم الكتاب الأصلي "المجموع المبارك"، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية باختصار صموئيل پوركاس المتوفي عام 1626. المترجم}

[II] "المختصر في أخبار البشر"، أبو الفداء، الجزء الرابع، ص 89.

[III] محمد المهدي بن حسن العسكري. المترجم

[IV] هنري موندريل (1665-1701)، كاهنٌ من كنيسة إنجلترا، ومؤلف كتاب "رحلة من حلب إلى القدس في فصح العام 1697". المترجم

[V] "رسائل منورة ومشوقة"، الرهبنة اليسوعية. راجع "البحوث المسيحية في الشام والأرض المقدسة" تأليف جويت، ص 52 وغيرها.

وصف المبشرون اليسوعيون الدين النصيري، ولكننا سنترك ما قالوه عن هذا الموضوع إلى فصلٍ لاحقٍ. وقد استنتجوا ما يلي: "يتمسكون بعاداتهم بشدةٍ، مقتنعين بأن دين الموارنة [مسيحيو لبنان الذين ينتمون إلى كنيسة لبنان المرتبطة بكنيسة روما] ليس أفضل من دينهم، لوجود قواسم مشتركةٍ في الممارسات بين الدينين".

"بذل كثيرٌ من مبشرينا أقصى الجهود لكسب بعضهم، ولكنهم عنيدون، لا يستمعون إلا إلى معلميهم الشريرين، ولا يقبلون أية أفكارٍ غير تلك التي تربوا عليها؛ ما جعل مبشرينا ييأسون من تغيير دينهم، فاضطروا إلى نفض الغبار عن أقدامهم شهادةً عليهم[I]".

يقول ريتشارد پوكوك الذي سافر إلى الشام عام 1738: "تحدث كثيرون عن النصيرية الذين يعيشون في شمال شرق اللاذقية: يبدو أن ديانتهم هي بقايا ديانةٍ وثنيةٍ؛ يزدريهم الترك، ويبدو أنهم مولعون بالمسيحيين[II]".

يقول عنهم نيبور الذي سافر إلى الشام عام 1764، وحصل على أحد كتبهم: "يعيش أحد مقدميهم في البهلولية ليس بعيدًا عن اللاذقية، وهو الأقوى بين جميع النصيرية؛ ويوجد مقدمون آخرون في زمرين في بلد الخوابي [كَتَبَها شوابي] وفي قضاء صافيتا، وفي مناطق أُخرى في جبل الكلبية؛ وجميعهم يدفعون الجزية إلى باشا طرابلس [لأن اللاذقية كانت تتبع لطرابلس]، تدر مناطقهم أرباحًا كافيةً؛ فهم ينتجون القسم الأكبر من التبغ الذي يصدر من اللاذقية، غير أن أعدادهم ليست كثيرةً كأعداد الدروز، ولا يسكنون الجبال العالية مما جعلهم خاضعين للترك". إنه محقٌ في ملاحظته الأخيرة، ولكنه أخطأ في التي سبقتها؛ ذلك أن عدد النصيرية يبلغ ضعف عدد الدروز.

ويخبرنا ڤولني عنهم القصص نفسها في كتابه عن الرحلات[III] (كان حاضرًا في الشام بين العامين 1783-1785): "ينقسم النصيرية إلى عدة عشائر أو طوائف من أهمها الشمسية أو عبدة الشمس، والكلبية أو عبدة الكلب [عبارة سخيفة تدل على عدم توخيه الدقة]، والقدموسية [وهؤلاء إسماعيلية، وليسوا نصيرية]".

تحدث بوركهارت[IV] في رحلته من حلب إلى دمشق عام 1812 عن مروره بقرية بيصين النصيرية في سهول حماة في طريقه إلى مصياف. وبعد ذلك، قضى ليلته في قرية بشنين النصيرية في طريقه نحو الجنوب عَبْر الطرف الشرقي لجبال النصيرية. يغتنم بوركهارت الفرص للحديث عن النصيرية، وعنده بعض الالتباسات في الأسماء، فيقول: "ينقسمون (النصيرية) إلى طوائف، لا يُعرف عنها غير أسمائها، مثل الكلبية والشمسية والمقلادية[V]".

وبهذا نصل إلى زمننا الحاضر الذي سبقني فيه إلى جبال النصيرية الراحل الدكتور إيلي سميث، والمبجّل فريدريك والپول؛ عَبَرها الأول بسرعةٍ، وبقي فيها الثاني مدةً أطول؛ ومنذ عهدٍ قريبٍ، زار جزءًا من تلك الجبال المبشرُ المشيخي الأمريكي المبجل دودز (الذي استقر لتوه في اللاذقية مع زميله المبجل بيتي).

[I] تعبيرٌ مأخوذٌ من الإنجيل على لسان النبي عيسى عليه السلام مخاطبًا الحواريين: "سَتَرْفُضُ بَعضُ المُدُنِ أَنْ تُرَحِّبَ بِكُمْ. فَحِينَ تَخرُجُونَ مِنْ إحداها، انفُضُوا الغُبارَ عَنْ أقدامِكُمْ كَشَهادَةٍ ضِدَّهُمْ". ويقابله في لغتنا المعاصرة: "اغسلوا أيديكم منهم". المترجم

[II] "وصف الشرق وبلاد أُخرى"، ريتشارد پوكوك، الجزء الثاني، ص 208.

[III] "رحلات بلاد الشام ومصر"، قسطنطين ڤولني، الجزء الثاني، ص 6.

[IV] "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة"، بوركهارت، ص 156.

[V] وردت "Mokladye" في النص الإنجليزي، ووردت "Mokladjye" في كتاب "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة" الذي اقتبس منه المؤلف، ويقول فريدريك والپول الذي زار المنطقة عام 1850 في كتابه "النصيرية أو الحشاشون" إنها تسميةٌ تطلق على قطاع الطرق كافةً. ما زالت كلمة مقلاجي تستعمل في العراق بنفس المعنى، وتقال للشتيمة. المترجم

الفصل الرابع

المنهج الديني للفرق الإسلامية السرية المبتدعة

قبل الشروع في وصف عقيدة النصيرية، سنبدأ في إعطاء لمحةٍ عن الفرق السرية المبتدعة المرتبطة بها؛ وبهذا العمل نكون قد وفّينا عنوانَ الكتاب حقهَ، وأقصد تجلّي ما يعرف باسم "اللغز الآسيوي العظيم" الذي يقابله ويماثله لغز الحاضر: الماسونية.

ذكرنا سابقًا أن تلك الطوائف قد نشأت لاعتباراتٍ سياسيةٍ ودينيةٍ؛ فقد استندت مساعي ضمان خلافة عليٍّ وأبنائِه إلى حقه المؤكد في الإمامة؛ وكلما ضعف الأمل في الحصول على الخلافة، ازداد الإصرار على الحفاظ على الإمامة.

لكن تلك الاعتبارات، وما أنتجت من غلوٍ في تعظيم عليٍّ وآل بيته، لم تكن الوحيدة التي أفسدت الإسلام، فقد سبب الاحتكاك مع الفرس المجوس ضررًا مماثلًا؛ ذلك "أنهم أفسدوا المحمدية، بسبب عجزهم عن قهر العرب"، حسب ما قاله أحد المؤلفين العرب الذي اقتبس من كتبٍ يصعب الحصول عليها[I].

يقول دي ساسي: "نادرًا ما تَجذّرَ الإسلام في المناطق التي كانت خاضعةً للإمبراطورية الساسانية والديانة المجوسية، بل سبب الإسلام انشقاقًا سياسيا ودينيًا، وأشعل نار التعصب[II]".

"عندما أجبر السفاحُ عمر الأُمة الفارسية على الإسلام، أعلن الفاتح أنه سيقتل بحد السيف من لا يقبل الإسلام قبولًا مطلقًا. أبقى هذا التحولُ السريع للدين العقائدَ الحقيقيةَ لأغلبية الأُمةِ على حالها؛ فبدأوا يعدّون الأئمة مثل "بوداسف[III]"، بما يرتبط في ذهنهم من أفكارٍ، وكما سنرى لاحقًا، ينتشر هذا المبدأ عند جميع طوائف الشيعة، مع أنهم يختلفون على عدد المرات التي تجسّد فيها. مفهوم الإمام عند الشيعة هو نفس مفهوم اللاما العظيم عند التبتيين، ومفهوم "بوداسف" عند البورميين[IV]".

يقول دي ساسي: "تعود أُصول الاعتقاد باتحاد الإله بعليٍّ والأئمة من نسله -إذا لم أكن مخطئًا- إلى منهجٍ فارسيٍ قديمٍ، ويجب أن ننسب أصل تناسخ الأرواح إلى الديانات القديمة في شرق آسيا، وربما أسهمت دراسةُ كُتُبِ الفلاسفة الإغريق في تقوية ونشر تلك الفكرة بين المسلمين[V]". من الضروري أن نلاحظ أن الاحتكاك بالمجوس كان سهلًا، خصوصًا في المناطق المتاخمة للحدود مع فارس، وقد دفع بهم الإسكندر الأكبر إلى أرض البحرين[VI] العربية مع الصابئة الذين أسهموا أيضًا في تكوين منهجٍ غير متجانسٍ للفرق المبتدعة. ولشرح كلمات دي ساسي الأخيرة في الاقتباس السابق؛ سأقتبس ما قاله المقريزي: "وقد كان المأمون عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس لما شغف بالعلوم القديمة، بعث إلى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة، وأتاه بها في أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من الهجرة [825 ميلادية]؛ فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار، وأقبلت المعتزلة، والقرامطة، والجهمية، وغيرهم، عليها، وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها. فانجر على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع، وزادتهم كفرًا إلى كفرهم. فلما قامت دولة

I "سفينة الراغب ودفينة المطالب"، محمد راغب باشا، مطبعة بولاق، القاهرة، ص 216.

II "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، المقدمة، ص 27.

III الشخص الذي يريد تحقيق البوذية. المترجم

IV "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 152. "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، المقدمة، ص 31.

V "وصف مصر"، الجزء الثاني، ص 258، القاهرة. {يقصد "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي، طبعة بولاق. المترجم}

VI البحرين اسمٌ قديمٌ للمنطقة الممتدة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية من جنوب البصرة إلى شمال عُمان. المترجم

بني بويه ببغداد في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، واستمروا إلى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وأظهروا مذهب التشيع، قويت بهم الشيعة، وكتبوا على أبواب المساجد في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من أغضب فاطمة[I]، ومن منع الحسن أن يدفن عند جده[II]، ومن نفى أبا ذر الغفاري[III]، ومن أخرج العباس من الشورى[IV]. فلما كان الليل حكه بعض الناس، فأشار الوزير المهلبي أن يكتب بإذن معز الدولة، لعن الله الظالمين لأهل البيت، ولا يذكر أحد في اللعن غير معاوية. ففعل ذلك وكثرت ببغداد الفتن بين الشيعة والسنية، وجهر الشيعة في الأذان بحي على خير العمل في الكرخ، وفشا مذهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر، وذهب إليه جماعةٌ من مشاهير الفقهاء، وقوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقيا وبلاد المغرب، وجهروا بمذهب الإسماعيلية، وبثوا دعاتهم بأرض مصر، فاستجاب لهم خلقٌ كثيرٌ من أهلها، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائةٌ، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام، فانتشرت مذاهب الرافضة في عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وبغداد، وجميع العراق، وبلاد خراسان، وما وراء النهر مع بلاد الحجاز، واليمن، والبحرين، وكانت بينهم وبين أهل السنة من الفتن والحروب والمقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته، واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، والخوارج، والروافض، والقرامطة، والباطنية، حتى ملأت الأرض، وما منهم إلا من نظر في الفلسفة، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره، فلم تبق مصر من الأمصار ولا قطر من الأقطار، إلا وفيه طوائف كثيرةٌ ممن ذكرنا".

ذكرت سابقًا أنه في زمن عليٍّ، أضفى عبد الله بن سبأ وغيره على عليٍّ صفاتٍ إلهيةً، وأن المقنع أيضًا في زمن الخليفة العباسي المهدي "قال بتناسخ الأرواح[V]"، "وأضاف إلى التناسخِ تجسُّدَ الطبيعة الإلهية، وهي عقيدةٌ نشأت في الهند، ثم تلقفها الغلاة [أتباع عليّ المغالين] فأصبحت أحد معتقداتهم الأساسية[VI]".

من المفيد التوقف لشرح عقيدة الحلول، التي تعني نزول الإله بهيئة بشرٍ، بدلًا من تجسده أو اكتسابه لحمًا بشريًا؛ إذ يبدو أن النصيرية يؤمنون بالعقيدة الأُولى. وسنطلب من القارئ الانتباه؛ لأننا سنشير لاحقًا إلى ما سنقوله الآن.

يقول الشهرستاني عن الصابئة[VII]: "قالوا إن الصانع المعبود واحدٌ وكثيرٌ، أما واحد، ففي الذات، والأول، والأصل، والأزل، وأما كثيرٌ فلأنه يتكثر بالأشخاص في رأي العين، وهي المدبرات السبعة، والأشخاص الأرضية الخيرة العالمة الفاضلة، فإنه يظهر بها، ويتشخص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته. وربما يكون ذلك بحلول ذاته، وربما يكون بحلول جزءٍ من ذاته، على قدر استعداد مزاج الشخص".

كان التفسير الباطني للقرآن السبيلَ الوحيد أمام الفرق المبتدعة لتربط نفسها بالإسلام، بمعنى تعليّم المعنى الباطن بدلًا من المعنى الظاهر؛ ويقال إن مؤلف هذه التفاسير محمد بن إسماعيل[VIII] حفيد جعفر الصادق، ويحتمل أنه تعلمها من جده. تسمى هذه التفاسير الباطنية "التأويل"، ويقابلها "التنزيل"، وهو التفسير الحرفي للقرآن الذي أُنزل على محمدٍ ﷺ. فتح التأويل الباب واسعًا لمختلف أنواع البدع، وأدى إلى ظهور تفاسيرَ بعيدةٍ عن فرائض الإسلام، كما قال متذمرًا أحدُ الكتاب المسلمين. سُمِّيَ من ادّعوا معرفة علم الباطن "الباطنية"، وتشمل تلك التسمية مجموعةً كبيرةً من الفرق التي يقال "إنها تمسكت بقوله تعالى[IX]: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ

[I] يقصد أبو بكر الصديق. المترجم

[II] يقصد عائشة بنت أبي بكر. المترجم

[III] يقصد عثمان بن عفان. المترجم

[IV] يقصد عمر بن الحطاب. المترجم

[V] "تاريخ مختصر الدول"، ابن العبري، تحقيق پوكوك، ص 225.

[VI] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 27.

[VII] اقتبسها دي ساسي في مقدمة كتاب "عرض ديانة الدروز"، ص 36.

[VIII] الإمام السابع عند الإسماعيلية. المترجم

[IX] سورة الحديد، الآية رقم 13. المترجم

مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)"[I].

بعد إخفاق ثورة المقنع وبابك[II]، أسس عبد الله بن ميمون القداح الفرقة الإسماعيلية نسبةً إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي وُظّف اسمه لإعطاء المنهج مرجعيةً؛ وكان الهدف من ذلك الحصول على نفوذٍ سياسيٍ عن طريق الدعوة السرية لنشر مذهبهم، بعد أن أخفقوا في تحقيق ذلك بالعنف. "حصلت محاولاتٌ مشابهةٌ في عصورٍ مختلفةٍ، وأذكر على سبيل المثال مجالس الكهنة الهنود والمصريين، وجمعية المجوس التي هزت عرش فارس أكثر من مرةٍ، والجمعيات الفيثاغورية في جنوب إيطاليا وصقلية، والباخوسيين الذين وصفهم ليڤي[III] وصفًا فريدًا، وفرسان الهيكل في العصور الوسطى، واليسوعيين في زمننا الحاضر، وكل هؤلاء أمثلةٌ على تنظيماتٍ سريةٍ تكونت باسم الدين، لكن هدفها كان تأسيس تنظيمٍ يتمتع بنفوذٍ سياسيٍ كاملٍ[IV]".

قسم عبد الله بن ميمون دعوته إلى "سبع مراحلَ[V] على طريقة فيثاغورس[VI] والفلاسفة الهنود، يتدرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها، ولا يرجو ثوابًا، ولا يخشى عقابًا؛ ويرى أنه وأهل نحلته على هدىً وجميع من خالفهم أهل ضلالةٍ. وعيّن دعاةً، وبعثهم لانتقاء الأتباع وإدخالهم في المرحلة الدينية المناسبة لمقدار انحلال وارتباك كلٍ منهم. ولم تكن ادعاءاته بالانتساب إلى محمدٍ بن إسماعيل سوى غطاءً سياسيًا، ولم يكن رسله مجرد أنصارٍ له، بل كانوا في السر رسلًا للجريمة والمعصية[VII]".

زاد الإسماعيليون الغربيون عدد الدعوات إلى تسعةٍ في زمن خلفاء مصر الفاطميين[VIII]، وأصبحت معروفةً، فوصفها المؤرخ العظيم المقريزي[IX]، وسأبينها لكم مثلما كانت تُدَرَّس في مجالس القاهرة: "يعدّ وصف المقريزي لطريقة الترويج لتلك الدعوات أقدم وثيقةٍ ثمينةٍ عن تاريخ الجمعيات السرية في الشرق، وقد حذا الغرب حذوها فيما بعد[X]".

"الدعوة الأُولى[XI] هي الأطول والأصعب، وهي ضروريةٌ لبث ثقة المدعو في علم الداعية، ولحمله على أخذ عهدٍ مقدسٍ بأن ينذر نفسه للعقيدة السرية بإيمانٍ مطلقٍ وطاعةٍ غير مشروطةٍ. ولتحقيق هذا الغرض؛ يُعمل كل شيءٍ ضروريٍ لإرباك العقل بتناقضه مع فرائض الدين، وإظهار عبثية القرآن عن طريق طرح أسئلةٍ وشكوكٍ خبيثةٍ[XII]، واستخراج دلالاتٍ عميقةٍ من المعاني الواضحة التي تمثل القشرة، على اعتبار أن الدلالات العميقة هي اللّب. وكلما ازداد المدعو اندفاعًا وفضولًا، ازداد إصرار الداعية على رفض تقديم حلٍ لتلك الصعوبات، حتى يأخذ منه عهدًا غير مقيدٍ؛ وبعد ذلك يُنقَلُ إلى الدعوة الثانية. وفيها يُغرس في ذهن المدعو الاعتقاد بالأئمة، وألوهية تعيينهم، وأنهم مصدر كل العلوم. وحين يثبت اعتقاد المدعو بالأئمة، يتعلم في الدعوة الثالثة عددهم الذي لا يمكن أن يزيد على سبعةٍ مقدسين؛ فإن الله جعل الكواكب السيارة سبعةً وجعل السماوات سبعًا، وجعل الأرضين سبعًا، والبحار سبعةً، والألوان سبعةً،

[I] "سفينة الراغب ودفينة المطالب"، محمد راغب باشا، ص 216.

[II] وردت "Baber" في النص الإنجليزي، وأعتقد أنه يقصد بابك الخرمي. المترجم

[III] يقصد المؤرخ الروماني تيتوس ليڤيوس. المترجم

[IV] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 172.

[V] ينبغي لمن يود الدخول في الدين والاطلاع على أسراره أن يتدرج في تلك المراحل الواحدة تلو الأُخرى. المترجم

[VI] آمن فيثاغورس وأتباعه بالتناسخ، وكان للرقم 7 خصوصيةٌ كبيرةٌ عندهم؛ مستشهدين بأن الكواكب سبعةٌ، والألوان سبعةٌ، والسلم الموسيقي سباعيٌ، ودورة الحياة تتجدد كل سبع سنواتٍ؛ وآمن فلاسفة آخرون بالشيء نفسه. المترجم

[VII] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر ص 29.

[VIII] سأذكر المراحل السبع بالترتيب: التفرس، التأنيس، التشكيك، الربط، التدليس، التأسيس، التأويل؛ أما المراحل التسع عند الإسماعيلية الغربيين فهي: التفرس، التأنيس، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، التأسيس، الخلع، السلخ. المترجم

[IX] نجد أهم وصفين في "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي، و "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري. المترجم

[X] المصدر نفسه، ص 33.

[XI] اقتديت بڤون هامر لوصف مراتب الدعوة، "تاريخ الحشاشين"، ترجمة وود، ص 34.

[XII] راجع مقدمة "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي.

والأصوات الموسيقية سبعةً، والمعادن سبعةً، وعين سبعة أمَّةٍ من أفضل خلقه: عليّ، والحسن، والحسين، وعليّ زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وابنه إسماعيل آخر السبعة. وتنص الدعوة الرابعة على أنه منذ بداية العالم وُجِدَ سبعةٌ من الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لأحكامها، أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال الناطقين بالأمور، وكل واحدٍ من هؤلاء الأنبياء لا بد له من صاحبٍ يأخذ عنه دعوته، ويكون خليفةً له من بعد وفاته، ثم كذلك لكل مستخلفٍ خليفةٌ إلى أن يأتي منهم على تلك الشريعة سبعة أشخاصٍ يقال لهم "الصامتون" لأنهم لم يظهروا بجلاءٍ[I]. ويسمى الأول من هؤلاء السبعة: السوس أو الأساس، بمعنى نواب الأنبياء الناطقين. سأسرد عليكم أسماء الأنبياء الناطقين السبعة وأساس كلٍ منهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، إسماعيل بن جعفر[II] الذي سمّي صاحب الزمان، وقائم الزمان، لأنه الأخير. وأسماء معاونيهم[III] السبعة: شيث، سام، إسماعيل بن إبراهيم، هارون وبعده يوشع، شمعون، عليّ، وأخيرًا، محمد بن إسماعيل[IV]. يتضح من الترتيب المتقن للأمّة -الذي لُقب الإسماعيليون بالسبعية لأجله- بأنهم سَموا أول الصامتين فقط في زمن كل نبيٍ، ولأن محمد بن إسماعيل توفي منذ مئة عامٍ فقط[V]؛ فقد كان الدعاة أحرارًا في تقديم من يشاؤون على أنه صامتُ هذا العصر. وتُوضِّح الدعوة الخامسة مصداقية العقيدة في أذهان المستمعين؛ ولهذا فإنه مع كل إمامٍ قائمٍ في كل عصر حججٌ منتشرون في جميع أرجاء الأرض لنشر الدين، وعدد هؤلاء الحجج اثنا عشر رجلًا، فالرقم 12 هو الأفضل بعد الرقم 7، ولذلك يوجد 12 برجًا و12 شهرًا و12 سبطًا لبني إسرائيل و12 عظمًا في كل إصبعٍ من أصابع اليد، باستثناء الإبهام، وهَلُمَّ جَرًّا.

"بعد الدعوة الخامسة تُستعرَضُ تعاليم الإسلام، وفي الدعوة السادسة يُبيَّن وجوب إخضاع الأحكام المفروضة إلى العام والفلسفي؛ وأن تُعدَّ معتقدات أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس[VI] أدلةً وبديهياتٍ. وتعد هذه الدعوة مملةً؛ فلا يُسمح للمدعو بالمرور إلى المرتبة السابعة بمعنى العبور من الفلسفية إلى الروحانية إلا بعد تشبعه بحكمة الفلاسفة. هذه هي العقيدة الروحانية الشرقية، وهي عقيدة "الاتحاد[VII]" التي ظهرت في أعمال الصوفية. في الدعوة الثامنة تُنسف التعاليم الدينية، ويُنَوّر التلميذ بعدم لزوم الرسل والأنبياء، وعدم وجود جنةٍ ولا نارٍ، وعدم أهمية الأعمال التي ليس لها ثوابٌ ولا عقابٌ، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ وبذلك يصبح جاهزًا للمرتبة التاسعة والأخيرة، فيصبح الأداة العمياء لتعطشٍ متقدٍ لحب السلطة. يُختصر هذا المنهج بالعبارة التالية: "لا تصدق أي شيءٍ، وتَجَرأ على كل شيءٍ". عبارةٌ دمرت مبادئ الدين والفضيلة؛ ولا هدف لها سوى تنفيذ مشروعاتٍ طموحةٍ يقودها نوابٌ مناسبون لهذه المهمة، يجرؤون على كل شيءٍ، ولا يقدسون أي شيءٍ، فهم أفضل أداةٍ، يمكن استخدامها لتنفيذ سياساتٍ شيطانيةٍ".

كان القرامطة فرعًا من الإسماعيليين الأوائل، كما رأينا سابقًا، ويقول هربلو[VIII] عن مؤسس القرامطة أنه علّم تلاميذه أن يصلوا خمسين مرةً في اليوم الواحد، وسمح لهم بأكل أشياء محرمةٍ على المسلمين. وفسر القرآن تفسيرًا باطنيًا فقال إن الصلاة رمزٌ لطاعته، وأن الصوم رمزٌ للصمت، والتزامِ السريةِ مع الغرباء من غير أتباع الفرقة، وأن التعاليم

[I] أتى النبي الناطق آدم (وهو أول الأنبياء الناطقين السبعة) بشريعةٍ، ثم أتى من بعده سبعة أنبياء صامتين على الشريعة نفسها، كان أولهم شيث، وأول الأنبياء الصامتين يسمى الأساس؛ وبتوالي سبعة أنبياءٍ صامتين بعد الناطق، ينتهي الدور الأول، ويبدأ الدور الثاني بنبيٍ ناطقٍ جديدٍ (نوح) يأتي بشريعةٍ تنسخ ما قبلها، ثم يتبعه سبعةٌ صامتون (أولهم سام)، فينتهي بذلك الدور الثاني، وهلم جرًا، حتى وصلت في الدور السابع للنبي الناطق محمد بن إسماعيل بن جعفر. المترجم

[II] المعروف من كتب الإسماعيلية أن الناطق السابع هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وليس إسماعيل بن جعفر كما ورد أعلاه، فإسماعيل آخر الصامتين قبل ابنه الناطق محمد بن إسماعيل، وبذلك ينسخ محمد بن إسماعيل شريعة جده محمدٍ ﷺ، ويلغيها، آتيًا بشريعة الإسماعيلية الجديدة. المترجم

[III] يقصد الأساس (أول الأنبياء الصامتين). المترجم

[IV] محمد بن إسماعيل نبيٌ ناطقٌ وليس صامتًا. المترجم

[V] نحو العام 813 ميلادية. المترجم

[VI] يؤمن الثلاثة بالتناسخ مع وجود فروقاتٍ في التفاصيل. المترجم

[VII] المقصود اتحاد الله بالإنسان، فيصبح الاثنان شيئًا واحدًا، وهو يختلف عن "الحلول" الذي يعني حلول الله في الإنسان دون أن يتحد بمن حلّ فيه. المترجم

[VIII] "مقالة عن القرامطة"، "المكتبة الشرقية"، يوسف سمعان السمعاني.

التي تحرم الزنا، ترمز إلى الولاء للإمام؛ وبذلك يقع في جريمة الزنا كل من يبوح بتعاليم دينه، أو من لا يطيع شيخَه. وبدلًا من إعطاء العشر[I] للفقراء، كما يفعل المسلمون، يُفرَض عليهم دفع الخمس للإمام.

يتحدث ڤون هامر عن قرمط بطريقةٍ مشابهةٍ[II]: "لم تُحَرِّمْ عقيدته أي شيءٍ، بل أباحت كل شيءٍ، وقالت بعدم وجود أهميةٍ لأي شيءٍ؛ فلا معنى للثواب والعقاب؛ فقوضت بذلك أركان المحمدية، لأنها عدّت كل أوامرها مجازيةً، ومجرد غطاءٍ لمبادئ وتعاليمٍ سياسيةٍ. وكذلك فإن كل شيءٍ يُردُّ إلى الإمام المعصوم الطاهر النزيه الذي لا عرش له، ويقولون إنهم يبحثون له عن عرشٍ، فيشنون الحروب على الأُمراء الصالحين والطالحين دون تمييزٍ؛ بذريعة السعي للأفضل؛ وذلك لفك خيوط الدين والحكم المتشابكة. ففرضُ الصلاة لا معنىً له سوى طاعة الإمام المعصوم، والزكاة تعني أداء العشر له، والصوم هو الحفاظ على السر السياسي لإمام آل إسماعيل. كل شيءٍ يعتمد على التأويل، ولولاه لما كان لكلمات القرآن المنزلة معنىً ولا قيمةٌ؛ ولا يكمن الدين في الظاهر بل في الباطن". يقول النويري إن ابن الأثير الذي عاش بين[III] 1159-1231 وصف كتابًا للقرامطة؛ وكذلك فعل بيبرس المنصوري وأبو الفداء اللذان أخذا الرواية عن ابن الأثير، حسب اعتقاد دي ساسي. وذكر غريغوريوس أبو الفرج هذا الكتاب في تاريخه العربي[IV]، ونسبه إلى قرمط، أما في تاريخه السرياني، فقد نسبه إلى مؤسس الفرقة النصيرية.

وهذا ما اقتبسه المؤرخون من هذا الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان[V]، وهو من قريةٍ يقال لها نصرانة، داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة، وهو جبريل؛ وذكر أن المسيح تصور له في جسم إنسانٍ، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك يحيى بن زكريا، وإنك روح القدس[VI]".

اقتبس مؤرخون كثيرون هذا النص بنسخه المتنوعة، ولكن دي ساسي يشك في أنه مأخوذٌ من كتابٍ قرمطيٍ، بحاله هذه على الأقل؛ فمن المؤكد أنهم لم يعترفوا بإمامة محمدٍ بن الحنفية ابن زوجة عليّ[VII]؛ بينما اعترفوا بإمامة أبنائه من فاطمة. ويضيف دي ساسي أن اسم الفرج بن عثمان لم يذكر في أيٍ من كتب الإسماعيلية[VIII]. ويقال إن قرمط علّم تلاميذه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها حسب ما روى بيبرس المنصوري، وينسب إليه ما يلي: يبدأ باقتباس آيةٍ من القرآن: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)[IX]"، فيأوله قائلًا: "ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرّفوا عبادي

[I] أعتقد أنه قصد ربع العشر، وهو مقدار الزكاة عند المسلمين. المترجم

[II] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 29، 30.

[III] قد تختلف تواريخ الميلاد والوفاة القديمة وغيرها، باختلاف المصادر، وخصوصًا تواريخ الميلاد، في ظل عدم وجود سجلاتٍ، ووثائق رسميةٍ، واحتفالاتٍ بتلك المناسبة، أما أصحاب الأثر والنفوذ، فيحتمل أن تكون تواريخ وفاتهم أدقُّ، بسبب وجود من كتب عنهم. يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء" عن ابن الأثير: "مولده بجزيرة ابن عمر في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة"، مما يعني أنه ولد عام 1149 ميلادي، وبذلك يكون الفارق عشر سنين. المترجم

[IV] يقصد كتاب "تاريخ مختصر الدول". المترجم

[V] يقول ابن خلدون في تاريخه إن الفرج بن عثمان القاشاني هو الداعية القرمطي كرويه بن مهدويه نفسه أو زكرويه بن مهرويه، وحسب كتاب "الأعلام" لخير الدين الزركلي، الفرج بن عثمان هو حمدان أو قرمط نفسه. المترجم

[VI] الاقتباس من كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، وهذه تتمته: "وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحًا رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، أشهد أن عيسى رسول الله؛ أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن أحمد ابن محمد بن الحنيفة رسول الله، وأن يقرا في كل ركعة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنيفة، والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة: الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه". المترجم.

[VII] خولة بنت جعفر الحنفية، زوجة عليٍّ بن أبي طالب. المترجم

[VIII] "عرض ديانة الدروز"، الجزء الأول، ص 177، الحاشية.

[IX] سورة البقرة، الآية رقم 189. المترجم

سبيلي". ومما فرضَه صيامُ يومين في السنة، وهما المهرجان والنوروز، وحرم نبيذ التمر وحلل الخمر[I]، وقال إنه لا غسل من جنابةٍ إلا الوضوء[II] كوضوء الصلاة. وأن من حاربه وجب قتله، ولا يؤكل كل ذي ناب، ولا كل ذي مخلب.[III]

في ذلك العصر ظهرت الفرقة النصيرية والفرقة الإسحاقية، وقد وضعهما الشهرستاني ومَرَتشي[IV] في خانةٍ واحدةٍ، ورأينا أن مؤسسها إسحاق[V] هو ألد أعداء النصيرية؛ لأنه أراد قتل أبي شعيب بن نصير داعيتهم الأول.

يعتقد مَرَتشي أن لهم عقائد النصيرية نفسها، وأن كرههم لبعضٍ من نوع "الكره العقائدي" الذي يشتد كلما تقاربت الأفكار العقائدية. يقول[VI] تحت العنوان الثاني عشر في باب الفرق[VII]: "الإسحاقية والنصيرية: إنَّ ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمرٌ لا ينكره عاقلٌ، إما في جانب الخير كظهور جبريل عليه السلام لبعض الأشخاص والتصور بصورة أعرابيٍ، والتمثل بصورة البشر، وإما في جانب الشر كظهور الشيطان بصورة الإنسان حتى يعمل الشر بصورته، وظهور الجن بصورة بشرٍ حتى يتكلم بلسانه، فلذلك نقول: إنّ اللّه تعالى ظهر بصورة أشخاصٍ، ولما لم يكن بعد رسول اللّه شخصٌ أفضل من عليٍّ عليه السلام، وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم، وأخذ بأيديهم".

ويشير المقريزي إلى الإسحاقية "الذين يقولون إن الصلاة لا تُقبل إلا وراء إمامٍ[VIII]".

ونصل الآن إلى الحديث عن الدروز الذين تفرعوا عن الإسماعيلية الغربية.

كان الحاكمُ بأمر الله -إلهُ الدروز في صورة بشرٍ- سلطانَ مصرَ قبل نهاية القرن العاشر بقليلٍ[IX]، واتسمت حياته بالسخافات، وفي آخر مراحلها، بدأ بعض الإسماعيليين بإضفاء صفاتٍ إلهيةٍ عليه. أظهر نفسه في حياته كأحد أتباع الفرقة الإسماعيلية، ومن جملة ما أمر به، كان منع بيع الزبيب والسمك الذي لا قشر له[X]، وغيرها من الأشياء. غَيّرَ نشتكين الدَرَزي دينه على يدي حمزة[XI]، ووضع كتابًا، وصف فيه نفسه بأنه "سيف الزمان[XII]"، وأن للحاكم بأمر الله قدراتٌ إلهيةٌ، وأن روح آدم انتقلت إلى عليٍّ، ثم إلى الحاكم بأمر الله، فاندلعت اضطراباتٌ في القاهرة إثر قراءة كتابه هذا في أحد جوامعها؛ فهرب إلى الشام، حيث بشر بعقيدته لسنواتٍ، ويقال إنه مات في قتالٍ مع التتار.

ويقول دي ساسي إن المؤسس العظيم للديانة الدرزية حمزة نعت في كتبه نشتكين الدَرَزي بالخنزير والعجل، وغيرهما من الأوصاف[XIII]. قَدِمَ عبد الله بن ميمون القداح مؤسس الفرقة الإسماعيلية من إقليم خوزستان الحدودي في فارس،

[I] المصنوع من العنب. المترجم

[II] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 121.

[III] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، ص 178. "تاريخ مختصر الدول"، ابن العبري، ص 275، 276.

[IV] "مقدمة إلى ضحد القرآن"، لويجي مرتشي، الجزء الثالث، ص 84.

[V] إسحاق بن محمد النخعي الأحمر. المترجم

[VI] يقصد الشهرستاني. المترجم

[VII] صنف الشهرستاني النصيرية والإسحاقية في بابٍ واحدٍ، وكان الباب الحادي عشر والأخير تحت عنوان الغالية (من الغلو). المترجم

[VIII] "وصف مصر"، الجزء الثاني، ص 354. {يقصد "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي. المترجم}

[IX] حكم بين 996-1021. المترجم

[X] لا يبدو تحريم بيع السمك معدوم القشر من بنات أفكاره، فأكله محرمٌ أيضًا عند الشيعة الاثني عشرية. المترجم

[XI] تتلمذ نشتكين على يدي حمزة، ثم تمرّد عليّه، وأصبح مغضوبًا عليّه؛ ولذلك يكره الدروز الانتساب إليه، ويفضلون اسم "الموحدين" على "الدروز"، ولكن أغلبية الناس لا تعلم تلك الحقيقة، ولا تقصد الإساءة عندما تسميهم دروزًا. المترجم

[XII] أعتقد أنه سمى نفسه "سيف الإيمان"، فقد قال حمزة الزوزني في رسالة "الغاية والنصيحة": " وكذلك الدرزي سمّي روحه في الأول سيف الإيمان، فلما أنكرت عليه ذلك وبيّنت له أن هذا الاسم محال وكذب لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف يعينه، بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف واعزازه؛ فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد في عصيانه". المترجم

[XIII] وصفه بالخنزير في "رسالة الرضى والتسليم": "وأمّا الخنزير فهو الضدّ الروحاني المشبّه روحه بمولانا جل ذكره (يقصد الحاكم بأمر الله)، وقد دعوته ورضي بذلك، وأقرّ لي بالعبوديّة ضرورةً لا ديانةً". كما وصفه بالعجل في رسالة "البلاغ والنهاية في التوحيد": "والعجل هو ضدّ وليّ الزمان الذي

وقَدِمَ حسن الصباح مؤسس فرقة الحشاشين من إقليمٍ فارسيٍ آخر، وكان نشتكين الدَرَزي وحمزة بن عليّ مؤسسا الفرقة الدرزية فارسيين.

يمكن تلخيص المنهج الدرزي بما يلي: ظهر الحاكم بأمر الله على هيئة بشرٍ عشر مراتٍ، في المرة الأُولى تجسد باسم "البار"، وكان أفضل ظهورٍ له في المرة الأخيرة حين ظهر باسم "الحاكم بأمر الله"، ويسمى الجسد البشري الذي يظهر فيه الإله "القميص[I]".

يلقِبُ الدروز محمد بن إسماعيل بالناطق السابع[II] والمشرِّع، وعنده علم التأويل والباطن (تفسير المعاني الخفية للقرآن)، ويوجد سبعة أئمةٍ مستورين[III] بين إسماعيل وعبد الله أبو سعيد المسمّى عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية.

ويقول أحد كتبهم الدينية إن حمزة ظهر سبع مراتٍ في العالم، ويشكك دي ساسي في أن ذلك عقيدةٌ درزيةٌ أصيلةٌ؛ لأنه لم يجد عدد مرات الظهور في كتاباتهم القديمة. وكان الظهور حسب الترتيب التالي:

1. في زمن آدم ظهر في شطنيل أو آدم الصفا
2. في زمن نوح ظهر في فيثاغورس[IV]
3. في زمن إبراهيم ظهر في داوود
4. في زمن موسى ظهر في شعيب
5. في زمن عيسى ظهر في مسيح الحق
6. في زمن محمد ﷺ ظهر في سلمان الفارسي
7. في زمن سعيد (عبيد الله) ظهر في صالح

يلخص دي ساسي[V] ما ورد في كتابات الدروز عن شخص الحاكم بأمر الله، وسأطلب من القارئ الانتباه جيدًا؛ لأن ما يقولُونه عن الحاكم ينطبق على ما يقولُه النصيرية عن عليٍّ، بعد عمل ما يلزم من التبديل والتعديل.

"أستنتج مما سبق أن ناسوت الإله كان هو الشخص نفسه في جميع تجلياته؛ ولو أنه ظهر بصورٍ مختلفةٍ، وأن اللاهوت والناسوت -الذي هو مثل حجاب- متحدان، وأن أقوال وأفعال الناسوت هي أقوال وأفعال اللاهوت نفسها، وأن استحقاق الإيمان يكمن في الاعتقاد بأن اللاهوت يظل أزليًا ومبهمًا، ولا يمكن إدراكه. أولًا، وبغض النظر عن تنوع وتسلسل التجليات، فإن ناسوت الإله ليس له تسلسلٌ زمنيٌ، ولا عدديٌ؛ وهو سابقٌ لكل المخلوقات، وهو أول صورةٍ بشريةٍ، وإن الناس يرونه في الجسد الذي يلبسه، كلٌ حسب طهارته، ومن الضروري ظهور اللاهوت في شكل ناسوتٍ، لكي يقتنع الناس بوجوده، فتكافئُ العدالةُ الإلهيةُ من آمَنَ به، وتُقاصصُ من كذّبه، وأخيرًا فإن التجلي الأخير بشخص الحاكم بأمر الله هو الأفضل بين كل التجليات السابقة التي كانت مثل الفجر، ومسودة الرسم".

هو القائم بجميع الحدود، وهو عبد مولانا جلّ ذكره. وسمّي الضد عجلًا لأنّه ناقص العقل، عجولٌ في أمره، له خوارٌ". وفيها يشير إلى استعجال نشتكين في الجهر بألوهية الحاكم، الأمر الذي تسبب في اندلاع احتجاجاتٍ في القاهرة. المترجم

[I] يستعمل النصيرية نفس التعبير للإشارة إلى الجسد الذي يعتبرونه قميصًا لحميًا لاحتواء الروح. المترجم

[II] وكذلك الإسماعيلية. المترجم

[III] اختلفت الروايات في عددهم، والرأي السائد أنهم أربعة أئمةٍ: محمد بن إسماعيل، وابنه عبد الله، وابنه أحمد، وابنه الحسين. والخلاف على عددهم ليس بين الإسماعيليين وغيرهم فقط، بل بين الإسماعيليين أنفسهم أيضًا. المترجم

[IV] لم يكن فيثاغورث معاصرًا لنوح، وما عاصر إبراهيمُ داوودَ، وهذا سبب آخر للتشكيك في هذه المخطوطة. المترجم

[V] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 66.

شَكَّلَ حمزةُ تراتبيةً هرميةً مدروسةً بعنايةٍ، فقد وضع نفسَه بين الحاكم بأمر الله والمؤمنين به، وأصبح أستاذًا للفرقة الجديدة. تنقسم الحدود إلى فئتين: حدودٌ عُلويةٌ، وحدودٌ أدنى منها[I]. والحدود العُلوية:

1. حمزة[II]، وألقابه: العقل الكلي، الإرادة، علة العلل، قائم الزمان، الإمام، الباب، الآمر. يأتي حمزة في المركز الذي يلي الحاكم بأمر الله، وليس ببعيدٍ منه من حيث الاحترام والتبجيل؛ فهو موجودٌ منذ الأزل، وهو من خلَقَ كل شيءٍ، وهو أسمى كثيرًا ممن يليه.
2. إسماعيل[III]، وألقابه: النفس الكلية، المشيئة، داعي الإمام، حجة الزمان، ذو مصة؛ لأنه يمتص العلم من غيره؛ وهو الأقرب إلى حمزة، وعنده بمنزلة النساء[IV].
3. محمد بن وهب[V]، ولقبه الكلمة.
4. أبو الخير سلامة[VI]، ولقباه: الباب الأعظم، والجناح الأيمن.
5. بهاء الدين[VII]، ولقباه: التالي، والجناح الأيسر.

ثم تأتي الحدود الأدنى: الجد، والفتح، والخيال، والدعاة، والمأذونون، والمكاسرون[VIII].

الكثير من هذه التسميات موجودةٌ عند الإسماعيلية، ويستخدمها النصيرية أيضًا.

يعتقد الدروز أن جميع الأرواح خلقت من نور "العقل الكلي[IX]"، وأن عددها لا يتغير أبدًا؛ لأنها خلقت في الوقت نفسه.

يؤمنون بالتقمص، ويبدو من كتاب حمزة الذي هاجم فيه النصيرية، أنهم، في زمن حمزة، لم يكونوا مؤمنين بانتقال الروح إلى الحيوان، كما يؤمن النصيرية.

يسمون الجسد "القميص" مثل النصيرية.

وعقوبة الرجل هي إنزاله إلى مرتبةٍ أدنى من الناحية الدينية.

يقول دي ساسي إن انتقال الأرواح يتوقف عند وصولها إلى حالة الكمال، فعندها تتحد مع الإمام، وفي العصر الأخير، عصر الحاكم بأمر الله وحمزة، تبقى الأرواح الكاملة محتجبةً في حمزة حتى يعود بمجدٍ، وتظهر في موكبه.

يعتقد الدروز أن يوم الحساب هو يوم يجهر الموحدون بعقيدتهم، ويُعرف مصير المؤمنين والكفار، وهم يطلقون على أنفسهم اسم "الموحدين".

بخصوص الفروض الإسلامية، يقول حمزة عن الصلاة ما يلي: "وأمّا الباطن فقد سمعتم في المجالس بأنّ الصلاة هي العهد المألوف، وسمّي صلاةً لأنّه صلة بين المستجيبين وبين الإمام يعني عليّ ابن أبي طالب، واستدلّوا بقوله إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. فمن اتّصل بعهد عليّ ابن أبي طالب انتهى عن محبّة أبي بكر وعمر ..... فعلمنا بأنّه علينا

[I] الحدود الأدنى تعني الأقل أهميةً، وهذا لا يعني قول الدروز بوجود حدودٍ علويةٍ وأُخرى سفلية كما يعتقد الإسماعيلية. فقد كفّر حمزة الإسماعيلية لاعتقادهم بوجود عالمين: علوي وسفلي. المترجم

[II] حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني. الحد الأول. المترجم

[III] إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي، ثاني الحدود. المترجم

[IV] المراد أن حمزة هو بمقام الرجال، وهم بمقام النساء، وهم عنده بمنزلة النساء في طاعتهم له. المترجم.

[V] محمد بن وهب القرشي، ثالث الحدود. المترجم

[VI] أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري، رابع الحدود. المترجم

[VII] بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن أحمد السموقي، خامس الحدود وآخرها. المترجم

[VIII] في زمن الأئمة المستورين كان الجد يرمز إلى الداعية، والفتح يرمز إلى المأذون، والخيال يرمز إلى المكاسر، مما يعني أنهم ثلاثةٌ حدودٍ وليسوا ستةً، وإذا أضفنا إليهم الخمسة العلوية؛ يصبح المجموع ثمانية حدودٍ. المترجم

[IX] يقصد حمزة بن عليٍّ. المترجم

سلامه ورحمته قد أسقط الباطن مثلما أسقط الظاهر. فنظرنا إلى ما ينجّينا من العذابين جميعًا. ويخلّصنا من الشريعتيْن سريعًا. ويدخلنا جنّة النعيم التي وعدنا بها وهي حجّة القائم التي جنّت على سائر الحدود. فعلمنا بأن الصلاة التي هي لازمة في خمسة أوقات فإن تركها أحد من سائر الناس كافّة ثلث فقد كفر. هي صلة قلوبكم بتوحيد مولانا جل ذكره لا شريك له على يد خمسة حدود السابق والتالي والجد والفتح والخيال. وهم موجودون في وقتنا هذا[I].

"..... وقد سمعتم في مجالس الحكمة الباطنية. بأن الزكاة ولاية عليّ ابن أبي طالب والأئمّة من ذرّيته والتبرّئ من أعدائه أبي بكر وعمر وعثمان. وقد منع مولانا جل ذكره عن أذيّة أحدٍ من النواصب. وقرئ بذلك سجل على رؤوس الأشهاد بأن لا يلعن أحد أبا بكرٍ وعمر. وقد قرئ في المجلس بأن اليمين والشمال على الناطق والأساس. ثم جاء بعد هذا أيضًا في المجلس بأن الطريقين اليمين والشمال مضلتان وأن الوسطى هي المنهج والغاية هي الطريق الوسطى تغنيكم عنها. فبان لنا بأنّ مولانا جل ذكره، بطّل باطن الزكاة الذي في علي ابن أبي طالب كما بطّل ظاهرها، وأنّ الزكاة غير ما أشاروا إليه في المجلس جميعًا. وإنه في الحقيقة توحيد مولانا جل ذكره وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعًا.

"..... وباطن الصوم فقد قالوا فيه الشيوخ بأنّ الصوم هو الصمت بقوله لمريم وهي حجة صاحب زمانه: "فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26)"[II]. يعني الأكل علم الظاهر والشرب علم الباطن ..... فبان لنا نقض ما كان في المجلس وما وصفوه الشيوخ من باطن الصوم وسكوته وإنّ مولانا جلّ ذكره فطّر الناس في ظاهر الصوم وفطّرهم في باطنه. وهو بالحقيقة غير الصومين المعروفين من الشريعتين وهو صيانة قلوبكم بتوحيد مولانا جلّ ذكره.

"..... ومولانا جل ذكره قد قطع الحجّ سنين كثيرة وقطع عن الكعبة كسوتها وقطع كسوة الشيء كشفه وهتكه ليبيّن للعالم أنّ المراد في غيرها وليس فيها منفعة..... وقالوا الشيوخ في الباطن بأنّ الحرم هي الدعوة وهو اثني عشر ميلًا من كل جانب. وكذلك للدعوة اثني عشر حجّة".

يُفرض على الدروز، حسب ما ورد في كتبهم، الصدق، ومساعدة بعضهم، وحماية إخوتهم وأخواتهم (لأن الدروز يطلعون المرأة على دينها[III])، وأداء الصدقات إلى العقّال[IV]؛ ولنتذكر أن التوصية بالأخلاق الحميدة تقتصر على التعامل مع الإخوان فقط، وليست مع الناس من خارج الأخوية.

لا يُطلِع الدروزُ جميعَ أبناء الطائفة على دينهم؛ ويبقى أغلبية الدروز جاهلين بتعاليم دينهم، ويسمّون "الجهال"، ليتميزوا عن "العقال"؛ وعند الدروز كلمات سرٍ ليتعرفوا بها على بعضهم.

لقد أسهبت في حديثي عن منهج الفرقة الدرزية؛ لأنني سأقارن بينه وبين منهج النصيرية، وقد اقتديت بدي ساسي في كل ما قلته تقريبًا.

وننتقل الآن للحديث عن منهج الفرقة الإسماعيلية المشرقية أو الحشاشين التي أسسها حسن الصبّاح الفارسي القادم من خراسان. وصف ڤون هامر في كتابه "تاريخ الحشاشين" كيف سخَّر حسن عقائد الإسماعيلية ومنهجهم لخدمة مصالحه.

[I] نقلتُ النصوص الأصلية من كتاب "النقض الخفي" لحمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني. المترجم

[II] سورة مريم. الآية رقم 26. المترجم

[III] مقارنة ضمنية مع النصيرية الذين لا يطلعون المرأة على دينها. المترجم

[IV] ينقسم الدروز دينيًا إلى عُقّال وجُهّال: يلتزم العقال بأمور الدين ويلبسون عمامةً بيضاء، ولهم شيخٌ، أما البقية فهم الجهّال. المترجم

يقول[I]: "حتى الآن، ليس عند الإسماعيلية سوى سادة وأتباع، وتحديدًا دعاة العقيدة السرية بجميع مراتبها الذين يجندون أتباعًا جددًا، والرفاق الذين يؤمنون بالتَّدريج على المبادئ الإسماعيلية، وهم الأغلبية. كان من الواضح لحسن الصباح، صاحب الروح المغامرة والواقعية، أن تنفيذ مشروعاته بأمانٍ وحيويةٍ، يتطلب وجود فئةٍ ثالثةٍ لم يُطلعها أحدٌ يومًا على لغز الإلحاد والخلود، الذي يحطم قيود الخضوع؛ فالمطلوب أن تكون مجرد أداةٍ عمياء متعصبةٍ في أيدي سادتها. يحتاج أي جسمٍ سياسي منظمٍ إلى رؤوسٍ، ولكنه يحتاج أيضًا إلى أيادٍ، والسيد لا يحتاج إلى أتباعٍ أذكياء وماهرين فقط، بل يجب عليهم أن يكونوا عملاء مخلصين ونشطين، ويسمى هؤلاء العملاء "فداوية"[II]، بمعنى أنهم يفدون بأنفسهم، والاسم يدل على المغزى. كانت ثيابهم بيضاء، وكانوا يلبسون عمائم وأحذيةً وزنانير حمراء؛ يلبسون ألوان البراءة والدم، ويتسلحون بالخناجر التي يرفعونها لخدمة شيخهم، كانوا حرّاسَه ومنفذي أوامره بالقتل؛ إنهم الأداة الدامية لطموح تنظيم الحشاشين وانتقامه.

"يسمون زعيمهم "سيدنا"، أو شيخ الجبل؛ لأن تنظيمهم كان يمتلك القلاع في المناطق الجبلية؛ ولم يكن زعيمهم مَلكًا ولا أميرًا بالمعنى العام للكلمة، ولم يلقِب نفسه بالسلطان أو الملك أو الأمير، بل هو مجرد شيخٍ، وهو لقبُ زعماءِ القبائل العربية والتنظيمات الدينية مثل الصوفية والدراويش حتى يومنا هذا. لا يمتد سلطانه على مملكةٍ أو إمارةٍ، ولكنه سلطانٌ على أخويةٍ أو تنظيمٍ، وهنا يقع الكّتاب الأوروپيون في خطأٍ كبيرٍ حين يخلطون بين مملكة الحشاشين والسلالات الوراثية؛ فقد أُسست فرقة الحشاشين؛ لتكون تنظيمًا مثل فرسان القديس يوحنا أو فرسان تيوتون[III] أو فرسان الهيكل. لفرسان الهيكل زعيمٌ ورهبانٌ ورسلٌ، ويتشابهون مع الحشاشين في روح التدخل السياسي والعقيدة السرية. يلبسون الأبيض مع علامة الصليب الحمراء فوق عباءاتهم، مثلما كان الحشاشون يلبسون الزنانير والعمائم الحمراء، وكان لفرسان الهيكل عقائد سريةٌ تنكر وتنبذ قدسية الصليب، مثلما فعل الحشاشون بتعاليم الإسلام. كان المبدأ الأساسي لسياسات كلا التنظيمين امتلاك القلاع، والأماكن الحصينة في المناطق المجاورة، وبذلك، يصبح لهم دولةٌ داخل دولةٍ، دون استخدام وسائل ماليةٍ أو عسكريةٍ، ويُخضعون الأُمم فيصبحون أندادًا للأُمراء.

"تتلخص المبادئ السياسية للحشاشين في حكم المناطقِ المنبسطةِ من الجبال، وحكم الجبالِ من القلاعِ المتناثرةِ عليها، والاستيلاء عليها بالخديعة أو بالقوة، وترهيب الأُمراء بالخداع أو بالخوف، واستخدام القتلة ضد أعداء التنظيم. يُعدُّ الاتّباع الصارم للفروض الدينية الضمانَ لسلامتهم الداخلية، أما سلامتهم الخارجية فضامنها الخنجر والحصون. يُطلب من أتباع التنظيم العاديين أو غير الدينيين أن يلتزموا بالواجبات الإسلامية، ولو كانت قاسيةً مثل الامتناع عن شرب الخمر، أو سماع الموسيقا؛ أما الأتباع الذين كرسوا أنفسهم للتنظيم، فَتطلب منهم الطاعة العمياء، واستخدام خناجرهم الوفية. يعمل الدعاة مع رؤسائهم، ويقودون "الأيادي" التي تنفذ أوامر الشيخ الذي يدير من مركز السيادة قلوبَهم وخناجرَهم بروحه الملهِمة؛ لتحقيق مشروعاته الطموحة.

"ويأتي مباشرةً بعد الزعيمِ كبار الدعاة، وهؤلاء نوابه في الأقاليم الثلاثة: الجبل، وخوزستان، والشام؛ ويأتي بعدهم الدعاة، وهم رُسُلُ دينٍ ومبعوثون سياسيون من التنظيم بصفتهم أساتذة منضمين للتنظيم. أما الرفيق فهو في الطريق ليصبح أستاذًا، عبر مراتب عديدةٍ من تلقينه العقائد السرية، وأما الحراس والمحاربون والقتلة المطيعون فهم الفداوية، وتوجد طبقة اللاصقين، وعامة الإخوة. بالإضافة إلى المراتب السبع (الشيخ، والداعي الكبير، والداعي، والرفيق، والفداوي، والأخ، واللاصق، وعامة الناس غير الدينيين)، يوجد سبع مراتب روحانيةٍ أُخرى للذين التزموا بعقيدة الأئمة الإسماعيلية الناطقين والصامتين المذكورة سابقًا، والذين يعدون جزءًا من البنية النظرية للطائفة أكثر من كونهم جزءًا مدمرًا من قواها السياسية. حسب ذلك التصنيف، يعيش في كل جيلٍ سبعة أشخاصٍ يمتازون عن بعضهم برتبهم:

[I] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 55 والتي تليها.

[II] أو الفدائية. المترجم

[III] منظمة صليبية ألمانية على غرار فرسان القديس يوحنا، تأسست لأغراضٍ خيريةٍ، ثم تحولت إلى تنظيمٍ مقاتلٍ. المترجم

1. الإمام المعيّن من الله.
2. الحجة الذي يُسمى أساسًا عند الإسماعيلية.
3. ذو مصة الذي يتلقى التعليّمات من الحجة الذي يتلقاها بدوره من الإمام.
4. الداعي.
5. المأذون.
6. المكالب الذي يبحث عن أتباعٍ على استعداد لتغيير دينهم، كما تبحث كلاب الصيد عن الطريدة.
7. طبقة المؤمنين.

عند مقارنة هذين القسمين نجد أن القسم الأول ينقصه الإمام الغائب الذي طالب الشيخُ باسمه الناسَ أن يطيعوه، وينقص من القسم الثاني الحراس الذين استعملهم ضد أعداء التنظيم، وفيما عدا ذلك تتطابق المراتب الأُخرى. الحجة هو الزعيم، وذو مصة هو كبير الدعاة، والرفاق هم المأذونون، والمكالبون هم عامة الإخوة. ويوجد تطابقٌ في المرتبتين الرابعة والسابعة: الدعاة والمؤمنون، أو المخادعون والناس المخدوعة[I].

"رأينا سابقًا كيف أن المؤسس الأول للمجتمعات السرية في قلب الإسلام هو عبد الله بن ميمون القداح، وقد سُمي اتباعه "السبعية" لأنه جعل لعقيدته سبع مراتب، بالإضافة لاعتقاداتهم بالأئمة السبعة. أُطلقت هذه التسمية على الإسماعيلية الغربيين مع أنهم زادوا عدد المراتب من سبعةٍ إلى تسعةٍ، ثم أُطلقت باستحقاقٍ على الفرع الجديد للإسماعيلية المشرقية أو الحشاشين، فأعاد مؤسسهم حسن الصبّاح عدد المراحل إلى سبعةٍ، ووضع قواعد سلوكٍ للدعاة، تتألف من سبع نقاطٍ، وتركز على مؤهلات الأساتذة أكثر من تنوير المتعلمين التدريجي، وكونت تلك القواعد النظامَ الشرعي للفرقة.

"تسمى المرحلة الأولى "التفرس[II]"، وتشمل أسس التعرف على أحوال الناس الضرورية لانتقاء الأشخاص المناسبين لتغيير دينهم. ويتداول الدعاة العديد من الأمثال المتعلقة بها، والتي تحمل معانٍ مختلفةً عن معناها الحرفي: "لا تبذروا في الأرض السبخة"، "لا تتكلموا في بيت فيه سراج"، وتعني لا تضيعوا وقتكم في الكلام مع الميؤوس منهم، ولا تغامروا بكلامكم في حضور محامٍ[III]؛ لأن التعاطي مع البلهاء وأصحاب العلم والنزاهة أمرٌ خطرٌ؛ فالصنف الأول لن يفهم، وسيكشف الصنفُ الثاني العقيدةَ، ولن يصبحوا أُستاذةً ولا أدواتٍ. تُذكرنا تلك التعابير المجازية والقواعد الاحترازية -الضرورية لعدم إتاحة الفرصة للانكشاف- بجمعيةٍ سريةٍ بالغة القدم، وتنظيمٍ مشهورٍ معاصرٍ، باختصارٍ، تُذكرنا بالفيثاغوريين واليسوعيين. لا يمكننا الآن فهم معاني الأقوال الغامضة التي وصلتنا من الفيثاغوريين، وربما كانت مجرد حكَمٍ مشابهةٍ تقال لمعتنقيها؛ وقد وصل الحرص السياسي المتبع في انتقاء الأتباع المناسبين إلى حد الكمال عند اليسوعيين؛ وبهذا يتشابه الفيثاغوريون واليسوعيون مع الحشاشين.

"تسمى المرحلة الثانية "التأنيس" (كسب الطمأنينة)، وهي تُعلِّم اكتساب المدعوين بالإطراء على ميولهم وأهوائهم، وبعد اكتسابهم، تتطلب المرحلة الثالثة[IV] إغراقهم في متاهةٍ لا مخرج منها من الشكوك والحيرة، بطرح آلاف الشكوك والأسئلة عن فرائضهم الدينية وعبثية القرآن.

[I] قد يختلف بعض الناس مع المؤلف على هذه التصنيفات والمراتب، وهذا غير مستغربٍ؛ لوجود اختلافاتٍ كثيرةٍ فيما كُتب عن تلك الفرقة وما كتبوه عن أنفسهم وعقائدهم، وإن النص الأصلي باللغة الفارسية، تُرجم ونُشر بالألمانية، ثم تُرجم ونُشر بالإنجليزية في كتاب "تاريخ الحشاشين" الذي اقتبس صموئيل لايد منه هذا النص. المترجم

[II] وردت "Ashinai" في النص الإنجليزي، وقد اقتبسها المؤلف من كتاب "تاريخ الحشاشين" لڤون هامر الذي اقتبسها بدوره من مصادرَ فارسيةٍ. المترجم

[III] يقصد الإنسان المتعلم غير الجاهل. المترجم

[IV] أغفل المؤلف ذكر أسماء بعض المراحل، وسأذكر المراحل السبع بالترتيب: التفرس، التأنيس، التشكيك، الربط، التدليس، التأسيس، التأويل؛ أما المراحل التسع عند الإسماعيلية الغربيين فهي: التفرس، التأنيس، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، التأسيس، الخلع، السلخ. المترجم

"وفي المرحلة الرابعة يُقْسِم المدعو بأجلِّ الأُمور على صمتٍ وخضوعٍ لا رجعة فيهما، وعلى عدم إفشاء شكوكه إلا لرئيسه الذي سيطيعه طاعةً عمياء دون سواه. المرحلة الخامسة هي "التدليس"، وفيها يُعلم المدعوون كيف تتفق عقائدهم وأفكارهم مع عقائد وأفكار أعظم رجال الكنيسة[I] والدولة، ويُعمَل هذا لجذبهم وتشويقهم باستقدام أمثلةٍ من العظماء وأصحاب النفوذ. المرحلة السادسة هي التأسيس، وهي مجرد تلخيصٍ لكل ما سبق؛ لتوكيد وتقوية إيمان المتعلم. ويلحقها في المرحلة السابعة التأويل، وهي ختام منهاج التعليّم الإلحادي. التأويل مقابل التنزيل، أو التفسير الباطني مقابل التفسير الحرفي لمعاني كلمات الله، وهذا هو جوهر العقائد السرية؛ ولذلك لُقبوا بالباطنية لتمييزهم عن الظاهرية أصحاب العبادات المكشوفة. وبهذا النهج الماكر للتفسير والشرح، الذي طُبِّقَ على الإنجيل في زماننا الحاضر، يصبح الإيمان والواجبات مجرد تعابير مجازيةٍ، ظاهرها طارئٌ وداخلها جوهريٌّ، ويتساوى أداء الفروض الدينية والالتزام الأخلاقي مع عدمه، ويصبح كل شيءٍ مشكوكًا فيه ومباحًا.

"هذا هو جوهر فلسفة الحشاشين، الذي أخفاه المؤسس عن الأغلبية، ما عدا قلةٍ من القادة الأساسيين ومعتنقي الإسماعيلية، في حين بقي الناس تحت نير فرائض الإسلام القاسية. تكمن أعظمُ سياساته في ابتداع عقيدة الكفر والفسق، لصالح الحكام لا المحكومين؛ وفي إخضاع طاعة المحكومين العمياء لأوامر الحكام الاستبدادية التي لا حدود لها؛ وبذلك يصبح الحاكم والمحكوم في خدمة طموحه، عن طريق مكافأة المحكوم، وإرضاء أهواء الحاكمين. وكانت الدراسة والعلوم من نصيب قليلٍ من معتنقي الدين، لأن تحقيق أهداف التنظيم يحتاج إلى أيادٍ أكثر من حاجته إلى عقولٍ، والأقلام التي وظفها لخدمته أقل من الخناجر التي كانت تضرب في كل مكانٍ، مع بقاء يد السيد الكبير ممسكةً بقبضة الخنجر".

يقول مؤلف كتاب مسالك الأبصار[II] بعد أن تحدث مع ابن أحد زعماء الإسماعيلية إنهم يُسمون أنفسهم "أصحاب الحكم الصحيح"، وإن أساس معتقدهم التناسخ؛ ويرون أن زعماءهم يطهرونهم، وأن عليًّا هو المُطَهِّرُ العظيم، وإنهم من سلالة الأئمة وخلفائهم. وقال أيضًا إنهم يعتقدون أن الروح التي تموت على طاعتهم، تنتقل إلى الأنوار العلوية، وتهوي الأرواح الأُخرى إلى الظلمات السفلية[III].

انحدرت بقايا الإسماعيلية أو الحشاشين على مستوى المعتقدات في بلاد الشام، وإذا صَدَّقَ المرء ما يروى عنهم؛ فهو انحدارٌ على مستوى الممارسات أيضًا. تبدو أقوال بوركهارت[IV] عن عقائدهم صحيحةً تمامًا؛ فقد أكّدتها شهادات رجالٍ أصحاب علمٍ ورأيٍ، أمثال الدكتور الراحل إيلي سميث من بيروت، بالإضافة إلى تأكيد جميع الناس في الشام، واستنادًا إلى ما ظهر منهم علانيةً من مؤشراتٍ.

[I] أعتقد أن ذكر رجال الكنيسة في هذا السياق إسقاطٌ ثقافيٌّ، وجب على فون هامر أن يتجنبه. المترجم

[II] مقالة عن الإسماعيلية، "المجلة الآسيوية"، شارل فرانسوا ديفريميري. {المقصود هو شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، مؤلف كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار". المترجم}

[III] النص كما ورد في "مسالك الأبصار": ولقد سألت المقدم عليّهم والمشار إليه فيهم وهو مبارك بن علوان عن معتقدهم، وجاذبته في هذا الحديث مرات، فظهر لي أن هذه الفرقة ترى أن الأرواح مسجونةٌ في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر على زعمهم، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت، وانتقلت للأنوار العلوية، وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية وعقيدتهم أن عليّا رضي الله عنه، كان المطهر ثم الانتقال منه، وليس هذا بمكان التطويل فيه". المترجم

[IV] يقول بوركهارت في كتاب "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة"، ص 152: "يُروى عن الإسماعيلية أنهم يعبدون الفرج، وفي أيامٍ معينةٍ في السنة، يختلطون بفجورٍ وفسقٍ". يسرد والپول في كتابه "النصيرية أو الحشاشون" في نهاية الجزء الثالث ترجمةً لاتينيةً لما يسميها صلاةً نصيريةً، ولكنها في الحقيقة صلاةٌ إسماعيليةٌ، وتُثبت دون شكٍ ما أكده بوركهارت. يقول الدكتور سميث (كما أُقتُبِسَ في كتاب "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه"، كارل ريتر): "على عكس الإسماعيلية، فإن النصيرية بريئون من عبادة إلهة الطبيعة". يبدو أنهم يستخدمون ما يعبدون كرمزٍ للأرض الأُم، ويُروى عنهم أنهم يقولون: "منها خرجنا وإليها نعود".

يقول الدكتور سميث إنه في زمننا الحاضر ينقسم الإسماعيلية إلى قسمين: الحجاوية الذين يقيم شيخهم في الخوابي، ويلتزمون بالعادات الإسلامية، والسويدانية الذين يعيشون في القدموس والمناطق المتاخمة لها، وهم مسلمون بالشكل فقط، وليس عندهم أعيادٌ دينيةٌ منتظمةٌ[I].

في زمننا الحاضر يجلُّ الإسماعيلية زعيمَ التنظيم راشد الدين، وقد وصف لنا روسو[II] الإسماعيلية المعاصرين، ولكنه أخطأ خطأً غريبًا حين قال إن راشد الدين عاش منذ 300 عام، بينما رأينا أنه عاش في وقت ازدهار التنظيم في النصف الثاني للقرن الثاني عشر[III]. وتُكوّن كتبه الجزء الرئيس من كتاباتهم التي تشبه جسمًا معدوم الشكل من التقاليد الإسماعيلية والمسيحية، مموهةً بهذيان من عقائد غامضةٍ[IV]".

يقول روسو[V] عن الإسماعيلية المعاصرين: "ينقسم الإسماعيلية في الشام إلى قسمين: السويدانية والخضروية[VI] ويختلفون عن بعضهم في بعض الشعائر الظاهرة فقط. فكلاهما يعترف بألوهية عليٍّ بن أبي طالب، وأن النور هو المبدأ الكوني لكل المخلوقات، ويسميه أبناء الطائفة "نور العين"، وهذه عبارةٌ مبهمةٌ، ومصدر خرافاتٍ كثيرةٍ، لكن القسم الأكبر من شيوخهم يعدّون النور مزيةً، فهو سحر قوةٍ خارقةٍ، يخلق، ويحافظ على أجزاء الكون المختلفة.

"ونتيجةً لنفاقهم في الدين؛ لا يوجد عندهم أماكنُ عامةٌ للعبادة، ولكنهم يحجون إلى قبر عليٍّ المشيد في الصحراء على مسافة أربعة أو خمسة أيامٍ من أطلال بغداد. وعندهم مكانٌ آخر للعبادة قرب مكة[VII]، يحجون إلية خفيةً، كلما سنحت لهم الفرصة، ولكنني لم أستطع اكتشاف اسم الشيخ أو النبي صاحب ذلك الضريح".

سأختم كلامي عن الفرق السرية بذكر المتاولة والصوفية، وعلى الرغم من أن المتاولة ليسوا فرقةً سريةً بالمعنى نفسه؛ فإنهم لا يبوحون بشيءٍ عن أنفسهم، ولا يُعرف عنهم سوى القليل. ترتبط معتقداتهم وشعائرهم بمعتقدات وشعائر المسلمين الفرس الذين كانت بلادهم الأم الولود للفرق المبتدعة المذكورة آنفًا. ويفترض ڤون هامر احتمال أن تكون أصولهم إسماعيلية. يعيش معظمهم في صور ومحيطها، وعند منابع العاصي، وتدل ملامحهم على أنهم من عرقٍ مختلفٍ عن بقية سكان الشام، وربما كانوا من الشرق البعيد، ويسمون متاولة؛ لأنهم يتبعون التأويل (التفسير الباطني للقرآن)، وقد قيل لي -وأكاد أجزم بصحة ذلك- إنهم يبجلون عليًّا أكثر من محمدٍ ﷺ، ونتيجةً لذلك؛ يلعنون أبا بكرٍ وعمر وعثمان الذين أخذوا مكانه. وهم أكثر الفرق انطواءً في الشام، فقد يأكلون مع غيرهم، لكنهم يكسرون الصحن أو الإناء الذي أكل أو شرب منه الغرباء، وقد يتدنس طعامهم لمجرد مرور خيال الغرباء فوقه.

الصوفية مجتمعٌ سريٌ من الفلاسفة والزاهدين الفرس، وقبل أن أُعطيكم موجزًا عن عقائدهم، كما ذكرها جون مالكوم، سأقول بضع كلماتٍ عن الديانة العامة للفرس قديمًا وحديثًا. ربما تكون ديانتهم الأصلية ديانة الكلدانيين أو الصابئة الذين آمنوا بوحدة الإله، لكنهم عبدوا جند السماء[VIII]، وعلى الأخص الكواكب السبعة التي تمثله. يقول زرادشت، مؤسس الدين المجوسي أو بعضه، بوجود أصلين: أهورامزدا، وأهريمان، ولأن النور عنده يرمز إلى الأرواح الخيرة، فهو يديرها إلى نار الهيكل عند التعبد في المعبد، ويديرها إلى الشمس عند التعبد في العراء. قد تفيدنا تلك الملاحظات على ديانة الصابئة والمجوس، عندما نناقش موضوع الديانة النصيرية.

I "جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه"، ريتر، الجزء السابق نفسه.

II جان باپتيست جوزيف روسو (1780-1822)، القنصل الفرنسي في حلب. المترجم

III شيخ الجبل سنان راشد (1132/1135-1193). المترجم

IV "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 211.

V مقالة "مذكرات عن إسماعيليي ونصيرية الشام، موجهة من روسو إلى سيلفيستر دي ساسي" في مجلة "السجلات الجغرافية والتاريخية للرحلات"، الدفتر 42.

VI أظن أنه يقصد الحجاوية. المترجم

VII على الأرجح مقبرة البقيع قرب المدينة، حيث دفن بعض أئمتهم. المترجم

VIII Tsaba. المترجم

الفرس المعاصرون شيعةٌ، فهُم المسلمون الذين ينكرون السنة أو الشرع الذي يعترف به مسلمو تركيا والغرب، والذي يرتكز على ما رواه محمد ﷺ، وما جمعه وشرحه الخلفاء الراشدون الأربعة. ويعتقدون أن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد اغتصبوا السلطة، وأن عليًّا يساوي محمدًا ﷺ، على الأقل، مع أن الكثير منهم يعتقدون أنه أعلى منه منزلةً؛ والمقولة السائدة في فارس: "ومع عدم اعتقادي بألوهية عليٍّ؛ إلا أنني أؤمن بأنه ليس بعيدًا عن ذلك". ويَظهر وجهُه مستورًا في جميع صوره، لأنهم يزعمون أن جلال نور وجهه باهرٌ، لا تستطيع عين مخلوق أن تتحمله.

تُظهر هذه الأنشودة الفارسية الشعبية للقارئ مدى سخف وكفر الشيعة في تبجيلهم للإمام الأول:

"يا أيها العظيم! مقارنةً بأمجادك
النجومُ معتمةٌ والقدر واهن
والشمس مظلمةٌ كسواد الليل
مقارنةً بنورك السماوي
القدر يطيع أوامرك
والشمس تشع بنورك

فضائلك بحرٌ خالدٌ
لا حدود له
تصعد أمواجه العاتية إلى السماء
وتنحني له السماء إعجابًا
وآبار عدنٍ عكرةٌ
إذا ما قورنت بمائك الصافي

ثروات الأرض المخبأة
وما يجنيه البشر بكدهم
وجواهر المناجم المظلمة
على خواتم الملوك
ألعوباتٌ لا قيمة لها
مقارنةً ببركاتك

يا أيها الغامض! لا أحد
يعرف صفاتك
ويفهم حقيقتك
ولك ينحني الجميع
وبك يعرفُ البشر
أوامر السماء

تفيض المحيطات على الأرض
فتَغسلُ الشواطئَ من القطب إلى القطب
مقارنةً بالنبع الخالد
نقطةٌ واحدةٌ، تبدو كفقاعةٍ
ويبدو النبع نقطةً

بجانب بحر فضائلك وحبك"[I]

الصوفية فرقةٌ مستقلةٌ في فارس، تجمع أتباعها ألغازٌ سريةٌ، فكتبهم غريبةٌ وجميلةٌ، لكن غموضها كفريٌ مثل قصائد ابن الفارض المشهورة التي يكثر اقتباسها، ويقل فهمها من أغلبية سكان الشام الجهلة في وقتنا الحاضر. يتكلم الصوفية عن حبهم لله كما يتكلمون عن تعلقهم بامرأةٍ جميلةٍ[II]، والحقيقة أن منهجهم مطابق لمذهب وحدة الوجود[III].

يقول جون مالكوم[IV]: "يُظهر الصوفية أنفسهم بأنهم عاكفون على البحث عن الحقيقة، ومواظبون على عبادة القدير، وهذا اتحادٌ يصبون إليه بحبٍ إلهيٍ مفعمٍ بالحماسة. والخالق منتشرٌ فوق خلقه، حسب اعتقادهم، وهو موجودٌ في كل مكانٍ، وفي كل شيءٍ. يقارنون إشعاع كيانه أو روحه بأشعة الشمس، ويعتقدون أنها تتقدم ثم تُعود من حيث شعّت، ولا تتوقف لهفتهم على عودتها إلى الكيان الرباني الذي ينتمي إليه الجزء الخالد منهم. يؤمنون أن روح الإنسان وأصل الحياة في الطبيعة ليسا من الله، بل هما جزءٌ منه.

"التعاليم الصوفية قديمةٌ قدم محمدٍ ﷺ، وشائعةٌ في الهند، وازدادت رواجًا في فارس في أثناء حكم العائلة الصفوية (منذ عام 1499 ميلادي) التي أنشأها شيخٌ صفويٌ[V]، ومنذ ذلك الوقت أصبح التشيعُ العقيدةَ المعترف بها في بلاد فارس.

"في المرحلة الأولى تُجيز العقيدة الصوفية ممارسة الشعائر علنًا؛ وعندهم أربع درجات، ولكل درجةٍ أسرارٌ وألغازٌ، لا يبوحون بها لغير المتصوفة. ويوجد ما بين مئتي وثلاثمائة ألف صوفيٍ في فارس".

لقد وصلت الآن إلى موضوعٍ تجاهلته عند حديثي المفصل عن الفرق الإسلامية المبتدعة، وأعني التهم المشتركة التي تُوجه إلى كل فرقةٍ منهم، وهي الإباحية، والفحش، وزنا المحارم[VI]. وسأشمل معها الفرقة النصيرية، لكي أظهر أنها تُهَمٌ لا أصل لها -على الأقل في وقتنا الحاضر- عند الحديث عن عقيدتهم في فصل الإيمان أو العقيدة، وفصل الممارسات والشعائر.

"يتهم المسلمون الراشدون بقايا الفرق السرية بالانغماس في فواحش كبيرةٍ، ويقولون عنهم "زنادقة"، وهو نفس ما نقوله عن الشكوكيين أو المفكرين الأحرار. ولن نكون منصفين إذا حكمنا على أتباع تلك الفرق بما يكتبه عنهم أعداؤهم، لأن كتاباتهم تشبه التشنيعات التي وصف بها المسيحيون المسيحيين الأوائل الذين اضطهدوهم[VII]".

[I] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 152-154.

[II] غنى المطرب التونسي لطفي بوشناق إحدى قصائد سلطان العاشقين ابن الفارض (أغنية "تواضعت ذُلًا")، ويعتقد كثيرٌ من الناس أنها قصيدةٌ غزليةٌ. وما زالت الاحتفالات الغنائية تقام في ذكرى مولد ابن الفارض بالقرب من ضريحه تحت سفح جبل المقطم في مصر. المترجم

[III] Pantheism. المترجم

[IV] "تاريخ فارس"، مالكوم، الجزء الثاني، ص 269.

[V] المقصود هو إسماعيل الصفوي. المترجم

[VI] يُتَّهم النصيرية بما يسمى "الفرض اللازم والحق الواجب" بمعنى تقديم نساء المضيف للضيف، وبتحليل نكاح المحارم، وبعمل اجتماعاتٍ ليليةٍ فاجرةٍ، يختلط فيها الحابل بالنابل بعد إطفاء الأنوار، على غرار تهمة الإسماعيليين بعيد البقبيشة. ولا يوجد ذكرٌ لتلك الممارسات في كتبهم الدينية المعروفة. الوثيقتان الوحيدتان اللتان أعرف أنهما تتحدثان عن هذا الموضوع، هما: أولًا، "الباكورة السليمانية" التي ذكر مؤلفها أن الفرض اللازم تقتصر ممارسته على طائفة الكلازية أو القمرية، وهو حكرٌ على الأئمة (أعلى مراتب الشيوخ) فقط، بمعنى أن الإمام يقدم زوجته للإمام الضيف، ولا دخل للعامة بهذا الموضوع. ثانيًا، مخطوطةٌ تُسمى "المجموع في عقائد النصيرية"، نُسخت عام 1889 في حماة، وهي محفوظةٌ في مصر (الخزانة التيمورية، 564)، وهذا اقتباسٌ منها: "وإذا كان أحد المشايخ والنقباء والنجباء، فبادر إلى أداء الفرض اللازم والحق الواجب، وإياك إياك أن تبخل عليه به، فإنك إن بخلت بذلك تكون قصرت في الديانة، وتكون كأنك من الكفرة الخارجين عن طائفتنا المقدسة، فاعرض عليه امرأتك أو أختك أو أمك أو ابنتك، يتمتع بها ما دام مقيمًا عندك، فإن عرض الحياة الدنيا عند النصيرية مشترك بينهم". ليس الأمر غريبًا على بني البشر، ولكن يصعب تصديقه؛ لأن فطرة الإنسان ترفضه. وربما تسهل ممارسة هذا العمل، إذا تولدت قناعةٌ بأنه غير محرمٍ، وتهيأت الوسائل لتنفيذه مثل زواج المتعة، أو الزواج المؤقت. المترجم

[VII] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 202.

يقول ڤون هامر[I]: "تُتَّهم المجتمعاتُ السرية دائمًا بأشياءَ مشابهةٍ، عندما تخفي أسرارها تحت جنح الظلام؛ وفي بعض الأحيان تكون هذه التهم باطلةً، كما هي الحال مع تجمعات المسيحيين الأوائل الذين شهد ببراءتهم پلينيوس[II]؛ وأحيانا تكون تلك الاتهامات محققةً جدًا، كما هي الحال مع ألغاز إيزيس، والباخوسيين في روما من قبلهم".

فيما يتعلق بالتاريخ المبكر لتلك الفرق؛ يصعب علينّا تبرئتهم من تهمتي الكفر المحض، والمادية (لأنهما عقيدتا من أتموا دخولهم في الدين بالكامل) اللتين يتهمهم بهما بعض المؤلفين، أمثال دي ساسي، وڤون هامر اللذان اعتمدا في تأكيداتهم على دراساتٍ دقيقةٍ لمؤرخين محترمين مسلمين عربٍ وفرسٍ، أمثال المقريزي، وخصوصًا أن هؤلاء المؤرخين حصلوا على تلك المعلومات من مصادرَ موثوقةٍ. وعلى سبيل المثال، فقد وَصَفَ عطاء ملك الجويني[III] عقائد الحشاشين، ونقل عنه كُتّابٌ من بعده أمثال مير خواند[IV]، ووصاف الشيرازي[V]، وتبعهم ڤون هامر؛ وكان عطاء ملك الجويني حاضرًا عند سقوط قلعة آلموت، وحصل على إذنٍ من هولاكو، الذي استولى عليها، بالبحث في المكتبة الإسماعيلية التي كانت بداخلها، وقال إنه أنجز ذلك، ثم أتلف الكتب المبتدعة بعد أن وضع ما تحتويه من معلوماتٍ في كتابه عن التاريخ[VI]. وعلاوةً على ذلك، فقد رفع زعيم الحشاشين الحسن الثاني[VII] الستار، وكشف للآخرين عن أسرار الإلحاد والفسق التي كانت في حينها حكرًا على أتباع الفرقة فقط، وقد فعل ذلك بنية عكس تيار الكفر، وإعادة أتباع الفرقة إلى المحمدية الراشدة[VIII]. برّأ ڤون هامر اليسوعيين وفرسان الهيكل من تهمتي قتل الملك[IX]، والإباحية؛ لكنه أقرّ أن ما قاله عن "العقيدة السرية، والكفر المنهجي، وفتنة الحشاشين ليس مبنيًا بأية حالٍ من الأحوال على تخميناتٍ واهيةٍ، واتهاماتٍ تاريخيةٍ، أو اعترافاتٍ بالإكراه، وإنما على إقراراتٍ طوعيةٍ من معلميهم وسادتهم[X]". وبالطريقة نفسها يتهم دي ساسي القرامطة بالإساءة للفلسفة والمنهج العقدي إلى أبعد الحدود، لاقتياد الناس إلى الكفر والمادية والفسق، ويضيف أن ما يقوله ليس مبنيًا على التخمين والاستنتاج، بل يستند إلى حقائق تاريخيةٍ[XI].

من المستحيل أن نعزو كل ما يقوله المؤلفون المسلمون الراشدون عن كفر خصومهم إلى الكره الديني وحده، ولكن من الصعب تصديق تهم الفجور الكبير وزنا المحارم الموجهة إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من البشر عاشوا ردحًا من الزمن. وهنا أنا أتفق مع نيبور أكثر من ڤولني الذي أشار إلى هذه الفكرة.[XII] يقول ڤولني الذي خلط بين الإسماعيلية والنصيرية: "أُكد لي أنهم يقيمون في القدموس، اجتماعاتٍ ليليةً تجري فيها نقاشاتٌ، وبعد ذلك تُطفأ الأنوار، وينغمس الحاضرون في الملذات، مثلما رُوي عن الغنوصيين القدماء. سمع نيبور القصص نفسها التي رويت لي، ولم يستطع تصديق ذلك، وقد قال إنه لا يمكن للإنسان أن ينحدر بنفسه إلى هذا الحد (وهو يسخر من تلك الفكرة). ربما ماتزال الخرافات الغريبة التي ذكرتها موجودةً عند النصيرية، وربما حافظوا عليها، ونقلوها من الزمن الغابر التي سادت فيه".

[I] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 214.

[II] المؤرخ الروماني پلينيوس الأكبر. المترجم.

[III] مؤرخ فارسي. المترجم

[IV] شاعر ومؤرخ فارسي. المترجم

[V] أديب ومؤرخ فارسي. المترجم

[VI] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 178.

[VII] الحسن الثاني بن محمد. القصة غير حقيقيةٍ، فقد أعلن الحسن نفسه إمامًا، وأبطل العمل بالشريعة؛ ثم قُتل بسبب ضلاله، والقصة غير موجودةٍ بهذا الشكل في كتاب "تاريخ الحشاشين" كما ذُكر، ويبدو أن المؤلف أساء فهم ما كتبه ڤون هامر عن الحسن الثاني. المترجم

[VIII] المصدر نفسه، ص 106.

[IX] اتهم اليسوعيون بمحاولة اغتيال ملك فرنسا هنري الرابع، وغيره. المترجم

[X] حيث ذكرت آنفًا.

[XI] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، المقدمة، ص 34.

[XII] "رحلات بلاد الشام ومصر"، قسطنطين ڤولني، الجزء الثاني، ص 6.

وكيفما نظرنا إلى تعميمات ڤولني كفيلسوفٍ، فإن التفصيلات التي أعطاها بصفة رحالةٍ ليست موثوقةً. لاحظنا خطأه التافه، وقد قال أيضًا قولًا سخيفًا عن المتاولة اقتبسه عنه ڤون هامر[I]، فقال ما معناه إنه كانت في زمانه قريةٌ على الطريق بين حلب واللاذقية، كانت تسمى مرتبان، وإن سكانها المتاولة كانوا يدعون المسافرين لمضاجعة زوجاتهم وبناتهم، وكانوا يعدّون رفض المسافرين لذلك إهانةً لهم. وللأسف لا يوجد متاولةٌ في المكان الذي تذكره القصة.

وفي هذه الحالة قد تكون النظرةُ الأرحم لطبيعة البشر الأصحَ. إذ لا يمكن أن يبقى البشر منغمسين في الفجور مدةً طويلةً دون أن يجلبوا على أنفسهم قصاصًا ربانيًا مباشرًا، كما حصل في المدن التي في السهل، أو قصاصًا ربانيًا ينفذه بَشرٌ كما حصل للباخوسيين القدماء، ولسكان القرية التي أشار إليها ابن بطوطة[II]، أو يجلبوا دمارًا لا مفر منه بسبب الفسق والجريمة. يعارض معظم البشر الجهر بالمعاصي، وإذا لم يعارضوا ذلك؛ فسيُقضى على السلطات المدنية في المجتمعات التي يقودها العقل أو الغريزة بدلًا من الدين. لا يمكن إنكار وجود جماعاتٍ قديمةٍ، انتشر فيها الفجور مثل أنصار إيزيس وكوبيلي؛ لكن تلك الجماعات لم تكن سوى جروحًا متقرحةً في جسدٍ كبيرٍ ووعاءً تتجمع فيه الخبائث الموجودة في كل المجتمعات الكبيرة. لم يتأكد تحرر الأقلية الحاكمة من الضوابط الأخلاقية في التاريخ المبكر للفرق السرية التي درسناها، وكان القسم الكبير من الأتباع مجرد أدواتٍ يستخدمها الحكام لإرضاء نزواتهم الشريرة.

وقد ذكر المقريزي المزدكية أحد مذاهب المجوس[III]: "الذين شنوا حربًا على الدين والفضيلة، ونادوا بالتحرر والمساواة، وبعدم وجود قيمة لأفعال الإنسان، والاشتراك في الأموال والنساء"، لكن "اجتُثّت هذه الجماعة المخزية بالسيف والنار، بعد أن حققت انتصارًا لم يدم طويلًا[IV]".

ويذكر المقريزي[V] أحد مذاهب الروافض الذين أباحوا الخمر والزنا، ونكروا الجنة وعكسها، فيما عدا وجودهما في الحياة الدنيا[VI]؛ ولكنه قال إنهم ليسوا جزءًا مهمًا من عموم مذاهب الروافض الذين ينسبون لعليّ صفاتٍ إلهيةً.

يحتمل أن تكون الادعاءات المساقة ضد أتباع الفرق السرية نتيجةً لإساءة تفسير لغتهم المجازية، وإذا كانوا بريئين من تلك التهم؛ فعليهم أن يعترفوا بأنهم المسؤولون عن ذلك، بسبب استخدام مؤسسي فرقهم لغةً أودت بهم إلى عواقب وخيمةٍ.

وقد رأينا كيف عاقب راشد الدين سنان عقابًا شديدًا بعضَ سكان الجبل الذي عاش فيه، حين استغلوا الكلمات التي قالها كذريعةٍ للانغماس في الفجور. يتهم الداعية الدرزي حمزة النصيريةَ بتهمٍ مشابهةٍ، بل بأكثر من ذلك، وقد دحض ادعاءاتهم في كتابه الذي سأُترجم كل ما اقتبس منه دي ساسي.

يقول حمزة في المقدمة[VII]: "أمّا بعد، أيّدكم المولى بتأييده. إنه ورد إليّ كتاب ألّفه بعض النصيريّة الكافرين بمولانا[VIII] جلّ ذكره، المشركين به الكاذبين عليه، الغاوي للمؤمنين والمؤمنات، الطالبُ الشهواتِ البهيمية، وبَرازَةَ الطبيعيّة، ودينُه دين النُصَيريّة الدَنِيّة. فعليه وعليهم لعنة مولانا سبحانه ولعنة الخنازير العابدين لإبليس وحزبه. وسمّاه: كتاب الحقائق وكشف المحجوب. فمَن قَبِلَ كتابَه عَبَد إبليسَ واعتقدَ التناسخَ وحلَّل الفروجَ واستحلَّ الكذِبَ والبهتانَ.

[I] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 213.

[II] ربما قصد مدائن صالح التي كان اسمها الحجر، وسكنها قوم ثمود. المترجم

[III] ليس المقريزي، بل الفيلسوف الألماني يوهان جوتفريد هردر (174-1803). المترجم

[IV] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 25.

[V] "وصف مصر"، الجزء الثاني، ص 352، طبعة بولاق. {يقصد "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي. المترجم}

[VI] ينطبق هذا الوصف على إحدى فرق الخطابية التي تسمى "المعمرية". المترجم

[VII] الاقتباس أعلاه والذي يليه من "الرِّسَالَة الدَّامِغَة للفَاسِق. الرَدُّ عَلَى النُّصَيْرِيِّ". المترجم

[VIII] يقصد الحاكم بأمر الله. المترجم

ونسبَه إلى الموحّدين الحقيقية. وحاشا دين مولانا جل وعزّ من المنكرات. وحاشا الموحّدين من الفاحشات. وحاشا لعبيد مولانا سبحانه أن يُنسب إليهم شيء من الشهوات البهيميّة الدّنيّة، والأقاويل الشّركيّة[I]".

ثم ينتقل حمزة مباشرة إلى دحض عقائد النصيرية قائلًا: "فأوّل ما قال هذا الفاسق النصيري، لعنه المولى، بأنّ جميع ما حرّموه من القتل والسرقة والكذب والبهتان والزنا واللياطة، فهو مطلق للعارف والعارفة بمولانا جل ذكره. فقد كذّب بالتنزيل والتأويل، وحرّف وما جاز له أن يسرق مال الناس، ولا وسعة له في الدين أن يكذب إذ كان أصل دينه الكذب، وأصل الكفر والشرك ..... وأمّا قوله إنه يجب على المؤمن أن لا يمنع أخاه من ماله ولا من جاهه، وأن يظهر لأخيه المؤمن عياله، ولا يعترض عليهم فيما يجري بينهم وإلاّ فلا يتم إيمانه، فقد كذب لعنه الله ..... وأمّا قوله بأن يجب على المؤمنة أن لا تمنع أخاها فرجها وأن تبذل فرجها له مباحًا حيث يشاء، وإنّه لا يتم نكاح الباطن إلاّ بنكاح الظاهر، ونسبه إلى توحيد مولانا جل ذكره. فقد كذب على مولانا عزّ اسمه وأشرك به وألحد فيه، وحرّف مقالة أوليائه الموحدين. فعليه وعلى من يعتقده لعنة اليهود والنصارى والمجوس[II]".

ويبدو أن دي ساسي يؤيد ادعاءات الكاتب الدرزي[III] فيقول: "ما نتعلمه من كتاب الدروز عن النصيرية، يثبت أنهم يبيحون الزنا، وزنا المحارم دون أي تحفظ[IV]"، وبيّنَ دي ساسي أن الدروز أيضًا يستخدمون لغةً مجازيةً قد يُساء تفسيرها، وفي الاقتباس السابق يتهم حمزةُ الكاتبَ النصيري بسرقة الكلمات من مؤلفات الدروز والإسماعيلية وإساءة تفسيرها. يجب التعامل مع أقوال حمزة بحذرٍ لأنها شهادةٌ من العدو، وهناك شيءٌ وحيدٌ أكيدٌ، وهو أنه، نظريًا، لا يوجد أثرٌ ولو قليلٌ للفجور أو الفحش في كتب النصيرية المعروفة في يومنا هذا، ومن الناحية العملية، فإن تهم الممارسات القذرة المساقة ضد النصيرية في زمننا الحاضر ليس لها أساسٌ.

تُساق أيضًا تهمٌ مشابهةٌ ضد الفرق الأُخرى، إذ يتهم بنيامين التطيلي الدروز الذين عاصرهم "بارتكاب زنا المحارم، والانغماس في الملذات". وقد تحدث دي ساسي عن الفجور الذي يظهر في كتابات الدروز[V]، وقال إنه لا يتحمل مسؤولية تبرئة الدروز المعاصرين من "الإباحية" والأفعال الشائنة التي تروى عنهم.

ويقول أيضًا أن مقتنى[VI] -وهو من الكتّاب الدروز الأوائل- أشار إلى وجود مدلّسين في زمانه، حاولوا إفساد أخلاق أبناء الطائفة؛ لكي يكسبوا أتباعًا، مثل نشتكين الذي أصبح أحد دعاة الدين في بدايات تأسيسه، وأوكلت إليه "أبرشية" شمال بلاد الشام. أدخل نشتكين تغييراتٍ على الديانة الدرزية، ونجد تنديدًا به في إحدى الرسائل في كتبهم الحالية، ويقول دي ساسي: "يبدو لي أن نشتكين الدَرَزي كان يُدرّس تلك التعاليم الفاجرة في الشام".

يقول ڤون هامر متحدثًا عن النصيرية والدروز: "يؤمن النصيرية والإسماعيليون بتجسد الله في عليٍّ، ويعتقد الدروز أن أجنَّ الطغاة الحاكم بأمر الله هو الله بلحمٍ ودمٍ، وينبذ النصيرية والدروز جميع تعاليم الإسلام، وقد يراعونها في الظاهر، ويقيمون تجمعاتٍ ليليةٍ سريةٍ، وصمها المسلمون بالعار، إذ يرخون لأنفسهم العنان في التمتع بالخمر والانحلال الجنسي[VII]".

والسبب الأساسي لوجود هذه الروايات عن النصيرية هو اعتناقُهم لديانةٍ سريةٍ، بالإضافة إلى أن جيرانهم الإسماعيلية عندهم عقائد منحلةٌ، ولو أنني أعتقد أن الإسماعيلية ليسوا مذنبين بكل ما اتهموا به. تناقل الناس هذه القصص من

[I] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 568.

[II] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، ص 570.

[III] يقصد حمزة بن عليّ كاتب "الرِّسَالَة الدَّامِغَة للفَاسِق. الرَدُّ عَلَى النُّصَيْرِيِّ". المترجم

[IV] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 183.

[V] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 692، الحاشية. رأى سيريل غرام الكثير من الدروز المعاصرين، وأخبرني أنه يعتقد أن تهم الفسوق التي تساق ضدهم لا أساس لها، وأنه يعتقد أنهم أخلاقيون أكثر من أهل المدن. {سيريل غرام رحالةٌ إنجليزيٌ. المترجم}

[VI] عليّ بن أحمد السموقي المعروف ببهاء الدين المقتنى. المترجم.

[VII] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر، ص 212.

شخصٍ إلى آخر، وأخبروا بها من مر مسافرًا بمحاذاة تلك الجبال، ومن رآهم على طول الساحل. وكثيرًا ما سمعت ضباط السفن الفرنسية التي تتردد على اللاذقية، يكررون تلك القصص بالحماسة المعهودة التي تُتداولُ بها قصصٌ مثلها.

وقد نعذر هؤلاء أكثر من غيرهم، أمثال الرحالة پوجولا[I]، الذي -على ما أذكر- لرحلاته علاقةٌ بتاريخ ميشو[II] المنمق عن الحملات الصليبية. وأصل الخطأ الذي ارتكبه، كالعادة، هو الخلط بينهم وبين الإسماعيلية، حيث يقول في مكانٍ آخر متحدثًا عن أحد الرجال: "يعبدُ النساءَ كما يفعل نصيرية لبنان"، وقد قال حرفيًا: "تذكرنا تلك التجمعات الليلية الفاحشة بأُخرى تشبهها، يقيمها نصيرية الشام، وتُسمى بقبيش".

أُخذتْ هذه القصة من رواياتٍ متداولةٍ، تَنسبُ هذه الأفعال إلى النصيرية، وتقول إنهم يرتكبونها في أحد أعيادهم المشهورة المسمى عيد البقبيشة[III]. هذه القصة معروفةٌ عند النصيرية، ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن العيد ولا عن الاحتفال به، ويعدّونها قصةً مضحكةً، فهم يدركون السوداوية التي يراهم بها الأخرون، ولكنهم ليسوا سعيدين بالطريقة التي يراهم بها جيرانهم، فهم قلقون من تشويه تلك القصص لسمعتهم. سأبحث في فصلٍ لاحقٍ في الشخصية النصيرية، وهي ليست براقةً بالطبع، وسأقوم حينها بتبرأتها من إحدى أكبر مساوئها.

بعد أن أزحنا الستار عن "اللغز الآسيوي العظيم"، بمساعدة كتّابٍ آخرين، سنكشف في الفصل القادم المزيد عن هذا اللغز، وعلاقته بلغز الماسونية الحديث.

سنحاول المضي قدمًا في سبيل تحقيق الغرض من تأليف هذا الكتاب، بمساعدة الآخرين، وبالاعتماد على المعلومات التي استطعنا الحصول عليها من المخطوطة النصيرية، والمعاينة الدقيقة، والمعلومات الموثوقة.

[I] المقصود هو المؤرخ جوزيف فرانسوا پوجولا الذي زار اللاذقية سنة 1831، وساعد جوزيف فرانسوا ميشو في تأليف كتاب "تاريخ الحروب الصليبية". المترجم

[II] المقصود هو جوزيف فرانسوا ميشو الذي ألف كتاب "تاريخ الحروب الصليبية"، وصورها على نحوٍ "رومانسي" بأنها مفخرةٌ لفرنسا والفرنسيين، وربما كان أول من صبغ الحروب الصليبية صبغةً قوميةً. المترجم

[III] على الرغم من أن بعض الناس تنسب عيد البقبيشة إلى النصيرية، إلا أن الشائع بين أغلب من عرف عنه أنه عيدٌ إسماعيليٌ. المترجم

الفصل الخامس

المنهج الديني النصيري: الإيمان أو العقيدة

يؤمن النصيرية بإلهٍ واحدٍ أبديٍ قائمٍ بذاته؛ ظهر في صورٍ بشريةٍ سبع مرات في عالمنا، من هابيل بن آدم، إلى عليّ بن أبي طالب، والظهور الأخير هو الأفضل، حسب ما أفصحت عنه الظهورات السابقة لعليٍ؛ وبالظهور الأخير يصل لغز الظهورات الإلهية إلى غايته الأساسية، ويكتمل.

وفي كل ظهورٍ، يَستخدم الإلهُ شخصين آخرين، فيخلق الشخصَ الأولَ من نور ذاته، ثم يخلق الشخصُ الأولُ الشخصَ الثاني؛ ويُكَوِّن الشخصان مع الإله ثالوثًا لا ينفصل، يسمى: المعنى والاسم والباب.

المعنى هو أن يُصبح الإله معنى كل شيءٍ وحقيقتَه.

أما الاسم، فيسمى الحجة أو الحجاب أيضًا؛ لأن المعنى يَحجبُ به جلالَه، وبه يَظهرُ للناس.

والثالث يسمى الباب؛ لأنه المدخل إلى معرفة الاسم والمعنى.

في زمن آدم، كان المعنى هابيل، وكان الاسم آدم، وكان الباب جبريل. وفي زمن محمدٍ ﷺ كان المعنى عليًّا، وكان الاسم محمدًا ﷺ، وكان الباب سلمان الفارسي، أحد صحابة الرسول محمدٍ ﷺ.

وفيما يلي نجد الظهورات السبعة للمعنى والاسم والباب:

المعنى	الاسم	الباب
هابيل	آدم	جبريل
شيث	نوح	يائيل بن فاتن
يوسف	يعقوب	حام بن كوش
يوشع	موسى	دان بن أصباووط
آصف	سليمان	عبد الله بن سمعان
شمعون الصفا	عيسى	روزبة بن المرزبان
عليّ	محمد ﷺ	سلمان الفارسي

وبعد عليٍّ، ظهر الإله في ذريته من الأئمة؛ وعليٌّ إمام الأئمة لأنه أولهم.

وهنا يجب علينا تذكر قول الشهرستاني إن الإله يتشخص بأشخاصٍ، وربما يكون ذلك بحلول ذاته، وربما يكون بحلول جزءٍ من ذاته، والتشخص في الأئمة الأحد عشر من النوع الثاني. يبقى عليٌّ الظهورَ العظيم للإله في صورة بشرٍ، ويحل محل الإله ذاته بصفته الناسوتية بالاسم والشخص، فتُنسب إليه الصفات الإلهية كونه عليًا، ويصلى له باسم عليٍّ. ونجد أنهم ينظرون للأئمة بصفة ممثلين له في العالم، ليس أكثر من ذلك، وبمعنىً آخر هم رسله وأنبياؤه.

ويُرمز إلى سر هذا الثالوث بعلامةٍ أو رمزٍ لثلاثة مؤمنين، وبالتحديد، ثلاثة أحرف: ع، م، س. وهي الأحرف التي تبدأ بها أسماء عليٍّ ومحمدٍ ﷺ وسلمان.

ومن بين العوالم التي لا يعلمها إلا الله، يوجد عالمان: العالم الكبير النوراني، وهو في السماء "نور الأنوار"، والعالم الأرضي حيث يعيش البشر.

وعلى النصيري أن يؤمن بوجود عالم الأنوار الروحاني، ومراتبه السبع (ولكل منها 7 درجٍ[I])، مع وجود ممثلين لتلك المراتب على الأرض، وهم:

الأبواب، وعددهم 400.
الأيتام، وعددهم 500.
النقباء (وهم صحابة موسى)، وعددهم 600.
النجباء، وعددهم 700.
المختصون، وعددهم 800.
المخلصون، وعددهم 900.
الممتحنون، وعددهم 1100.
فيصبح المجموع خمسة آلاف.

يوجد في العالم الأرضي 12 نقيبًا، و28 نجيبًا، وفي العالم النوراني لهم أسماء تختلف عن أسمائهم في العالم الأرضي، وهي بالتحديد الأسماء الثمانية والعشرون لمدارات القمر[II]؛ ولهم نظراء من الأنبياء والرسل، لأنهم يمثلون الإله الذي حل فيهم جزئيًا.

يحتوي العالم الأرضي على سبع مراتب من المؤمنين:

المقرّبون[III]، وعددهم 14 ألفًا.
الكُروبيون، وعددهم 15 ألفًا.
الروحانيون، وعددهم 16 ألفًا.
المقدسون، وعددهم 17 ألفًا.
السائحون، وعددهم 18 ألفًا.
المستمعون، وعددهم 19 ألفًا.
اللاحقون، وعددهم 20 ألفًا.
فيصبح المجموع 119 ألفًا.

سر إيمان الموحدين هو سر الأسرار، وعقيدة الأبرار، وهو سر احتجاب مولانا[IV] في النور، أعني عين الشمس، وظهوره في عبده عبد النور. يوصف النور بأنه المعنى القديم؛ لأن المعنى القديم احتجب به. وبذلك فإن مولانا الذي احتجب في النور، يظهر في عبد النور، وعبد النور[V] هو الخمر الذي يشربه المؤمنون في القداسات. والقداس سرٌ كبيرٌ من أسرار العقيدة النصيرية.

[I] جمع درجة. المترجم

[II] راجع السؤال رقم 67 في الفصل العاشر. المترجم

[III] أسباب التسمية حسب ما وردت في كتاب "الرسالة الرستباشية" للخصيبي: المقربون الذين قال الله فيهم (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)، وإنما سموا السابقين لأنهم سبقوا جميع البشرية إلى معرفة بارئهم، والكروبيون لأنهم رفع عنهم كرب البشرية ورجسها، والروحانيون لأنهم راحوا إلى النوارنيه بصفاء المعرفة، والمقدسون لأنهم قدسوا بروح القدس، والسائحون لأنهم ساحوا في الملكوت لما عرفوا بارئهم، والمستمعون لأنهم لما سمعوا النداء أجابوه، واللاحقون لأنهم لما عرفوا أخلصوا واجتهدوا. المترجم

[IV] يقصد عليًّا بن أبي طالب. المترجم

[V] يقول أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني في كتابه "المسائل الموسومة بالدلائل": "لم سميت الخمرة بعبد النور؟ الجواب: إن الله تعالى أجراها في أنهار الجنة مع اللبن والماء والعسل، فأضاءت الخمرة على سائر الأنهار، فقالت الملائكة: يا ربنا ما هذا الشراب النور المضيء؟ فقال الله تعالى لهم: أنا النور وهذا عبدي". المترجم

يؤمن النصيرية بأن الأرواح جميعها خُلقت من عنصرٍ يَحِلُّ في جميع الكائنات، وأنه بعد عددٍ معينٍ من عمليات التناسخ، تصبح أرواح المؤمنين نجومًا في العالم الكبير النوراني.

يومنون أن الإمام الأخير محمد المهدي ما يزال حيًا في غيبته على الأرض، وأنه سيعود لكي يسود الدينُ الحق بالقضاء على أعدائه.

عند بلوغ النصيري سن الرجولة، يُطلعونه على أسرار دينه، ويبدأ التعرف على الشعائر والصلوات والإشارات والكلمات السرية؛ ويمكنك القول إنه دخل في أخوية ماسونية.

هذا هو الشرح الأولي للدين النصيري، وسأنتقل بعد ذلك للحديث عنه بالتفصيل.

على غرار الدروز، يؤمن النصيرية بإلهٍ دون أن يحددوا فلسفيًا ولا عقائديًا نمط وجوده أو جوهره أو صفاته. عليٌّ هو الرب، وهو مثل الله عند المسلمين، ويصف النصيريةُ عليًا بالصفات الإلهية نفسها التي يصفُ بها المسلمون اللهَ، ويزيدون عليها؛ فبعضها صفات عليٍّ الإله، والأُخرى صفات عليٍّ الإنسان. ويقتربون جدًا من الخلط بين جوهره والنور. فيذكرون في كتاب تعليم الديانة أنه احتجب في النور أو عين الشمس[I]، ويصفونه في المخطوطة[II] قائلين إنه "الظاهر من عين الشمس". ويقولون أيضًا إن محمدًا ﷺ خُلق من "نور ذاته[III]"، و "نور[IV] وحدانيته[V]". وهذا أحد الأسئلة في كتاب تعليم الديانة[VI]:

"السؤال: ما هو النور؟
الجواب: هو المعنى القديم؛ لأنّه احتجب بالنور".

وربما يعتقدون أن الضوء رمزٌ للأرواح الصالحة، كما يعتقد الزرداشتية والمجوس[VII].

ومن بين أسماء عليٍّ: "معنى المعاني"، "عنصر العناصر"، "غاية الغايات"، وهذا ما كان الخادم النصيري يشير به إلى عليٍّ.

ونستدل على أن عليًا هو الله من شهادته، ووصفه لنفسه بكلماتٍ من القرآن، يشير معناها الباطن إليه بالتحديد. ولذلك بعد فاتحة الكتاب المعتادة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، تبدأ المخطوطةُ النصيرية بما يلي: "وقوله وتعالى إنه قال مولانا أمير المؤمنين [اللقب الأعظم الذي خصه الله به[VIII]] إن الله سبحانه قد وصفني في كتابه العزيز، فقال وهو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، وهو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، وهو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، وإن هذه الأوصاف له وفيه؛ لأنه محتاجٌ إلى وصف نفسه، ولكنها فيّ ومنسوبةٌ إليّ، وبعض نعوتي، وأما قوله هو الله، فإنها إشارةٌ إليّ؛ لأني أنا ولي الأولياء".

[I] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 82.

[II] المخطوطة، ص 110.

[III] المخطوطة، ص 94.

[IV] المخطوطة، ص 110.

[V] المقصود أن محمدًا ﷺ خُلق من نور عليٍّ وحدانيته. المترجم

[VI] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 93.

[VII] في كتاب الأعياد النصيرية (كاتافاغو، المجلة الآسيوية، فبراير 1848) يوصف الإله بأنه "روح كل شيءٍ"، ويوصف المطر الذي أمطر على الأبدان النورانية بأنه ليس إلا "الروح التي تحل في كل شيءٍ".

[VIII] المخطوطة، ص 83.

وشهادةٌ أُخرى من عليٍّ لنفسه في عدة خطبٍ له على المنابر، وقد ذكر نفسه بالاسم[I] في بعضها، وتقول إحدى هذه الشهادات: "أنا عندي علم الساعة، وعليَّ دلّت الرسل، وبتوحيدي نطقت، وإلى معرفتي دعت".

بالإضافة إلى شهادةٍ كبيرةٍ من محمد ﷺ في مناسبةٍ خاصةٍ، لها وصفٌ مفصلٌ في المخطوطة[II]، وسأعرض ترجمتها في فصلٍ لاحقٍ[III].

ويقال إن عليًّا يُذكر على كل لسانٍ، ويُمدح في كل أوانٍ[IV]، وتجد الكثير من الثني عليه في المخطوطة، لدرجة أنه إذا شاهدها شيخٌ مسلمٌ عالمٌ، فسوف يتعجب قائلًا: "المديحُ الزائدُ لومٌ".

ومن بين أسمائه في اللغات الأُخرى[V] أذكرُ ما يلي: "إنّ العرب سمّت مولانا أمير المؤمنين عليًا، وسمّته أمّه حيدرة، وسمّاه الراهب الناموس الأعظم، وشمعون الصفا [يعتقد النصيرية والإسماعيلية والدروز أن كلمة الصفا من الصفاء، ولكنها تحريف لكلمة سيفاس[VI]]، وسَمّى نفسَه على المنبر أرسطوطاليس، واسمه في التوراة باريا [من كلمة بارئ]، واسمه في الإنجيل إيليا، أي عليّ [تتشابه كتابة الكلمتين في اللغة العربية]، واسمه عند الكهنة بويا، واسمه عند الهند كنكرا، واسمه في الزبور أريا، واسمه عند الروم بطرسيا، واسمه عند الزنج حبينا [أخطأوا، والصحيح أبونا، لأن أبونا هو اسم المطران الحبشي]، واسمه عند الحبشة بتريك [بطريرك]، وسمته الأرمن أفريقيا؛ ومن أسمائه التي تدعوه بها الأمم التي كانت في الدار قبل البشر: البر الرحيم".

ومن بين أسمائه أمير النحل أي المؤمنين؛ لأن النحلَ تلتقط من الأزهار أحسنَها، أي تتبع أحسن التعليمات[VII]، ويستخدم هذا الاسم كثيرًا.

ويسمى "تاج كسرى"، وكسرى هو الاسم الذي يطلقه العرب على ملوك فارس الساسانيين، وأصل الكلمة "خسرو"؛ وفي وصف عيد النوروز في الكتاب النصيري[VIII]، قيل إن عليًا ظهر في ثالوث المعنى-الاسم-الباب بأشخاص عدة ملوكٍ ساسانيين، وكان حلولًا جزئيًا للإله في الناس الفضلاء، وليس حلولًا كاملًا. وتتضح هنا وفي مناسباتٍ كثيرةٍ علاقة الديانة النصيرية بفارس. ويقولون في عليٍّ ما يقوله المسلمون عن أفعال الله وقدراته. ويقال إنه خلقنا[IX]، وخلق عيسى في بطن أمه[X]، وإنه أرسل محمدًا ﷺ[XI] وعلمه، وهلم جرًا[XII].

ويعتقد النصيرية أن عليًا ظهورٌ نورانيٌّ، وليس من لحمٍ ودمٍ، وأن أفعاله تكون في الظاهر فقط[XIII]. وعلى سبيل المثال، حدثني الخادم النصيري إنهم يقولون بأنه لم يتزوج في الحقيقة، وكيف يتزوج وهو الله؟

[I] المخطوطة، ص 6، 10، 11، 12، 15؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 2.

[II] المخطوطة، ص 91؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 3.

[III] الفصل التاسع.

[IV] المخطوطة، ص 4.

[V] المخطوطة، ص 77؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 43.

[VI] كلمة الصفا تعريب لفظيٌّ لكلمة كيپا أو سيپا الأرامية التي تعني الصخرة، وهو اللقب الذي أطلقه النبي عيسى عليه السلام على القديس شمعون أو سيمون أو سمعان. ثم تحولت إلى اللاتينية فأصبحت پيتروس، ثم أعاد سكان بلاد الشام استيرادها، فأصبحت بطرس، وهو الاسم الشائع في زمننا الحاضر. المترجم

[VII] المخطوطة، ص 86؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 43.

[VIII] وصفها كاتافاغو في "المجلة الآسيوية"، فبراير، 1848.

[IX] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 1؛ المخطوطة، في أماكنَ متفرقةٍ.

[X] المخطوطة، ص 7.

[XI] المخطوطة، ص 21.

[XII] المخطوطة، في أماكنَ متفرقةٍ.

[XIII] مقارنةٌ ضمنيةٌ بين الرب عليٍ النوراني، والرب عيسى عليه السلام المكون من لحمٍ ودمٍ. المترجم

يتحدث أحد النصوص عن ظهور الإله لتأنيس البشر، وفي النص نفسه يقال إنه ألطف غلافٍ في جوف غلافٍ[I].

ويؤكدون بأنه "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، مستخدمين كلماتٍ من السورة القرآنية [II] المعروفة رقم 112، ويضيفون بعدها "ولم يظهر في أحدٍ، ولم يكن له صاحبةٌ ولا ولدٌ[III]".

وفي كتاب تعليم الديانة، نجد السؤال التالي[IV]:

"السؤال: إذا كان مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو الله، فكيف تجانس مع المتجانسين؟
الجواب: اعلم أنّ مولانا أمير المؤمنين لا يتجانس مع المتجانسين، بل إنه احتجب بمحمدٍ ﷺ في كوره، ودوره، وتسمّى عليًا".

وسؤال آخر[V]: "ما هو الظهور الإلهي؟
الجواب: هو ظهور الباري بواسطة الحجب بالإنسانية".

وعندما طلب السائل تفسيرًا أدق، كان الجواب[VI]: "اعلم أنّ المعنى دخل بالباب، واحتجب بالاسم، وتسمّى به، مثلما قال مولانا جعفر الصادق".

وعلاوةً على ذلك، يتكلمون عنه بصفته الإنسانية، ويقال إنه كان الهاشميَ (من أحفاد هاشم جد محمد ﷺ الكبير) الوحيدَ من أبٍ هاشميٍ وأمٍ هاشميةٍ في ذلك الزمن[VII]. اسم أمه كما يبدو فاطمة، وإخوته حمزة[VIII] وجعفر، وطالب، وعقيل؛ وأولاده: الحسن والحسين، وبناته زينب وأُم كلثوم؛ وأخيرًا مشهده (مسجدٌ مشيدٌ فوق قبره) في الذكوات البيض غرب الكوفة[IX].

وبالطريقة نفسها يعتقد الدروز أن إنسانية حمزة كانت في الظاهر فقط، وإيمانهم بالحاكم بأمر الله كإيمان النصيرية بعليٍّ؛ وسوف أُشير إلى كلمات دي ساسي الموجزة، والواضحة، والدقيقة عن الظهور الإلهي في هيئة بشرٍ، وقد أشرت إلى ذلك في الصفحة رقم 41.

وهنا أريد التوقف للإشارة إلى شيءٍ وجدتُه في الكتاب النصيري الذي كان عند نيبور[X]: "في مكانٍ آخر، يقول المؤلف إنه ينبغي للنصيري الإيمان بأن محمدًا ﷺ، وفاطر (فاطمة)، والحسن، والحسين، ومحسن (أبناء فاطمة من عليٍّ)، يُكوِّنون شيئًا واحدًا، وحدةً تعني عليًّا[XI]". ويشير المقريزي[XII] إلى نفرٍ من الناس، "ومنهم من قال بإلهية خمسةٍ، وهم

[I] المخطوطة، ص 32؛ يقصد أن عليًا كان غلاف (غمد السيف أو الخنجر) الإله، واحتجب ذلك الغلافُ في غلافٍ آخر، وتحديدًا في محمدٍ ﷺ الحجة والحجاب. {أي أنه غلافٌ علويٌ بجوف غلافٍ سفلي. الغلاف العلوي: ظهوره بالصورة المرئية؛ الغلاف السفلي: ظهوره بنور الذات. المترجم}

[II] سورة الإخلاص. المترجم

[III] المخطوطة، ص 101.

[IV] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 4.

[V] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 8.

[VI] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 9.

[VII] المخطوطة، ص 87. {تقول المخطوطة: "ولم يكن في زمانه هاشمي ابن هاشمية غيره وإخوته". المترجم}

[VIII] المعروف أن لعليٍّ ثلاثة إخوةٍ: جعفر، وطالب، وعقيل؛ ولم أجد في كتب النصيرية ما يشير إلى أخٍ اسمه حمزة، إلا في مخطوطةٍ تعود للقرن التاسع عشر. وأظن أن السر في هذا الخطأ يكمن فيما يسمى "مقامات بني هاشم"، حيث توجد مقامات أُخوة عليٍّ (جعفر، وطالب، وعقيل)، ومقام عمهم حمزة بن عبد المطلب؛ ولما كان الثلاثة الأوائل أخوة عليٍّ، ربما نشأ اعتقادٌ خاطئٌ بأن حمزة هو الأخ الرابع، مع أنه حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وعليٍّ وإخوته. المترجم

[IX] المخطوطة، ص 87، 88؛ كتاب تعليم الديانة، الأسئلة رقم 45-48.

[X] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور، الجزء الثاني، ص 360.

[XI] يسمي النصيرية فاطمة بصيغة المذكر فتصبح فاطر. والمقصود عمومًا من هذه الجملة أن فاطمة وأولادها أسماء لظهورٍ واحدٍ، وهو ظهور الله أو عليٍّ فيهم. المترجم

[XII] "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، المقريزي، الجزء الثاني، ص 253.

أصحاب الكساء، محمد ﷺ، وعليّ، وفاطمة، والحسن والحسين، وقالوا خمستهم شيءٌ واحدٌ .... وكرهوا أن يقولوا فاطمة بالهاء، فقالوا فاطم[I]". وهنا نرى المصدر الذي أخذ منه المؤلف أو من روى عنه، وأريد أن أقول للمرة الأخيرة، إنه مع وجود تناقضاتٍ فيما قُلتُه عن العقيدة النصيرية، علينا أن نتذكر أنه من المتوقع وجود تناقضاتٍ في ديانةٍ عمل أُناس جاهلون على تجميعها من كل ما وصل إلى أيديهم من مصادِرَ، مع رغبتهم الشديدة في ادعاء ملكية جميع المعتقداتِ.

حدثت الظهورات السبع الإلهية من هابيل إلى عليٍّ في سبع قبابٍ (أزمنة)[II]، مثل القبة الإبراهيمية، والقبة الفارسية، والقبة العربية، والقبة المحمدية. وقد ذُكرت تلك الظهورات أربع مراتٍ في المخطوطة النصيرية[III]، وتطابقت أسماء الأشخاص الذين ظهر فيهم عليٌّ في المرات الأربع التي ذُكرت فيها، وكذلك تطابقت مع أسماء الظهورات السبعة التي ذكرها نيبور، ومع ما ورد في كتاب تعليم الديانة[IV]. هذه حالةٌ واحدةٌ من عدة حالاتٍ من التطابق التام بين المخطوطات النصيرية التي عُثِرَ عليها في أزمنةٍ مختلفةٍ، وبطرائق شتى. وهذا تطابقٌ لافتٌ للنظر، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطبيعةَ المتباينة للعقائد النصيرية، وما تتصف به بعض عناصرها من غرابةٍ، وعشوائية، وتيهٍ.

سنتحدث الآن عن "الثالوث الذي لا ينفصل"، حيث يُظهِر الله نفسه بأشخاصه الثلاثة الذين يسمون: المعنى، والاسم، والباب[V].

وأريد أن أقول في البداية إنه يجب علينا عدم افتراض وجودِ شَبَهٍ لهذا الثالوث مع الثالوث المسيحي، مع أن النصيرية قد أخذوا الفكرة والاسم منه، كما أخذوا أشياء كثيرةً أُخرى. ويوجد تماثُلٌ للاسم والباب مع الحدان الدرزيان العقل الكلي[VI]، والنفس الكلية[VII]، كما سنرى عندما نتحدث عن كل منهما على حدته. ويسمى الشخص الثالث باسم "النفس الكلية"، وهو اسم الحد الثاني في التراتبية الدرزية.

استَعمل الكُتاب الدروز كلمة "المعنى"، ويقول بهاء الدين، وهو من أكبرهم وأقدمهم[VIII]: "الحمد للمولى الإله المنفرد بِمَعنى الظهورات الإلهية[IX]". ويقول دي ساسي[X]: "إن هذا التعبير مقدسٌ بالأخص عند النصيرية، لأن الإله محتجبٌ في هيئة بشرٍ، وما يزال محتجبًا حتى الآن"، ثم يقتبس من الكِتاب النصيري الذي استعاره من الرحالة نيبور: "يقتبس المؤلف النصيري من نصوصٍ متعددةٍ من خطب عليٍّ، ثم يضيف: وهذه الشواهد والخطب المضيئة تدل على وجود معنى بارئ البرية في الصورة المرئية[XI]".

ويقول المؤلف نفسه في مكانٍ آخر: "كلمة الله مشتقةٌ من ألَه، والإله يقتضي مألوها، والاسم في المسمى، فمن عَبدَ الاسم دون المعنى فقد كَفرَ ولم يعبد شيئًا، ومن عَبدَ الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى دون الاسم، فذلك التوحيد الخالص[XII]".

[I] مأخوذ من كلام المقريزي عن فرقة العليائية أو العلبائية. المترجم

[II] المخطوطة، ص 41، 42، 131.

[III] المخطوطة، ص 8، 41، 90، 130.

[IV] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 5؛ راجع ڤيكتور لانجلوا، "مجلة الشرق".

[V] يقصد علي، محمد ﷺ، سلمان، وعادةً ما يقرؤونها: عين ميم سين، وتكتب اختصارًا عمس. المترجم

[VI] حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني. الحد الأول. المترجم

[VII] إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي، ثاني الحدود. المترجم

[VIII] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 60.

[IX] الاقتباس من "رسالة الهند" من كتاب "رسائل الحكمة". المترجم

[X] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 581.

[XI] حيث ذكرت آنفًا.

[XII] التوحيد عند النصيرية هو عبادة عليٍّ دون الإشراك به. المترجم

نفهم من هذا النص أن العبودية للشخص الأول فقط، وليست للشخص الثاني (الاسم)، لأنه يختلف عن الإله العظيم الذي يمثله[I].

وهذه بعض الأسئلة من كتاب تعليم الديانة[II]:

"ما هو الاسم والمعنى والباب؟
الجواب: هو ثالوثٌ غير منفصلٍ، ولهذا نقول بسم الله الرحمن الرحيم [تقال قبل جميع سور القرآن باستثناء واحدة[III]]، فلفظ الله يدلّ على المعنى، ولفظ الرحمن الرحيم يدل على الاسم والباب.

السؤال: هل ينفصل الباب والمعنى عن الاسم؟
الجواب: كلا بل إنهما متصلان به، ولا يمكن فصلهما.

السؤال: ما هي الأسماء المتعلّقة بالمعنى والاسم والباب وكيف تُقسّم؟
الجواب: إن الأسماء المتعلّقة بالمعنى والاسم والباب تقسم إلى مثليةٍ، وذاتيةٍ، وصفاتيةٍ. فالمثلية المعنى، والذاتية الاسم، والأسماء الصفاتية هي التي تَسَمَّى بها الاسم، وهي للمعنى خاصة، كقولنا: الرحمن، الرحيم، الباري".

وفي سؤال آخر[IV]: "ما هو الباطن وما هو الظاهر؟
الجواب: اعلم أنّ لفظة الباطن تدل على لاهوت مولانا، والظاهر يدل على إنسانيته، ففي الظاهر نقول مولانا عليٌّ بن أبي طالب، ومعناه في الباطن: المعنى والاسم والباب، وهو الله الرحمن الرحيم".

المعنى اسم خاصٌ بالله[V]؛ ومع أن بعض الأسماء الأُخرى أسماء صفاتيةٌ للمعنى، فإن الاسم يتسمى بها، أو كما تقول المخطوطة حرفيًا: "الأسماء الصفاتية هي التي تَسمَّى بها الاسم وهي للمعنى خاصة[VI]".

في كثير من المخطوطات النصيرية يَقترِن ذِكر المعنى بذِكر الجوهر في المقطع نفسه[VII]، ويشار في مكانٍ آخر[VIII] إلى الاسم والباب على أنهما يشيران ويدلّان على المعنى عليًّ في القباب السبعة، والدلالة على الشخص الإلهي منوطةٌ بالشخصين الأولين. وفي كثير من المخطوطات، يُذكر معًا المعنى والاسم والباب، لأنهم ركنٌ أساسيٌ من أركان العقيدة النصيرية. وبالإشارة[IX] إلى آياتٍ من القرآن تتعلق بألوهية عليٍّ، يقال: "وآيات مثل هذه كثيرة تدل على معرفة المعنى والاسم والباب". ثم نجد حديثًا عن أم سلمة إحدى زوجات محمد ﷺ "الدالة بولايتها على ظهورات المعنى والاسم والباب[X]".

وفي مكان آخر يُبتهل إلى عليٍّ بالمعنى والاسم والباب[XI]، ويُشار في مقطع آخر إلى "المعنى القديم"، و"الاسم العظيم"، و"الباب الكريم المقيم[XII]".

[I] يريد المؤلف أن يُظهر الفرق بينه وبين الثالوث المسيحي الذي تتساوى فيه الأقانيم الثلاثة. المترجم
[II] كتاب تعليم الديانة، الأسئلة رقم 10، 12، 13.
[III] سورة التوبة. المترجم
[IV] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 97.
[V] المخطوطة، ص 89.
[VI] المخطوطة، ص 75.
[VII] المخطوطة، ص 66.
[VIII] المخطوطة، ص 131.
[IX] المخطوطة، ص 17.
[X] المخطوطة، ص 41.
[XI] المخطوطة، ص 40.
[XII] المخطوطة، ص 44، 158.

ونجد تلك الكلمات في جميع كتب النصيرية المعروفة. وقد تحدث نيبور عنها، وفي الكتاب الذي كان في حوزته اقترن ذكرهم بالأيتام الخمسة، وبالحسين بن حمدان الخصيبي الداعية النصيري المعروف الذي نشر دينهم. ويقول إن تلك الظهورات الإلهية "خمسيةٌ[I]"، ويعترف بعدم مقدرته على شرحها.

يشير لانجلوا[II] إلى الكلمات نفسها قائلًا: "تتلخص عقائد النصيرية بما يلي: ألوهية عليّ زوج بنت محمد ﷺ، الذي تجسد سبع مراتٍ، والثالوث الذي يتجدد في سبعة أزمنةٍ مختلفةٍ، وبأسماء مختلفةٍ. يسمى الثالوث: المعنى، الاسم، الباب. يشيرون إلى هذا الثالوث بالأحرف: ع م س، وهي الأحرف الاستهلالية للأسماء التالية: عليّ، ومحمد ﷺ، وسلمان الفارسي".

يصِف كاتافاغو[III] كتابًا نصيريًا، ويذكرُ عنوانه، ثم يقول: "يوجد ثلاثة مفاهيم متميزةٍ عند عليٍّ: أولًا: الألوهية كما تسمى، أو جوهر الأشياء. ثانيًا: النور أو الحجاب. ثالثًا: الباب وهو الروح الأمين".

فيما يخص العقائد الأساسية للنصيرية، نرى مرةً أخرى توافقًا تامًا في المخطوطات المتعددة التي بُحث فيها، وسنرى أن التوافق ليس بأقل في الأمور الصغيرة أيضًا.

محمدٌ ﷺ هو الاسم، أو الشخص الثاني في الظهور الإلهي الثالوثي الذي حصل في أفضل الأزمنة: زمن عليٍّ. ولذلك فإن محمدًا ﷺ أفضل الظهورات بين الأسماء التي كان الستة السابقين فيها: آدم (الذي يعده المسلمون نبيًا)، ونوح، ويعقوب، وموسى، وسليمان، وعيسى. وعند مقارنة تلك الأسماء بظهورات المعنى المرافقة لها، سنجد أن الأشخاص السبعة الأخيرين أقل أهميةً من أشخاص الاسم السبعة. ظهر الله في أشخاصٍ مثل هابيل، وشيث، ويوسف، ويوشع، وآصف، وبطرس، ويبدو أن سبب ذلك هو عزلتهم النسبية في الدنيا، وامتلاكهم الشهرة المطلوبة لإعطائهم الأهمية اللازمة لتسخيرهم في المنهج النصيري. حتى في زمن عليٍّ، يُظهر الله نفسه للبشر بواسطة الاسم الذي يسمى "الحجاب"؛ لأنه يحجب النور الذي لا تستطيع عيون المخلوقات تحمله. ويبدو أن هذه المفردة أو الفكرة قد أُخذت من الحجاب أو الستارة التي توضع أمام أبواب مجالس الأشخاص المهمين. وكامتيازٍ خاصٍ، كان على أبواب مجالس خلفاء بغداد سبعة حجبٍ تُرفع وتُنزَّل، وكانت تلك مهمة الحاجب الذي اشتق اسمه من دوره في العمل[IV]. وكثيراً ما يستعمل هذا المصطلح للإشارة إلى محمدٍ ﷺ في المخطوطات النصيرية[V]، ونقرأ في القداس الثالث الذي نُشر في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية": "لا حجاب إلا السيد محمد المحمود [الممدوح]"، ويوجد اشتقاقٌ آخر، محمد الحمْد، بسبب التشابه اللفظي بين اسم العلم والصفة، مثل سلمان السلام والسلسل (الخمر أو الماء الصافي).

وكما ظهر حمزة عدة مراتٍ، فقد تعددت ظهورات محمدٍ ﷺ؛ لأن الشخص نفسه ظهر في الاسم في أزمنةٍ مختلفةٍ بصورٍ مختلفةٍ. وقبل أفضل ظهورات الاسم في محمد ﷺ، ظهر في عيسى[VI]، ولذلك تقول صلاة عشية عيد الميلاد حسب ما قال كاتافاغو[VII]: "اللهم يا مولاي أنت العلي العظيم، الأحد الفرد الصمد، لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفوًا أحد، أظهرت في هذه الليلة اسمك ونفسك وحجابك وعرشك الذي عرشته على جميع خلقك بالطفولية في صورة عبادك، وهو أعظم من جميع ما في ملكك وأعلاهم عندك لتبين لهم قِدَمك ولاهوتيتك، وتظهر عليهم بحجتك، لتذكر من اهتدى بربوبيتك في وقت نداء دعوتك بنفسك وبذاتك، فتبارك اللهم من عظيم ما أعظمك، وحكيم ما أحكمك، وكريم ما أكرمك، بتفضلك على جميع خلقك وبلطفك تذكرهم بظهوارتك في سائر أكوارك وأدوارك".

[I] يقصد نيبور بالخمسية: المعنى، والاسم، والباب، والأيتام، والحسين، وهو يعتقد خطأً أنهم متحدون. المترجم

[II] "مجلة الشرق" يونيو 1856.

[III] مقالة "ملاحظة على النصيرية"، "المجلة الآسيوية"، جوزيف كاتافاغو، فبراير 1848.

[IV] "تاريخ الحشاشين"، ڤون هامر ص 93.

[V] المخطوطة، ص 8، 10، 40، 61، 144.

[VI] ڤيكتور لانجلوا، حيث ذكرت آنفًا.

[VII] "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848. {الاقتباس من كتاب "مجموع الأعياد" للطبراني. المترجم}

ومع أن النصيرية يستخدمون تلك العبارات، فهم لا يؤمنون بحقيقة الصلب، بل يتبنون وجهة نظر المسلمين المبنية على كلمات محمدٍ ﷺ في القرآن[I]، والتي أخذها من هراطقة المسيحيين الأوائل، أو ربما من إنجيلٍ زائفٍ: "وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)". ذُكرت هذه الآيات القرآنية في المخطوطة[II]، وعندما كنت أتحدث مع شيخٍ نصيريٍ عن موت المبارك مخلصنا[III]، استخدم عباراتٍ كفريةٍ، فقال: "لا رحم الله أحدًا مات من أجلي[IV]".

محمدٌ بالنسبة إلى عليٍّ عند النصيرية، مثل حمزة بالنسبة إلى الحاكم بأمر الله عند الدروز؛ فقد قال محمدٌ ﷺ عن نفسه: "لأني خلقت من نور ذاته[V]"، ولكي يُظهر أنه أدنى مركزًا من عليٍّ، يضيفُ مباشرةً: "وهو ربي وربّكم"، ولذلك قلنا إن الثالوث النصيري ليس ثالوث أقانيم إلهيةٍ[VI].

وفي المقطع نفسه يسأل محمدٌ ﷺ: "أوليس هو خالقي وخالقكم[VII]"، وأحد الأسئلة[VIII] في كتاب تعليم الديانة:

"السؤال: كيف المعنى اخترع الاسم، وكيف الاسم اخترع الباب؟
الجواب: اعلم أنّ عنصر العناصر، وجوهر الجواهر قد اخترع الاسم من نور وحدانيته".

ويُخاطَب عليٌّ في المخطوطة[IX] بصفته قد: "خلق محمدًا من نور وحدانيته، وأنزعية صمدانيته، وجعله نورًا منجبلًا من جوهر معنويته، فسماه الله محمدًا حين ناجاه، وحركه من سكونه واصطفاه، وسمّاه باسمه، واجتباه، ولم يكن له ربٌّ سواه، وجعله وحده الخالق، ولسانه الناطق، وأقامه بالأمر العظيم، والسبب القديم، وجعله دائرة الوجود ومحراب [نقطة توجه المصلين في المسجد نحو القبلة أو مكة] السجود، بأمر العلي المعبود، وقال له كن مسبب الأسباب ومبوب الأبواب [ليكون وسيطًا بين الله تعالى والبشر]. فعندها الحجاب [محمد ﷺ] خلق البابَ [سلمان] بأمر مولاه وغايته ومعناه، وكاشف ضره وبلواه، وأمره أن يخلق العوالم العُلْوية والعوالم السفلية، وهداهم إلى ساير العوالم الزكية". وهكذا نرى أن عليًا خلق كل شيءٍ عن طريق محمدٍ ﷺ.

توجد بعض الصعوبات في شرح ما يقال عن الاسم، وبالتحديد أسماء الاسم في الكِتاب النصيري. وربما كان أفضل تبريرٍ لذلك هو أن هذه التناقضات دخلت بالتَّدريج مع مرور الزمن، وهذا التفسير أفضل من الاستماع إلى تفاسير وملاحظات معلمي الدين الحاليين؛ لأنه من المؤكد أن هؤلاء المعلمين وأسلافهم قد تركوا الأمور مبهمةً، كما يبدو من بعض الأجوبة الواردة في كتاب تعليم الديانة. فبعد إعطاء عدة أسماء سخيفةٍ لدرج المراتب السبع في العالم النوراني، يُسأل السؤال -ويبدو وجود صعوبةٍ في جمع تلك الأسماء من أشياء مختلفةٍ مثل الأنوار، والشمس وهلم جرًا؛ والقمر والبرق، وهلم جرًا؛ والصلاة والزكاة، وهلم جرًا؛ والصلاة والصدقات، وهلم جرًا؛ والجبال والبحار، وهلم جرًا؛ والليل والنهار، وهلم جرًا؛ والجمال والنحل، وهلم جرًا؛ والبيوت والمساجد، وهلم جرًا- والسؤال[X] هو:

"اشرح لي كيف السبع مراتب قبل ظهورهم في العالم الصغير البشري، كانوا في العالم النوراني؟

[I] سورة النساء، آية 156-157.

[II] المخطوطة، ص 2؛ راجع أيضًا كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 75.

[III] يقصد عيسى عليه السلام. المترجم

[IV] يعتقد المسيحيون أن النبي عيسى عليه السلام مات من أجلهم، ومن هنا عدّ المؤلف ما قاله الرجل النصيري كفرًا. المترجم

[V] المخطوطة، ص 94، 95.

[VI] يريد القول إن الثالوث النصيري يختلف عن الثالوث المسيحي الذي تتساوى فيه الأقانيم الثلاثة، ولا أفضلية لأحدهم على الآخر. المترجم

[VII] تقول الصفحة 178 من المخطوطة إن محمدًا ﷺ خير الخلق.

[VIII] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 11.

[IX] المخطوطة، ص 110، 111.

[X] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 64.

الجواب: اعلم أن سبعة مراتب العالم الكبير النوراني كان لها غير أسماء في السماء قبل ظهورها على الأرض".

وكأن من أوجد تلك المراتب السبع قد تعب وملّ مما يفعله، أو أنه استهلك ما في مخيلته من أسماء، وفقد الأمل في العثور على أسماء مناسبةٍ؛ وإلا فإن شطحات خياله تدل على أن جموح أفكاره لا يتوقف. ومرةً أُخرى يأتي السؤال:

"ما هو معنى قولك إن للنجباء أسماء في البشرية والنورانية؟
الجواب ببساطة: اعلم أنّ النجباء كل واحد منهم له اسمان قائمان به".

إذا لم نقدر على فك معاني الجمل الخيالية في العقيدة النصيرية، يجب علينا ألا نتعجب، ولا نحزن.

نجد في المخطوطة النصيرية ابتهالاتٍ متتاليةً لعليٍّ، وفي بعضها يذكر الاسم على نحوٍ يصعب تفسيره[I]: "أتبرأ وأتوسل إليك يا مولاي في أسماء الاسم في اصطلاح اللغة وهم: أحمد، محمد، المصطفى، الأمي، الأمين، الدليل، العاقب، الناجي، الحاشر، الباعث، يس، الحواميم السبعة[II]، الطواسين[III]، كهيعص، الم، المص، الر، طه، التين، الزيتون، المزمل، المدثر، ص، ق، ن، المجيب، وفي التوراة ماد الماد، الوفي، الأمين، وفي الإنجيل الفارقليط، وفي الزبور مهيمنا، وفي القرآن محمدًا ﷺ، طاب، الحجاب". ومرةً أُخرى: "أتبرأ وأتوسل إليك يا مولاي في أسماء الاسم في التسعة الذاتية[IV]، وهم: آدم، ويعقوب، وموسى، وهارون، وسليمان، وعيسى، وعبد الله (أبو محمدٍ ﷺ) ومحمد رسول الله، ومحمد بن الحسن الحجة".

نرى هنا كيف حُذف اسم نوح، وأُدخل اسم هارون في ظهورات الاسم السبعة، فهارون هو الأساس الصامت لأحد الأنبياء السبعة الناطقين في المنهج الإسماعيلي كما شرحنا سالفًا[V]. وكذلك أُضيف عبد الله، والإمام محمد، لأسبابٍ أعترف أني لا أعلمها الآن[VI].

وهذه ابتهالةٌ أُخرى: "أسماء الاسم في القبة الإبراهيمية: إبراهيم، وإسماعيل، وإلياس، وقصي [أحد أجداد محمدٍ ﷺ]، وإسحاق"، والابتهالة التالية في القبة الموسوية: "موسى، وهارون، وشبر، وشبير، ومشبر"، وهم أبناء هارون الثلاثة، حسب اعتقادات المسلمين.

وأخيراً في القبة المحمدية: "محمد ﷺ، وفاطر [فاطمة] والحسن، والحسين، ومحسن". ولأن هؤلاء يكوّنون شيئًا واحدًا [أشرت إلى ذلك في السابق]، فربما يُعَدّ الخمسة الآخرون في زمن موسى شيئًا واحدًا أيضًا. الابتهالة التالية شديدة الغموض: "بالأسماء الثلاثة والستين"، أو كما يقول السؤال رقم 14 في كتاب تعليم الديانة:

"أخبرني عن الأسماء الثلاثة والستين، المثلية المعنى والذاتية الاسم وهي التي قام فيها في النبوة والرسالة؟". هذا خليطٌ غريبٌ من الأسماء، ولذلك سأقسمه إلى مجموعاتٍ: "آدم، وأنوش، وقينان، ومهلاييل، ويارد، وإدريس، والمتوشلخ، ولمك، ونوح، وسام، وأرفخاد؛ ويعرب [من أبناء إسماعيل]؛ وهود، وصالح، ولقمان، [أنبياء مذكورون في القرآن]؛ ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل؛ وإلياس [من أجداد محمد ﷺ[VII]]؛ وقصي؛ وإسحاق، ويعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وكولب، وحزقيل، وشومئيل، وطالوت، [الاسم الإسلامي لشاؤول]، وداود، وسليمان، وأيوب، ويونس، وأشعيا؛ واليسع

[I] المخطوطة، ص 60 وغيرها؛ كتاب تعليم الديانة، السؤالان رقم 16-17.

[II] سور قرآنية سبع تبتدئ بـ "حم". المترجم

[III] سور قرآنية ثلاث تبتدئ بـ "طس". المترجم

[IV] ربما تعني ظهورًا خاصًا للاسم.

[V] هارون هو أساس موسى في الدور الرابع، حسب العقائد الإسماعيلية. المترجم

[VI] يقارن المؤلف أسماء الاسم في التسعة الذاتية بأسماء الاسم في أول ظهور لهم في القباب السبع، وهم: آدم، نوح، يعقوب، موسى، سليمان، عيسى، محمد، ﷺ. وهذان أمران مختلفان، ففي التسعة الذاتية لم يزيل المعنى الاسمَ، ويظهر كمثل صورته، كما حدث في بقية أسماء الاسم، فبقيت حكرًا على الاسم، ولم يظهر فيها المعنى. أما أسماء الاسم في القباب السبع فهي أول ظهورٍ للاسم فيها، وتوجد ظهوراتٌ أُخرى كثيرةٌ، لكنها غير ذاتيةٍ، بمعنى أن المعنى أزال الاسم، وظهر كمثل صورته. المترجم

[VII] المقصود "قصي"، وُضع القوس قبل كلمة "قصي" والمفروض أن يوضع بعدها. المترجم

[من أحفاد إسماعيل]، والخضر [شخصية مسلمة أو مسيحية، وذلك حسب الحالة، الشخصية المسيحية هي إيليا أو القديس جورج]؛ وزكريا، ويحيى، وعيسى، ودانيال، والإسكندر؛ والأزدشير، وسابور [أول ملكين فارسيين من السلالة الساسانية]؛ ولؤي، ومرة، وكلاب، وقصي، وعبد مناف، وهاشم، وعبد المطلب [أجداد محمد ﷺ]؛ وعبدالله، ومحمد المصطفى، والحسن المجتبى، والحسين الشهيد بكربلاء، وعليّ زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعليّ الرضا، ومحمد الجواد، وعليّ الهادي، والحسن العسكري، والإمام محمد بن الحسن، الحجة، القائم، المهدي، البشير، النذير، المؤمل، المنتصر، صاحب العصر والزمان، [الأسماء الأحد عشر الأخيرة أسماء الأئمة الأحد عشر بعد عليًّ]". وبالنظر على تلك الأسماء، نرى بينها الأسماء السبعة نفسها التي ظهر فيها الاسم ظهورًا خاصًا. أما الظهورات الأُخرى، فليست من الطبيعة نفسها، وتحدث بالتأثير، وليس بالحلول الحقيقي.

وهذا تفسيرٌ آخر قد يزيل الصعوبات التي أشرنا إليها، وقد يكون صحيحًا: بالإضافة إلى ظهورات الاسم السبعة في أزمان الظهورات الإلهية السبعة الخاصة، حدثت سلسلةٌ متتاليةٌ من الظهورات المماثلة منذ بداية العالم، بحيث يحل الاسم بعد وفاة الأب في الابن أو النبي أو الرسول التالي؛ وفي هذه الحالة تبقى عندنا ملحوظة واحدةٌ، هي أن بعض الأسماء مثل حزقيال، ودانيال ليسا في ترتيبهما الزمني الصحيح للأسف. وسنرى أيضًا من وصف فضائل عيد النوروز[I]، وجود إشاراتٍ غير واضحةٍ لظهوراتٍ إلهيةٍ أُخرى (المعنى)، علاوةً على الظهورات السبعة المعروفة من هابيل إلى عليّ[II].

وبالطريقة الرمزية التي يُشَخِّص بها المنهج النصيرية أشياء أرضيةً وسماويةً -والعكس صحيح- يُعدّ محمدٌ ﷺ تشخيصًا للصلاة[III]، ويُستخدم لغرض تشخيص الصلاة أفرادٌ من آل بيته، وأصحابه مثل أولاده، وخصوصًا فاطمة، والحسن، والحسين[IV]. وهناك أشعارٌ سخيفةٌ بهذا الخصوص منسوبةٌ للمرجع الكبير حسين الخصيبي:

كما الصلاة رجالٌ أشخاصهم تأويلُ
خمسون شخص وشخص مقدّس بهلول
محمد ثم فاطر والشبران أصول
الكل منهم ومعهم هم الهدى والسبيل
كما الزكاة هي الباب اسمه جبريل
سلمان ليس سواه إلى الرسول دليل[V]

وهكذا نرى أن النصيرية يعترفون بمحمدٍ ﷺ، وأما رأيهم فيه كرسولٍ، فهم يقولون إن عليًا علّمه وأرسله. وهم يعترفون بالقرآن؛ ولكنهم يفسرونه تفسيراً باطنيًا. وفي كتاب تعليم الديانة، ورد السؤال التالي[VI]:

"ما هو القرآن؟
الجواب: هو دليلٌ سابقٌ على ظهور مولانا بالإنسانية".

ومرة أُخرى: "من علّم القرآن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلّم؟
الجواب: مولانا أمير المؤمنين، وهو المعنى على لسان جبريل الذي هو روح القدس وهو الباب".

[I] موجود في الفصل العاشر.

[II] الظهورات السبعة المعروفة هي ظهوراتٌ ذاتيةٌ، والظهورات الباقيةُ مثليةٌ، أزال فيها المعنى الاسم، وظهر كمثل صورته. المترجم

[III] راجع السؤال رقم 101 في الفصل العاشر. المترجم

[IV] المخطوطة، ص 69 وغيرها؛ وكتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 100.

[V] المخطوطة، ص 73.

[VI] كتاب تعليم الديانة، السؤالان رقم 72، 73.

وهذا أحد التناقضات التي يقع فيها الكتّاب النصيرية: كان جبريل أول ظهورٍ للباب سلمان، ومساوٍ له كما رأينا في بيت الشعر المذكور آنفًا، وهو أدنى منزلةً من محمدٍ ﷺ، فهو دليل الناس إليه؛ ولكي يحصل توافقٌ مع ما جاءَ في القرآن؛ جعلوا جبريل معلمًا لمحمدٍ ﷺ، أو على الأقل وسيطًا بين الله ومحمدٍ ﷺ.

يقول النصيرية إن المسلمين لا يتبعون الرسول محمدًا ﷺ، بل يتبعون محمدًا بن الحنفية. وهم بذلك يعنون محمدًا بن الحنفية، أو أبو حنيفة (لم يكن اسمه محمدًا) الذي كان عالمًا كبيرًا، ومعلمًا لأحد المذاهب الأربعة السنية التي يتبعها مسلمو بلاد الشام. وبالطريقة نفسها يقولون إن المسيحيين لا يؤمنون بعيسى الحقيقي.

الشخص الثالث في الثالوث هو الباب الذي كان جبريل في دور آدم، وسلمان الفارسي في دور عليٍّ[I]. وله اسمٌ آخر وهو سلسل، (إما لأنه واحد في سلسلة الشهود أو الرسل، أو النبيذ الجيد أو الماء الصافي). وذُكرت كلمة سلسل مقترنةً مع سلسبيل في أحد مقاطع المخطوطة، وسلسبيل هو اسمٌ للخمر، وبخاصة لخمرٍ ينبع في الجنة[II]، وربما استخدمت كلمة سلسل لتشابهها اللفظي مع سلمان وسلسبيل[III]. وفي القداس الثالث الذي نشره كاتافاغو، والذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة، نجد العبارة التالية: "ديني سلسل".

يتضح من الاقتران المستمر لسلسل مع سلمان أن سلسل كلمةٌ مرادفةٌ لسلمان، فنرى في أحد المقاطع[IV] عبارة "اللهم صلى الله سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى سلسل وآل سلسل مصابيح الظلم مفاتيح الكلم"، وفي مقطع آخر[V]: "سقانا الله وإياكم يا إخوان شربةً من كف سلسل".

يقول هربلو[VI] متحدثًا عن سلمان: "أبو عبد الله سلمان الفارسي [يسمى أيضًا سلمان الخير]، هو اسم شخصٍ أعتقه محمدٌ ﷺ، وكان فارسيًا. ويقال إنه كان مسيحيًا، وقد قرأ الكتاب المقدس، وسافر كثيرًا، ومع ذلك فقد كان من أكثر الشخصيات اعتبارًا عند المسلمين، لدرجة أن بعضهم يقول إنه هو من أسس الإسلام. أبو هريرة وأنس بن مالك، راويان كبيران لأحاديث محمدٍ ﷺ، وقد رويا الأحاديث عن سلمان الذي رواها مباشرةً عن محمدٍ ﷺ".

يحظى سلمان بتشريفٍ كبيرٍ عند أتباع عليٍّ، وقد عيب على عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين، ذمةّ بالباطل لصحابة النبي وزوجاته، باستثناء عليٍّ بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري[VII]؛ وسنرى أن الأخيرين شخصان مهمان عند النصيرية.

ورأينا أيضًا أن سلمان الفارسي له اعتبارٌ كبيرٌ عند الدروز أيضًا، لدرجة أن حمزة ظهر فيه في زمن محمدٍ ﷺ. وربما كانت منزلة سلمان الرفيعة عند الفرق السرية تعود، حسب الأسباب التقليدية، إلى صداقته مع عليٍّ[VIII].

ورأينا أن الباب سلمان أدنى منزلةً من الاسم محمد ﷺ، وأن محمدًا ﷺ "خلق الباب بأمر مولاه وغايته ومعناه[IX]"، ويدعو سلمانُ محمدًا ﷺ "مولاي السيد الأكبر محمد[X]".

[I] المخطوطة، ص 144؛ والقداس الثالث الذي نشره كاتافاغو في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية"، الجزء الثاني: "لا باب إلا السيد سلمان الفارسي".

[II] المخطوطة، ص 45.

[III] يقول الخصيبي في كتابه "الرسالة الرستباشية": "وسماه أميرُ المؤمنين سلسلًا، ومعناه سل مرتين، سل الاسم يسألني ويعلمك، فمن أجل هذا سمي سلسل". المترجم

[IV] المخطوطة، ص 134.

[V] المخطوطة، ص 138.

[VI] مقالة السمعاني في "المكتبة الشرقية".

[VII] "نشوء السلالة الفاطمية في أفريقيا"، المسعودي (نيكلسون، توبنجين، 1840) ص 112. {مخطوطة عربية نسبت بالخطأ إلى المسعودي وترجمها جون نيكولسون إلى الإنجليزية. مؤلف المخطوطة هو المؤرخ عريب بن سعد القرطبي. المترجم}

[VIII] وربما لأن مؤسسي تلك الفرق كانوا فرسًا، كما لاحظ المؤلف في السابق. المترجم

[IX] المخطوطة، ص 111؛ راجع أيضًا كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 11؛ والمخطوطة، ص 91.

[X] المخطوطة، ص 21.

ويقال عن عليًّ إنه "مُذَكِّرُ سلسَل[I]" أو سلمان؛ لكي يُعَلِّمَ الآخرين. ولسلمان مرتبةٌ وسطى كمعلمٍ للبشر، ودليلهم إلى الرسول[II] محمدٍ ﷺ الذي يتواصل بين سلمان وعليٍّ.

سبق وذكرنا أسماء الباب[III] في الظهورات الإلهية السبعة الكبيرة. وكما هو حال الاسم، فإن للباب أسماء أُخرى مثل: النفس الكلية، وروح القدس، وجبريل وغيرها[IV]. وفي إحدى الابتهالات لعليً نجد سردًا للأسماء التي تشخص بها الباب في القبة البهمنية (بهمن في الفارسية تعني مَلِك)؛ ومن بين تلك الأسماء: فيروز، وأنوشروان، وبهرم، وأفريدون، وشخصياتٌ أُخرى من التاريخ الفارسي[V].

وبعض أسماء الباب الأُخرى أُخذت من أسماء سور القرآن مثلما أُخذت بعض أسماء الاسم، وكذلك "الروح الأمين"، وأسماء الكوكبات[VI]، وسلسل، وسلسبيل، وغيرها[VII]. ومن بين أسماء الاسم: المشيئة، والعلم، والقدرة وغيرها؛ وبذلك نكتفي بما ذكرنا من أسماء الاسم والباب.

وكما رأينا في الأبيات الشعرية المذكورة سابقًا، سلمان هو تشخيصٌ للزكاة في المنهج النصيري، وكما محمدٌ ﷺ هو عيسى نفسه وغيره من الأسماء، فإن سلمان هو روزبة[VIII] نفسه والأبواب الذين سبقوه.

وكذلك فإن الأئمة الاثني عشر -الذين كان عليٌّ أولهم وسيدهم- مُكَوِّنُ آخر من مكونات المنهج النصيري[IX]. وقد رأينا سابقًا أنهم آخر أسماء الاسم الثلاثة والستين[X]. ونجد في مقطعٍ آخر في الكتاب النصيري[XI]: "وثَبِّتنا على طاعتك وطاعة رسولك محمدٍ ﷺ ووليك[XII] سلسل، وأسمائك الأئمة الذين تَسميت بهم، فأنت خلوًا منهم، وهم لا يخلون منك".

من الواضح أنهم أدنى مرتبةً من المعنى، وتذكر المخطوطة أنهم يشيرون إلى عليٍّ ويدعون إلى طاعته، وهم مراجعٌ في بعض أقسام المنهج النصيري الذي يتمركز حول عليٍّ العظيم. وفي أحد المقاطع في المخطوطة، يقول جعفر الصادق (أحد أشهر الأئمة، وقد تكون له علاقةٌ بتكوين عقائد الفرق السرية[XIII]): "عند ذكره يجوز سمط[XIV] الناطق، وعند ذكر الله يجوز السمط والاستماع[XV]".

ونراهم في الوقت نفسه، يتحدثون عن الأئمة باحترامٍ شديدٍ، ويعدّونهم أشخاصًا مؤلهين. دخل رجلٌ إلى حضرة مولانا الحسن العسكري -الإمام الحادي عشر وهو مرجعٌ أساسيٌ في العقيدة النصيرية- فوجده "جالس على كرسي من النور،

[I] إذا نسي المؤمن النصيري شيئًا من العلم يقول: "يا مذكر سلسل ومنشيه ذكرني ما نسيته". من كتاب "المسائل الموسوية بالدلائل"، لأبي سعيد ميمون بن القاسم الطبراني. المترجم

[II] المخطوطة، ص 38؛ كتاب تعليم الديانة، الأسئلة 24-29.

[III] المخطوطة، ص 73؛ راجع الأبيات الشعرية المذكور آنفًا.

[IV] المخطوطة، ص 50؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 31.

[V] المخطوطة، ص 50.

[VI] مفردها كوكبة، وتعني مجموعة من النجوم. المترجم

[VII] المخطوطة، ص 45.

[VIII] المخطوطة، ص 51.

[IX] المخطوطة، ص 142.

[X] يقصد الأسماء الثلاثة والستين المثلية المعنى والذاتية الاسم. المترجم

[XI] المخطوطة، ص 22.

[XII] يقصد الشخص الذي يتولاه الله برعايته، أو الشخص الذي يطيع الله.

[XIII] ادعى أصحاب الفرق السرية ذلك، وكذبوا على لسانه؛ حتى يعطوا منهجهم المصداقية التي يفتقدها. المترجم

[XIV] صمت. المترجم

[XV] المخطوطة، ص 179.

وقدامه شعاع من النور، والنور من بين عينيه قد ملأ المشرقين والمغربين، قال فلما رأيته خريت على وجهي ساجدًا ورفعت راسي وقمت إلى مولاي حامدًا شاكرًا، فقلت مولاي سبُوح قدوس ربنا رب الملائكة والروح"[I].

ويعدّ جعفر الصادق[II] مرجعًا في أمور العقيدة والشعائر، وكذلك كان أبوه محمدٌ باقر العلم[III]، الذي قد تكون له علاقةٌ بالتفسير الباطني كونه طالب علمٍ.

يحتل "محمد الحجة[IV]" أو "حجتك[V]"، مكانًا مرموقًا بين الأئمة الاثني عشر، فهو المهدي الذي سيعود "حتى يكون الدين كله واحدًا[VI]"، قبل ظهور عليٍّ، وحسب كتاب تعليم الديانة، سيظهر مرةً أُخرى "دون احتجابٍ بمجدٍ وبهاءٍ عظيمين[VII]". يقول المسلمون[VIII] إنه أُغرق في نهر دجلة عندما كان عمره 12 عامًا، وإن له قبرًا؛ لكن الإمامية يؤمنون أنه دخل في سردابٍ، واختفى عن أعين الناس، ليظهر في الموعد المحدد[IX]".

لكل اسمٍ بابٌ، وأسماؤهم معروفةٌ في الظهورات الأحد عشر من عليٍّ إلى الحسن العسكري الذي كان بابُه أبو شعيب بن نصير الداعية النصيري.

والأيتام جزءٌ مهمٌ من المنهج النصيري، فهم في المرتبة الثانية من المراتب السبع التي أولها مرتبة الباب[X]، وهم يقترنون بالباب عادةً، مع أن التسلسل أحيانًا يبدأ بالاسم[XI] "اسمه وبابه وأيتامه وأهل مراتب قدسه".

الأيتام هم الرسل الذين فقدوا سادتهم. وتستخدم الكلمة بمعناها الآخر، كما في العبارة التالية: "الدرة اليتيمة"، بمعنى الدرة التي لا تقدر بثمنٍ لندرتها، وربما تستخدم بهذا المعنى في المنهج النصيري، بمعنى أن الأيتام كانوا الأرواح المختارة في زمنهم[XII].

يجب على النصيري الإيمان بسلسلة الظهورات الإلهية من هابيل إلى عليٍّ، وبسلسلة الأئمة من حسن الأول إلى الإمام الأخير[XIII]، وكذلك الإيمان بوجود خمسة أيتامٍ[XIV]، وبذلك يصبح الرقم خمسة رقمًا مقدسًا. عدد نيبور أسماءهم في الظهورات السبعة من هابيل إلى عليّ، ويتفق تعداده مع ما ورد في المخطوطة، مع وجود اختلافاتٍ بسبب أخطاءٍ في صياغة الكلمات العربية باللغة الفرنسية، أو بسبب أخطاء ناسخ المخطوطات النصيري. ويتضح بذلك وجود منهجٍ محددٍ للنصيرية في زمننا الحاضر.

[I] المخطوطة، ص 119.

[II] المخطوطة، ص 20، 163، 169؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 9.

[III] المخطوطة، ص 166.

[IV] المخطوطة، ص 62.

[V] المخطوطة، ص 64.

[VI] مقالة "ملاحظة على النصيرية" في "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848.

[VII] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 7.

[VIII] "المختصر في أخبار البشر"، أبو الفداء، الجزء الخامس، الصفحة 320.

[IX] الشخص الذي ذكر أبو الفداء أنه أُغرق في دجلة ليس المهدي بل الخليفة العباسي المستعصم، وذلك بعد غزو هولاكو لبغداد. المترجم

[X] المراتب السبع: الأبواب والأيتام والنقباء والنجباء والمختصون والمخلصون والممتحنون. المترجم

[XI] المخطوطة، ص 60.

[XII] يقول محمد بن علي الجلي في "رسالة البيان": "وسماهم أيتامًا لأنهم ائتموا بالباب، وأتمَّ بهم من كان بعدهم من أهل المراتب". لا أعتقد أن كلمتي "أيتام" و"أئتم" مشتقان من نفس المصدر على الرغم من التشابه اللفظي الواضح. المترجم

[XIII] عليّ وليس الحسن أول الأئمة الاثني عشر. المترجم

[XIV] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور، الجزء الثاني، ص 360.

في زمن آدم، كان جبريلُ البابَ، وكانت الأيتامُ الملائكةَ الخمسة: ميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ومالك، ورضوان[I]، وكانت ظهورات الأيتام من النوع المتتالي. يقال: "لا ملائكة إلا الملائكة الخمسة الأيتام[II]".

يُذكر الأيتامُ كثيراً في الكتب النصيرية[III] بصفتهم رسلًا للأبواب، وتوجد ابتهالةً في مخطوطتي[IV] بأسماء الأيتام الخمسة والعشرين، إذ يتبع خمسة أيتامٍ لكلٍ من الخمسة التالية أسماؤهم: سلمان، ومحمد ﷺ، والسيد فاطر، والسيدة أم سلمة (زوجة محمد) ﷺ، والسيد سفينة[V] (وهو الباب الثاني في زمن الأئمة الاثني عشر). إن وجود نساءٍ مثل فاطمة، وأم سلمة، ويتيماتهما وكلهن من جنس النساء شيءٌ غريبٌ، وكما سنرى، لا دور ولا مكان للنساء في المنهج النصيري. فهم يُحرفون اسم فاطمة؛ ليصبح اسم رجل[VI]، ويشيرون إليها بلفظ "السيد".

في أحد المقاطع[VII]، يُشار إلى الأيتام الخمسة بعبارة "الخمسة الأشباح النورانية[VIII]" وكما رأينا فهم جزءٌ من المراتب السبع في العالم النوراني التي ذكرناها سابقًا، وسوف نتحدث عنها قريبًا.

يُروى عن محمدٍ ﷺ[IX] قوله: "ما اجتمعت جماعةٌ من المؤمنين في مشرق الأرض ومغربها وقبلتها وشمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها، وذكروا الله تعالى واسمه وبابه وأيتامه ونقباءه ونجبائه ومختصيه ومخلصيه والممتحنين وأهل مراتب قدسه، إلا نادا منادي[X] من قبل العلا: قوموا مغفورٌ لكم قد بدلت سيئاتكم بحسنات".

سبق وتحدثنا عن تلك المراتب وأعدادها وعن الدرج الأرضية للمؤمنين. يجمع الكاتب النصيري أعداد الدرج الروحانية والأرضية[XI] فينتج: 119 ألف، وخمسة آلاف بالترتيب، ويُتعب نفسه بجمع الرقمين الناتجين، فيصبح المجموع الكلي 124 ألفًا. هل يمكن للتعاليم المزورة أن تصل لهذا السخف؟ وسميت المراتب الروحانية التسع والأربعون، بأتفه الأسماء، وعلى القارئ المحب للاستطلاع العودة إلى حاشيتي المتعلقة بالأسئلة رقم 56-65 في كتاب تعليم الديانة[XII].

بالإضافة إلى تبجيل جميع تلك المراتب، يجب على النصيري تبجيل رسلٍ وأنبياءَ وعظماءَ آخرين. على سبيل المثال، في القبة الأخيرة في زمن محمدٍ ﷺ كان عدد المنبئين 17، وأهمهم[XIII] المولى زيد[XIV] الذي أعتقه محمدٌ ﷺ. وكان عدد

[I] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور؛ والمخطوطة، ص 47.

[II] القداس الثالث، كاتافاغو. {يقصد قداس الأذان. المترجم}

[III] المخطوطة، ص 20، 25، 27، 121؛ كتاب تعليم الديانة، الأسئلة رقم 56-63؛ "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848.

[IV] المخطوطة، ص 42؛ راجع أيضًا كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 70.

[V] لقبه سفينة، واسمه أبو عبد الرحمن قيس بن ورقة. المترجم

[VI] يقصد السيد فاطر (فاطمة). المترجم

[VII] المخطوطة، ص 68.

[VIII] "الخمسة أشباح النورانية" هم: محمد، وفاطر (فاطمة)، والحسن، والحسين، ومحس؛ وهم ليسوا من الأيتام. المترجم

[IX] المخطوطة، ص 121؛ بعض هذه الكلمات مأخوذٌ من أحاديث إسلاميةٍ.

[X] نادى منادٍ. المترجم

[XI] درج العالم الكبير النوراني ودرج العالم الصغير الروحاني. المترجم

[XII] أسماء درج المراتب السبعة (سبع درج لكل مرتبة): الأسماء، والحجُب، والآية، والأنوار، والشموس، والأفلاك، والغمام، والمشارق، والمغارب، والأقمار، والأهلّة، والنجوم، والرعود، والبروق، والصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والهجرة، والجهاد، والدعاء، والجبال، والمعصرات، والبحار، والأنهار، والرياح، والسحاب، والصواعق، والليل، والنهار، والغداة، والعشاء، والغدو، والأصيل، والسيل، والأنعام، والدواب، والإبل، والنحل، والطي، والصوامع، والبيَع، والبيوت، والمساجد، والنخل، والأعناب، والرمّان، والزيتون، والتين. المترجم

[XIII] المخطوطة، ص 33؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 69.

[XIV] المقصود زيد بن حارثة. المترجم

النجباء 28، وأهمهم عبد الله بن سبأ، الذي تمسك بألوهية عليٍّ حين كان عليٌّ حيًا يرزق[I]، ولذلك ورد ذكر ابن سبأ بوضوحٍ في مقطعٍ خاصٍ في المخطوطة (ص 152)[II].

وتوجد شخصياتٌ بارزةٌ أُخرى مثل جعفر الطيار، ولقبه الباب[III] والملك[IV]، وهو أخو عليٍّ، ويقع مزاره فوق أعلى قمةٍ في جبال النصيرية[V]، ويتمتع باحترامٍ خاصٍ عند سكان منطقتي.

ومن بين المفضلين عند النصيرية، خضر الأخضر[VI] المعروف بشبابه الأبدي، وجَعْلِهِ الغصن يتبرعم.

وكذلك أخوة عليٍّ الأربعة الذين لا يمكن إلا أن يكون لهم ألقابٌ؛ يسمون "أركان البيت[VII]" (مكان العبادة في مكة بالمعنى الديني)، ومتى، وبولس، وبطرس (ورد بطمس بالخطأ بدلًا من اسمه العربي بطرس)، ويوحنا فم الذهب أحد أيتام الباب روزبة[VIII] في زمن عيسى، حين كان المعنى (الصورة البشرية لله) بطرس المسمى شمعون الصفا.

تكلمنا في السابق عن الرمز ع م س الذي يمثل الثالوث، والذي يسمونه "عدة" (سلاح). ويتكرر ذكره في كتبهم[IX]، وفي الصفحة 68 من المخطوطة يُبتهل إلى عليٍّ "بحق العين العلية، وبحق الميم المحمدية، وبحق السين السلسلية".

يعتقد النصيرية وجود خمسة عوالم (أزمنة) قبل الإنسان، توالت على السكن فيها خمسةٌ تَعبدُ عليًا، وهم الجن، والبن، والطم، والرم، والجان[X].

أَخَذَ النصيرية أحدَ أهم ثوابت منهجهم من الهندوس، والصابئة، والمجوس، وهو تبجيل الضوء، والإيمان بوجود عوالم نورانية فوقية روحانية.

ويعتقد النصيرية أن جوهر الله نورٌ، وإن لم يكن من نور، فرمزه نورٌ. ويرمز الحرفان "ك"، و "ن" في اللغة العربية إلى كلمة "كن"، ويقال إن النور سرُّ الله المكنون بين الكاف والنون؛ لأن كلمة "كن" استخدمت لخلق النور[XI].

نجد في وصف كاتافاغو[XII] لفضائل عيد النوروز كلماتٍ هامةً؛ وقيل عن ظهورات الله بين العرب والفرس ما يلي: "وإن المعنى خلف الحكمة في الفرس، وانتقل عنهم، وهو راضٍ عليهم. ووعدهم أن يعود فيهم، وهو الذي قال: إن الله تعالى أوعدكم سرًا، واظهر فيكم أمرًا، ووفقكم لقبوله، وإنكم ضيعتموه، وإن الفرس حفظته، وإنه لما أظهر فيهم الغيبة بالنار والظهور بها والنور والظهور به وهو قوله في قصة موسى"، ثم يُأتي ذكر موسى الذي رأى النار ولم يُسمح

[I] المخطوطة، ص 37؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 66.

[II] "..... سر محمد بن سنان الزاهري سر عبد الله بن سبأ سرك يا نقيب ....". ورد الاسم ضمن قائمةٍ طويلةٍ من أسماء أشخاصٍ يشربون بسرهم. المترجم

[III] المخطوطة، ص 41.

[IV] المخطوطة، ص 107.

[V] يقصد مقامات بني هاشم على جبل المَلك. المترجم

[VI] يعرف اليوم باسم سيدنا الخضر، ويُعتقد أنه مار جرجس نفسه أو سان جورج. المترجم

[VII] اختلفت الروايات حول أشخاص أركان البيت، ولكنني لم أعثر على روايةٍ تقول إنهم إخوة عليّ، فلعليٍّ ثلاثة أخوة فقط: طالب وجعفر وعقيل، ورد ذكرهم بصفتهم ثلاث دجاجاتٍ من "دجاجات العرش" العشر. أما أركان البيت ففيهم أكثر من روايةٍ: تقول روايةٌ في كتاب "العقود" للخصيبي إن البيت هو محمد ﷺ والأركان هم: فاطمة، والحسن والحسين ومحسن؛ وفي رواية أخرى في كتاب "المسائل الموسوم بالدلائل" للطبراني، البيت هو لؤي بن غالب، والأركان الأربعة هم: فاطر والحسن والحسين ومحسن؛ وتقول روايةٌ في كتابٍ "المعارف وتحفة لكل عارفٍ" للطبراني إن الأركان الأربعة هم: محمد ﷺ وفاطمة والحسن والحسين، أما محسن فهو الزاوية الغامضة. المترجم

[VIII] المخطوطة، ص 48؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 29؛ "مجلة الشرق"، فيكتور لانجلوا؛ "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور.

[IX] المخطوطة، ص 25، 68، 137، 161؛ "مجلة الشرق"، فيكتور لانجلوا؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 74.

[X] المخطوطة، ص 80؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 52.

[XI] المخطوطة، ص 35؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 92.

[XII] "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848.

له بالاقتراب منها لإظهار قدسية النار[I]. ثم يضيف: "إلى قول سيدنا في الفقه من الرسالة، فعظمت الفُرس النار وارتقبت الظهور منها، ولذلك فهي دائمًا تقيمها وتوقدها ترقبًا لظهوره ووعده".

في النص الذي اقتبست منه ما سلف، نجد أفكارًا جامحةً في التباهي، ويمكن نسبها إلى شخصٍ فارسيٍ، وعنوان أحد أقسام الكتاب الذي يحوي ذلك النص "حديث أبو علي البصري بشيراز سنة [II]327".

يُبجلون الشمس بصفتها نور الأنوار[III]، بافتراض أن عليًا يعيش فيها[IV]، وأنه سيظهر[V] من عين الشمس[VI]، وحسب كتاب تعليم الديانة[VII]، يدير النصيرية وجوههم إلى الشمس حين يصلون.

وسجل المبشرون اليسوعيون ملحوظةً "بأنهم يتوجهون نحو الشمس حين يُصّلون، مما جعل بعضهم يقولون إنهم يعبدون الشمس؛ ولكنهم لا يتفقون على هذه النقطة[VIII]".

ويعيدني هذا إلى ما ذكرته في الفصل الاستهلالي لهذا الكتاب بأن النصيرية ينقسمون إلى طائفتين اثنتين: الشمسية والقمرية، نسبةً إلى الشمس والقمر. ويمكن استنتاج أحد الفروقات بينهما من اسميهما اللذين يشيران إلى الاختلاف في مدى تبجيل هذين الجسمين المضيئين. وعندهم اختلافاتٌ أُخرى، فلا يتعلم أبناء إحدى الطائفتين عند مشايخ الطائفة الأخرى، ولكن الشيخ البغدادي وآخرين، قللوا من أهمية تلك الفروقات، وقالوا إن معتقداتهم واحدةٌ، وإنهما طائفتان لا دينين. يخصُّ الكتاب الذي في حوزتي الطائفة الشمسية، مثل بقية الكتب الموجودة هنا؛ وأتباع تلك الطائفة أقدم وجودًا، وأكثر تزمتًا. وفيما يتعلق بموضوع الشمس والقمر، فقد سمعت أتباع الطائفة القمرية يقولون بازدراءٍ عن أتباع الطائفة الشمسية: "إنهم لا يحبون القمر". وفي إحدى المرات، كان فلاحي النصيري يعمل مع مجموعةٍ من القمرية، ثم جاء بعض الشمسية، وبدأ بينهم جدالٌ على النقاط الخلافية، فكشَفَهم هذا الجدال. وفي خضمه التمس الشمسيةُ خادمي وسألوه: "هل تصح عبادة المخلوق؟ أليس من الواجب عبادة الخالق فقط؟" واستشهدوا بالآية القرآنية (السورة رقم 41، الآية رقم 37)[IX]: "لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"، التي يفسرها القمرية تفسيرًا باطنيًا، ويشطحون في شرحها. يتضح من حديثهم أن الشمسية يبجلون الشمس، لكنهم لا يعبدونها، بينما يتمادى القمرية في تبجيلهما وخصوصًا القمر. وأخبرني الخادم النصيري أن أهله القمرية يخشون الشمس والقمر كثيرًا، ويصلون لهما. وأخبرني أيضًا أن النساء والأطفال يقولون إن القمر (الذي يعتقدون أنه الأعظم) وجهُ عليٍّ، وإن الشمس وجهُ محمدٍ ﷺ.

وبسبب تبجيل الضوء، يرمزون للأشخاص الروحانيين بأشياء مثل مدارات القمر الثمانية والعشرين[X].

[I] في النص الأصلي للكتاب النصيري استشهادٌ بآيةٍ قرآنيةٍ لم يذكرها المؤلف بل استعاض عنها بشرحها، والآية في سورة القصص: "فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ". المترجم

[II] مقتبس من "كتاب مجموع الأعياد" للطبراني: عنوان الفصل: "شرح السبعين"، وأوله ما يلي: "حدثنا أبو علي البصري بشيراز في منزله بشارع البرامكة في شهر ذي القعدة سنة سبع وعشرين وثلاثمائة". المترجم

[III] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 95.

[IV] كتاب النصيرية الذي بحوزة نيبور؛ كتاب الدروز الموجه ضد النصيرية؛ "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي.

[V] المخطوطة، ص 110؛ ونيبور.

[VI] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 52.

[VII] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 95.

[VIII] "رسائل منورة ومشوقة"، الرهبنة اليسوعية، الجزء الأول، ص 361-364.

[IX] المقصود سورة "فُصِّلَتْ"، والنص الكامل للآية: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)". المترجم

[X] المخطوطة، ص 37.

ومن بين العوالم التي لا يعلمها إلا الله، والتي تضم العوالم العلوية والسفلية[I]، يوجد عالمان آخران: العالم الكبير والعالم الصغير[II]؛ العالم الكبير النوراني والعالم الأرضي[III]. وهم في النهاية يدينون بهذه الفكرة إلى الفلسفة الهندوسية.

ننتقل الآن إلى أحد أقسام المنهج النصيري العملية، وهو الإيمان بالتناسخ (انتقال الأرواح). أخَذت جميع الفرق السرية تلك العقيدة من الديانات الشرقية القديمة، وكان المُقنَّع أحد أول من نادى بها. وقد آمن بها النصيرية منذ البداية، فقد لعنهم المؤلف الدرزي حمزة لأن عقيدتهم تقول "إن أرواح النواصب والأضداد ترجع في الكلاب والقردة والخنازير إلى أن ترجع في الحديد وتحمى وتضرب بالمطرقة". بعد دحض حمزة عقيدة انتقال الأرواح إلى الحيوانات، يختم بقوله: "ومن اعتقد التناسخ مثل النصيرية المعنوية في عليّ بن أبي طالب وعبده خسر الدنيا والآخرة[IV]".

ما يسميه المسلمون تناسخًا، يُسمَّى عند النصيريين "التكنيس" أو "التجايل" (المجيء في أجيالٍ متعاقبةٍ)[V]، ويقول المبشرون اليسوعيون عن ذلك: "يؤمن النصيرية بالتناسخ، ويقولون إن الروح نفسها تنتقل من جسمٍ إلى آخر سبع مراتٍ، لكن مع فارقٍ أن روح الرجل الصالح تدخل في جسمٍ أفضل منه، وتحل روح الرجل الطالح في جسم حيوانٍ نجسٍ[VI]".

يقول نيبور: "تدخل روح النصيري الورع إلى الجنة بعد مرورها مراتٍ قليلةً في همبدن[VII] (أجساد)، ولكن روح النصيري غير الورع لابد أن تمر في 80 جسدًا (وهذا ما يسمونه جهنم)، وتمر أرواح الكفار في الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ[VIII]، وبعد ذلك يصبحون ويبقون خرافًا حتى تعود فاطمة الزهراء[IX]".

وبخصوص عدد المرات التي تنتقل فيها الروح من جسدٍ إلى آخر، فقد سمعت من الناس العدد نفسه الذي ذكره نيبور، ويمر المشايخ[X] في أجسادٍ قليلةٍ. وعندما يسمع النصيرية أصوات بنات أوى، قبل حلول الغسق، سمعتهم مرارًا يرددون: "هؤلاء مسلمون يدعون إلى صلاة العصر، لأن أرواح المسلمين تنتقل إلى بنات أوى".

ذكر الشهرستاني[XI] مراتب التناسخ الأربع: النسخ، والمسخ، والفسخ، والرسخ، وهي الأسماء نفسها التي اقتبسها نيبور من الكتاب النصيري الذي كان في حوزته.

عند إدخال أحدهم في الدين النصيري، يهددونه بأنه في حالة إفشائه لسرٍ من أسرار الدين، فإنه "يستحق المسوخية (التحول إلى أشكالٍ مروعةٍ)، والسلوك في القمصان الدنية[XII]"، و "إذا في داخلك فيه شكٌ أو رتبت فيه، نقلت إلى المسوخية، وكررت في الأكوار، وعذبت في الأدوار[XIII]". استُخدم هنا مصطلحا "الكور" و "الدور" اللذان يستخدمهما الدروز أيضًا. وكان عنوان رسالة حمزة الموجهة ضد النصيرية: "الرسالة الدامغة للفاسق. الرد على النصيري، لعنه المولى

[I] المخطوطة، ص 112.

[II] المخطوطة، ص 64.

[III] كتاب تعليم الديانة، السؤالان رقم 53-55.

[IV] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الثاني، ص 579.

[V] التناسخ مصطلح نصيري عرَّفوه ووصفوه في كتبهم، أما التكنيس والتجايل فليسا من مصطلحاتهم المنتشرة في كتبهم، ولم يذكر المؤلف مصدر تلك المعلومة كما يفعل عادةً؛ مما يرجح أنهما مستحدثان وضيقا الانتشار إن كانا صحيحين. المترجم

[VI] "رسائل منورة ومشوقة"، الرهبنة اليسوعية، الجزء الأول، ص 361-364.

[VII] اقتبس هذا النص من كتاب نيبور، ولم يذكر نيبور مصدره، ولكن "بدن" في الفارسية تعني "جسد". المترجم

[VIII] النسخ هو انتقال الروح من جسدٍ إلى آخر؛ والمسخ هو أن تمسخ الروح في هيكلها فتصبح خنزيرًا أو قردًا مثلًا؛ الوسخ هو المسخ، ولكن في حيواناتٍ صغيرةٍ وحشراتٍ؛ الفسخ هو خروج الروح قبل الموت؛ الرسخ هو انتقال الروح إلى جمادٍ مثل الفضة أو الحجر. المترجم

[IX] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة"، نيبور، الجزء الثاني، ص 360.

[X] مشايخ الدين النصيري. المترجم

[XI] "الملل والنحل"، الشهرستاني.

[XII] المخطوطة، ص 165.

[XIII] المخطوطة، ص 166.

في كل كورٍ ودورٍ". وقد ترجمهما دي ساسي[I] على النحو التالي: "في جميع الأوقات والأزمان"، فكلمتي كور ودور تعنيان الرجوع إلى العالم، ودورات الزمن، وتستخدمان للدلالة على ظهورات عليّ في صورٍ بشريةٍ مثل آدم في كوره ودوره[II][III].

وكلمة قميصٍ، كما أشرنا سابقًا، يستخدمها الدروز والنصيرية، للدلالة على الجسد الذي يحوي الروح، وهي الشيء الوحيد في الإنسان الذي له قيمةٌ. وفي أحد المقاطع في المخطوطة[IV]: "اذكروا الله حق ذكره، واذكروا اسمه وبابه وأيتامه وأهل مراتب قدسه، يستخلصكم من قبوركم وقمصانكم التي أنتم فيها، هذه اللحمية الدموية".

تُعدّ الابتهالات في المخطوطة أدعيةً لتخليص أرواح الإخوان من الرد والتكرار[V]، ويقصد تكرار التناسخ الذي يقال إنه في يد عليٍّ، ولقد أفصحَ ناسخُ المخطوطة عن رغبته في الخلاص من هذا الترداد[VI]. وفي الحقيقة، إن أكثر ما يخيف النصيرية هو العودة إلى العالم في حالةٍ شقيةٍ. ومع كل كلامهم عن الوقوف[VII] أمام عليٍّ، ودعائهم بأن يكون وقوفًا حسنًا، ومع كل حديثهم عن الحساب الأخير؛ فإن تلك الفكرة مختلفةٌ، وأقل تأثيرًا من فكرة يوم القيامة عند المسيحيين والمسلمين الذين يعتقدون أنه سيكون اليوم الفاصل الذي ستحَدِّدُ نتائجَه أعمالُهم في الدنيا.

وبخصوص الأرواح المكتملة، لا بد أن ننوه إلى أن النصيرية يعتقدون أن الأرواح ليست إلا جزءًا من الجوهر الإلهي[VIII] أو جوهر النور على الأقل، ومن هنا ينبع اعتقادهم بأن النجوم هي أرواحٌ مكتملةٌ، "وأنه بعد أن يتطهر النصيري - بمروره في عدة أدوارٍ، والعودة إلى الدنيا بصورةٍ إنسانيةٍ- يصبح نجمًا في السماء التي كانت مركزه الأول[IX]". ومن هنا أتى دعاء إلباس عليٍّ "إخواننا المؤمنين" قمصان الأنوار[X].

ونجد في كتاب تعليم الديانة سؤالين[XI] بهذا الخصوص:

"إلى أين تذهب أرواح إخوتنا المؤمنين عند خروجها من قبورها؟
الجواب: تذهب إلى العالم الكبير النوراني.

ماذا يحل بالمشركين الكافرين الجاحدين لاهوت مولانا؟
الجواب: يحلّ بهم العذاب في جميع الأكوار والأدوار".

ويستشهد النصيرية على إيمانهم بالتناسخ بآياتٍ من القرآن[XII]: "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)".

قلت سابقًا إن النصيرية يتحدثون عن يوم القيامة[XIII]، ويستخدمون مصطلح "البعث"؛ وقد وردت الكلمتان في مقطعٍ واحدٍ في المخطوطة. وفي كتاب الأعياد[XIV] يقال إن إبليس سأل أن يؤجل عقابه إلى يوم البعث، "فلم يُجَب إلى ذلك،

[I] "عرض ديانة الدروز"، دي ساسي، الجزء الأول، ص 471.

[II] المخطوطة، ص 8.

[III] للكور والدور معنيان: الأول يشير إلى المدة الزمنية التي تعيش فيها الروح قبل انتقالها إلى جسد آخر؛ والمعنى الثاني يشير إلى القبة أو المدة التي ظهر فيها الله في صورٍ بشرية من هابيل إلى عليٍّ (7 أكوار وأدوار). المترجم

[IV] المخطوطة، ص 21.

[V] المخطوطة، ص 76.

[VI] "الراجي الإقالة من الترداد". المترجم

[VII] المخطوطة، ص 114.

[VIII] "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848.

[IX] راجع الكتابات الدرزية التي اقتبسها دي ساسي في "عرض ديانة الدروز" الجزء الثاني، الصفحة 260.

[X] المخطوطة، ص 107.

[XI] كتاب تعليم الديانة، السؤالان 80، 81.

[XII] السورة رقم 6، الآية رقم 38. {سورة الأنعام، الآية رقم 38. المترجم}

[XIII] المخطوطة، ص 178.

[XIV] "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848، ص 166.

وأُجيبَ إلى يوم الوقت المعلوم، وهو ظهور القائم منه السلام، لأن القائم المهدي يقتل إبليس، وكل كافرٍ حتى يكون الدين كله واحدًا".

يبدو مما سبق أن النصيرية يتوقعون البقاء ألف سنةٍ في الدنيا، ثم يأتي بعدها الحساب الأخير، ويصطلحون على ذلك بكلمة يوم القيامة، ويوم البعث، وهم يفسرون هذين المصطلحين تفسيرًا باطنيًا.

يقول بوركهارت إن عند النصيرية "اعتقادٌ غريبٌ بأن الروح تخرج من فم الشخص عند موته، وهذا يجعلهم حذرين جدًا من وجود أي شيءٍ يمكن أن يقف في طريقها؛ ولهذا السبب عندما تحكم حكومةُ اللاذقية أو طرابلس بالشنق على أحد النصيرية، يدفعُ أهلُه مبالغ طائلةً لكي يُعدم على الخازوق بدلًا من شنقه. وأنا مسؤولٌ عن صحة هذا الكلام[I]". وعلى كل الأحوال، من المؤكد أن العديد من النصيريين قد أجلسوا على الخازوق في زمنٍ ليس ببعيدٍ. وكنت دائمًا أرى في بيوت النصيرية ثقبين فوق الباب، وذلك لتتمكن الروح التي غادرت الجسد من الخروج من المنزل دون أن تلتقي بروحٍ شريرةٍ في الفتحة نفسها.

تؤكدُ بعض الأمور إيمانَ النصيرية بالتناسخ؛ وأعتقد أنه لا بد أن يمر كل إنسانٍ في وقتٍ ما بأحوالٍ تجعله يستحضر أحداثًا سابقةً مر بها، فيبدو لوهلةٍ أنه يعيد فعل الشيء نفسه، أو أنه يتكلم مع الشخص نفسه تمامًا كما حدث في زمنٍ سابقٍ[II]. ومن الطبيعي عند النصيرية أن يتخيل بعضهم أشياء كهذه، وأنهم عاشوا في أجيالٍ سابقةٍ. والكذب في هذه الحالات يكون عونًا للتخيلات؛ فكثيرًا ما يُروى أنه في يوم كذا وساعة كذا، مات أحدهم في القرية، وولد شخصٌ آخر في مكانٍ آخر، وعندما كبر هذا الشخص بدأ يتذكر ماذا فعل بالضبط، قبل وفاته عندما كان الشخصَ الذي مات يوم ولادتِه. سمعت قصةً عن امرأةٍ مسيحيةٍ تَدَّعي أنها كانت نصيريةً في زمنٍ سابقٍ، وتصف ما فعلته في ذلك الحين، وقد سمعت قصة امرأةٍ أُخرى تدعي أنها عاشت سبع مراتٍ بهيئاتٍ مختلفةٍ. ويُزعم أيضًا أنها ذهبت إلى القرية التي كانت تعيش فيها في حياةٍ سابقةٍ، وأرتهم مكانًا يحفرونه فيجدون فيه ماءً، وبعد الحفر وجدوا الماء. ويتكلم مداوي عضات الأفاعي بكل وقارٍ قائلًا إنه عمل في هذه المهنة في كل أجياله السابقة[III]. وبهذه الأكاذيب ينهون الجدلَ، وكما أكدتُ من قبل، هؤلاء أُناسٌ يصدقون أي شيءٍ مع أنهم كذابون كبارٌ، وعندما تقول لهم الحقيقة، لا يصدقونك. ومن الطبيعي أن يعتقدوا أن المسافرَ الفرنجي يبحث عن ثرواتٍ مخبأةٍ منذ كان أجداده هنا في المنطقة[IV].

يعترف النصيرية بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وبأن الكتب السماوية عددها[V] 114، من ضمنها صحف شيث وإدريس ونوح وإبراهيم بالسرياني[VI]. وبذلك الرقم يزيدون على ما يعتقده المسلمون عن وجود 104 كتبٍ، نزل عشرةٌ منها على آدم[VII]، ونزل خمسون على شيث، ونزل ثلاثون على إدريس، ونزل عشرةٌ على إبراهيم[VIII]. ويستشهد

[I] "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة"، بوركهارت، ص 156.

[II] أعتقد أنه يقصد وهم سبق الرؤية "Déjà vu"، وقد ظهر هذا المصطلح بعد وفاة مؤلف هذا الكتاب. المترجم

[III] عند السؤال لماذا لا تتذكر كل الأرواح ما حدث لها في حياةٍ سابقةٍ، يأتي الجواب بأن بعض الأرواح غطسوها في نهر الأردن إلى الرقبة؛ فنسيت حياتها السابقة.

[IV] يقصد الأوروبي وأجداده الصليبيين. المترجم

[V] المخطوطة، ص 40؛ كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 71.

[VI] كتاب تعليم الديانة، السؤال رقم 71.

[VII] ورد في الحديث موسى وليس آدم؛ والحديث ضعيفٌ جدًا، لا يؤخذ به. الكتب عند المسلمين أربعةٌ: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن؛ يضاف إليها صحف إبراهيم وموسى، دون ذكر أعدادهم. المترجم

[VIII] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 105؛ مقدمة "القرآن"، ترجمة سيل، ص 52.

الصابئة[I] بتلك الكتب، وقد تُرجم في إنجلترا كتابٌ ينسب إلى إدريس، وما زال موجودًا[II]. ولدى المسلمين إنجيلٌ مزيفٌ اسمه إنجيل برنابا[III]، وقد رأيت أجزاءً من إنجيلٍ مزيفٍ عند النصيرية[IV].

قبل أن أختم هذا الفصل، أود أن أشير إلى ما ذكره عدة مؤلفين قدماء عن الديانة النصيرية؛ لأريكم أنها ماتزال كما كانت عليه دائمًا. ولكن عليّ أولًا أن أقول إن النصيرية عندهم بعض الكتب، على الرغم من اعتقاد الدكتور إيلي سميث أن عددها ليس كبيرًا، حسب تأكيدات أحد المؤلفين الدروز في زمانه. ذُكر منها عدة كتبٍ في المخطوطة، وبعضها لم تصل إليه أيادي الأوروبيين. أحد أبرز مؤلفيهم اسمه أبو سعيد[V]، وله كتابان[VI]: "الرد على المرتد"، وكتاب "الحاوي في علم الفتاوي"، وهما مذكوران في متن المخطوطة، وقد كُتب اسماهما على الصفحة المقابلة للغلاف الداخلي، وكأنما يريد صاحب المخطوطة بذلك أن يذكر نفسه بالحصول عليهما. وقد ذكر الدكتور ڤولف عنواني الكتابين في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية[VII]"، لأنهما ذُكرا في كتاب تعليم الديانة النصيرية، ولأن كاتافاغو قد وصفهما في "المجلة الآسيوية[VIII]".

والداعية الخصيبي مؤلفٌ آخر، ولأحد كتبه عنوانٌ فارسيٌ: "الرسالة الرستباشية"، وحسب فهمي فالمعنى "زعماء السلسلة[IX]"، وبسبب أهمية ذلك الكتاب؛ ذُكر في المخطوطة أكثر من مرةٍ، وبحقه يبتهلون إلى عليٍّ[X]. يشار إلى العديد من خُطَب عليٍّ، ولكن يبدو أنها ليست مكتوبةً بالكامل، فبعضها شفويٌ؛ لأنه في بعض الحالات تُقْتَبَس خطبةٌ من "خطبة الكشف" ويسميها آخرون "خطبة البيان". وقد ألف الخصيبي كتابًا آخر سماه "الهداية[XI]"، وقد ذكره الدكتور ڤولف، وهو مذكورٌ في المخطوطة[XII].

تؤكد المخطوطات التي وصلت إلى أيدي الأوروپيين وجود كتبٍ عند النصيرية، كما تؤكد توافقها في الأمور الأساسية. وتُظهر أحوال النصيرية وجود حاجةٍ شديدةٍ لتعلم النحو، فكتبهم ملأى بالأخطاء التي يظهر بعضها مع كل نَسخٍ جديدٍ للمخطوطة؛ ولكن يمكن فهمها وإصلاحها إذا عرف المرء لغتهم الحالية ومارسها.

وننتقل الآن لنرى بعض ما قاله أبو الفرج (1226-1286) عن النصيرية القدماء[XIII]: "ومن بين غلاة الشيعة الفرقةُ النصيرية التي قالت إن الله تعالى ظهر في عليٍّ، وتكلم بلسانه عن المعنى الباطني للأسرار".

ويقول هربلو[XIV] -الذي استمد معلوماته من مصادرَ شرقيةٍ متعددةٍ- عن النصيرية: "وهذا اسم فرقةٍ من فرق الشيعة، أو أتباع عليٍّ كما يعتقد المسلمون، وهم يؤمنون أن الله اندمج واتحد مع بعض الأنبياء، وخاصة مع عليٍّ وابنه محمد بن الحنفية. ويؤمن هؤلاء القوم أن الإله يستطيع الاتحاد جسديًا مع الأشخاص والطبيعة البشرية، مثلما يتحد مع

I "تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية"، إدوارد جيبون، الفصل 52.

II على الأرجح هو "سفر أخنوخ" الذي اكتُشف في القرن الثامن عشر، ولم يدخله اليهود ولا المسيحيون في مجموعة أسفارهم القانونية. المترجم

III "القرآن"، ترجمة سيل، ص 53.

IV "النصيرية والإسماعيلية"، صموئيل لايد، ص 138.

V أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني. المترجم

VI ومؤلفات آخرى: "الرسالة المنصفة في حقيقة المعرفة"، "الرسالة المرشدة"، "كتاب المسائل الموسوم بالدلائل"، "الجواهر في معرفة العلي القادر"، "مجموع الأعياد"، "البحث والدلالة في مشكل الرسالة"، "المعارف وتحفة لكل عارف". المترجم

VII الجزء الثالث، ص 302 وغيرها.

VIII فبراير، 1848.

IX لم يذكر الخصيبي لفظة "الرستباشية" في كتابه، بل كان يشير إلى الكتاب بلفظة "الرسالة"، ويبدو أنها أُضيفت إلى العنوان لاحقًا؛ لتمييزها عن رسائل أخرى، واسمها في الفارسية راس باشيه. المترجم

X المخطوطة، ص 17. {"وبحق صالح، ولقمان، وبحق الرستاباشية، والديوان". المترجم}

XI الكتاب معروف باسم "الهداية الكبرى"، أما الاسم الكامل فهو: "الهداية الكبرى في تاريخ النبي والأئمة ومعجزاتهم". المترجم

XII المخطوطة، ص 84.

XIII "تاريخ مختصر الدول"، ابن العبري، ص 169.

XIV "المكتبة الشرقية"، يوسف سمعان السمعاني.

الآلهة. ويستهجن المؤلفون المسلمون تلك العقيدة، ويعيبون على النصيرية أخذها من كتب المسيحيين". وربما كانت أقواله عن محمدٍ بن الحنفية مضللةً؛ لأنه استشهد باقتباسٍ من كتابٍ قرمطيٍ ينسبه أبو الفرج إلى مؤسس النصيرية.

ويقتبس پوكوك عن الشهرستاني[I]: "قالوا: ظهور الروحاني بالجسد الجسماني"، ويضيف: "إن الله تعالى ظهر بصورة أشخاصٍ؛ ولما لم يكن بعد رسول الله شخص أفضل من عليٍّ رضي الله عنه، وبعده أولاده المخصوصون وهم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم، وأخذ بأيديهم، فمن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم". وقد رووا معجزات عليٍّ، ومنها قلع باب خيبر (ما يزال النصيرية يذكرون تلك الحادثة)، وهي "الدليل على أن فيه جزءًا إلهيًا، وقوةً ربانيةً".

ولا يقتصر قولهم على ظهور إله في عليٍّ، بل يزيدون بقولهم إن عليًا "كان موجودًا قبل خلق السماوات والأرض"، وهو يشبه ما يؤمن به الدروز عن الوجود المسبق للحاكم بأمر الله.

سأكمل لائحة اقتباساتي ببرهان ما أكدته عن بقاء الدين النصيري على ما كان عليه دائمًا، مقتبسًا من مقطعٍ لكاتبٍ درزيٍ. في كتاب تعليم الديانة الدرزية يرد السؤال التالي[II]:

"وكيف انفصلت النصيرية عن الموحدين[III]، وخرجوا عن دين التوحيد؟
الجواب: انفصلوا بدعوة النصيري[IV] لهم حيث زعموا أنه عبد مولانا أمير المؤمنين[V]، وأنكر لاهوت مولانا الحاكم[VI]، واعترف بلاهوت عليٍّ بن أبي طالب الأساس، وقال إن اللاهوت ظهر في الأئمة الاثني عشر آل البيت، وغاب بعد أن ظهر في محمدٍ المهدي القائم، واختفى في السماء ولبس الحلة الزرقاء وسكن الشمس، وأن النصيرية كلما صفى منهم واحدٌ بطريق الانتقال في الأدوار رجعت العالم ولبس ثوب البشرية بعد الصفا يرجع يصير نجمًا في السماء وهو مركزه الأول. وإن عمل معصيةٍ تخالف لوصية علي أمير المؤمنين الرب الأعلى يعود يهوديا أو مسلما سنيا أو نصرانيا، ثم يتكرر إلى أن يصير مثل الفضة في الروباص[VII]، ويرجع يصير نجمًا في السماء، وإن الكفرة الذين ما عبدوا عليًا بن أبي طالب كلهم يصيرون جمالًا وبغالًا وحميرًا وكلابًا وخرفانًا للذبح وأمثال ذلك، ولهم مناقب وكتبٌ كفريةٌ مثل ذلك[VIII]".

[I] "لمع من أخبار العرب". إدوارد پوكوك ص 261.
[II] السؤال رقم 44 دي ساسي "عرض ديانة الدروز"، الجزء الثاني، ص 260.
[III] الدروز. المترجم
[IV] أبو شعيب محمد بن نصير النميري، مؤسس الدين النصيري. المترجم
[V] عليّ بن أبي طالب. المترجم
[VI] الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. المترجم
[VII] الإناء الذي تصهر فيه المعادن؛ لتصبح خالصةً من الشوائب. المترجم
[VIII] الاقتباس من مخطوطةٍ عربيةٍ اسمها "سؤال وجواب وهو حد ما ذهب إليه الدروز واعتقدوه"، وهي محفوظةٌ في المكتبة الوطنية الفرنسية في پاريس بالرقم "ARABE 1444". المترجم

الفصل السادس

المنهج الديني النصيري: الممارسات والشعائر

الصلوات النصيرية أكثر شبهًا بالابتهالات من الأدعية، والمثال التالي المأخوذ من المخطوطة نموذجٌ جيدٌ عن جميع الصلوات الباقية: "بسم الله الرحمن الرحيم. ما جلسوا أولياء من أوليائي في مجلسٍ يذكروني فيه إلا غشيتهم في رحمتي، وذكرْتُهم بما عندي، فأكثِروا من ذكري، فإن ذكري يمحا الذنوب، وإنه ذكرًا للذاكرين. اللهم إني أسألك يا مولاي بحق هذا فصل المذاكرة، وبحق شمسك الزاهرة، وبحق نفسك الآمرة، وبحق قدرتك القاهرة، وبحق عينك الناظرة، وبحق حجتك الشاهرة، وبحق بحارك الزاخرة، وبحق رعودك الهادرة، وبحق غيومك الماطرة، وبحق فضل عزك، وعز عزك، يا أمير النحل، يا علي، يا حيدرة، يا تاج الأكاسرة، يا قيوم الدنيا والآخرة. يحل في دياركم البركة، والرحمة، والسعادة، والنعمة، يا صحاب هذه الخير، وهذا الفضل، وهذا الجود، وهذا المفاخرة، وهذا الإحسان، وهذا المايدت[I] الحاضرة، ويصرف عنا وعنكم شر جبابرة بنو أمية الطاغية الباغية الكافرة، ويقدس ويرحم أرواح إخواننا المؤمنين بنفسهم الطيبة الطاهرة، يا أمير النحل، يا عليًا، يا عظيم".

تنتهي معظم الابتهالات بنفس تلك العبارات. وكثيرًا ما سمع الخادم النصيري مشايخهم يقرأون هذه الابتهالة وغيرها بعد مأدبةٍ في أحد أيام الأعياد في بيوت الناس، وقد سمعهم يكررون بسرعةٍ أسماء عليٍّ، والمزاراتِ، وهلم جرًا، وبين كل عشرة أسماءٍ أو نحو ذلك يقولون: "رحمهم الله"؛ وبعد ذلك ينشدون موالًا كهذا: "وحق مين خلق مريم العدرا بلا دَيَّات[II]، محمد شفيعي، وعليّ غاية الغايات".

يقول لانجلوا: "فيما يخص العبادات الخارجية، يصلي النصيرية ثلاث مراتٍ في اليوم في الهواء الطلق، وصلاة الفجر أهم صلاةٍ عندهم. يتوجهون في صلاتهم نحو الشرق، كما يفعل المسلمون الذين أخذ النصيريةُ عنهم الوضوءَ وختان الذكور[III]".

أخبرني الخادم النصيري أنهم يستيقظون قبل شروق الشمس، ويغتسلون، ثم يرتلون صلاتهم غير المفهومة بصوتٍ منخفضٍ وبسرعةٍ، وقد يفعلون ذلك قيامًا أو قعودًا، داخل البيت أو في أثناء المشي دخولًا إليه أو خروجًا منه. وقد ينقطعون عن الصلاة شهرًا، وأحيانًا يستمرون في صلاتهم مدة ساعةٍ كاملةٍ، ثم ينهونها بنشيدٍ. ومنذ زمنٍ ليس ببعيدٍ، كان عنده بعض المشايخ في منزله، واستيقظوا قبل الضوء بمدةٍ طويلةٍ، ثم اغتسلوا، ومشوا خارج البيت يرتلون صلاتهم، ثم عادوا إلى داخل البيت، واستمروا في صلاتهم حتى اقتراب موعد شروق الشمس. وصلّوا مرةً ثانيةً عند الظهر، ومرةً أُخرى قبل غروب الشمس بساعةٍ تقريبًا. وعندما يحضر المشايخ إلى أحد أحياء القرية، يجمعون الناسَ للصلاة أحيانًا. رأينا سابقًا أن عدد الركع 51 ركعةً في اليوم، ولكنهم لا يركعون إلا في اجتماعاتهم السرية في الصباح أو المساء، فهما الوقتان المعتادان للصلاة؛ وتعد الصلاة في الصباح أفضل من الصلاة في أي وقتٍ آخر. لا يبطل وجودُ مسلمٍ صلاتَهم، ولكن يبطلها ظهور مسيحيٍ في نطاق 40 قدمًا، إلا إذا فصلته عنهم مياهٌ جاريةٌ. أكمل فلاحي المسيحي عمله في أحد الأيام، وذهب ليضع محراثه في بيتٍ من بيوت القرية المجاورة؛ فغضب السيد لدى رؤيته غضبًا شديدًا، لأن بعض المشايخ كانوا يصلون في منزلٍ مجاورٍ، واستطاع المسيحي رؤيتهم من خلال شقوقٍ في الباب، وكانوا يحتفلون بأحد الأعياد؛ وقال السيد بأنه كان على استعدادٍ على التخلي عن كل ما يملك مقابل عدم حضور الفلاح في ذلك

[I] المائدة. المترجم

[II] جمع يَدّ. عامّية. المترجم

[III] "مجلة الشرق"، يونيو، 1856.

المكان. وكان خادمي المسيحي يراهم كثيرًا يصلون في الهواء الطلق عند الصباح الباكر، ويحركون رؤوسهم وشفاههم، وكانوا يتوقفون عن الصلاة عند رؤيته. ومن بعض تعبدِهُم لعنُ "أبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمان بن عفان، وشيخ التركمان".

حسب ما ورد في المخطوطة، يوزع نصٌ على كل نصيريٍ عند الصلاة في الصباح والمساء. وقد دخل شخصٌ يدعى يحيى على الحسن العسكري وسأله: "مولاي، ما يوجب على عبدك المؤمن المحقق المدقق في كل يومٍ وليلةٍ وصباح ومساء؟"، فأجاب: "يا يحيى يوجب على عبدي المؤمن في كل يومٍ وليلةٍ وصباح ومساء فإن يلتفت يمينًا وشمالًا، فإذا وجد أخ من إخوانه أو صديقًا من أصدقائه؛ فليصافحه، فقلت مولاي، وإذا لم يوجد أخٌ من إخوانه ولا صديقًا من أصدقائه؟ قال: يصافح نفسه بنفسه، ويشاهد معناه بذاته، ويأخذ السيد المقداد من ذات اليمين بحب العين والميم والسين، ويأخذ السيد أبو ذر من ذات الشمال بحب ذات الكمال، ويقوم قائمًا ويقول: قد فاز وأفلح من أمسى وأصبح وأشار واستفتح بمعرفة مولاي أمير النحل عليّ حيدرة الأنزع الأرجح الأصبح، قد فاز وارتقى من استمسك بالعروة الوثقى، لا انفصام لها والله سميع عليم[I]"، والجملة الأخيرة مأخوذة من القرآن (السورة الثانية، الآية 257)[II].

يجب أن أوضح شيئين أو ثلاثة عن هذه الصلاة، إذا صحت تسميتها بذلك. ترمز ع م س كما رأينا إلى عليًّ ومحمدٍ ﷺ وسلمانَ، وحسب افتراضي، ترمز ذات الكمال إلى فاطمةَ أو أم سلمة زوجة النبي المشهورة بكرمها[III]، وقد قيل عنها[IV] في مقطعٍ آخر: "الدالة بولايتها على ظهورات المعنى والاسم والباب[V]".

كان المقداد، وأبو ذر صحابيان بارزان؛ وقد سمع غلامي اسم أبي ذرٍ يتردد كثيرًا، والاثنان يحظيان بتشريفٍ كبيرٍ عند الفرق السرية، وخصوصًا النصيرية، فيرمزون لهما بيمين ويسار الصلاة، وكما ذكر كاتافاغو في المقطع التالي من القداس الثالث[VI]: "قد قامت الصلاة على أربابها، وثبتت الحجة على أصحابها. الله، مولاي، يا عليّ، أسألك أن تقيمها وتديمها، كما دامت السماء والأرض، واجعل السيد محمد ﷺ خاتمها، والسيد سلمان زكاتها، والمقداد يمينها، وأبو ذرّ شمالها". في صلاة القربان وغيرها من الصلوات يقف عن يمين ويسار الإمام شخصان لهما مكانةٌ خاصةٌ، وبالمناسبة، أود القول إن الخلفاء الفاطميين الإسماعيليين استبدلوا عبارة "حي على الصلاة" بعبارة "حيَّ على خير العمل[VII]".

المقداد المذكور سابقًا هو المقداد بن عمرو بن عثمان بن الأسود الكندي[VIII]، وهو أحد أهم أيتام سلمان؛ شهد جميع غزوات النبي بعد غزوة بدرٍ، وتوفي سنة 34 هجرية.

وكذلك يعدّ أبو ذرّ جندب بن جنادة الغفاري أحد أيتام سلمان المهمين. "وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال، فكتب معاوية إلى عثمان يشكوه؛ فنفاه عثمان إلى الربذة، وقيل كانت وفاته[IX]". يقول تايلور عنه: "أبو ذرّ صحابيٌ

[I] المخطوطة، ص 119.

[II] الآية 256 من سورة البقرة: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". المترجم

[III] على الأرجح ذات الكمال تعني الذات الإلهية، فقد ورد في رسالة "غنيمة السفر وبلوغ الوطر" للشيخ حسن أحمد: "الله الاسم الجليل المختَرَعُ من نور ذات الكمال". ويُستخدم هذا التعبير في كتب الصوفية في إشارة إلى الله تعالى. المترجم

[IV] يقصد أم سلمة. المترجم

[V] المخطوطة، ص 40.

[VI] قداس الأذان. المترجم

[VII] كان أذان أهل مصر مثل أذان أهل المدينة حتى دخلها الفاطميون، فأضافوا "حي على خير العمل"، ثم ألغاها الحاكم بأمر الله من جملة الأمور العجيبة التي أمر بها، وبعد وفاته، عادت عبارة "حي على خير العمل"، وبقيت حتى ألغاها صلاح الدين بعد إسقاط الدولة الفاطمية. المترجم

[VIII] لا يوجد عثمان في كنى المقداد، فحسب "سير أعلام النبلاء" للذهبي: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني. المترجم

[IX] "المختصر في تاريخ البشر"، أبو الفداء، الجزء الأول، ص 260، 272؛ اقتبسها نيكولسون عن المسعودي، ص 112. {مخطوطة عربية نسبت بالخطأ إلى المسعودي، وترجمها جون نيكولسون إلى الإنجليزية. مؤلف المخطوطة هو المؤرخ عريب بن سعد القرطبي}

عجوزٌ، حرَّف معاني نصوصٍ قرآنيةٍ، وقال إن الثروات في الدنيا سبب كل إثمٍ، وإنه يجب أن يجبر الأغنياءُ على إعطاء فائض أموالهم إلى الفقراء[I]".

من الواضح تبجيل النصيرية لهذين الشخصين؛ لأنهما من أصدقاء عليٍّ البارزين، ومنهم صحابيٌّ آخر اسمه عمار بن ياسر، وقد مات وهو يقاتل دفاعًا عن عليٍّ في وقعة صفين سنة 37 هجرية.

رأينا كيف يتحدث الكِتابُ النصيري عن 51 ركعةٍ في اليوم، ويشمل ذلك جميع الصلوات بما في ذلك السجود والركوع. وتؤدى الركعتان عند كل عبادةٍ باستثناء تلك التي موعدها بعد شروق الشمس بساعةٍ ونصف. ولدى قراءتي للركع المذكورة في المخطوطة مع شيخٍ مسلمٍ، وجدتُ أنها تتشابه مع صلوات المسلمين التي تؤدى خمس مراتٍ في اليوم، ومجموع ركعاتها 50: الفجر، والظهر، وبعد الظهر، والمساء، وصلاةٌ موعدها بعد غروب الشمس بساعةٍ ونصف، ويؤدي المتدينون صلواتٍ إضافيةً في الليل[II]. والفارق هو أن النصيرية يشخّصون أوقات الصلاة بإعطائها أسماء أشخاصٍ[III]، فيفسرونها تفسيراً باطنيًا، فلا يصلون تلك الأوقات بتاتًا، ولا يركعون في أي منها.

وأخيراً، علينا البحث في أهم قسمٍ من أقسام الديانة النصيرية، أو على الأقل، القسم الأهم في شعائرها، وهو اللغز الكبير، وسر الأسرار: تقديس الخمر في القداس. وأفضل طريقةٍ لعرض ما أود قولَه، اقتباسُ نصوصٍ من كتاب تعليم الديانة[IV]:

"السؤال: ما هو القدّاس؟
الجواب: هو تقديس الشراب وشربه بسر النقباء والنجباء.

السؤال: ما هو القربان؟
الجواب: هو القربان الذي يقرّبه المؤمنون عن أرواح إخوانهم وبه يُقال القداس.

السؤال: مَن هو الذي يقدّس القدّاس ويقرّب القربان للمؤمنين؟
الجواب: هو إمامهم وخطيبهم العظيم.

السؤال: ما هو سرّ الله الأكبر؟
الجواب: هو سرّ اللحم والدم الذي قال المسيح عنه لتلاميذه عليه السلام: هذا لحمي ودمي فكلوا واشربوا منه لأنه حياة الأبدية.

السؤال: ما هو سرّ إيمان الموحدين الذي هو سرّ الأسرار وعقيدة الأبرار؟
الجواب: هو احتجاب مولانا في النوراني، أعني عين الشمس، وظهوره في عبده عبد النور.

السؤال: ما هو القدّاس الأوّل؟
الجواب: هو الذي يُقال قبل النوروز.

السؤال: ماذا يُدعى الخمر المقدّس الذي يشرب منه المؤمنون؟
الجواب: عبد النور.

[I] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور ص 137.

[II] أخبرني الشيخ أن العدد قد يصل إلى 50، لكن لين الذي يتوخى الدقة، يقول إن العدد 38. "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الأول، ص 107، ملاحظة.

[III] صلاة الظهر شَخْصُها محمدٌ ﷺ، صلاة العصر شخصها فاطر، صلاة المغرب شخصها الحسن، صلاة العشاء شخصها الحسين، صلاة الفجر شخصها محسن؛ ولكل ركعة شخصها، والقائمة طويلة. المترجم

[IV] المخطوطة، ص 76، 77، 78، 79، 82، 87، 88، 90، 91، 94.

السؤال: لماذا يُدعى عبد النور؟
الجواب: لأنّ الله ظهر به.

السؤال: إن كان مولانا احتجب بالنور فبأي شيءٍ يظهر؟
الجواب: اعلم أنّ مولانا يظهر بالحق كقوله في النوروز".

يتضح مما ورد سابقًا أن النصيرية أخذوا السر المقدس من المسيحيين؛ ومن الواضح والمؤكد أن الخمر هو المكون الأساسي للسر المقدس، على الرغم من ذكر القربان. ويتحدث المبشرون اليسوعيون -الذين لا يمكن الاعتماد على وصفهم، دون شكٍ- عن قطعةٍ من اللحم تُكَوِّن جزءًا من السر المقدس، فيقولون: "استعار النصيرية سر التناول من الدين المسيحي، لكنهم يمارسونه بطريقةٍ متطرفةٍ كليًا؛ فيؤدونه بالخمر مع قطعةٍ من اللحم[I]"، ولكنني لم أعثر على خبزٍ ولا على لحمٍ في المخطوطة النصيرية، مع أن صلاة القربان موجودةٌ بالكامل، وقد وجدت إشاراتٍ للخمر في أماكنَ متفرقةٍ من الكتاب[II]. ولذلك يطلقون على الإخوان اسم "أصحاب الصِرْف" (الخمر الصافي)[III]، أو "أصحاب هذا النبيذ[IV]". وفي كتاب تعليم الديانة يشار إلى الخمر بعبد النور لأن الله ظهر به، وبه يتناوله الإخوان[V]. وذُكر الخمر باسم عبد النور في المخطوطة، وكأنه الشيء الوحيد الذي يقدسه الشيخ[VI] الذي يقيم القداس[VII]، وفي مقطعٍ آخر، ذُكر بما يلي[VIII]: "اللهم إنّ هذا عبدك عبد النور شخصٌ حللته وكرمته وفضّلته لأوليائك العارفين بك، حلالًا طلقًا وحرّمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك حرام نصًا". ولهذا السبب نرى أن النصيرية بشكلٍ عامٍ لا يحبون التحدث عن الخمر، ويزعجهم الحديث عنه؛ لأنهم يقدسونه ويعترونه شيئًا يخصهم وحدهم. وكذلك ذُكر الخمر باسم عبد النور في القداس الثاني الذي نشره كاتافاغو، ويشار إليه بأنه "مُبخَرٌ[IX]"، ويسمى القداس "قداس البخور".

كان ابن الشيخ حسن الكناني يتعلم في مدرستي، وكان ذلك الشيخُ أعلمَ مشايخ النصيرية الذين التقيتهم، وأكثرهم فسادًا وخديعةً؛ وتحدث معي عن يوم يحين موعد تنصير ابنه فقال: "ألا تحتاجون للخمر من أجل التنصير؟"، ولمح لي بأنه يملك صلاحية تقديس الخمر[X].

سأعرض ترجمةً كاملةً للقداسِ في فصلٍ لاحقٍ، وسأعرض الآن ملحوظةً واحدةً مهمةً: كلمات القداس وترتيب جمله متطابقةٌ في كلٍ من المخطوطة وكتاب تعليم الديانة النصيرية، وقد حكمت على ذلك بواسطة الترجمات الجزئية لكتاب تعليم الديانة، وبعض جمله الأساسية المقتبسة.

تُمارَس طقوس السر الكبير للقداس بحضور ذَكَرٍ نصيريٍ يدخل في الدين. وتُتَّخذ احتياطاتٌ كبيرةٌ؛ للتأكد من عدم رؤية الغرباء للقداس، وإذا تبين لهم رؤية أحد الغرباء لقداسهم، ولو حدث ذلك مصادفةً، سيقومون بالتخلص منه إن استطاعوا. ومن جملة الإجراءات الاحتياطية، وضع مراقبٍ، واختيار أوقاتٍ وأماكنَ تقل فيها فرص مقاطعتهم، وندر جدًا أن شاهد غريبٌ شعائرهم. تربى خادمايا المسيحيان في قضاء المرقب في قريةٍ يسكنها خليطٌ من المسيحيين والنصيرية، وكان والد أحدهما على اطلاعٍ جيدٍ بعادات النصيرية. خلال العام الأخير، أُجبر الولدُ وأبوه على مغادرة

[I] يستعمل المسيحيون الخبز والخمر وأحيانًا يستعاض عن الخمر بعصير العنب؛ لذلك عدّوا استعمال اللحم تطرفًا. المترجم
[II] استخدمت كلمة "قربان" في خاتمة إحدى الصلوات في المخطوطة، ص 18؛ ويتحدث كاتافاغو، عن "الأكل والشرب"، وتقديسهما، ويبدو أن مرجعه في ذلك الكتابُ النصيري.
[III] المخطوطة، ص 32.
[IV] المخطوطة، ص 47.
[V] راجع مقدمة كتاب تعليم الديانة في الفصل العاشر.
[VI] المخطوطة، ص 133.
[VII] يعني ضمنيًا عدم وجود لحمٍ أو خبزٍ مع الخمر. المترجم
[VIII] المخطوطة، ص 134.
[IX] "ويأخذ بيده ياقوتة حمراء تنزيهًا لفاطمة الزهراء، ويبخّر الأقداح وتتمّ الأفراح ويبخّر بها عبد النور في وقت الزينة والزهور". المترجم
[X] ربما أراد الشيخ أن يقول إنه يستطيع تأدية قداس المعمودية في محاولة للالتفاف على تنصير ابنه. المترجم

الحي الذي يعيشان فيه خمس مراتٍ في أعياد النصيرية الأساسية التي يجتمعون فيها داخل بيتٍ ملحقٍ بأحد المزارات في الشتاء، أما في الصيف، فيخرجون في الهواء الطلق. وأخبرني خادمي الآخر أنه كان موجودًا في منطقةٍ سكانها من الطائفة الشمسية، فأجبروه على الصعود إلى غرفةٍ مصنوعةٍ من أغصان شجر الآس يرفعها عن الأرض عامودان، وقد تجمعت النساء في أحد البيوت، في حين ذهب الرجال إلى أحد الوديان، وكان خادمي يراهم من داخل الخيمة والشيخ يقرأ عليهم.

أخبرني مفوضٌ قنصليٌّ إسبانيٌّ في اللاذقية أن أحد الرجال شاهد أحد اجتماعاتهم الدينية السرية التي أقيمت في إحدى قرى السهل، وأن هذا الرجل توفي منذ خمسة أعوامٍ. فقد كان يعمل مراقبًا على تلك القرية، وبعد وصوله غير المتوقع، اختبأ في غرفةٍ ملأى بالقش المُقطّع، ومن ذلك المكان استطاع النظر إلى داخل بيت الشيخ، فرأى رجالًا مجتمعين حول طبقِ خمرٍ كبيرٍ وضعت على محيطه أو حوله شموعٌ. قرأ الشيخ بعض الصلوات، ثم لعنوا أبا بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وشيخ التركمان، وآخرين (من بينهم مسيحيون[I])، وأعطى ملء ملعقة من الخمر لكل شيخٍ، ثم لبقية الحضور؛ وبعد ذلك أكلوا البرتقال، وصلّوا، ثم انفض الجمعُ.

يجتمعون في الأعياد الرئيسية، وخصوصًا عيد النوروز، وهو الاسم الفارسي ليوم الاعتدال الربيعي. ويُمنع حضور النساء والأطفال منعًا باتًا. يقول لانجلوا: "يجتمع النصيرية أيام الأعياد الرئيسية، ويبارك المشايخ الخمر ويوزعونه على الحاضرين، وتُسمى تلك الأعياد بعيد القداس". يقول المبشرون اليسوعيون: "عند ممارسة طقس التناول، يحضر الرجال فقط، ويُمنع حضور النساء والأطفال، ويمارس الرجال تلك الطقوس في اجتماعاتهم السرية".

وأخبرني الخادم النصيري أنهم يلتقون في اجتماعٍ يسمونه "جَمْعَة" في أحد البيوت، أو في مكان يحتشد حوله الحاضرون على مأدبة "الندر" (أن ينذر أحدهم الذبائح، ليأكلها المشايخ أو غيرهم)[II]. من السخف افتراض حصول تلك القصص الغبية في تلك الاجتماعات[III]، حيث لا يمكن أن يحصل إلا ما قرأناه في كتبهم ومصادرَ أخرى، وليس عندي ما أقوله عن اجتماعاتهم غير ذلك.

ومن الملاحظ أنهم يخلطون خمر القربان بالماء على طريقة الكنائس الشرقية.

وعندما يذهب الرجال إلى اجتماعاتٍ دينيةٍ، يلبسون قمصانهم فوق سراويلهم، و "يكسرون[IV]" أحذيتهم، ويتركون أسلحتهم في البيت. وقد رآهم الخادم النصيري كثيرًا يذهبون، ويعودون على تلك الحالة. وتوجد قواعدُ ومحظوراتٌ أُخرى تتعلق بملابس الحضور وسلوكهم، ولقد تَرجمتُ إحدى خطبهم المتعلقة بهذا الموضوع، وستجدونها في الفصل التاسع.

وبهذا نكون قد تكلمنا عن القسم النظري المتعلق بشعائر ديانة الأخوية النصيرية. سننتقل الآن للحديث عن أقسامٍ أُخرى من مؤسستهم الماسونية، وعما يُفرض عليهم وما يحظر عليهم، وعن إشارات التعارف المتفق عليها، ولكن قبل الحديث عن ذلك، سأصف لكم عملية تعريف النصيرية بأسرار دينهم وإطلاعهم عليها، بناءً على المعلومات التي حصلت عليها من الخادم النصيري، وأشخاصٍ آخرين، ومن كتبهم.

على خلاف الدروز، يُدخل جميع ذكور النصيرية في دينهم، ويحصل ذلك عادةً عند بلوغ سن 18 أو 20 عامًا، قبل الزواج؛ وبالنسبة إلى أولاد المشايخ، يخفض العمر إلى 16 عامًا. وعندما يعلم الناس بموعد استلام الدين، يصبح ذلك حديث النساء والأطفال، ويضحكون من الولد، ويخيفونه بحجم الضرب الذي سيتعرض له، حتى يتعلم الصلوات

I يقولون: "واجعل اللعنة على يوحنا مارون البطرك الملعون". يوحنا مارون (628-707) أول بطريرك للكنيسة المارونية في أنطاكيا. المترجم

II وقد رآهم ذاهبين إلى وادٍ بعيدٍ من أعين الناس، أو مكانٍ آخر معزولٍ.

III يقصد الاجتماعات الإباحية التي تكلم عنها سابقًا. المترجم

IV كسر الحذاء يعني ثني جداره الخلفي؛ ليصبح تحت كعب القدم، بدلًا من الإحاطة به. المترجم

المفروضة. ومن شدة الخوف مما قد يحصل، فعل الخادم النصيري، عندما كان صغيراً، كل ما بوسعه لتسهيل عملية إدخاله في الدين في المستقبل، فتجسس قدر ما استطاع على شعائر استلام الدين.

عندما يحين وقت استلام الدين، يشتري الولد جديًا أو حيوانًا آخر باعتباره "دبيحة" أو أُضحيةً، وفي إحدى الأمسيات -وخاصة في أيام الأعياد أو عند الاحتفال بالنذر- يأتي المشايخ مع عم الولد أو معلمه الخاص الذي قد يكون من العامة (يقال لهم العامة مقابل العقَّال، والمشايخ، ومعلمي الدين)، ويشاركون في مأدبة الأضحية. عندما كان الخادم النصيري صغيراً، نظر عبر شقوق الباب، فرأى في أثناء مراسم استلام الدين رجالًا تجمعوا حول وعاءٍ فيه بخورٌ. وقيل له إن الولد الذي يستلم الدين، يمشي وراء عمه إلى داخل تلك الدائرة، ويُعَلمه الرجالُ الذين يشكلون الدائرة حوله بعض الكلمات، وإذا أخطأ، يصفعونه. ويكتبون عقدًا بين العمِّ والولد، سأعرض ترجمته في الفصل التاسع. وبعد ذلك يرخونه (كما يمشي الحَمَلُ مرتخيًا خلف أُمه) خلف عمِّه. وخلال ثلاثين يومًا أو يزيد، يتعلمُ الولدُ من عمِّه، ما يكفي من الصلوات؛ وعند الاحتفال بنذرٍ آخر، تُستغل الفرصةُ لإتمام الإدخال في الدين بقراءة أشياء معينةٍ، سأعرض ترجمتها في الفصل المخصص لذلك الغرض. سأقول مجددًا إن العبارات الموجودة في المخطوطة تتطابق مع مثيلاتها في كتاب تعليم الديانة.

تجري العملية في الهواء الطلق، وتسمى العملية الأُولى "المداخلة" و "بساط الصلاة"، وتسمى الثانية "عِلم" و"صلاة". يقال إن الذين تعلموا من العم نفسه، تعلموا من نفس "النبعة"، وتتكون بينهم روابط خاصةٌ. وبهذه الطريقة، تنتشر الماسونية بين الذكور البالغين، كانتشار النار في الهشيم.

وكانوا يقولون للخادم النصيري إنه سيصاب بالطرش إذا استمع إلى الأولاد الذين يتعلمون الصلاة، وقد ارتدع خوفًا عن فعل ذلك. قد يتزوج بعض المساكين، الذين ليس عندهم أصدقاء يهتمون لأمرهم، قبل استلام الدين، فيفصلونهم عن زوجاتهم في أثناء تعلم الصلوات. يستخدمون الزبيب في أثناء تأدية إحدى الشعائر لصنع الخمر أو لأغراضٍ أخرى. ومنذ عهدٍ قريبٍ، اشتروا زبيبًا من الخادم النصيري في أثناء تأدية "الندر" بمناسبة إدخال أحدِ الأولاد في الدينِ. وكان بيع الزبيب من جملة ما حرمه خليفة مصر الإسماعيلي الحاكمُ بأمر الله. ويسمون الزبيب أو عصيره "نقيع". يوضع الريحان حول الطبق الذي يحوي عصير الزبيب، ويعتقد الخادم النصيري أنهم يستعملون العصير عند عدم توافر الخمر. يقول ڤيكتور لانجلوا[I]: "الديانة النصيرية ألغازٌ كلها، ولا يُدخل في الدين سوى الذكر البالغ، بعد أن يُحَضِّرَ المشايخ لهذه العملية، للحفاظ على الأسرار التي سيطلعونه عليها؛ وتسمى شعائر الدخول في الدين "تزنير" (وضع زنارٍ، ويقال إن الولد تَزَنَّرَ)، وتؤدَّى في حضور عرّابَين اثنين. ثم يخبرون الولد شفويًا عن السر الذي تأسست عليه عقيدتهم، وهذا السر غير مكتوب في أيٍ من كتبهم ويسمى "سر التنين" (الاثنين)".

تحتوي تلك المقولة على بعض الأخطاء، فالسر الذي تأسست عليه عقيدتهم، من الناحية النظرية، ودون أدنى شكٍ، هو الظهور الإلهي في عليٍّ، والمعتقدات المتعلقة به، أما من الناحية الطقسية، فهو سر الظهور الإلهي في الخمر المقدس. وما عدا ذلك من الأسرار، مثل إشارات التعارف المتفق عليها، فهي مجرد ملحقاتٍ للمنهج النصيري.

وفيما يتعلق بالعرابَين و "سر الاتنين"، تُخْتَتَمُ صيغة الدخول في الدين في المخطوطة بما يلي: "ثم يسلمه إلى إخوته العشرة والكفلا يُحَلِّفوه، ويسلموه إلى النقيب[II] [الزعيم، وهي كلمة تستخدم في المنهج النصيري] إلى سيده [عم الولد أو معلمه] يسقيه سر التنين بعده يقراهم [ربما قصد القداسين] ويقرأ الإمام [قائد الصلاة والشيخ الذي يقيم القداس] آية، ويسجدون ويدعون بالسجود والسلام، ويقرأ الفاتحة إلى أهل الطريقة، وأهل الحقيقة مما وفق، ثم الدخول المبارك [إلى جميع امتيازات وواجبات الأخوية]".

[I] "مجلة الشرق" يونيو 1856.

[II] لمشايخ النصيرية ثلاث رتبٍ: الإمام، والنقيب، والنجيب من الأعلى إلى الأسفل. المترجم

وهكذا ترى كيف يفصحون عن السر في حضور عدة أشخاصٍ من بينهم عشرة كفلاء أو عرَّابين وليسا عرَّابَين فقط، ويشرب الولد السرَ أمام الحاضرين، وبذلك ودون أي شكٍ، السرُ هو سرُ الخمر المقدس، وليس سر شيءٍ آخر.

بالنظر على ترجمة نص الدخول في الدين، نرى كيف يحاولون ترويع الولد بعدةِ كلماتٍ وتهديداتٍ، ويخيفونه من إمكانية مسخه، ومروره في أجسام دنيةٍ، وهلم جرًا. ثم يحلفونه أيمانًا غلاظًا، ومهما يكن السبب، لم يحدث أن أفشى نصيريٌ أسرار دينه[I].

نصل الآن إلى قسمٍ مثيرٍ للاهتمام في المنهج النصيري، لارتباطه بسر الماسونية الحديثة. اسميها "حديثة" لأنها ما زالت موجودةً، وليس تحديدًا لزمن نشأتها. سأعطي الفرصة للماسونيين ليجدوا لنا شيئًا مهمًا في أخويتهم، لا نجده في الأخوية النصيرية[II]!

يقول ڤيكتور لانجلوا[III]: "لدى النصيرية إشاراتُ تعارفٍ متفقٌ عليها، يستخدمونها للتعرف على بعضهم". السيد والپول على علمٍ بالكثير من تلك الإشارات، إن لم يكن معظمها، وقد علَّمني بعضها، ولكنني لن أقول ما أخبرني به لأنني لا أعلم إذا كانت لديه النية في إخبار الناس عنها وعن أشياء أُخرى؛ ولذلك سأكتفي باقتباس ما قاله: "لدى النصيرية إشاراتٌ وأسئلةٌ[IV]، يحيّون بعضهم بها، ويتحققون ببعضها فيما إذا كان الغريب نصيريًا. لكن تلك الإشارات ليست واسعة الانتشار، ولا يعرفها سوى قلةٌ قليلةٌ، لأنهم يستدلون على النصيرية من ملبسهم، ويميزون زعماءهم بمجرد رؤيتهم[V]". ونجد في كتبهم رسم مثلثين متقاطعين أو ما يعرف بخاتم سليمان.

يُسمَّى أبناء المجتمع النصيري "إخوانًا". وكل ما قيل عن فعل الخير والامتناع عن الأذى، يُطَبَّق فقط على الجماعة المفضلة، وأما الناس خارج الجماعة والمشككون والمشركون، فليس لهم نصيبٌ من ذلك؛ إذ يقول أحد الأدعية في المخطوطة[VI]: "وانزع الله ما في قلوب المشككين المشركين من نور المعرفة واليقين". يقتل وينهب النصيريةُ المسلمينَ والمسيحيين دون إحساسٍ بتأنيب الضمير، ويُظهِر ذلك تأثيرَ منهجهم المُحْسِنِ لأبناء دينهم فقط، مستثنيًا الآخرين من فعل الخير. هل يمكن أن تكون الماسونية على حقٍ بتبنيها هذا المبدأ، في حين تقول لنا تعاليم المسيحية: "وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ"، وتعطينا كل الجمائل التي تعطيها الماسونية؟ يقال إن الماسونية أشملُ لأنها تربطُ أناسًا من أديانٍ مختلفةٍ، وبرأيي الشخصي هذه نقيصةٌ لا تستحق الثناء. المسيحيُ خَيِّرٌ مع جميع الناس، فهو يعدّهم إخوانه، مع أنه لا يستطيع قبول أحدٍ في تلك الأخوية المجيدة مالم يحب الأخ الأكبر[VII] ويؤمن به.

[I] فعل ذلك سليمان الأذني بنشره أسرار العقيدة النصيرية في كتاب "الباكورة السليمانية" بعد ثلاث سنواتٍ من وفاة صموئيل لايد، ودفع حياته ثمنًا لذلك. المترجم

[II] عبارةٌ تهكميةٌ، يريد بها تقليل شأن الماسونية. المترجم

[III] "مجلة الشرق"، يونيو 1856.

[IV] سأقتبس من كتاب " الباكورة السليمانية" ما ورد بخصوص تلك العلامات: "وأما العلامة التي بها يعرف بعضهم بعضاً فهي إن أتى غريب إلى بين النصيرية يسألهم ويقول: لي قريب فهل تعرفونه فيجيبون ما اسمه؟ فيقول لهم: اسمه الحسن، فيجيبونه: ابن حمدان؟ فيقول: الخصيبي. والعلامة الثانية: يقولون للغريب: شاش عمك كم دور؟ فإن أجاب ستة عشر، يقبلوه. العلامة الثالثة: إن عطش عمك من أين تسقيه؟ الجواب: من عين العلوية. العلامة الرابعة: إن غاظ عمك فماذا تهديه؟ الجواب: لحية معاوية. العلامة الخامسة: إن ضاع عمك فأين تلاقيه؟ الجواب: بالنسبة. العلامة السادسة: أربعة وأربعتين وثلاثة واثنين وقدرهم مرتين في دينك أين؟ الجواب: بالمسافرة. سؤال اقسم لي إياهم، جواب منهم: سبعة عشر عراقي، وسبعة عشر شامي، وسبعة عشر مخفي، سؤال أين يوجدون؟ جواب: على باب مدينة حران، سؤال ما يعملون؟ جواب يأخذون بالحق ويعطون بالحق". المترجم

[V] "النصيرية أو الحشاشون". فريدريك والپول، الجزء الثالث، ص 354.

[VI] المخطوطة، ص 138.

[VII] يقصد النبي عيسى عليه السلام. المترجم

استُخدمت الماسونية لأغراضٍ سياسيةٍ، وغاياتٍ سيئةٍ، وكل المجتمعات السرية عرضةٌ لذلك. اخترع بعض اليعاقبة[I] الإسكتلنديين درجة القوس الملكي في هذا التنظيم كوسيلةٍ لتوحيد أتباعِ المُطالبِ[II]. في البداية، سُميت الدرجة "أراس[III] الملكية" في "فصل أراس الملكي"، نسبةً للمدينة التي عاشوا فيها، وعندما أصبحت قضية المُطالبِ أمرًا ميؤوسًا منه، اندمجت في التنظيم العام وحُرِّف اسمها، ليصبح "القوس[IV] الملكي[V]". يشير بعض الناس إلى وجود درجاتٍ ماسونيةٍ غامضةٍ؛ وبافتراض أنها غير مضرةٍ، أليس التنظيم سخيفًا مع كل هذا؟ وهل يَفرضُ شيئًا أفضل من الواجبات العملية التي يفرضها الدين المسيحي، أو المنهج النصيري الذي يقتصر أداء الواجب فيه تجاه الإخوان؟

تنحصر هذه الواجبات في أمرين رئيسين، فعند استلام الدين، يخبرون الولد أن عليه أداء واجبين اثنين: الطاعة والامتناع. والأمر الواجب عليه "هو أن يفرغ جهده بمحافظة إخوانه ومراعاتهم ومداراتهم والمواظبة على تفقّدهم وبِرِّهم وصلتهم وجميع ما يرضاه لنفسه يرضاه لهم، ويجعل خمس ماله حلالًا مُطلقًا في كل عامٍ[VI]". أما الامتناع فهو "التحرس عن مظالم إخوانك، ولا تتعدا على أحد منهم وتجنّب أخطاءهم، ولا تخالف رضاهم واحذر الإساءة لهم واعلم أن العمى مكتسب من النظر إلى محارمهم بعين الريبة، والطرش مكتسب من استماع الغيبة والنميمة فيهم، والبرص والجزام مكتسب من الاستهزاء بهم والاستنقاص من مقاديرهم، والفقر والفاقة من الشح والبخل عليهم". ويجب على الولد أن يتجنب الكذب، وجميع أفعال المحارم والفواحش والمنكر، ما ظهر منها وما بطن.

لا شيء أفضل من تلك الأفكار والتعاليم المذكورة في هذا الخطاب، ومن المفيد أن يلتزم النصيرية بذلك، وأن يشملوا به كل الناس؛ لكنهم لا يفعلون هذا ولا ذاك. بعض المشايخ والناس من الطائفة الشمسية أصحابُ عقولٍ صغيرةٍ، وبالأخص سكان الجبال المرتفعة، ويعدّون تلك التعاليم دليلًا يُقتدى به، لكنهم يشتكون من تعاطي الأغلبية في أخويتهم مع تلك التعاليم على أنها مجرد كلماتٍ.

يُلمّح ڤون هامر إلى العلاقة بين الحشّاشين أو الإسماعيلية وفرسان الهيكل، فيقول بوجود تشابهٍ بين دستور الحشاشين ودساتير بعض الأنظمة الحديثة: "توجد نقاط تشابهٍ عديدةٍ، ولا يمكن أن يكون ذلك من باب المصادفة، ولكن المتشابهات لها مسبباتٌ مختلفةٌ". ويَذكر إحدى حالات التطابق في الملبس الأبيض وعُصابات الرأس الحمراء التي يرتديها الحشّاشون، والعباءات البيض والصليب الأحمر الذي يرتديه فرسان الهيكل؛ وفي زمننا الحاضر يغلب اللون الأبيض على ملابس النصيرية، وهم مولعون بالسترات والمناديل الحمراء، أو الحمراء والبيضاء. كنا قد أشرنا إلى حقيقةٍ مفادها أن فرسان الهيكل عاشوا بين أتباع الفرق السرية وفي مناطقَ مجاورةٍ لهم، وكما هو معلومٌ فإن إحدى درجات الماسونية تسمى فرسان الهيكل. وبهذه الملاحظات سنترك الموضوع للعارفين بتاريخ الماسونية، أو لمن يعتقدون أنهم عارفون به.

[I] جماعةٌ سياسيةٌ كانت تهدف إلى إعادة الحكم إلى عائلة ستيوارت الكاثوليكية. المترجم

[II] المُطالب هو الأمير تشارلز إدوارد ستيوارت، وسمي كذلك لأنه طالب باستعادة العرش لأسرة ستيوارت الكاثوليكية بعد أن ذهب الحكم لملوكٍ بروتستانتيين. المترجم

[III] تقع مدينة أراس في شمال فرنسا. المترجم

[IV] القوس الملكي هو أول درجة من درجات الفصل الملكي الأربع. المترجم

[V] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 176.

[VI] يدفع المسلمون زكاةً سنويةً إلزامية تبلغ ربع العشر مما يملكون. "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الأول، ص 130.

الفصل السابع

عادات النصيرية

وبهذا نكون قد وصفنا الشعائر النصيرية والقسم النظري للدين النصيري؛ ولكن للنظرية الدينية تأثيرٌ صغيرٌ على حياة النصيرية، وعلى حياة جميع الناس عمومًا، وخصوصًا أشباه البرابرة. ولذلك فإن وصف منهجهم العقدي لا يعطينا فكرةً كاملةً عن أحوالهم التي أثَّر فيها دينهم. لكن ما يحرك الجماهيرَ ويؤثر عليها، لا بد أن يكون شيئًا محسوسًا أكثر من الدين، وأوضح منه؛ ففي معظم البلدان، للاعتقادات الشائعةِ والعاداتِ صبغةٌ شبه دينيةٍ، مثل الزواج والوفاة وغير ذلك، أما عند النصيرية، فالنساء والأطفال يبقون دون دينٍ.

تختلف نظرة النصيرية للمرأة كثيرًا عن نظرة الدروز لها، فمن الممكن أن تتعلم المرأة الدرزية أكبر أسرار الدين، في حين يُستثنى من ذلك معظم الرجال الدروز، أما المرأة النصيرية، فهي مستثناةٌ من المشاركة في التعليم والشعائر والأدعية الدينية. وليس السبب ذلك ميلُ المرأة إلى إفشاء الأسرار، بل لأن النصيرية يعتقدون أن المرأة نجسةٌ[I]؛ وتُروى كثيرٌ من القصص عن إبداعاتهن في المكر، وعن خيانة النساء في زمننا الحاضر. ويروي هذه القصص رجالٌ، لا يدركون أن طريقتهم في التعامل مع النساء، واحتقارهم لهن، جعلا حالهن على ما هي عليه من سوءٍ. يعتقد النصيرية أن روح الحيوان ربما كانت روح إنسانٍ شريرٍ في حياةٍ سابقةٍ، وبالطريقة نفسها، يعتقدون أنه يمكن أن يعاقَبَ الرجلُ على ذنوبه في جيلٍ سابقٍ، بأن يُخلق بهيئة امرأةٍ في حياةٍ لاحقةٍ. ويبقى للمرأة أملٌ في أن تعود للعالم بهيئة رجلٍ، وتصبح من المتنورين، وتتعرف على الأسرار، إذا قامت بواجباتها التي تَقدِرُ على عملها بفضلٍ وصلاحٍ. لا يستطيع أحدٌ البقاء دون أي نوعٍ من أنواع الدين، والمرأة بطبعها تميل إلى الدين أكثر من الرجل؛ ولذلك تخاف المرأة النصيرية -وربما أكثر من الرجل- من أن تَجلب على نفسها غضبَ أكثر من تخشى، وهم أولياءُ الأزمنة السابقة أصحاب القبور والمزارات المنتشرة في جميع أرجاء الجبال.

ويدفعني ذلك للحديث عن المزارات، فمن المعقول التكلم عنها في بداية الفصل الذي يتحدث عن عادات النصيرية؛ لأنه من بين كل الأشياء التي تؤثر فيهم، تحظى المزارات بأكبر تأثير عمليٍ، ودينيٍ، وغيبيٍ؛ فهم يرجون الخيرَ منها، ويخشون غضبها.

تعني كلمة "الزيارة" عملية الزيارة، كما تستخدم للدلالة على مكان الزيارة حيث توجد أضرحة رجالٍ كان لهم مكانةٌ مرموقةٌ عند النصيرية. تنتشر هذه القبور عادةً في أماكنَ بارزةٍ للعيان مثل أعالي قمم التلال، أو وسط أحراج البلوط دائم الخضرة. ومن المدهش أن تذكرنا تلك الأضرحة بعبادات الكنعانيين القدماء فوق كل مرتفعٍ، وتحت كل شجرةٍ خضراء. ومما لا شك فيه أن تلك الأحراج غابرةٌ في القدم، وربما كانت موجودةً منذ زمن الكنعانيين. معظم القبور وهميةٌ، فعلى سبيل المثال، يوجد بستانٌ على بعد ربع ميلٍ غرب القرية التي أعيش فيها، وفيه 16 قبرًا صغيرًا، ومن حولهم حائطٌ عاديٌّ، وقد رأيت هناك ثعابينَ، وهذه دلالةٌ على تلك الحية القديمة[II] التي ما زالت تخدع جبالَ النصيرية المظلمة، حيث أنشأتْ سلطانَها من الجهل، وسفك الدماء، وارتكاب كل الأعمال الشيطانية. وبالقرب منها قريةٌ مهجورةٌ كان يسكن فيها قومٌ من عشيرة القراطلة، وهم مالكو المنطقة السابقون. دون شكٍ، تلك قبور سكان القرية القدامى، واليوم يعدّونهم قبور مشايخ أتوا من بانياس؛ فسموهم قبور "البانواسية". وبالنسبة إلى سكان قريتي، تُعد

[I] يقول أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني: "إن الله خلق النساء من معصية إبليس". كتاب "المسائل الموسوم بالدلائل"، السؤال رقم 126. المترجم

[II] الحية القديمة رمزٌ للشيطان والشر: "وَأُلقِيَ التِّنِّينُ الضَّخمُ إلَى الأسفَلِ، وَهُوَ تِلكَ الحَيَّةُ القَدِيمَةُ الَّتِي تُدعَى إبلِيسَ أوِ الشَّيطانَ، وَالَّتِي تُضَلِّلُ كُلَّ ساكِنِي الأرْضِ"، (رؤيا يوحنا، 12: 9). المترجم

هذه القبور مثل ييناتس[I]، فهم يزورونها في المناسبات الكبيرة، ويحلفون بها أيمانًا مغلظةً: "بالبانواسية والستة عشر قبرًا"، وهذا قَسَمٌ شائعٌ وطويلٌ. وعلى بعد ميلٍ واحدٍ شرق القرية توجد سنديانةٌ نفضيةٌ[II] كبيرةٌ، وتحتها قبرٌ مشهورٌ للشيخ بدر الحلبي، ويعتقد السكان أن للقبر قدرةٌ على علاج أصحاب النظر السيئ، وإعادة البصر للأعمى. وأتى إليَّ كثيرٌ من الناس لعلاج الرمد، وقد وجدت عليهم آثارًا تدل على زيارتهم لذلك القبر، فجباههم ملطخةٌ بالتراب، وأوراق السنديان عالقةٌ على لباس الرأس. عندما أقول إن للقبر مقدرةٌ على شفاء الناس، أعني روحَ من دُفن فيه، التي يفترض أن تكون في القبر، أو قريبةً منه، لتتمكن من سماع ما يحدث عنده. وأحيانًا يكون الرجل الصالح في إجازةٍ، ولذلك يُعدّ يوم الجمعة أفضل يومٍ للزيارة، ويقال إنه في هذا اليوم يبقى جميع الأنبياء في أماكنهم. في إحدى المرات وجب عليَّ وصف علاجٍ لشخصٍ يعاني من التهابٍ أدى إلى تيبسٍ في العضلات، وبدا كأنه يشارف على الموت، فوضعت لصقةً على بطنه بعد تنظيفه، وفي أثناء ذلك لاحظت وجود ترابٍ في المكان نفسه، مما أعاق عملي. تعافى الرجل، ويؤسفني أن أقول إن تراب المزار كان له فضلٌ أكبر من اللصقة.

في أحد الأيام، كنت عائدًا للبيت مع حلول المساء، فرأيت كرةً ناريةً زرقاء كبيرةً، تنزل ببطءٍ فوق أشجار البانواسية، وكان خادمي النصيري هناك، فتوجهت نحوه، وسألته فيما إذا كان قد شاهد شيئًا ما، فأجاب بالنفي، وصمت قليلًا ثم قال: "هذه الشجرات مباركةٌ، ولذلك تهبط الأنوار عليها، ولا يرى ذلك أحدٌ سوى المشايخ، وأمثالك من الناس". من الأقوال الشائعة أن النار تنزل على الأماكن المقدسة لتدل عليها وتباركها. وقد حصلت أحداثٌ للتأكيد على إيمان الناس بحرمةِ أشجار البانواسية. ومنذ عدة سنواتٍ، أُقيمَ معسكرٌ في مكانٍ قريبٍ، وتجرأ أحد الجنود بالصعود على إحدى الشجرات، فوقع ومات، وقَبْره ليس ببعيدٍ. أعرف فتىً صغيرًا مسكينًا تسلق إحدى الشجرات لجمع ثمار الخروب، فتمزقت فخده تمزقًا كبيرًا، أدى إلى وفاته بالكزاز بعد أسبوعين.

تتألف المزارات، إن كان لها أي نفعٍ، من غرفةٍ مربعةٍ لها بابٌ، وفوقها قبةٌ. تُطَيَّنُ المزارات وتُطلى بالكلس الأبيض؛ لتبقى باديةً للعيان، ولكي تُذكرنا بوضوحٍ بما ذكَره مخلصنا[III] عن القبور المطلية بالبياض[IV]. ما يزال الناس يبنون أضرحةً للأنبياء الذين قتلهم أباؤهم؛ ففي قرية القرداحة يوجد قبرٌ لكاهنٍ مسيحيٍ، قتلوه ورموا جثته في البئر منذ جيلٍ أو جيلين؛ وقيل إنهم وجدوا جثمانه معلقًا في منتصف البئر بأُعجوبةٍ، وإن النورَ يضيءُ قبره كل مساءٍ.

منذ عدة سنواتٍ عانى أهل قضاء المهالبة كثيرًا في أثناء بنائهم لمزار له أربعة قبابٍ للنبي الوهاب، بسبب سوء حظ المهالبة الذي لازمهم في السنوات الأخيرة، فضاقوا ذرعًا بالولي، وقالوا لا بد وأنه مسيحيٌّ، مع أنهم قالوا في البداية إن سره قد ظهرَ، وإنه صاحب كراماتٍ، وبدأوا فيما بعد بالسخرية منه. ويجب عليَّ أن أوضح أن المقصود بالسر نورٌ أو إشارةٌ أخرى، تدل على مكانٍ مقدسٍ أو قبرٍ.

ويتصل بكل مزارٍ بيتٌ يعيش فيه خادم المزار، وربما تجد غرفةً يبات فيها عدة أيامٍ المرضى طالبو العلاج. وفي داخل الضريح وفوق القبر تابوتٌ خشبيٌّ، عليه قماشةٌ خضراء، تُقَطَّع منها شرائط، وتُوَزّع على الزوار، فتصبح تمائمَ، يلفونها حول رقابهم. وفي أحد الأيام لدى وصولي إلى البيت عائدًا من المدينة، سمعت بحدوث قلاقل في المدرسة، فقد كان أحد الطلاب يضع شريطًا أخضر على رقبته، فمزقه طالبٌ آخر من الذين أصبحوا مدركين تلك السخافات، ولإظهار مدى ازدرائه للشريط؛ وضعه حول رقبة كلبي. بالطبع، ما كان عليَّ أن أسمح بهذا، لكن أصدقائي المسيحيين، وآخرين يعيشون في أرجاء الجبال المختلفة، ما زالوا يرْوون كيف أمَرتُ بفعل ذلك.

[I] آلهة المنازل عند الرومان. المترجم

[II] تتساقط أوراقها فصليًا؛ ليست دائمة الخضرة. المترجم

[III] يقصد النبي عيسى عليه السلام. المترجم

[IV] يلمح المؤلف إلى: "وَيلٌ لَكُمْ أيُّها الفرِّيسِيُّونَ وَمُعَلِّمو الشَّرِيعَةِ المُراءُونَ. فَأنتُمْ مِثلُ القُبُورِ المَطلِيَّةِ بِالبَياضِ. فَهيَ تَبدُو جَمِيلَةً مِنَ الخارِجِ، أمّا في الدّاخِلِ فَهِيَ مَلِيئَةٌ بِالعِظامِ وَبِكُلِّ أنواعِ النَّجاسَةِ"، إنجيل متى (23: 27). المترجم

عَمَّرت فوق بيتي مداخن أعلاها مستديرٌ، فأصبحت تشبه قباب المزارات قليلًا، فدُهِشَت لرؤيتها امرأةٌ قدمت من أعالي الجبال، كما دُهِشَتْ لرؤية منزلي، فظنته مزارًا، وبدأت تُرسل سلاماتها قائلةً: "ساعدني أيها المزار". دُهش سكان القرية من جهلها؛ مع أنهم ليسوا بأفهم منها.

أهم المزارات في جبال النصيرية من الشمال إلى الجنوب: النبي يونس، والنبي متى، والنبي روبيل، والأربعين، وجعفر الطيار، وأحمد قرفيص.

للنبي يونس عدة قبورٍ في المشرق، أحدهم في نينوى[I]؛ ويقع قبرٌ آخر على إحدى أعلى القمم في أقصى شمال جبال النصيرية. يعيش الشيخ أو خادم المزار في بيتٍ أسفل المنحدر الذي بُني القبر فوقه، وهو رجل لافتٌ للنظر، همجيٌّ لكنه فطنٌ، مع أنه يعيش في عزلةٍ. عند زيارتي له، استقبلني بحفاوةٍ، وأعطاني وجبةً من العسل، والزبدة، وما شابه. على مرمى النظر جنوبًا، نرى قمة النبي متى الذي أبى أن يُبنى قبرٌ فوقه، فقد دَمَّرَ ما شُيد فوقه مرتين، كما يقول الناس هنا، بدلًا من أن يقولوا إن الدمار حدث بسبب الرياح الشرقية التي تهب من سهول ما بين النهرين.

وجنوبًا نجد قبر النبي روبيل متربعًا على قمة تلةٍ مخروطيةٍ بارزةٍ، بالقرب من قرية عين التينة. كان الشيخ كبيرًا في السن وضعيفًا، وتوحي تصرفاته بأنه معتادٌ على استقبال عظماء العالم، وربما اكتسب ذلك من مركزه الحيوي، وتعامله مع الناس. وقد وجدت شيوخًا نصيريةً ممن يملكون لمسة احترامٍ صغيرةٍ، وفي الحقيقة الإحساس بالتفوق والنفوذ يُظهران تلك اللمسة؛ ولو كانت الأمة همجيةً. وكان له ابنٌ فطنٌ، وتواقٌ لتعلم الأرقام؛ ليتمكن من قراءة التواريخ.

وإلى الجنوب تبرز تلةٌ أُخرى، وهي جبل الأربعين الذي يقع خلف قريتي في الطرف الشمالي. حصلت قلاقل بين سادة المزارات[II]، عندما بدأت أتكلم علنًا بأمور الدين في الجبال؛ وأكد لي شيخٌ موثوقٌ بكلامه أنهم اجتمعوا للتشاور في هذا الأمر على تلك التلة التي اهتزت لحضورهم.

ويليه في الأهمية، وخصوصًا في منطقتي، مقام جعفر الطيار، الملك والسلطان[III]. جعفر أخو عليٍّ، وقد قُتل مع قائدين آخرَين[IV] في غزوة مؤتة التي كانت أول معركةٍ مع الروم. نادرًا ما يغفل الكلبية عن ذكر اسمه، ويحلفون باسمه مئات المرات يوميًا في المناسبات الكبيرة والصغيرة. وما من كلمةٍ أصبحت مألوفة عندي مثل اسمه. يتوسلون إليه عند البلية، ويعدّونه صديق منطقتنا وسندها. وفي أثناء الصدامات، رأيت نساءً يقفن خارج بيوتهن، ويتوجهن إلى مزاره قائلاتٍ: "ساعدنا يا سلطان، خذ مني كذا وكذا، مقابل مساعدتي"، وهو نذرٌ يوفى في وقتٍ لاحقٍ. كان الراحلُ الشيخُ حبيب الزعيمُ الكبيُر للنصيرية، ناظرَ أوقافِ جعفر الطيار، بمعنى أنه القيّمُ على أملاك المزار، فقد كان من المعتاد أن ينذر الناس بعض أملاكهم للمزارات، وخصوصًا مزار السلطان، وتستخدم عائدات الوقف، سواءً أقطعة أرضٍ كانت أم بيتًا، في مساعدة خدام المزارات، وتقديم الولائم، والضيافة. ولذلك كان الشيخ حبيب ميسور الحال، وبعد وفاته انتقل المنصب لابنه منذ عامٍ أو عامين. ويتناقل الناس قصصه الرائعة، ومنها قصة إحضاره الماء بأعجوبةٍ، بعد نفادها في وليمة جنازة أبيه. أخبرني الخادم النصيري أن أباه كان ثقيلًا وبليدًا، وأن احتساء العرق سرَّع في موته.

بدأت رحلتي من منزلي إلى المزار قبل الغروب. وانضم إلينا في الطريق رجلٌ أتى من قريةٍ في أعالي الجبال، وعند صعودنا إحدى التلال بدا لنا المزارُ، فحيَّاه الرجل من بعيدٍ. وعند اقترابنا من الحجارة التي تحيط به، حيّاهُ مرةً أُخرى. السمقتة ومركية قريتا مشايخ[V]، يعيش سكانهما على الصدقات التي تُعطى للمزار، ويلقِّبون أنفسهم بكلاب السلطان؛ ليبرروا مطالبتهم بالصدقات. ينتمي سكانهما إلى الطائفة الشمسية، ويحظى سكان السمقتة بثلثي الصدقات، بينما

[I] أصبح اسمها اليوم الموصل، وتقع شمال العراق. وله قبرٌ آخر في بلدة كفرا التي تقع في منطقة بنت جبيل في لبنان. المترجم

[II] يقصد الأشخاص المدفونين فيها. المترجم

[III] المزار المقصود يسمى "مقامات بني هاشم"، ويحتوي على مزارٍ لجعفر الطيار، ومزارٍ ثانٍ لعمه حمزة وأخويه طالب وعقيل، ومزارٍ ثالثٍ لعبده، أما ما يسمى "مزار جعفر الطيار" فهو في جبال البسيط شمال مدينة اللاذقية. المترجم

[IV] زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة. المترجم

[V] مشايخ المزارات. المترجم

يذهب الثلث الباقي لأهالي قرية مركية. شيخ قرية مركية اسمه أحمدٌ، وهو رجلٌ مستقلٌ، ومهذبٌ، ومضيافٌ. يتشابه مشايخ المزارات في المظهر، فكلهم قذرون، وجوههم كئيبةٌ، وأُنوفهم معقوفةٌ، ويلبسون عمائم بيضاء متسخةً.

لا يوجد شيء مدهشٌ في المزار، إذ يحتوي على ثلاث غرفٍ يحيط بها من الشرق حائطٌ منخفضٌ. الغرفة الشمالية مربعةٌ وصغيرةٌ، ولها سقفٌ منخفضٌ ومقوسٌ، وفيها قبرٌ صغيرٌ. بالقرب من طرف الرأس توجد فتحةٌ لتمكين الزوار من أخذ التراب لأجل المرضى، وهذه الفتحة موجودةٌ في الغرف الأُخرى أيضًا. وتوجد فتحةٌ في الحائط الشمالي والحائط الغربي، ومحرابٌ في الحائط الجنوبي. ويقال إنه قبر عبد السلطان[I]. الغرفة الوسطى مشابهةٌ للغرفة الشمالية، ويوجد غطاءٌ خشبيٌ فوق القبر المغطى بقماشةٍ خضراء مطرزةٍ برسمٍ أو رسمين للمثلثين المزدوجين[II]. الغرفة الثالثة أكبر، ويستند سقفها إلى عمودٍ في منتصفها، وأرضها رطبةٌ وقذرةٌ. وتخص هذه الغرفة آل عبد المطلب جد محمدٍ ﷺ[III]، ومن المعتاد أن يَحلف النصيرية بآل بيته. بنى الشيخ حبيب الغرفتين الجانبيتين، وفي أثناء ذلك كان يعيش في الجبال، ويبالغ في كرم الضيافة. وقال الشيخ أحمد إن الغرفة الوسطى بُنيت في عهد المعز بن صالح[IV]. زحزح الرجل الذي رافقني كومة الحجارة التي ترسم حدود حرمة المزار، وكان جادًا في أخذ التراب والبخور وقطعة قماشٍ خضراء لابنه الصغير المريض، وفي الماضي نذر عجلًا إن شُفي ولده.

آخر مزارات الفلاحين[V] المهمة وأفضلها من ناحية البناء هو مقام أحمد قرفيص الملقب بأبي عليّ، ومع إضافة اللقب يصبح اسمه مع اللقب القَسَمَ المفضلَ لزوجة المقدم[VI]. سُمِّي قرفيص لأنه "قرفص" بمعنى كسى الطرق بالجليد، وجعلها زلقةً. يقع مزاره على أحد نتوءات الجبل جنوب قلعة المرقب، ويُقال إن جَدَّ الكلبية وزعيمهم بنى المزار عندما وصلوا إلى الجبال قادمين من الشرق[VII]. يشبه المزار مساجد القاهرة الصغيرة، فهو مطليٌ بخطوطٍ حمراءَ مثل بعض مساجدها.

ويوجد مزارٌ آخر يستحق الوصف، يقع بين منطقتنا وقرية البودي خلف التلة التي تحد منطقتنا من الجنوب، وهو كهف السيدة مريم العذراء. عندما زرته، وجدت بعض الأشجار والمياه الراكدة، وتاجَي عمودين من النظام الأيوني[VIII]، ويبدو أنهما كانا جزءًا من معبدٍ قديمٍ في السابق، ولابد أن يكون القبر أحدهما. يوجد زيتٌ، ونورٌ عجيبٌ يراه الناس أحيانًا. يقول بعضهم إنها تضيئُ يوميًا، ويقول آخرون إنها تضيئُ في عيد الصليب فقط. يقدس المسيحيون هذا المكان، كما يقدسون مزار النبي يونس، وجعفر الطيار، وأحمد قرفيص الذي يعدّونه قبرًا لشخصٍ اسمه يوحنا. وليس غريبًا في بلاد الشام أن تقدس طائفةٌ ما تقدسه طوائف أُخرى، وكذلك في مصر، حيث يحتفل الفلاحون بعيد شخصيةٍ قبطيةٍ خرافيةٍ[IX]، حسب ما قال لاين[X]. وبالطريقة نفسها يقدس النصيرية الخضر الذي يسميه المسيحيون مار إلياس، أو مار جرجس. ولذلك نراهم ينذرون في أوقات الشدة مبالغَ ماليةً أو شيئًا يمتلكونه إلى دير مار جرجس القريب من قلعة الحصن، وقد زرته في أثناء رحلتي الأولى إلى شمال بلاد الشام[XI]. وفي يومٍ معينٍ من كل سنةٍ، يجمع مندوب الدير

[I] يقصد السلطان جعفر الطيار، وعلى جدار الغرفة لافتةٌ مكتوبٌ عليها "عبد الملك". المترجم

[II] غرفة جعفر الطيار. المترجم

[III] غرفة حمزة (عم جعفر الطيار)، وعم أخويه طالب وعقيل. المترجم

[IV] لا بد أن يكون المقصود معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس، أحد أمراء الدولة المرداسية، توفي سنة 1062 ميلادية. المترجم

[V] يقصد النصيرية. المترجم

[VI] الزعيم. المترجم

[VII] توفي العماد أبو الحسين أحمد بن جابر بن جبلة بن أبي العريض البانياسي الغساني، المعروف بأحمد قرفيص سنة 1214 ميلادية، ويقال إن مقامه بناه المقدم أحمد بن مخلوف، وولده مهنا، ويقال أيضًا إن زيارة مقامه تشفي من وجع الأسنان. ألف رسالةً صغيرةً اسمها "القرفاصية" أو "رسالة العماد الغساني" المترجم

[VIII] نظام عمارة كلاسيكي. المترجم

[IX] ليس شخصيةً قبطيةً، بل هو النبي أيوب، ويحتفل المسيحيون، وبعض المسلمين في مصر وسوريا ولبنان بما يسمى "أربعاء أيوب" بالاغتسال في البحر، وهو يوم الأربعاء الذي يسبق عيد الفصح. المترجم

[X] "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الثاني، ص 254.

[XI] "النصيرية والإسماعيليّة"، صموئيل لايد، ص 252.

النذورات من الدخن أو الحنطة، وقد باعني بعضها في أثناء مروري هناك، ثم أخبر الناس أنه تحادث معي في أُمور الدين، وتبين له أن الإنجليز بلا دينٍ، وليس عندهم كنائس، وهم السوء بعينه. أخبرني الخادم النصيري أنه نذر قرشًا في السنة للدير المذكور، وسألني فيما إذا كان ينبغي له دفع النذر كونه قد كبر.

الخوف من المزارات هو الدافع الأساسي الذي تستخدمه الشخصيات الدينية للتأثير في النصيرية. يُقْسمون بالله كذبًا، ولكنهم يخافون من النكث بوعدهم إذا ما أقسموا بأصحاب المزارات، وخصوصًا الكبار منهم، ويتناقلون قصصًا عن المآسي التي حلت بمن فعل ذلك. وعندما أحاججهم بقصةٍ مشابهةٍ وهي قصة استنكار محمد ﷺ ما فعله العرب في زمانه، يجيبونني بأن الله يسامح، لكن المزارات لا تسامح. وعندما أضغط عليهم في الكلام؛ يقولون إن سادة المزارات لا يملكون القدرة، لكن الله تقبَّلَهُم، ويسمع دعوات تَشَفُّعِهم، وسيعاقب كل من يسيء إليهم. وهم يحتلون نفس مكانة القديسين ومريم العذراء عند المسيحيين. الأراضي الواقعة في حرمة المزارات آمنةٌ، وعادةً ما تُترك عليها حمولاتٌ من الخشب، وقواطع المحراث، وآلات درس الحنطة. ويضعون فيها أوانٍ فخاريةً تحتوي على بخورٍ.

يذهب النصيرية عادةً إلى المزارات في الأعياد التي سأتكلم عنها الآن.

عيد القوزلة من أكثر الأعياد التي يسمع بها المرء ويراها، ولذلك سأبدأ بالحديث عنه أولًا، مع أن عيدَ النوروز أهمُ أعيادهم الدينية. أخذوا عيد القوزلة عن المسيحيين، كما أخذوا النوروز عن الفرس، وأخذوا أعيادًا أُخرى عن المسلمين.

يحتفلون به يوم رأس السنة، حسب التاريخ القديم[1]، وما يزال مسيحية المشرق -الذين لم يرتبطوا بكنيسة روما- يعتمدون هذا التاريخ. وهو الحساب الذي يعتمده النصيرية في أُمورهم المدنية. وفي الشهر السابق لعيد القوزلة، يحتفلون بعيد البربارة بإشعال النار فوق سطوح منازلهم مساءً عند غروب الشمس؛ وبمناسبة ذكر كلمة مساء، عليَّ أن أُذكِّر القراء أن اليوم في الشرق يبدأ مع شروق الشمس.

وقبل الشروق يحضرون الحنطة بدقِّها في الهاون لإزالة قشرتها. ثم يقتلون طيرًا بضربه على الباب والحائط على جنبيه، وقد يضربونه على عتبة الباب أو عضديه، وهذا العمل تقليدٌ لعيد الفصح اليهودي، دون شكٍ. ثم يضعونه في إناءٍ، ويطهونه مع الحنطة، ليأكلوه عند الغروب. وقد تستمر بعض الأعياد مدة يومين، فيشاركون في الوليمة مرةً ثانيةً، وتسمى هذ الوجبة "هريسة". وبعد سبعة أو ثمانية أيامٍ، يأتي عيد الحلاوة الكبيرة، وسمي بهذا الاسم لأن الكعكة تتكون من طحينٍ ممزوجٍ بالتين، أو بعصير الخروب الحلو الذي يشبه دبس السكر، أو بعصير العنب. وبعد سبعة أيامٍ، يأتي عيد الحلاوة الثاني الذي لا يحتفل به جميع الناس.

وبعدها يأتي عيد القوزلة. أما عيد الميلاد في 25 ديسمبر، فليس عيدًا شائعًا عندهم، مع أن فضائل وقدسية يوم ميلاد عيسى مذكورةٌ في كتبهم.

وفي اليوم السابق لليلة عيد القوزلة يذبحون ويأكلون "دبيحة الحرام"، بمعنى أن يأتي كل شخصٍ بما سرق من ثيرانٍ، وجواميس، وماعزٍ من السهول، أو من أي مكانٍ، فيذبحونها ويتناولونها مع الأصدقاء المقربين. وفي ليلة عيد القوزلة يذبحون "دبيحة الحلال"، ويأكلون قسمًا منها، ويذبح جميع الناس بما فيهم أفقر البيوت، ولو جَدْيًا. وقد يتشارك عدة أشخاصٍ على ذبيحةٍ مكلفةٍ مثل الثور. وقبل ليلة القوزلة، يغسل جميع الناس ملابسهم، وفي منتصف الليل يذهبون إلى أحد المزارات؛ فسكان قريتي، على سبيل المثال، ذهبوا إلى مزار الأربعين في إحدى المناسبات، وكان الخادم النصيري معهم، ووصلوا عند بزوغ الفجر. يذهب الرجال والنساء والأطفال، ويدخلون إلى المزارات معًا، وبعد أخذ بعض التراب والبخور، يخرجون للدردشة ويتبادلون الأحاديث، ويقبلون بعضهم قائلين: "عيد مبارك عليك وعلى أقربائك كل سنة، أتمنى، يا جعفر الطيار، أن يكونوا في صحةٍ ويسرٍ". ويدمدم الرجال صلواتهم بسرعةٍ وغموضٍ في أثناء دخولهم إلى المزارات. وبعد عودتهم إلى القرية يتبادلون الزيارات، مبتدئين بزيارة الزعيم. وقد استقبلت زائرين

[1] رأس السنة الشرقية الذي يصادف 14 كانون الثاني. المترجم

في مناسباتٍ مثل تلك المناسبة، وكان الناس يلبسون أفضل ما عندهم، ويطبخون كعكًا من الحنطة، أو البرغل والبصل، ويصنعون خبزًا مدهونًا بالزيت يسمى "فطير".

وإذا كان بين الزوار رجالٌ يقدرون حلاوة الحياة، يذبح صاحب البيت طيورًا لإطعامهم. وإذا مات رجلٌ مهمٌ في السنة الماضية أو قبلها، يزور الناس قبره يوم عيد القوزلة. وفي الأيام الستة أو السبعة التالية، يتبادلون الزيارات، ويأكلون اللحم، ويشربون العرق، ويزورون أصدقاءهم في قرىً أُخرى.

ينتهي موسم الأعياد بعيد الغطاس. وقد اشتُّقت الكلمة من "التغطيس"، وهي تشير إلى تغطيس المسيحيين الرومَ أنفسهَم في الماء في ذكرى معمودية سيدنا[I]. يُحَرِّفُ النصيرية الكلمة فتصبح "قداس"، وبعضهم يحتفل به لثلاثة أيامٍ، يقرأون خلالها القداس الأول، والقداس الثاني، والقداس الثالث، والمتدينون فقط يكملون جميع القداسات. وأهم الأعياد عندهم عيد الغطاس الذي يحتفلون به بعد رأس السنة الميلادية بستة أيامٍ. ويسمون القداس الثالث "قداس المسيحيين"، ولا يحضره إلا قلةٌ من الناس. في صبيحة يوم العيد، يذهب الرجال والنساء والأطفال إلى الينابيع والأنهار، ويغتسلون فيها، وبالطبع، أماكنُ النساء غير أماكن الرجال. يقول المسيحيون والنصيرون -الذين أخذو القول عن المسيحيين- إن الأشجار تنحني متعبدةً في عيد الغطاس، ومن يرى الأشجار في هذا الوضع، ينال ما طلبه من الله. ثم يأتون بحجارةٍ من الينابيع، ويضعونها فوق الأشجار؛ لكي تثمر، ويأخذون معهم أغصان زيتونٍ أو آسٍ، ويغطسونها في الماء، وبعد عودتهم، يضعونها في أوانٍ فيها ذُرةٌ أو ما شابه، ثم يضعون الأواني في زوايا البيت الأربعة؛ ويفعل المسيحيون الشيء نفسه.

يقول المقريزي[II] إن خلفاء مصر الفاطميين كانوا يحتفلون بعيد الميلاد، وعيد الغطاس، وكان المصريون يعتقدون أن مياه النيل، ليلة عيد الغطاس تشفي من الأمراض.

الأعياد التي ذكرتها أعيادٌ شعبيةٌ، يشارك فيها الرجال والنساء والأطفال، وهي أوقاتٌ للفرح أكثر من كونها مناسباتٍ دينيةً؛ وقد أخذوها عن المسيحيين. الأعياد التي سأتكلم عنها الآن لا تُذْكَر عادةً، ولكنها موجودةٌ في كتبهم، وهي التي تنعقد فيها الاجتماعات السرية للمشاركة في الأسرار. لن أذكرها بالكامل، لكنني سأعرض ترجمة تعليق كاتافاغو على كتاب "مجموع الأعياد" الموجود في أخر الكتاب.

أهم الأعياد عيد النوروز، وتعني بالفارسية "الاعتدال الربيعي[III]"، وفي الكتاب المذكور نجد بابًا في "عيد النوروز وهو اليوم الرابع من نيسان في كل سنةٍ[IV]"؛ مما يعني أن النصيرية يحتفلون به في الرابع من نيسان على الطريقة القديمة[V]، والخادم النصيري يسميه عيد الرابع من نيسان.

يقول المقريزي[VI] إن الخلفاء الفاطميين كانوا يحتفلون به، ويسمونه نوروز القبطي، وإذا كان النوروز نفسه الذي يحتفل به الأقباط اليوم، وهو، حسب لين[VII]، رأس السنة القبطية في العاشر أو الحادي عشر من سبتمبر، فهذا يعني أن القبط يحتفلون في يومٍ مختلفٍ بِعيدٍ، يحمل الاسم نفسه[VIII]. يقول المقريزي إن أول من احتفل بعيد النوروز،

[I] يشرح المؤلف معنى الغطاس لأن الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية تسميانه عيد الظهور، بمعنى ظهور الرب في النبي عيسى عليه السلام، وبالنسبة إلى أتباع الكنيستين المذكورتين، لا علاقة لمعمودية النبي عيسى عليه السلام وتغطيسه في نهر الأردن بهذا اليوم. المترجم

[II] "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، المقريزي، الجزء الأول، ص 490.

[III] كلمة نوروز مشتقة من كلمتين: "نو" وتعني الجديد، وكلمة "روز"، وتعني اليوم؛ بمعنى يوم رأس السنة، وهو أول يومٍ في السنة الفارسية، وقد كَتَبْتُ الكلمة كما لو كانت عربيةً.

[IV] "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848، ص 154.

[V] يقصد السنة الشرقية. المترجم

[VI] حيث ذكرت آنفًا.

[VII] "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الثاني، ص 268.

[VIII] يحتفل الأقباط بعيد رأس السنة القبطية في 11 سبتمبر، ويسمونه عيد النوروز، وهي كلمة قبطية تعني "أنهار"، وهو النوروز الذي تكلم عنه المقريزي في وصف مصر؛ ولا دخل له بعيد النوروز الفارسي. المترجم

جمشيد أحد ملوك الفرس الأوائل. وقال إن الكلمة تعني "جديد" بالعربية[I]. وقيل إنه اليوم الذي عاد لسليمان[II] فيه خاتمه، وجاءت الطيور بالماء في مناقيرها فرشته بين يدي سليمان، فاتخذه ملوك الفرس عيدًا، واتخذوا رش الماء فيه عادةً. يشير الكِتاب النصيري إلى شعائر رش الماء التي يمارسونها[III]، وذُكرت في المخطوطة (ص 132) أبيات شعرٍ عن النوروز تُقرأ، وفي يده قارئها كأس الخمر؛ وقد ذكر يوم النوروز في كتاب تعليم الديانة. وفي عيد النوروز وغيره من الأعياد الكبيرة تؤدى النذر بتقديم وليمةٍ في بيت أحد المشايخ؛ فأصبحت احتفالات الأعياد عند مشايخ معينين عادةً أو حقًّا لهم، فيحتفلون بعيد النوروز في بيت الشيخ محمود في قرية القرداحة. ويشارك في ولائم الطائفة القمرية جميع الناس، ولو كانوا مسيحيين، وقد سمعت بعض الرجال من الطائفة الشمسية يلومونهم على فعل ذلك، ويقولون بعدم السماح للنساء بأكل الذبائح.

وفي هذا العيد وغيره من الأعياد يأخذ المشايخُ البالغينَ الذي استلموا الدين إلى أماكنَ خاصةٍ في البيوت أو في العراء؛ ليقيموا صلواتهم المقدسة. آن الأوان الآن وللأبد أن ندحض كل ما قيل عن اجتماعات النصيرية الداعرة، رأينا كيف يجتمع الرجال والنساء والأطفال في أعيادهم الشعبية ليلًا؛ للذهاب إلى المزارات دون ارتكاب خطايا، وهذا التقليدُ تسبب على نحوٍ كبيرٍ في نشر القصص الباطلة عنهم.

وفي مناسباتٍ أُخرى يلتقي الرجال لوقتٍ قصيرٍ، ليتناولوا بعد ذلك الخمر المقدس، ومن الواضح عدم وجود زمانٍ ولا فرصةٍ لأي من تلك الأفعال الآثمة المنسوبة إليهم، وسأعد النقاش في هذا الموضوع قد انتهى للأبد، ولكنني أحب أن أضيف بأن أخلاقهم لا تختلف عن أخلاق المسيحيين الذين لا تأثير للدين فيهم. الإثم المروع الذي ينتشر عند مسلمي بلاد الشام هو القدوم لمشاهدة تلك الأفعال، والحديث عنها، دون استحياءٍ، وبالكاد نجد هذا التصرف عند النصيرية، ما عدا الذين أفسدتهُم علاقاتُهم مع أشخاصٍ مسلمين. ويلعن النصيرية المسلمين لارتكابهم هذه الجريمة الشنيعة.

يومُ الغديرِ أحد الأعياد الكبيرة التي سمع بها الخادم النصيري، وقد ذُكر في الكتب النصيرية؛ والغدير هو بركةُ الماءِ كتلك التي يتركها نهر النيل عندما تنحسر مياهه. وفي منطقتنا، يدير هذا العيد مشايخ قرية بيت ريحان، وتوجد مقولةٌ شائعةٌ: "ستعاقب بكل ما ذكر في عيد الغدير[IV]". حسب ما يعرفه الخادم النصيري، يأتي العيد في فصل الربيع، وربما يحددون وقت حلوله بالاستناد إلى تاريخ عيد النوروز[V]. وقد ذُكر هذا العيد في مخطوطتي[VI] باهتمامٍ بالغٍ، وارتبط ذِكره بعيد النوروز، وبعهدٍ على خدمة عليٍّ وطاعته، ويسمى هذا العهد بيعة الغدير[VII]، وقد ذكر على نحوٍ خاصٍ في "كتاب مجموع الأعياد"، وذكره المقريزي أيضًا.

عيد المهرجان عيدٌ فارسيٌ يصادف يوم الاعتدال الخريفي؛ وفي ذلك الوقت، اعتادت عائلةٌ من المشايخ الاحتفال بالعيد في السادس عشر من أكتوبر.

ويحتفلون بإجلالٍ كبيرٍ باليوم السابع عشر من آذار قبيل عيد النوروز، ويبتهلون فيه لعليٍّ أكثر من مرةٍ في المخطوطة[VIII]، بجاه السابع عشر من آذار، وقد ذُكر هذا اليوم في "كتاب مجموع الأعياد" مع الصلاة الخاصة به[IX].

[I] روى المقريزي عن علي بن حمزة الأصفهاني قوله: "ومعنى النوروز اليوم الجديد". المترجم

[II] النبي سليمان. المترجم

[III] راجع ترجمة "ذكر يوم النوروز" في الفصل العاشر.

[IV] ربما يقصدون الدعوات على الكفار بالعذاب، والتي وردت في خطبة عيد الغدير: "فويلهم مما يلاقونه من المسوخية، وحسبهم مما استحقوا من ذبحهم في النسوخية، وما عاينوه من فسخ أرواحهم في قمص البشرية، فتعسًا لهم وما يكونون فيه من القاذورية، وما يحل بهم في سبكهم بالرسوخية، يسرمد عليهم العذاب سرمدًا ويحل ذلك بهم أبدًا ......". المترجم

[V] يوم الغدير 18 ذو الحجة. المترجم

[VI] المخطوطة، ص 132.

[VII] المخطوطة، ص 105.

[VIII] المخطوطة، ص 106، 147.

[IX] المجلة الآسيوية، فبراير 1848، ص 168.

وقد سمعهم الخادم النصيري يتكلمون عن ذلك اليوم مرارًا بقولهم: "ستأكل ضربة الكنز والجدار و17 آذار"، وهذا كلامٌ سجعيٌ، موجودٌ في المخطوطة[I]، والجدار المشار إليه مذكورٌ في القرآن (السورة رقم 18)[II].

وعندهم أعيادٌ أُخرى يتبعون فيها المواقيت المحمدية، فهي أعيادٌ يحتفل بها المسلمون، وأخذها النصيرية عنهم. ومن هذه الأعياد يوم عاشوراء في العاشر من شهر محرم، الذي يحتفل به، على الأخص، المسلمون الفرس في ذكرى مقتل الحسين[III] الذي حصل في ذلك اليوم. ونجد في كتاب "مجموع الأعياد" دعاءَ النصف من شعبان، وهو الشهر الثامن في السنة المحمدية، "يحيي المسلمون تلك الليلة بإجلالٍ كبيرٍ، لان فيها يُكتب قدرُ كل إنسانٍ حيٍ للسنة القادمة[IV]"، وهو آخر يومٍ في السنة الخصيبية (السنة النصيرية). وقد ذُكر عيد الفطر في كتاب "مجموع الأعياد"، وهو اليوم الأول من الأيام الثلاثة للعيد الصغير الذي يحتفل به المسلمون بعد رمضان. وكذلك عيد الأضحى، وهو عيد الأضحية الذي يحتفل به المسلمون في أول يومٍ من الأيام الثلاثة للعيد الكبير في اليوم العاشر من الشهر الأخير[V] من سَنَتِهم. وقد سمعهم الخادم النصيري يتكلمون عنه باسمه الثاني "الضحية".

من المعتاد التصدق على الفقراء في الأعياد كما هو متوقعٌ. في إحدى المرات علمت أن المشايخ أخطأوا في حساب تاريخ عيد البربارة، فانتقل الخطأ إلى الأعياد التي تليه، وفي الجبال جنوبًا أشعلوا النيران قبل العيد بيومٍ واحدٍ.

تحدثت كثيرًا مع الناس عن صوم رمضان، وأخبروني الحقيقة في بعض الأحيان، وهي أنه ليس أمرًا مُهمًا؛ وقالوا لي مرةً إن المشايخ تصوم، وكان بعضهم ممن يتصرفون كالمسلمين يصومون في بعض الأحيان. ونحن رأينا أن تأويل الفروض المحمدية بعيدًا عن معناها، يدخل في صميم منهج الفرق السرية؛ ويفسر النصيرية شهر رمضان تفسيرًا مجازيًا[VI]، ويشخصونه[VII] كما يشخصون الصلاة والزكاة. ووجدت في المخطوطة العبارة التالية: "بحق شهر الصيام، وبحق أشخاصه"، وكذلك نجد أن دعاء رمضان في كتاب "مجموع الأعياد" يتوافق مع نفس وجهة النظر المتعلقة بالصوم. حاول المشايخ في السابق حث الناس على الصوم لوقتٍ قصيرٍ، وحسب ما أخبرني به خادمي النصيري، كانت مدة الصوم سبعة أيامٍ، وحدث ذلك منذ عدة سنواتٍ؛ لكن النصيرية لا يستطيعون احتمال الصوم، ولم يتمكنوا من الحفاظ على صيامهم المفروض.

سأنتقل الآن للحديث عن عادات النصيرية في الختان، والزواج، والوفاة.

تُجرى عمليات الختان للذكر عند يبلغ عمره خمسة أو ستة أعوامٍ، أما في مصر فيؤخرونها حتى يبلغ العمر 12 أو 13 أو 14 سنةً[VIII]. لا يوجد شيءٌ خاصٌ بطريقة احتفالهم بهذه المناسبة التي يتبعون فيها ما يفعله المسلمون. وقد

[I] المخطوطة، ص 106.

[II] "وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82)" سورة الكهف، الآية رقم 82. وفي شروحاتهم الخاصة: "الكنز علم الباطن، والجدار علم الظاهر"، "رسالة الجوهرية"، أبو الحسين محمد بن عليّ الجليّ. المترجم.

[III] يصوم المسلمون يوم عاشوراء لأن الرسول أمر بصومه لأنه اليوم الذي نجّى الله فيه موسى من الغرق، وقد صادف بعد سنواتٍ أن قُتل الحسين في العاشر من محرم؛ فاتخذه الشيعة يومًا للعزاء، وصوم يوم عاشوراء مكروهٌ عند الشيعة. المترجم

[IV] "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الثاني، ص 229. {إعتقاد القلة القليلة. المترجم}

[V] ذو الحجة. المترجم

[VI] "فشهر رمضان هو عبد الله بن عبد المطلب، والصوم فيه هو لزوم التقية، والصمت الذي أظهره فيه عبد الله، لذلك صار الصوم أصله الصمت، وهو لزوم التقية، والصمت هو عدم دفع العلم إلا لمستحقه، وعدم إذاعته بين غير أهله"، "الرسالة المصرية"، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسن البغدادي المهلهلي. المترجم

[VII] أشخاص أيام شهر رمضان ثلاثون: أولاد السيد محمد، القاسم والطاهر .....، وأولاد أبي طالب، طالب وعقيل ... وأيتام السيد محمد، أبو سفيان وجعفر .... وأيتام السيد سلمان ....، أما أشخاص لياليه فهن ثلاثون امرأة: آمنة بنت وهب .... "الرسالة المصرية"، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسن البغدادي المهلهلي. المترجم

[VIII] "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الأول، ص 82.

حضرت واحدةً من تلك المناسبات[I] التي استمرت يومًا أو يومين، ولأن مظاهر الفرح في الختان والزواج لا تختلف كثيراً، سأترك وصفها إلى ما بعد وصف شعائر الزواج. ولكن يجب أن أقول أولًا إن النصيرية يسمون الختان "التطهير".

يعتقد الشرقيون وخصوصًا النصيرية أن الزواج أمرٌ لا غنى عنه، مع أني سمعت أن أحد المشايخ -وهو أخو الشيخ حبيب- كان عَزَبًا، ويحتقر العالم، وكانوا يحترمونه.

ومهما يكن، فمن العار أن تبقى عَزَبًا دون زواجٍ، ويتزوج النصيرية في عمرٍ مبكرٍ؛ إذ تتزوج البنت حين يبلغ عمرها 11 أو 12 عامًا، ويحثون الصبية على الزواج قبلَ أن تنبت لحاهم. يبلغ عمر الخادم النصيري سبعة عشر أو ثمانية عشر عامًا، ولولا أنه مواظب على الدوام في مدرستي، لكان متزوجًا الآن، مع أن مظهره مظهر ولدٍ. لا تتحجب نساء النصيرية، ما يتيح الفرصة لشبابهم لرؤية واختيار البنت التي يريدونها.

وعندما يعجب شابٌ بإحدى الفتيات، يتكلم مع أهلها، ويتفقون على مبلغٍ يُدفع لأبيها، يتراوح بين خمسمئة وخمسة آلاف قرشٍ، أو من 4 إلى 50 جنيهًا إسترلينيًا[II]، حسب مقام عائلة الفتاة، وتحصل منه الفتاةُ على 100 قرشٍ، ويسمون ذلك "دم الرقبة"، ويعطيها أبوها ما يريدُ، وإذا كانوا من الأغنياء؛ تأخذ العروس معها في موكبها إلى بيت العريس عدة الفراش وصندوقًا. لكن المبلغ الصغير الذي يعاد إلى الفتاة من مهرها، والطريقة التي تتم فيها العملية برمتها، تفتح الباب لاتهام النصيرية ببيع بناتهم. ويسمون المبلغ الذي يعطونه للبنت "برطيل" (رشوة). وأحيانًا تُنذر البنت إلى أحد المزارات، فيقيم الناذر وليمةً، ويتفقون على السعر أمام الشيخ الذي يحصل على المبلغ، فيعطي جزءًا منه إلى الأب، ويحتفظ الشيخ بجزءٍ من المبلغ كصدقةٍ، وينفق الباقي على الطعام. وإذا نُذر نصف البنت فقط، يسدد الأب النصف الباقي إلى شيخ المزار المعني؛ وهم لا يكتبون عقدًا ولا يدفعون مبالغ كفالةٍ. وبعد الخطبة يستطيع العريس المطالبة بالبنت حين يشاء. وحين يحين موعد الاحتفال، يقيم العريس الولائم في منزله قبل المناسبة بيومين أو أربعة أيامٍ، لكي يتمكن من أخذ الفتاة في يوم "وَتْرِيّ"[III]، ويجتمع أصدقاؤه في الأمسية الأولى للرقص فقط، ويوقدون نارًا، ويبقيها الصبيانُ وغيرُهم موقدةً، ويتجمع الشبان والشابات على شكل حلقةٍ ممسكين أيادي بعضهم بعضًا، ويرقصون حول النار من اليسار إلى اليمين. وبعد ضرب الأرض برجلهم في مكانين، يثبون وثبةً صغيرةً إلى اليمين، ويكررون ذلك، وينشدون لحنًا مناسبًا. ويحضر عازف مزمارٍ في تلك المناسبات؛ ويعيش عازف مزمارٍ أعمى في حينا، عنده مزمارٌ مزدوجٌ، مصنوع من العظم، وعزفه ليس سيئًا؛ وكان يُعَلِّم الأولاد الذين يراد إدخالهم في الدين، وتُعطى له الهدايا في الأعياد، وينادي أسماء الأشخاص عندما يعطونه البقشيش. ويأتي الغجر الذين يسمونهم "قرباط" بطبولهم ومزاميرهم للمساعدة.

وفي اليوم التالي لانتهاء الاحتفالات في بيت العريس، يذهب أصدقاؤه إلى بيت العروس، وأحيانًا يذهب العريس معهم، ويُحضرون معهم هديةً من البرغل، أو مأكولاتٍ أو أشياء أُخرى. وفي المساء تقام مأدبةٌ، ويرقصون كما فعلوا في السابق. وفي الصباح التالي، وهو آخر يومٍ، تقام مأدبةٌ أُخرى في بيت العروس، وتخرج من بيتها مغطاةً بوشاحٍ، وتلبس حذاءً عاليًا مثل أحذية المشايخ. يعطي أصدقاء والد العروس الهدايا التي يسمونها "نقطة"، وتحصل البنتُ على نصفها. وهي بمثابة دَينٍ، لأن والد العروس سيعطي الهدايا لأصدقائه في مناسباتٍ مشابهةٍ. ويقف أحد أخوتها أو أبناء عمها على الباب مانعًا إياها من الخروج قبل أن يحصل على هديته التي قد تكون بندقيةً على سبيل المثال. ويعطي العريس شيئًا إلى أم العروس. ويحصل كل ذلك إذا كانت العروس مهمةً. ثم يضعونها على حصانٍ؛ ليسير بها

[I] "النصيرية والإسماعيلية"، صموئيل لايد، ص 176.

[II] الليرة العثمانية = 100 قرش = 6.61519 غرام ذهبًا. ولكن الاعتماد على سعر الذهب لن يعطينا فكرةً جيدةً عن القيمة الحالية لذلك المبلغ، لأننا بهذه الطريقة نحصر معدل التضخم في سلعةٍ واحدةٍ فقط. وبغياب معدلات التضخم العام التاريخية في سوريا؛ سأعتمد على معلومات التضخم العام التي ينشرها مكتب الإحصاء الوطني في بريطانيا، وحسب ذلك، نحتاج إلى ما يقرب من 122 جنيهًا إسترلينيًا في العام 2018 لشراء سلعٍ كان ثمنها جنيهًا واحدًا عام 1859. المترجم.

[III] فردي لا يقبل القسمة على اثنين. المترجم

في موكبها إلى بيت العريس، وفي الطريق يعرجون على مزارين أو ثلاثةٍ، وترافقها أمها ونساء أخريات بالزغاريد (الزلاغيط).

يضع العريس في جيبه بعض الدخن والتين قبل دخول العروس إلى منزله، ويصعد على السطح مع أصدقائه ممسكين بعصي طويلةٍ في أيديهم. ويقف قريبها الذي كان يحمل العلم في موكبها في الأسفل مع أصدقائها ممسكين بالعصي، ويبدأ سجالٌ وديٌ بينهم، وفي أثناء ذلك يحاول حامل العلم دخول المنزل، ويطلقون النار في الهواء. ويُعدّ إطلاق النار جزءًا لا يتجزأ من الاحتفالات، إذ يحشون البندقيات بالبارود قدر المستطاع، لكي تكون الأصوات عالية، وكثيرًا ما تخفق عملية الإطلاق لأن بندقياتهم ذات زند له صوانةٌ. وليس من السهل على الأذن تحمل أصوات الطلقات السائرة في جميع الاتجاهات. عندما ينجح حامل العلم بالدخول إلى البيت، تعطي الأمُ أو إحدى القريبات العروسَ قطعة خميرةٍ، فتلصقها على الباب، ثم ينقر العريسُ العروسَ بعصاه، ويرمي الدخن والتين عليها وعلى المتفرجين. تدخل العروس إلى البيت، وبعد قليل تخرج بوشاحها، ثم يعطي أصدقاء العريس له الهدايا المالية. ويجلسون على مأدبة الطعام، وعند حلول المساء يذهب كل الناس إلى بيوتهم. ويجب أن أذكر أنه قبل نزول العروس من على الحصان، يعطيها العريس 30 أو 60 قرشًا، وهي تعادل 5 أو 10 شلناتٍ ويسمون ذلك "التنزيلة[I]".

ويقال إنه لا يمكن أن يتطهر النصيري إن تزوج بمسيحيةٍ، إلا بعد أن يغتسل في أربعين نبعًا فتحاتها متجهةٌ نحو الجنوب (جهة مكة).

وأحيانًا يهرب شابٌ مع إحدى البنات، ولكن فيما بعد، يتفق مع عائلتها على السعر الذي سيدفعه من أجلها.

موافقة الرجل فقط كافيةٌ للطلاق، ولكنه ليس شائعًا. والأمر الشائع أن يُبعد الرجل زوجته، فتتدبر أمورها بنفسها، وفي تلك الحالة لا يمكنها الزواج ما لم "يرفع يده عنها"، إلا إذا ذهبت إلى مكانٍ لا يعرفها فيه أحدٌ. ومن غير المعتاد إبعاد امرأةٍ لها أطفالٌ. أحد معارفي عنده ما لا يقل عن ثلاث زوجاتٍ، يتخلى عنهن عندما يكبرن، ويفقدن حسنهن. ومن المعتاد أن يتزوج الميسورون مثنى وثلاث، وقد يعشن في غرفةٍ واحدةٍ. وعندما يصبح لدى الواحدة منهن أطفالًا، تنتقل للعيش بمنزلٍ خاصٍ بها؛ وسأتحدث عن ذلك في فصل "الوضع الحالي للنصيرية".

عندما يموت رجلٌ أو امرأةٌ، يأتي شيخٌ إلى البيت، فيسخنون الماء، ويُخرجون الميت من البيت، وإذا كان الميت رجلًا، يغسل الشيخ الجثمان بصب الماء عليه من الرأس إلى القدم ثلاث مراتٍ. ويسمون ذلك "مشاهدة". وبالطبع تُغسل جثامين النساء بأيدي النساء. يُكفَّن الجثمان بقماشةٍ كتانيةٍ غير مخيطة، ثم يُلبسون الجثمان لباسًا كاملًا بما في ذلك العمامة، ويدفن الجثمان بالملابس. وإذا كانت المتوفاة عزيزةً جدًا على أهلها، يدفنون معها حليها وخواتمها، وفي جميع الأحوال يدفنون معها خيطًا وإبرةً. يصنعون نعشًا من دعامتين مربوطتين بحبلٍ، ويكسونه بقطعه قماشٍ، ثم يضعون الجثمان فوقه، ويغطونه بلحافٍ، ولا يستعيدون الدعامتين من القبر إلا بعد مرور سبعة أيامٍ. يتقدم الشيخُ الموكبَ إلى القبر، وهو يتلو الأدعية، وينزل رجلان إلى القبر الذي يبلغ عمقه خمس أو ست أقدامٍ، وأحد طرفيه مفتوح جزئيًا؛ للتمكن من إنزال الجثمان، ثم يغطونه بحجارةٍ كبيرةٍ، تستند إلى الطرف المفتوح. يحشون أنفَ الميت، وأذنيه، وفمَه بالقطن؛ وعلى طريقة المحمديين، لا يتركون في القبر أي شيءٍ أزرق اللون؛ ثم يطلقون النار من أسلحتهم، ويعودون أدراجهم. فيجلسون مع الأصدقاء في منزل المتوفى؛ ليواسوا بعضهم، ويتناولون الطعام الذي قد يحضره الضيوف. ويعطون أصدقاء المتوفى صدقةً ليوصلوها للشيخ، ليقوم بالدور نفسه في مناسبةٍ قادمةٍ. بعد أن يردموا القبر بالتراب، ينشد صاحب الصوت الجميل من الرجال أو النساء نشيدًا، يمدح فيها المتوفى، ويتوقف عن الغناء كلما ناح الحاضرون. في إحدى المرات كنت حاضرًا في أكثر الجنازات حزنًا؛ فقد توفي رجلان من قريتي في أثناء القتال (وكان أحدهما الشخص الوحيد الذي يعرف القراءة، وكان أرجحهم عقلًا). في الصباح كانا يشتغلان في بناء منزلي، ثم ذهبا للقتال بعد تنبيههما بوجود قتالٍ، وعادا جثتين في المساء. وفي مكان الدفن كان جثمانيهما ملقيان على الأرض، وساعد

[I] ما يعادل ربع أو نصف جنيهٍ إسترلينيٍ. المترجم

في حفر قبريهما رجال القرية الذين بدا عليهم الانفعال بعد عودتهم بثيابهم المتسخة بالبارود. وحصلت مماحكةٌ غير لائقةٍ بخصوص من سيتطوع لأداء هذه المهمة، فجميعهم يقولون إنهم متعبون. عندما أخبروا أم القتيل بموت ابنها الأكبر، جاءت تلطم صدرها، واستمرت باللطم حتى فقدت الوعي. وجاء إخوة الرجل الآخر، وجلس رجلٌ عند رأس الجثمان، وبدأ يغني أشعارًا بصوتٍ حزينٍ. كان المشهد مأساويًا، ومؤلمًا من شدة الأسى.

وبعد العودة للمنزل ازداد الإنشاد، واستمرت زيارات القبر الصباحية مدة ثلاثة أيامٍ، يصاحبها إنشادٌ ونواحٌ؛ وتنتهي الزيارة دائما بإطلاق النار في الهواء.

وفي الأيام الستة التالية يَجْمَع أصدقاءُ العائلة في قرىً أُخرى المالَ والطعامَ، ويرسلونهما إليهم، ويجتمعون في اليوم السابع في بيت المتوفى، ويتناولون الطعام، ثم يذهبون لزيارة القبر، ليعيدوا عمل الأشياء نفسها. وتسمى تلك المناسبة "أسبوعية". ويوم الدفن يحرقون البخور في البيت مساءً، وعند زيارة القبر في الأسبوعية، تأخذ صاحبة البيت قطعة بخورٍ معها لتحرقها عند القبر. ويعتقد جميع أهل القرية أنه من العار أن يستحم أحدٌ قبل انقضاء الأسبوعية، ويُظهر أصدقاء المتوفى الحزن مدة شهرٍ أو شهرين، دون أن يرتدوا ملابس الحداد، باستثناء ملابسهم غير المغسولة التي يعدّونها ملابس الحداد.

ذَكَرْت كثيرًا كلمة "شيخ"، ويعني ذلك، عند الفلاحين[I]، معلم الدين، وعندما يستخدمون هذه الكلمة بمعنى زعيم القرية، يضيفون إليها كلمة "الظلم"، بينما يسمون المعلم "شيخ العلم". حصل جميع المشايخ الكبار على منصبهم بالوراثة، فالمنصب متوارثٌ عائليًا، ويقول لانجلوا: "بإمكان كل من يستطيع القراءة والكتابة أن يصبح شيخًا". يضحك الناس أحيانًا من الشخص الذي يرتدي عمامةً بيضاء كرمزٍ للمشيخة، فأمثاله لا يستطيعون تمرير ذلك على الناس، إلا في أماكنَ لا يعرفهم فيها أحدٌ، وأما في مناطقهم، فعليهم أولًا كسب تأييد المشايخ المعترف بهم. ذهب الخادم النصيري، عندما كان في المدرسة، لزيارة شيخٍ في القرية المجاورة، "فَحَسَبَ[II]" له الشيخ وقال: "أنت كنتَ شيخًا في زمانك، وكنت أعرفك في حياةٍ سابقةٍ، فقد كنتُ قريبك، وأكلت كثيرًا من ضيافتك" ثم قبل يدَ الولد، وأعطاه 10 قروشٍ من أموال الصدقات، وقال: "إن أخذك من صدقات النذر والأعياد ليس إثمًا".

عندما تبلغ أعمار أبناء المشايخ 15 أو 16 عامًا، ينصبونهم شيوخًا، ويسمى ذلك "رسم[III]" أو "تكنيس[IV]". كتب عم الولد كتاب الشعائر الدينية -وهو كتاب توجيهاتٍ للمشايخ- ليعطى للولد حين يُنَصَّب شيخًا، كما ذكر العم، وناسخ المخطوطة.

يلبس المشايخ عمامةً بيضاء، ويلبسها أولادهم أيضًا (لأنهم يحصلون على لقب المشيخة في بداية شبابهم)، ويلبسون قميصًا أبيض، وصدريةً، وسروالًا عريضًا، وحذاءً عاليًا، وزنارًا أحمر. لا يحملون سلاحًا، ولباسهم نظيفٌ عادةً. يتعامل الناس مع المشايخ باحترامٍ شديدٍ، ويقبلون أياديهم في جميع المناسبات؛ ويحيلون نزاعاتهم إلى المشايخ الذين يتدخلون في حياة الناس الخاصة والعامة، وتراهم مع حميرهم يتجولون لجمع الصدقات من القمح وما شابه.

لا يتناولون طعامًا إن شكّوا أنه اُشتري بأموالٍ حصل عليها أصحابها بالاحتيال، ولا يقبلون ضيافة من يسرق، ولا يأكلون طعام المسيحيين، مع أنهم يأكلون طعام المسلمين. عندما شرب الشيخ حبيب القهوة في منزلي، دفع ثمنها للخادم، وقال بأنه يعتقد أن أموالي حلالٌ، لكنه فعل ذلك كي لا تتكلم الناس عنه. أما الشيخ البغدادي، فأكل دون هاجسٍ، وضحك من بقية المشايخ لموقفهم من ذلك، وأكل الشيخ حسن الكناني في منزلي مراتٍ عديدةً، ولكن بالسر.

[I] يقصد النصيرية. المترجم

[II] حسابات من يدعي معرفة الغيب. المترجم

[III] يستخدم المسيحيون التعبير نفسه: ترسيم الكهنة والأساقفة أو تنصيبهم. المترجم

[IV] في الفصل الخامس قال المؤلف أن تكنيس كلمةٌ مرادفةٌ لكلمة التناسخ. المترجم

يدَّعون علمهم بالغيب عن طريق التنجيم، والتبصير، والرمل، وطرد الأرواح الشريرة، وعمل التمائم. عندهم اطّلاع على أسماء النجوم، ويقولون للناس: "برجك كذا وكذا، ولذلك هذا أنسب لك". كان الخادم النصيري اسمه كذا وكذا، وكان يمرض كثيراً، فغيروا اسمه بناءً على نصيحة أحد المشايخ.

يدَّعون التبصير والتكهن بالإمساك بسبحةٍ والنظر في كتابٍ. ويضربون الرمل بعمل نقاطٍ صغيرةٍ كالرمل على ورقةٍ، يتكهن منها الشيخ ما سيحدث. عندما كنت في حماة في إحدى المناسبات، بصّر لي شيخٌ نصيريٌّ، وأهداني الورقة التي استخدمها.

وتدَّعي عائلةُ مشايخ في منطقتنا قدرتها على طرد الأرواح الشريرة. فقد أُصيب رجلٌ من القرية التي تقع أسفل قريتنا بالجنون، ومع ذلك تركوه طليقًا، فجرح زوجته جرحًا بليغًا، فأحضروها إلينا مضرجةً بالدماء صباح يوم الأحد. وبعد ذلك أحرق منزله، والتجأ إلى أحد الكهوف القريبة، ثم هرب من هناك ولم يُعرف عنه شيءٌ بعد ذلك. وفي أثناء مرضه أتى أحد المشايخ لعلاجه، فتكلم مع الروح الشريرة، وكان من المفترض أن تجيب عبر الشخص نفسه، ثم أمر الشيخُ الروحَ بالدخول في جسمي، لكنها رفضت لأنني شخصٌ صالحٌ، ثم أمرها بالذهاب إلى حماة. فسألت الروح من أين ستخرج: أمن إصبع الرجل أم من فمه؟ فوصلتها التعليمات، ولكن المشكلة الأهم هي أن الرجل لم يشفَ.

ومن المعتاد أن يكتب المشايخ التمائمَ، وعندي كتابٌ يحوي مجموعة أسحارٍ قويةٍ، لو كُتبت وارتداها أحدهم، ستكون فعالةً جدًا ضد الأمراض والمصائب. وبعضها مجرد تكرارٍ للأحرف نفسها، ومعظم الأطفال عندهم تمائم في قبعاتهم أو موضوعة في حافظةٍ جلديةٍ، ومعلقةٌ حول رقابهم. ويتهمون الشيخ حسن الكناني بكتابة سحر للحب، وأمورٍ أخرى غير محتشمةٍ.

عندما يمرض أحدهم يأتي الشيخ، ويقرأ له العزائم[I] بصوتٍ عالٍ، ويأخذ خمسة قروشٍ أو ما شابه. وأحيانًا يُحضر معه ولدًا ويغطونه، ليتكلمَ ويقولَ سببَ المرض. وإذا شكّوا بوجود جني، يخرجونه من الشخص المصاب، وأحيانًا يقول الشيخ للمريض إن سبب مرضه عدم الوفاء بالنذر، أو التقصير، أو ارتكاب الذنوب. وقيل لي إن الولد الذي يغطونه كثيراً، تصبح عيونه حمراءَ. يوجد دائمًا من يدعي أنه شاهد ذلك أيضًا. يعيش الشيخ علي ظاهر بالقرب من مزار أحمد قرفيص، ويستطيع إخبار الناس عما فعلوه، وعن أماكن الأشياء المسروقة. وعادةً ما يروون تلك القصص بإطنابٍ.

يخاف الناس من العين ويسمونها "النظرة"، ويؤمنون بالسحر. بعد وصولي إلى الجبال، واستقراري فيها، حصل صدامٌ بين سكان منطقتي وسكان منطقةٍ مجاورةٍ، فهُزم الآخرون، وعزوا سبب هزيمتهم إلى إحدى تصفيراتي التي كنت أستدعي بها الخدم. فقالوا إني كنت أمتطي فرسًا بيضاءَ في أثناء المعركة، ونفخت في صفارتي، فأتت فوقهم طيورٌ صغيرةٌ، مما جعل كراتهم[II] تقع بعد إطلاقها بمسافةٍ قصيرةٍ، في حين استمرت كرات الخصوم بالوصول إلى أهدافها. وبالتالي هددوا بتدمير حياتي وممتلكاتي، وأصبحت القصة مثارًا للضحك عند أهل قريتي، ولكنهم حذروني من خطرٍ محدقٍ بي.

يمتنع النصيرية عن أكل بعض الأشياء التي يعدّها المسلمون نظيفةً، مثل الأرنب وسمك الأنقليس الذي يسمونه بالخطأ سمك السِلَّوْر. ولا يأكلون أي سمكٍ لا حراشف له. ويتبعون شريعة موسى في بعض هذه الأمور. وإذا اصطاد أحدهم خنزيرًا بريًا يبيعه إلى نصراني، ويستخدم تلك النقود لشراء بارودٍ وطلقاتٍ فقط. يقول نيبور: "وجدت في كتابي النصيري أن المعنى حرّم عليهم أكل الجمل، والأرنب، وسمك الأنقليس، وأن الاسم حرم عليهم أكل الخنزير،

I الآيات التي تُقرأ بنية الشِّفاء. المترجم

II طلقات نارية كانت تسمى "كلل"، جمع "كل" (تلفظ الكاف مثل الجيم المصرية). المترجم

والدم، وعمومًا لحم الحيوان الذي لم يُذبح بالطريقة الصحيحة، وأن الباب حرّم عليهم أكل سمك السِلَّوْر (سمك أسود يعيش في نهر العاصي)، وأي شيء محروقٍ[I]".

ولنبات الآس[II] اعتبارٌ كبيرٌ عند النصيرية، ويضعونه عند القبور كما يفعل المسلمون. ذُكر في مخطوطتي "ما يحل وما يحرم فوق الريحان[III]"، وقيل إنه في الاجتماعات الدينية، "من كثّر الحديث فوق الريحان يبقى أخرس[IV]"، وفي إحدى المرات التقى خادمي المسيحي في إحدى مناطق جبل الأقرع رجلًا ملقىً على ظهره، يدفع رجليه نحو الأعلى، ويقوم بحركاتٍ تهريجيةٍ غريبةٍ بالقرب من شجيرة آسٍ. وقد ذُكر الآس في القداس الثاني الذي نشره كاتافاغو[V].

يحلق النصيرية شعر الإبط، ويحلق القمرية الشعر الموجود تحت الذقن، في حين يرخيه الشمسية. في أحد الصدامات وقع رجلٌ من الطائفة الشمسية في أيدي سكان منطقتي، فحلقوا له. وعندما تحول أهل قرية مجاورةٍ لنا إلى الطائفة القمرية، حلقوا ذلك الجزء.

يقال في المخطوطة النصيرية: "ويحرم التتن لأنه مذمومٌ فوق الريحان[VI]"، وهي مخطوطةٌ شمسيةٌ، إذ تُحرِّم تلك الطائفة التبغ، ويمتنع مشايخها عن التدخين.

[I] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة" نيبور، الجزء الثاني، ص 361.

[II] يطلق اسم ريحان على كل نباتٍ طيب الرائحة، وأظن أن المقصود هنا هو نبات الآس، وقد ترجمه المؤلف إلى الإنجليزية بكلمة "Myrtle". المترجم

[III] المخطوطة، ص 179.

[IV] المخطوطة، ص 180.

[V] "الحمد لله الذي جعل نوره تمام وفضله عام علينا وعلى ساير إخواننا براحا وريحان وجنة الله". المترجم

[VI] المخطوطة ص 186.

الفصل الثامن

الوضع الحالي للنصيرية

لا أجد مقدمةً للحديث عن أوضاع النصيرية الحالية، أفضل من سردٍ للأحداث التي حصلت في المنطقة في السنوات الأخيرة. وبذلك، وقبل الخوض في التفاصيل، يستطيع القارئ أن يحزر بدقةٍ ما كان عليه الوضع الاجتماعي لمن يعيش في مثل تلك الأحوال. سيقتصر حديثي بالأساس عن المنطقة التي أعيش فيها؛ وإن الدخول في تفاصيل الأحداث، سيعطي فكرةً أوضح عن الحالة العامة.

بعد زيارتي الأولى لجبال النصيرية، قررت الخوض في العمل التبشيري، وفي طريقي إلى بلاد الشام لبدء المهمة عام 1853، مررت بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا في طريقهما إلى مضيق الدردنيل؛ للشروع في الحرب الروسية[I]. وبالتالي وجدت أن الوضع العام في بلاد الشام، وجبال النصيرية قد اختلف عما كان عليه في السابق. وكانت اللاذقية في حالة اضطرابٍ جراء حملات التجنيد في المنطقة، حيث يتجمع ما بين ثلاثمائة وأربعمائة جنديٍ للذهاب إلى أرضروم، وقارص، وبحيرة وان، للدفاع عن سيادة السلطان. كانوا، على الرغم من لباسهم وسلاحهم الرديئين، يمتلكون حماسةً كبيرةً، لم أتوقعها من أصحاب دكاكينَ[II] محمديين، وحثالة سكان المدن، وكانوا يجوبون الشوارع منشدين: "باب الجنة مفتوحٌ، نَصَرَ اللهُ السلطانَ، أحرَق اللهُ الكفار"، وكانوا خطرين على أعدائهم وأصدقائهم على حدٍ سواء، (شبانٌ مساكينٌ، نجى القليل منهم من البرد، وسيوف الأعداء). وفي صباح أحد الأيام دخلَتْ إلى مرفأ اللاذقية سفنٌ تحمل زمرةً من الناس أشرس منهم. وكانوا عصبةً سيئةً من مجذفي القوارب السود من عكا، واللصوص المحترفين الذين نشروا الذعر في المدينة عدة أيامٍ. كانوا في البداية على متن باخرةٍ أستراليةٍ، وعندما ساءت الأحوال الجوية، أخذوا أسلحتهم على عجلٍ، وسيطروا على الباخرة، وتركهم القبطان ينزلون في المرفأ التالي، فكان وفودهم غير المرحب به إلى مرفئنا. ثم هاجموا الناس، ونهبوهم بعصي غليظةٍ ذات رؤوسٍ مستدقةٍ، مثبتٌ عليها مسامير، من غير أن ينالوا جزاءهم.

وفي المرة الأولى لمروري في جبال النصيرية، وجدت جيشًا صغيرًا من ألفي جندي نظاميٍ يجمعون الشباب للتجنيد، وكان الفلاحون خاضعين وخانعين؛ أما الآن فالوضع مختلفٌ تمامًا. في أول مرةٍ حضرت فيها إلى الجبال باحثًا عن قطعة أرضٍ لبناء مكانٍ أمارس فيه عملي التبشيري، لقيت في السهول تجمعاتٍ لرجالٍ من مناطق الكلبية والمهالبة، وخيالةً حكوميين غير نظاميين. بدأت مشاعر البغضاء بين المنطقتين تظهر إلى العلن، في غياب القوات النظامية، وبدأ الناس يتبادلون التهم بأعمال النهب التي تحصل في السهول.

كانت مناطق الكلبية، حيث قررت الاستقرار، معروفةً بالفوضى الكبيرة. يقول بوركهارت[III]: "في أثناء إقامتنا في طرابلس، ذهب بربر[IV] [الباشا الذي ارتقى من منزلةٍ وضيعةٍ والذي يصفه بوركهارت بالرجل الحازم والعادل] إلى أقضية اللاذقية؛ لمحاربة النصيرية الثائرين". حارب بربر الكلبيةَ لهذا السبب: كان النقيب الفرنسي بوتان يقطع نهر السن باتجاه الجنوب، وعند عبوره الجسر، خشخشت بعض الأحجار أو الأصداف التي كانت في حقيبته؛ فظن بعض الأعراب المخيمين هناك المسمون عرب الملك، بأن معه الكثير من المال. فأوقعوا به، وقتلوه، وقطعوا جثته قطعًا صغيرةً؛

[I] حرب القرم (1853-1856) بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية التي انضمت إلى جانبها لاحقًا فرنسا، وبريطانيا، وسردينيا. المترجم

[II] لا يقصد المؤلف أصحاب الدكاكين أو "الدكنجية" بالمفهوم الحالي مقارنةً مع الشركات الكبيرة الأكثر مهنيةً والتي لم تكن أصلًا شائعةً في زمنه، بل قصد أن السكان المسلمين جعلوا جل همهم التجارة. المترجم

[III] "رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة"، بوركهارت، ص 171، لندن، 1822.

[IV] متسلم طرابلس مصطفى آغا بربر، توفي 1834. المترجم

ليتعذر اكتشافها. فحثت الليدي هيستر ستانهوب[I] بربرَ على الانتقام. فهرب القاتل الأساسي إلى مناطق الكلبية، ورفضوا تسليمه حسب مفهومهم لواجبات الضيافة؛ فكانت النتيجة أن هاجم بربر المنطقة، واستنهض جميع الجيران ضدها. واستمرت الحرب بنتائجَ متفاوتةٍ، فقد تراجع الكلبية إلى أعالي الجبال، والتجأوا إلى وادٍ عميقٍ بالقرب من مزار جعفر الطيار[II]، ثم خرجوا بعد مدةٍ قصيرةٍ، وطردوا أعداءهم إلى خارج مناطقهم بالكامل. ولكن الغلبة كانت لبربر في نهاية الأمر؛ فكافأهم الأعرابيُ الذي لجأ إليهم بسرقةِ فرسٍ والهربِ إلى حماة، فوجب عليهم دفع الإتاوة.

روى لي هذه الأخبار الممتعة رجلٌ مسنٌ من جبل صهيون في العقد الثامن من العمر، اسمه أبو صالح. كانت حياته مفعمةً بالأحداث، وشهد مواقف غريبةً ومروعةً. ويتذكر حدوث زلزالين[III]، وانتشار الطاعون[IV]، وهما الشيئان اللذان قضيا على نصف السكان، وشهد معارك لا تعد ولا تحصى. في إحدى المرات أمسك به ابن المن[V] أحد باشوات اللاذقية المشكوك بأنه نصيريٌ، وأراد أن يقتله، فجلده حتى شارف على الموت، لكنه استطاع الهرب، وبعد ذلك استطاع بمساعدةٍ من أحد أصدقائه قتل الباشا. اشترك مع بربر في حربه ضد الكلبية، وروى ببهجةٍ كيف قطع بربر سبعة رؤوسٍ مرةً واحدةً؛ وقال إن ذلك الزمان كان أفضل من زماننا الحاضر. يتذكر مترجم نائب القنصل الإنجليزي في اللاذقية تلك الأيام، وقد أكد لي أكثر من مرةٍ أنه عندما يأتي بربر في زيارةٍ إلى اللاذقية، كانوا يُخرجون له السجناء النصيرية، ليلاقوه في الطريق حيث يقطع رؤوسهم ويضعهم على الخازوق. فالنصيرية ليسوا من أهل الكتاب مثل المسيحيين واليهود، وبالتالي لا يقبل خضوعهم، ولا تقبل منهم الجزية، حسب الشرائع الإسلامية المتزمتة، ويجب قتلهم، وبيع نسائهم وأطفالهم كعبيدٍ. وأصدر علماء مسلمون فتاوى مشابهةٍ بحق القرامطة في زمنهم؛ وقد أصدر شيخٌ خبيثٌ، وجاهلٌ، ومتعصبٌ، اسمه إبراهيم المغربي[VI] -توفي نحو العام 1827- فتوىً تحلل دم ومال النصيرية، وما زال النصيرية يلعنونه بسببها. لم يكتف بربر بقتل الناس، بل قطع أشجار الفاكهة، ولم يبق في قريتي تقريبًا سوى أشجار التين التي نبتت من جذور الأشجار التي قضى عليها بربر. وقد قلَّ إنتاج الحرير، ورأينا أن النبيذ في زمن موندريل[VII] كان أوفر وأجود.

في أثناء زيارتي الأولى للمنطقة، عندما كنت أبحث عن قطعة أرضٍ، دخل علينا رجلٌ، وأقنع الموجودين بالذهاب معه في غزوةٍ، وبعد عودتي للمدينة علمت نتائجها. ذهب أربعة رجالٍ من عشيرة الكلبية لنهب قضاء سمت قبلي، فرأوهم، وأخذوا سلاح أحد الرجال الأربعة، فثأر الكلبية بالإمساك براعٍ مع قطيعه، وفي أثناء عودتهم هاجمهم رجالٌ من سمت قبلي، وبني عليّ، فقُتل رجلان من سمت قبلي، وجُرح كثيرٌ من الكلبية. ولاحظت في ذلك الوقت أن المرأة التي تروي القصة، كانت مسرورةً جدًا؛ وبالفعل، فهم ينوون ذبح ما غنموه في العيد الكبير الذي اقترب موعده.

وبعد أن اتفقت مع الرجل على شراء قطعة أرضٍ، كان من المفترض عليه أن يعود بعد ظهر اليوم نفسه؛ لنكتب العقد، لكن بعض مُسْلمي المدينة علموا بنيته، وأخبروا الحاكم الذي استدعاه وأخافه؛ فرفض إكمال مشروع البيع. فأرسلت شكوى إلى القنصل العام في بيروت، فذكر الأمر للباشا الذي طلب من الحاكم عدم التدخل بعد الآن في موضوع شراء الأرض، ولكنه التمس القنصل العام إخباري بوضوحٍ بأن الحكومة لن تكون مسؤولةً عن سلامتي؛ لأنني

[I] سيدة مجتمعٍ، ومغامرةٌ إنجليزيةٌ عاشت في لبنان؛ طلبت من بربر الانتقام من قاتلي صديقها العقيد الفرنسي ڤانسان إيڤ بوتان (قُتل عام 1815) الذي خفض المؤلف رتبته إلى نقيبٍ لأسبابٍ مجهولةٍ. المترجم

[II] يقصد مقامات بني هاشم. المترجم

[III] حصل زلزالٌ كبيرٌ في المنطقة عام 1822، وزلزالٌ آخر قبله عام 1796. المترجم

[IV] عام 1827. المترجم

[V] متسلم اللاذقية محمد باشا ابن المن، قتل عام 1823 في دار الحكومة بعد أن هجم عليه جمعٌ من الناس، الذين استاؤوا من تصرفاته كحاكمٍ، كما يُروى. المترجم

[VI] الشيخ محمد المغربي؛ اسمه الكامل محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ناصر الدين. المترجم

[VII] هنري موندريل (1665-1701)، كاهنٌ من كنيسة إنجلترا، ومؤلف كتاب "رحلة من حلب إلى القدس في فصح العام 1697". المترجم

ذاهبٌ إلى مناطق ثائرةٍ. لم يؤثر عليّ ذلك في شيءٍ، فقد كنت أعلم ضعف الحكومة التركية في هذه الأمور، وأنه عليّ الاعتماد على حسن ضيافة الناس، الذي كان تأمينًا على الحياة.

نقلت أغراضي على ظهور الجمال إلى المكان المزمع بناؤه، ونصبت خيمتي على سطحٍ مستوٍ لأحد المنازل المسكونة، ووضعت أغراضي في غرفةٍ بالطابق السفلي. في الليلة التالية، استيقظت على صوت طلقٍ ناريٍ، وتبين أن أربعةً من الرجال الذين رأوا صناديقي، جاؤوا ليحفروا حائط الغرفة التي وضعت فيها أغراضي، ولكن نباح الكلب الذي رآهم، أيقظ سكان الحي. اكتشفوا لاحقًا هوية اللصوص، وقال الزعيم بأنه كتب وثيقةً بأن من يُقْتَل في أثناء محاولة سرقتي ليس له ديةٌ. عندما أصل إلى بيتي في وقتٍ متأخرٍ بعد العودة من رحلاتي، يأتي أهل القرية للاطمئنان عليَّ. في بداية إقامتي في الجبال، كنت أذهب إلى السهول على ضوء القمر، لكن زعيم المنطقة أرسل إليَّ رجاءً بالتوقف عن ذلك لأنه سيكون الملوم؛ إذا حصل لي مكروهٌ من سكان المناطق الأخرى.

في صباح أحد الأيام رأيت في خيمتي كيسًا صغيرًا متسخًا، فيه ترابٌ وأوراق نبات الآس، فرميته خارج الخيمة، ولم أكترث للموضوع، وبعد شهرين سألني معلم مدرستي العربي إن كنت أعلمُ حقيقةَ الكيس، وأخبرني بأنه لم يحبذ التكلم معي عن هذا الأمر في ذلك الوقت، ولكن الكيس فيه ترابٌ من القبور، وحسب الخرافات المنتشرة هنا، فقد وُضع في الخيمة؛ ليجلب ليَّ النوم؛ حتى يستطيعوا سرقتي بهدوءٍ. وبعد تلك الحادثة، نام زعيم القرية، الذي لا أعرفه خارج خيمتي.

صعدت إلى الجبال في الثاني من يونيو عام 1854، وفي الخامس عشر من أغسطس أتى أحد الرجال إلى القرية راكبًا وهو يلهثُ، وأخبرنا كيف قتل المهالبة بعض سكان المنطقة. "انْدَبَّ الصَوْتُ"، بمعنى أُعطي الإنذار لبقية قرى المنطقة، بالصياح وإطلاق النار؛ وبلمح البصر اندفع الناس نحو موقع القتال مهرولين من قريتي والقرى الأُخرى. وكثيرًا ما سمعت أصوات الإنذارات، وفي الليل، يُصبح صوتها مهيبًا في البراري الجبلية. وازداد إطلاق النار، فعرفت أن المعركة اشتدت، وبعد قليلٍ أُصابت طلقةٌ ناريةٌ أحد رجال القرية إصابةً مروعةً في فمه، فأتاني راكبًا على حماره، ورأسه مسنودٌ على صدره، والدم ينساب عليه. ثم تلاه رجلٌ آخر، دخلت كرةٌ[I] في خده، وتوقعت قدوم المزيد؛ فركبت مسرعًا إلى جبلة في محاولةٍ لإحضار جراحٍ عربيٍ. رفض رجلٌ مسلمٌ معروفٌ بمعالجة الجروح القدوم رفضًا قاطعًا، وقال إن النصيرية سيلومونه لو مات رجالهم، ولم يكن مخطئًا، فقد تعلمت ذلك من تجاربي اللاحقة. وقال الناس: "يا الله، سيموت خمسمائةٍ من هذا الطرف، وستمائةٍ من ذاك". مات أول رجلٍ بعد أسبوعين، وكانت الحصيلة الإجمالية للوفيات أربعة كلبيةٍ، وستة مهالبةٍ. كانت أسباب المعركة تختمر منذ مدةٍ، لكن السبب المباشر كان شجارًا بسبب خِيارةٍ[II].

خسر المهالبة العدد الأكبر من الرجال، وتعهدوا بالانتقام، فانطلقت عدة إنذاراتٍ كاذبةٍ. وفي صباح الثلاثين من سبتمبر حين كان سكان القرية منهمكين بالعمل في بناء منزلي، تبين أن التهديد بالهجوم كان حقيقيًا. هجم المهالبة على القرية من شرق الجبال وغربها، فقسمت المنطقة، وتُركت فتحاتٌ في أطرافها. في البداية حالفهم النصر في الجهة الغربية، فخفت على نفسي؛ لأنهم كانوا يهددون بالقدوم، وتدمير بيتي الذي كانوا يسمونه "السرايا". تجمع سكان منطقتي، وانقضوا عليهم دفعةً واحدةً، وأجبروهم على التراجع في عمق مناطقهم، وأحرقوا قراهم التي وصلوا إليها. لم يكن ثمة منتصرٍ في الجهة الشرقية، وعند الظهيرة، كان مشهد القرى المحترقة مؤلمًا. قتل في المعركة أحد عشر رجلًا من المهالبة وخمسة عشر من الكلبية، كان اثنان منهم من أهالي قريتي، وقد وصفت جنازتهم في الفصل السابق.

[I] طلقات نارية كانت تسمى "كلل"، جمع "كل" (تلفظ الكاف مثل الجيم المصرية). المترجم

[II] قطف رجلٌ من أهالي القرداحة خيارةً من أرض أحد المهالبة، فأطلق عليه أحدهم النارَ وقتله. اصطف أهالي جبل بني علي، وبيت الشلف مع القرداحة؛ واصطف أهالي ساحل بني علي مع المهالبة؛ وبدأت الحرب بينهم. كانت العداوات مختمرةً أصلًا، ولم تكن حادثة سرقة الخيارة سوى المفجر لتلك الحرب، كما ذكر المؤلف متهكمًا. المترجم

فتمكن الكلبية، وأصبح كل شيءٍ لهم، وباتوا يغزون بلاد أعدائهم. وللنساء والأطفال أدوارٌ مؤثرةٌ في تلك المناسبات، فعند المعارك تبدو النساء كالشياطين، يشجعن الرجال، ويحضرن لهم الماء، ورأيت النساء، بعد انتهاء المعارك، عائداتٍ، يحملن القدور والأواني واللُحُف وما شابه، وفي الواقع، كل شيءٍ وقعت عليه أيديهن، ويعود الأطفال حاملين الدجاج وما شابه. كان لزوجة خادمي النصيري دورٌ مهمٌ جدًا في تلك المناسبات، وسأتكلم عنها بالتفصيل لاحقًا، ومن منزلي، كنت أراها على التلة ترفع يديها إلى جعفر الطيار، وتدعو لزوجها بالتوفيق والسلامة.

وفي أحد الأيام، وفد إلى منطقتنا خمسون خيالًا، وأخذ رئيسُهم معه زعماءَ منطقتنا[I]، بعد أن أعطاهم الأمان، لملاقاة الحاكم؛ على أمل أن يحل خلافاتهم مع المهالبة، وحال وصولهم إلى اللاذقية، وضعوهم في السجن. أثار هذا الظلم سخط سكان منطقتي، فذهب منهم سبعون رجلًا إلى اللاذقية ليلًا، واقتحموا السجن، وحرروا زعماءهم، وعادوا بهم منتصرين إلى الجبال[II]. فغضب الحاكم علي بيك الذي كان أذكى وأقدر مما يتوقع المرء من شخصٍ بمركزه، ولم يعد يرضيه سوى شروطٌ لا يمكن قبولها. فجمع في مدينة جبلة الواقعة أسفل منطقتنا ما يقرب من ألفي رجلٍ من رجاله غير النظاميين، من المناطق المجاورة، وطلب مني أكثر من مرةٍ أن أنزل، وأترك المنزل؛ لكنني رفضت قائلًا إن ممتلكاتي ستُدمر؛ لو تركتها وغادرت.

وعَمَّت الفوضى في المنطقة، فأصبح الكلبية ينهبون من أجل التسلية، وسمعت أنهم أحرقوا رجلًا وامرأةً بإشعال النار في منزلهما، وللأسف هذه قصةٌ حقيقيةٌ. وفي إحدى الأمسيات كان خادمي عائدًا من اللاذقية ومعه بعض الرسائل والأغراض، فأمسك به بعض المهالبة، وألقوه على الأرضِ، ونهبوه، بحجة أن سيده أصبح كلبانيًا؛ ولم أتمكن من معرفة الجناة.

وأخيراً في السابع والعشرين من نوفمبر، سُمعتْ دقات الطبول في السهول، وبعد ذلك بانت القوات الحكومية، وعسكَرَتْ خلف بيتي، بعد أن هرب القرويون، وأطلقوا النار من بندقياتهم على سبيل الاستهزاء. نُصب المخيم في قرية القرداحة التي تبعد نصف الساعة ركوبًا شرق قريتي. أقفرت المنطقة، ودفن الناس القمح، وأخرجوا قطعانهم إلى أعالي الجبال. وأسفل منزلي رأيتهم يصطادون بقرةً، وقد ماتت بعد أن أطلقوا عليها عدة طلقاتٍ. أتى المهالبة وسكان المناطق الأُخرى إلى قرى الكلبية، ففتحوا مخازن القمح وفرغوها. وبعد ظهر أحد الأيام كنت أقف خارج باب بيتي مما أتاح لي رؤية التلال المحيطة، فرأيت ثلاثة رجالٍ يدخلون أحد البيوت في قريةٍ، يفصلنا عنها وادٍ. ولحسن حظهم، لم يبقوا هناك طويلًا، فقد رآهم رجالنا الذين كانوا في السهل وطاردوهم. اعتلى أحدهم قمة الجبل الذي يفصل المناطق عن بعضها، وبدأ يخطب كما خطب يوثام من على جبل جرزيم في سكان شكيم[III]. رفعتُ وشاحًا بدلًا من العلم، على أمل أن يبعد عني الغزاة القادمين من المعسكر، لأن مسلمي قضاء صهيون مروا بجانب منزلي، وهددوا بالعودة لتدميره. قال المهالبة: "أنتم أيها الكلبية تعتقدون أنكم أصبحتم كبارًا؛ لأن عندكم قنصلٌ وعلمٌ في منطقتكم! انتظروا حتى يوم الغد، وسترون كيف سندخل بيته، ونلعن أباه قبل صياح الديك". في الليلة نفسها نام صديقي من البهلولية أحمد سلهب في منزلي، ونام بعض سكان قرية مرج معيربان في منزلٍ آخر في الأحياء المرتفعة بعد أن أخذوا الإذن من الحاكم في العودة، وكانوا يحملون له بعض الشكاوى. وكان بعض السكان ممن ينامون هناك، يأتون إليَّ في المساء لتفقد أحوالي، وعند الفجر حاصر ثلاثون خيالًا منزلي، ونادوا علينا كي نستسلم، فلم يفعلوا بل اندفعوا نحو الخارج مطلقين النار على الخيالة. فتأكدت عندها أن المهالبة قد وفوا بوعدهم، وأتوا للهجوم على منزلي، ولكنني عرفت الحقيقة عندما نظرت للخارج، ورأيت خيمةً من أغصان نبات الآس تحترق، فظننت أن الخيالة

[I] من بين المقدمين كان إسماعيل عثمان، وحسن الشندي، وحبيب مخلوف من القرداحة؛ ومحمد هيفا، وخير بك من المهالبة. وقد استدعاهم قائم مقام اللاذقية لمصالحتهم، وإنهاء الحرب التي نشبت بينهم بسبب الخيارة، وعند وصولهم اللاذقية، وضعوهم في السجن بانتظار قدوم القائم مقام الذي كان غائبًا في مهمةٍ في البهلولية. المترجم

[II] لم يعد مقدمو المهالبة إلى قراهم؛ حتى لا يُتهموا بالاشتراك في هذه العملية، فذهب بعضهم إلى القائم مقام وأخبروه بالحادثة، حتى يقع اللوم على الكلبية. المترجم

[III] قصة من العهد القديم عن يوثام ملك يهوذا الذي خطب في سكان مدينة نابلس من على جبل البركة (بالأسماء المعاصرة للأماكن). المترجم

يحرقون القرية، فخرجت إليهم. كانوا في حالة هيجان، فقد كان بينهم جريحان. حاولت تخليص حصانٍ أمسكوا به، فصوب خيالٌ كرديٌ سلاحه عليَّ من خلف ظهري أكثر من مرةٍ، وقد أخبرني بذلك فيما بعد رجلٌ من قضاء صهيون، وقال بأنه أزاح السلاح الذي صُوّب نحوي بعيدًا عني.

وفي يوم الأربعاء، وهو اليوم الثالث لتلك الأحداث، قررت أن أبذل جهدًا إضافيًا لإحلال السلام، فركبت ذاهبًا إلى القائم مقام؛ ليسمح لي بالصعود إلى الزعيم ومحاولة إنزاله، فقال: "كلا، ليس مسموحًا"، فطلبت خيالَين لحراسة منزلي، فوافق على إرسالهم، وقال مستشاره قاضي اللاذقية: "سنرسلهم عند المساء"؛ لكن المساء لم يأت على القائم مقام المسكين. وعند وصولي إلى منزلي بعد العودة سمعت صوت إطلاق نارٍ، ودهشت بشدةٍ عند رؤية خيالة اللاذقية على رؤوس التلال. ظننت في البداية أنهم يحاولون إيجاد موقعٍ أفضل للقتال، ولكن بعد مضي دقائق بدأتْ أفواجهم الهاربة تمر بمحاذاة منزلي من الجانبين، وكانت بندقياتهم تتساقط في أثناء الهرب. كانت سرعتهم غير معقولةٍ، ولكن الأسباب بانت بعد وقتٍ قصيرٍ. كان رجالٌ متوحشون من منطقتي يهرولون خلفهم مع آخرين من عشيرة الجهنية صائحين: "ياللا، ياللا"، وحين وصولهم، بدأوا بإطلاق النار على أواخر الهاربين. بدا أن أحدهم قد سلبوه أغراضه، ولم يستطع الركض أكثر مما فعل، فكان يسير يائسًا أسفل بيتي. أرسلت خادمي ليعيده إلى هنا، وقبل أن يصل إليه، رأيت أحد الرجال يطلق النار عليه، ولحسن الحظ لم يُصبه. كان الرجل الذي أطلق النار غريبًا، فلم يتعرف على خادمي في البداية، وأراد سلبه. أنا راضٍ عن نفسي لأني أنقذت 10 او 12 مسلوبًا وجريحًا. ثم دخل طباخ الحاكم الأرمني طالبًا العفو بعد أن سلبوه، ونجى بحياته بأعجوبةٍ، ولم أرى في حياتي شخصًا خائفًا بهذا القدر. وقد أصيب بعض المساكين في الوادي تحت منزلي قبل وصولهم إلى الطريق الصاعد، وأخبروني أنهم جمعوا الجثث وأحرقوها.

في المساء صُدمت لسماعي أن البيك[I] قد قُتل. لقد حاول حشد رجاله بشجاعةٍ، ولكنه تأخر في ذلك، فأصابته طلقةٌ وهو يحاول الهرب. في الصباح التالي ركبت متوجهًا إلى القرداحة، لأستعيد الجثمان، فرأيت جثث الرجال الذين قتلوا منهوبةً بالكامل وممددةً على الطرقات دون ملابس. وكانت ثلاث جثثٍ ملقاةً على الأرض والوجه متجه نحو الأسفل. والتقيت الناس العائدين إلى قراهم، فصرخوا سائلين عن وجهتي، ومن عرف منهم السبب أخبرني بازدراءٍ أنني تأخرت؛ فقد دفنوا البيك. وبعد التقدم مسرعًا، وجدت الزعيم مع آخرين مجتمعين حول حفرةٍ يحفرونها لوضع الجثمان الملقى بالقرب منهم فيها، وهو شبه عارٍ. وطلبت أخذ الجثمان، فأجاب الزعيم: "بالطبع نعم، أين خادمك؟ خذها في أقرب وقت ممكن". أجبرتُ أربعةً من الهاربين على مرافقتي إلى القرداحة، وبعد صنع النعش، وضعنا الجثمان عليه، واضطروا إلى حمله، لعدم وجود أشخاص آخرين لعمل ذلك[II].

سمعت أن ابن زعيم صهيون قد أصيب بجروحٍ، وأنه مستلقٍ في أحد البيوت القريبة، فذهبت لتخليصه. ولكن التفاهم مع أناسٍ مثل الوحوش الضارية كان بلا جدوى بعد انتهاء القتال، فقد كانوا ناقمين وبالأخص على سكان صهيون الذين قطعوا أشجارهم، وأعتدوا عليهم. وأراد شابٌ مسلمٌ اللحاق بي، ولكنهم منعوه. وأخبر ذلك الشابُ حاكمَ صهيون أني حاولت مساعدة أخيه، وربما أنقذ ذلك حياتي[III]؛ وسمعت لاحقًا أنهم خنقوا المسكين الذي تشظَّت فخذه.

ثم وجدت جثمان أبيه مرميًا، فدفعت بعض المال لشابٍ مصريٍ مسلمٍ يعيش بين الكلبية ليدفنه؛ وحينما همَّ بعمل ذلك، أحضروا الجثمان، ورموه أمامه؛ وبينما كنت أتحدث مع الزعيم، أتى شابٌ همجيٌ، عمل في بناء بيتي، والتقط حجرًا ورماه على جمجمة الرجل الميت. فأطلق واحد أو اثنين من الحاضرين صيحة استهجان خافتةً.

[I] يقصد علي بك قائم مقام اللاذقية. المترجم

[II] دُفن جثمان علي بك في اللاذقية. المترجم

[III] يريد أن يقول إن أهالي صهيون كانوا يودون قتله، لكن ربما غيروا رأيهم بعد تلك الحادثة. المترجم

تحاججت مع الشيخ على صحة أو خطأ ترك الجثث غير مدفونةٍ، فأجاب: "نعم، البشر من ترابٍ، وسيعودون ترابًا"؛ قال ذلك متمنيًا ألا يعمل أحدٌ بما قاله، وبقيت الجثث مكشوفةً يومين أو ثلاثةً، حتى تشجعت بنات آوى على التهامها.

قررت المغادرة إلى بيروت، والإعلان عن ذلك في بيانٍ رسميٍ؛ بسبب احتمال حصول اضطراباتٍ في سنجق اللاذقية (في الواقع، لو عرف الناس مقدار قوتهم، لهاجموا، ونهبوا المدينة). وفي أثناء كتابة البيان، وردت أخبارٌ تفيد بأن من كانوا يحملون جثمان البيك، قد رموه، وهو ملقىً بالقرب من أحد الينابيع. حدث ذلك في أثناء تأخر خادمي في مهمةٍ ذهب لأدائها. وفي أثناء عودته صادف أن رأى بين أيادي الناس معطفي الذي وضعته فوق النعش، فاسترجعه منهم بصعوبةٍ. أصبح الوقت متأخرًا، وأنا كاره للسفر في تلك السهول المقفرة، وكان الطباخ يظن كل خيالٍ يراه شخصًا يريد سلبه. وبعد قطع مسافةٍ قصيرةٍ خرج رجلٌ من بين شجيرات الآس طالبًا الحماية، فقد كان مختبئًا هناك منذ الليلة الماضية، بعد أن تمكن من الهرب، وكانت إحدى أذنيه شبه مقطوعةٍ. نسيت أن أقول إن الخيالة أصابوا في هجومهم على القريةٍ شابًا مسكينًا بجروحٍ بليغةٍ، وبالكاد استطاع أن يسحب نفسه إلى شجيرات الآس في الأسفل، حيث عُثر على جثته بعد انتهاء القتال. كانَ إنسانًا مسالمًا وميسورًا.

وعند عودتي من بيروت، وجدت أن سكان منطقتي احترموا وعدهم لي بالحفاظ على الهدوء، لكن حلفاءهم الجهنية، ارتكبوا عمليات سلبٍ عديدةٍ. وفي النهاية، خرج ستون رجلًا منهم لنهب قريةٍ في قضاء باير[I]، وفي أثناء عودتهم حاصرهم سكان السهل من الطائفة الشمسية، وبعد معركةٍ شرسةٍ قتلوا منهم اثني عشر رجلًا وأسروا تسعةً. وكما توقعتُ، كان تصرف أهل اللاذقية بهذه المناسبة همجيًا وجبانًا، فقد قَتل خيالٌ أحدَ الأسرى خارج المدينة، مدعيًا أن الأسير قد قتل أخاه، وخرج سكان المدينة ومثلوا بالجثمان ورموه في بئرٍ.

عقد سكان المنطقة عدة اجتماعاتٍ للتشاور في الهواء الطلق، وكانوا جميعًا يتكلمون في الوقت نفسه، وتمخض الاجتماع عن آراء كثيرةٍ بعدد الحاضرين. بعد تلك الاجتماعات، رافقت الزعيم إلى اللاذقية، وساد الهدوء لبعض الوقت. وحدث بعد ذلك أن وقّفني أهالي صهيون في منطقتهم، وكانت جماعتي على استعداد لتدمير المنطقة بالكامل من أجلي. غضب الكلبية لما حصل لي، وعدّوا ذلك إهانةً لهم، وأسعدهم كما أسعد أصدقاءهم، وباقي النصيرية وجودُ حجةٍ للهجوم على أعدائهم التقليديين، وكما قالوا: "لن يتركوا طاحونةً، ولا بيتًا واقفًا". حصل في الماضي أن أُخرج سكان صهيون من ديارهم، ولكنهم بقوا صامدين في أماكنهم بين الأغلبية النصيرية بمساندة أبناء دينهم في الحكومة.

في بداية عام 1856 سمعت بحدوث جريمةٍ مروعةٍ. قتل العديد من الجهنية في أثناء القتال مع سكان قرية الحرف[II] الواقعة في السهول القريبة من وادي قنديل. وانتقامًا لذلك، دعا الجهنيةُ ستةً من زعماء الحرف للتفاوض، ثم قطعوا رؤوسهم[III]. سوف اقتبس من سجلي ما كتبْته في ذلك الوقت، لأبين نظرة الناس لما حدث، بما في ذلك أجوبة مشايخهم: "منذ خمسة أو ستة أيامٍ، لم أستطع إقناع إسماعيل ديوب والد أحد طلابي بأن ما فعله الجهنية كان أمرًا سيئًا، وقال إن الآخرين قتلوا أفرادًا من الجهنية في الماضي؛ فقلت له إن ذلك حصل في أثناء القتال في معركةٍ، ولم يكن غدرًا، فأجاب بأن أولئك القوم لا يحبون شريعتنا، فهم مخاوسة (أحد أسماء الطائفة الشمسية[IV])؛ وكان معه شيخٌ من قمين، أتى من أجل الحصول على الدواء، وعندما تكلمت معه ابتسم، ولم تكن نظرته لما حصل مختلفةً، فقلت له لا بد من وجود قصورٍ في دينهم لم يردعهم عن فعل ذلك، فغير موضوع الحديث إلى النهب، وقال إن بيوت المشايخ لم تسلم

[I] ناحية ربيعة في جبل التركمان باللاذقية. المترجم

[II] قريةٌ تعرف اليوم باسم مشقيتا. وردت باسم قرية الحرف في النص الإنجليزي، لأن القرية كان اسمها حرف مشقيتا في ذلك الزمن، وربما كانوا يختصرون اسمها بكلمة الحرف. المترجم

[III] ذهب إبراهيم جديد أحد مقدمي بيت الشلف إلى مشقيتا للتفاوض معهم، واستطاع إقناع بعض مشايخها بالقدوم إلى بيت الشلف لإكمال المفاوضات، وعندما وصلوا، غدروا بهم، وقتلوهم. المترجم

[IV] المخاوسة أتباع الشيخ علي بن سليمان ماخوس الذي انشق عن الكلازية القمرية، وله كتابٌ عنوانه "المختصر بنفي عبادة الشمس والقمر"، فرد عليه الشيخ محمد الكلازي الأنطاكي في "الرسالة الشافية في الحقائق المخفية". المترجم

من نهبهم[I]. فسألته لماذا لم يحسنوا تعليمهم في الصغر، فأجاب: نحن نحسن تعليمهم، وعندما يكبرون، يتجاهلون ما تعلموه ". وبعد مدةٍ قصيرةٍ، حصل قتالٌ في قضاء بني علي، ومات ناسٌ كثيرون من الطرفين المتقاتلين. وبعد ذلك هاجم القراحلة في الجنوب قضاء المرقب، فحوصروا، وقُتل كثيرٌ منهم. ولا يكاد يمر شهرٌ دون أن يحصل قتالٌ في مكان ما.

وبعد ذلك، ساءت الأمور مرةً أُخرى؛ فبعد التخلف عن دفع الضرائب؛ استدعى حاكم اللاذقية زعيمين، وأعطاهم الأمان، ثم وضعهم في السجن. وأمر خيالته غير النظاميين بمهاجمة المناطق المنخفضة في المنطقة. كان تسليحهم جيدًا، فقد جندوهم من مناطق الموصل، ودربوهم في فرقة باشبوزق[II]؛ من أجل حرب القرم. وبعد انتهاء الحرب حُلت فرقهم، وأصبحوا في خدمة الحكومة. هاجم سبعون منهم بعض رجالنا في السهول، فلم يستسلموا، والتجأوا إلى خرابةٍ، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعةٍ، مع أنهم كانوا خمسة عشر أو عشرين رجلًا فقط. جُرح اثنان أو ثلاثةٌ منهم (أحدهم كسيح أو أعمى)، بعد أن انقض الخيالة عليهم في الخرابة وفرقوهم. وُقتل الكسيح، وحصل ذلك في 22 يونيو 1856.

وفي اليوم التالي كنت راكبًا إلى اللاذقية، فلاحظت وجود أناسٍ من جماعتنا بين الخرابات على قمة تلةٍ قرب الطريق. وعرفت السبب عاجلًا. رأيت في السهل ما يقرب من مئتي خيالٍ يقتربون من سفح التلة. فذهبت إلى بعض رجالنا، وسألتهم عما يحصل، فأجاب أحدهم بأن الحكومة ستهاجمهم ظلمًا، فسألت: "هل ستدفعون الضرائب"، فأجاب: "نعم، سندفع"، فسألت إن كان باستطاعتي إخبار قائد الخيالة بذلك، فأجاب بنعمٍ، فذهبت إليه وقلت له أن يؤخر مهاجمة المنطقة ليومٍ أو يومين، لأرى ما يمكن فعله في اللاذقية. فأجاب بأنه لن يطلق النار على الناس، ما لم يبادروا بإطلاق النار. فعدتُ وأخبرتهم بذلك، فطلبوا مني أن أعود وأخبر الآغا قائد الخيالة ألا يمس القرية القريبة منهم بسوءٍ؛ فقال بأنه سيدفع ثمن كوب ماءٍ باردٍ إن أخذه من القرية. تابعت ركوبي، وأنا راضٍ لعلمي فيما بعد أن الخيالة عادوا فورًا إلى جبلة. كان منظرًا جميلًا للراكب نزولًا على الجبال، فقد تجمع الخيالة في السهل، وعلى التلال المنحدرة نحوها، حيث تراقب الوضع مجموعاتٌ من الكلبية، وفي أسفل التلال البعيدة كان الرجال منشغلون في مهنةٍ مسالمةٍ، وهي استخراج القمح بترك الثيران تمشي على سنابله.

ونأتي إلى ختام أخبار العلاقة بين المنطقة والحكومة، فقبل نهاية العام حصل اصطدامٌ آخر بين الكلبية وخيالة المدينة، فتبعهم الكلبية إلى جبلة، وقتلوا ابن زعيم المسلمين في اللاذقية، وقد كان مجرد شابٍ يخدم مع عمه في فرقة الخيالة[III]. تعهد العم والأب بالانتقام من الكلبية، ومنذ ذلك الحين، حصلا على فرصٍ كثيرةٍ ليشفيا غليلهما.

وفي السنة التالية تقاتل النواصرة مع أهل البودي، وهو الجزء الجبلي لقضاء بني علي، واصطف مع كلٍ منهم الكلبية والعمامرة، فقاتلوا بعضهم، وانتصر الكلبية كالعادة؛ ولكن كانت تلك خاتمة انتصاراتهم. فقد تصادق زعيم البودي مع الحكومة؛ فاستخدمته ضد الكلبية، وفي نهاية عام 1858، حشدت الحكومة ما يقرب من مئتي رجلٍ مسلحين ببندقيات مينييه[IV] ومدفعٍ صغيرٍ، مع بعض الخيالة جيدي التدريب الذين ذكرناهم في السابق. وكالعادة اختار الزعماء أناسًا من العوام للقتال، وعندما وجدوا أن رصاصات بندقيات مينييه تصلهم حيث يقفون، أُصيبوا بالذعر وتراجعوا. حوصر بعض الرجال في الوادي، وقتل منهم ما يقرب من الأربعين. روعتهم حصيلة ضحايا القتال في ذلك اليوم واليوم التالي، فاجتمعوا في الليل واختاروا خمسةً من أولاد الزعماء، وسلموهم للحكومة في الصباح، وما تزال الحكومة تحتجزهم حتى الآن لإخضاع الناس إخضاعًا تامًا.

[I] يقصد أنهم نهبوا بيوت مشايخ الجهنية. المترجم

[II] قوات غير نظامية في الجيش العثماني. المترجم

[III] المقصود عزت آغا ابن أخي محمود آغا خزندار. المترجم

[IV] Minié. بندقيات حديثة في ذلك الزمن، امتازت برصاصاتٍ كبيرةٍ تتسبب بجروحٍ بليغةٍ. المترجم

لم ترض الحكومة بعقابٍ كافٍ وعادلٍ، بل استغلت الفرصة للتضييق عليهم بكل الطرائق الممكنة، ففرضت ضرائبَ جديدةً، وأرسلت مطالبَ إضافيةً، مخاطرةً بدفعهم إلى حالةٍ من اليأس. لم تعرف الولايات التابعة لتركيا، أنظمةً حكوميةً موحدةً وعادلةً، وبقي الوضع على ما كان عليه قبل 150 عامًا في زمن موندريل[I]. حافظت الدولة العثمانية على حكم بلاد الشام عن طريق شحن العداوات بين العشائر، مستفيدةً من إضعاف العشائر وإخضاعها للعشائر الأُخرى، وسبَّبَ ذلك نشوء عداواتٍ مدمرةٍ بين الجيران، لم تستطع القوات الحكومية لجمها، ولو أرادت ذلك؛ فاضطر جميع السكان إلى حمل السلاح، والدفاع عن أنفسهم بأنفسهم.

لو سمحت لنفسي الإسهاب في الحديث عن هذا الموضوع، سأخبركم الكثير عن الوضع المروع في اللاذقية، ومناطق بلاد الشام الأُخرى بشهاداتٍ لا لبث فيها. ربما أتكلم عن الحاجة الماسة للأمن في بعض المناطق، وعن فساد العدالة الممنهج في مناطق أُخرى. هذه مسؤولية الحكومة التي ترى أنه من الضروري تقوية إمبراطوريةٍ، لا تستطيع حماية رعاياها من القتل والنهب والغبن، ودليلها الوحيد على السيادة، يكمن في جهودٍ متفرقةٍ لجني الضرائب والتجنيد. مما لا شك فيه أن حكامنا يأملون رؤية وضعٍ أفضل، ويصرون على ذلك دومًا، ولكنهم أمروا قناصلهم أن يراقبوا الوضع بهدوءٍ، في الوقت الذي يمر فيه السكان بأوقاتٍ عصيبةٍ. عندما كنت في اللاذقية في نهاية العام الماضي (1859)، كانت الحكومة مشغولةً بحرق قرى الجهنية، وكانت الحكومة تتغاضى عن جرائم القتل، بل كان أحد كبار موظفيها يدبر تلك الجرائم، ولم يجد المسيحيون وغيرهم -ممن كانوا يعانون- من ينصفهم. وكان المكان يزداد إقفارًا كل يومٍ عشرة أضعافٍ، وبدا أنه سيصبح أرضًا بلا سكانٍ. وأصبح عدد السكان في تناقص بدلًا من الزيادة.

قد يُقال إنه من الواضح أن النصيرية هم الملومون على ما آلت إليه أوضاعهم، لكن السؤال هو هل هم ملومون أكثر من حكامهم العاجزين وغير الراغبين في زجرهم عن ارتكاب تلك الفظائع؟ ألن يصبح النصيرية أُناسًا آخرين في ظل نظامٍ حكوميٍ عادلٍ وصارمٍ؟ لو كان ثمة شيءٍ يخافه النصيرية أو يرجونه[II] من مسؤولي اللاذقية المحليين، ستزول الفوضى بسرعةٍ، وسيزداد عدد سكان الولاية الأخصب.

وبذلك أكون قد تحدثت عن القتال بين منطقتي والمناطق الأُخرى والحكومة، قد يعتقد المرء أن العدو الخارجي يوحِّد الناس، لكن الواقع بعيدٌ من ذلك التصور. ذكرت سابقًا أسماء العائلات الخمسة الرئيسة: حسون، وجركس، وعليّ، وأحمد، وعلوش. بينهم عداواتٌ مستحكمةٌ، وبعضها لم يُحَلُّ عن عمدٍ، لكي يُبْقي المطالبُ بحقه الطرفَ الآخر في حالةٍ من الخوف والحيرة. عندما دُحرت قوات إبراهيم باشا خارج الشام، قَتلت عائلةُ حسون زعيمَ عائلة جركس، وحتى الآن لم تُدفع ديته، ولم يقبلها الطرف الآخر. بعد زيارتي الأولى للمنطقة بحثًا عن قطعة أرضٍ، حصل اشتباكٌ قُتل فيه شقيقُ إسماعيل عثمان[III] زعيم المنطقة الحالي، الذي ينتمي لعائلة حسون مع شخصٍ أو شخصين آخرين، فقام الراحل الشيخ حبيب بتصفية حساب دية شخصٍ واحدٍ بعشرة آلاف قرش[IV]؛ لأن عدد قتلى عائلة حسون زاد شخصًا على قتلى الطرف الآخر، ولكن عائلة حسون لم تقبل المال حتى الآن. في أحد الأيام حين كان الرجال يجمعون الأحجار لبناء بيتي، رأيت أحد الرجال يهرول فجأةً نحو شجرةٍ قريبةٍ، ويلتقط سلاحه الذي كان معلقًا عليها، وعرفت السبب حين رأيت إسماعيل عثمان. كان ذلك الرجل أحد الذين سقطوا في القتال لاحقًا.

لا يقتصر العداء على بقية سكان المنطقة، بل يطال سكان القرية التي أعيش فيها، إذ يتحدر السكان من أخوين كانا الجدين الكبيرين لجيل اليوم، وقَتل أحدهما الآخر، وما زال الأحفاد يكنون لبعضهم مشاعر البغضاء. في أحد الأيام،

[I] هنري موندريل (1665-1701)، كاهن من كنيسة إنجلترا، ومؤلف كتاب "رحلة من حلب إلى القدس في فصح العام 1697". المترجم

[II] يريد أن يقول إن النصيرية لا يخشون حكومة اللاذقية، ولا يتوقعون منها أية مساعدةٍ. المترجم

[III] إسماعيل عثمان، أحد مقدمي القرداحة. شُنق عام 1870. المترجم

[IV] ما يقرب من 660 غرام ذهبًا أو 12 ألف جنيه إسترليني، فالاعتماد على سعر الذهب وحده؛ لن يعطينا فكرةً جيدةً عن القيمة الحالية لذلك المبلغ، لأننا بهذه الطريقة نحصر معدل التضخم في سلعةٍ واحدةٍ فقط. وبغياب معدلات التضخم العام التاريخية في سوريا؛ سأعتمد على معلومات التضخم العام التي ينشرها مكتب الإحصاء الوطني في بريطانيا، وحسب ذلك، نحتاج إلى ما يقرب من 122 جنيهًا إسترلينيًا في العام 2018 لشراء سلعٍ كان ثمنها جنيهًا واحدًا عام 1859. المترجم

حين كان الرجال يعملون في أرضي، حصل شجارٌ صغيرٌ، فاندفع الجميع لإحضار السلاح الذي جلبته لهم النساءُ بحماسةٍ. كنت داخل غرفة الصف، وعندما سمعت ضجيجًا خرجت، فوجدتهم يتشاجرون في ساحة الدار. فَصلتُ بينهم بشق النفس، وأجلست بعضهم في مكانٍ مرتفعٍ في الباحة، وذهب الآخرون إلى أعلى القرية. ولدى سماعي صوتهم يصرخون متهكمين، خرجت لكي أهدئ من روعهم، وفجأةً أتى أحد أقربائهم مهرولًا نحو البيوت أسفل القرية، بعد أن سمع بحدوث الشجار. فركض خلفه الرجال الجالسين في ساحة البيت، وقبل وصولي، ضربه أربعةٌ منهم بسيوفهم، فوقع في حفرةٍ مضرجًا بدمائه. أتى إخوته للدفاع عنه، وأصابوا خصومه بجراح؛ وعند وصولي للمكان، رفعته عن الأرض، وأوصلته إلى منزلي. تعهد بالثأر وهو مجروحٌ، وهددهم بمسدسه (الذي لم يكن محشوًا لحسن الحظ)، ولم أستطع تدبر أمره إلا بصعوبةٍ بالغةٍ. بدا وكأنه ليس من صنف البشر، وكان صب الماء البارد عليه الطريقة الوحيدة لمنعه من الإغماء، ومع ذلك فقد تعافى في شهرٍ واحدٍ. جُرح أخاه جروحًا بليغةً، وسَلِمَ رأسُه بفضل دولارٍ[I] كان في قبعته الحمراء، لكن عظم الذراع الصغير تهشم. نزف كثيرًا لدرجة أنني خفت من حصول الأسوأ، ولكن يده شفيت لاحقًا، وبقي فيها عجزٌ صغيرٌ. كان الكلام عن التعويض ممنوعًا قبل معرفة مقدار الضرر؛ وبقي حَيًّا القرية في حالة عداءٍ معلنٍ، وكان من الخطر خروج خادمي النصيري من البيت ليلًا. أصررت على من يدخل بيتي، من أي طرفٍ كان، ألا يكون مسلحًا، ولمس أصدقاؤهم في القرى الأُخرى صوابًا في طلبي هذا. وقبل أن تلتأم جروحهم حدث شجارٌ مع سكان قريةٍ أُخرى في أثناء العمل في الحقول بسبب نقاشٍ تافهٍ، فنسوا عداواتهم الداخلية، واندفعوا جماعةً للقتال. كنت في الصف عندما أخبروني بذلك، وحثوني على التدخل في محاولةٍ لمنع سفك الدماء. ذهبتُ فورًا، ووصلتُ في الوقت المناسب. أطلقوا النار في الهواء استعراضًا، ووجدت صعوبةً بالغةً في الإمساك بشابٍ عنيدٍ؛ لمنعه من الهجوم على خصومه، ولم أستطع فعل ذلك إلا بالترجل على الأرض، والركض نحوه، ثم سحْبِه للخلف. أخبرني مرةً بقصته الحزينة، فزال تعجبي من شراسته. في زمن إبراهيم باشا أخذوا إخوته للتجنيد، وبقي مع أُمه العجوز في بيتٍ سُرِقَتْ معظم محتوياته. بعد ستة أشهرٍ من العراك استطعت مع أصدقاء للطرفين إقناع الجميع بعمل تسويةٍ، وقَبِلَ الرجل المتضرر الحصول على مبلغ 500 قرشٍ من خصومه تعويضًا عن الضرر الذي أصابه؛ وجعلتهم يُقْسِمون على الإنجيل بأنهم سيصبحون أصدقاء، لكن الخادم النصيري -شقيق المصاب- أخبرني أن الكراهية ما زالت موجودةً، وستظهر للعلن يومًا ما.

سأقتبس ما كتبته في سجلّي لأبين للقراء أن الهمجية ليست حكرًا على المنطقة التي أعيش فيها. وأعني قضاء بني علي الذي قلت إنه ينقسم إلى قسمين: القسم الجبلي الذي يسمى البودي، ويحكمه صقر فاضل، والقسم السهلي الذي تحكمه عائلة صقر من قرية عين شقاق، وعائلة "أبو شلحة" أولاد عم عائلة صقر: "في زمن إبراهيم باشا كان أحمد صقر مقدم قرية عين شقاق، فضيَّق على صقر فاضل وعائلته الذين تربطهم قرابةٌ بعيدةٌ بعائلة صقر، وأرسلهم إلى الجيش. منذ سنواتٍ خلت كان منصور أبو شلحة -من أبناء عمومة عائلة صقر- مقدمًا، وأستأجر صقر بن أحمد صقر رجلًا لقتله، وقد جلست مع صقرٍ منذ ثلاثة أعوام[II]. ثم وضعوا له السم، وفي الشتاء أطلق خير بك شقيق منصور النار على رحمان شقيق صقر بن أحمد فقتله. وبعد ذلك قُتل خير بك بيدي صقر فاضل، وسُرقت أغراضه، فذهب أخوه أبو شلحة إلى بيروت ليشتكي، فجعلوه مقدمًا؛ ثم سمعت أن الشيخ حبيب صالَحَ جميع الأطراف"؛ لكن صلحًا كهذا، لا يدوم طويلًا. يسكن "بني علي" جنوب منطقتنا، وقد أخبرني أحدهم أن الكلبية أخذوا بعض ممتلكاتهم، فاستحكمت العداوة بين الطرفين، وما زالت قائمةً حتى الآن. السياسة في تلك المناطق لها طبيعةٌ شديدة التعقيد. أعداء اليوم قد يَتَّحِدون ضد طرفٍ ثالثٍ في الغد، دون أن ينسوا عداواتهم، بل بنية العودة للعداء في الوقت المناسب. كنت أتساءل أحيانًا عن سر بقاء أحياءٍ في هذا المكان! يكبر الرجل، فيصبح عنده طفلٌ أو اثنين، ثم يُقضى عليه في أحد الشجارات المحلية الكثيرة، أو في شجارٍ مع أعداءٍ من الخارج، أو بالاغتيالات السرية، أو بالتسميم. كم من الذين عرفتهم في بداية تجوالي في البلاد قد قُضي عليهم! ذكرت صقر من عين شقاق، ويوجد شابٌ مسيحيٌ من قرية

[I] كانوا يسمون الخمسة شلنات أي ربع الجنيه دولارًا. المترجم

[II] "النصيرية والإسماعيلية"، صموئيل لايد، ص 188.

المزيرعة، جلست معه ووصفته بأنه كان مريضًا[I]؛ سممه سكان قرية فديو السهلية المدمنين على هذا النوع من الاغتيالات[II]. وبالكاد توجد قريةٌ من القرى المحيطة بنا لم يسقط أحد منها قتيلًا في تلك الشجارات زمن وجودي بالمنطقة.

في بداية إقامتي في الجبال، استنكرت قلة ما يزرعه الناس، والآن عرفت السبب، فكلما ازدادت ممتلكات الناس، ازدادت إمكانية تعرضهم لهجمات الأعداء. منذ مدةٍ قصيرةٍ في الجبل، هدد رجلٌ، علنًا، وبحضوري، الزعيمَ بأن يقطع أشجاره في الليل إن لم يتوقف عن مضايقته، وهذا الأمر يحصل كثيرًا.

المضايقات لا تأتي من الحكومة فقط. إذ يستغل الزعماءُ موسم جني الضرائب، لانتزاع ضريبةٍ مضاعفةٍ ممن لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم. يقضم الزعماءُ جزءًا من الضريبة، ويقضم الموظف المسيحي الذي يسجل المبالغ المدفوعة جزءًا آخر، ويأخذ الخيالة الذين يجمعون الضرائب حصةً، ويذهب ما تبقى إلى المسؤولين المحليين في اللاذقية، وإن بقي شيءٌ؛ يذهب إلى الباشا في بيروت. لا تأخذ القسطنطينية[III] پارةً[IV] واحدةً، وأعتقد أنه بالكاد يصل أي مال من الشام إلى القسطنطينية (على الأقل هذا ما يعتقده دافعوا الضرائب)، باستثناء الجمارك التي تجبى في المرافئ، وتُعطى لمزارعي القسطنطينية.

لا تفترضوا عدم وجود أناسٍ كثيرون تواقون إلى تحسن الأوضاع. في الحقيقة، يتمتع بعض الشبان بالشجارات المتكررة، ويتصرف أحد شبان القرية الهمج كالبهائم الضارية، ويبدو وكأنه خُلق لأجل ذلك، وتراه دائمًا موجودًا حيث توجد مناسبةٌ لذلك. وأخبرني في إحدى المرات أنه يترقب موسم الحصاد (وقت الشجار الأساسي)، ثم وضع طربوشه جانبًا، وقال إنه وقت أمثاله من الرجال. يوجد أناسٌ آخرون تواقون إلى الأمان والحصول على فرصةٍ للجلوس بهدوءٍ تحت داليةٍ أو شجرة تينٍ، لكنهم في ظل الأحوال السائدة، لا يرون فائدةً في امتلاك عقارٍ.

يتجول الجميع بسلاحهم، ولا يجرؤ أحدٌ على التفكير بالخروج دون سلاحٍ، ولو في حدود منطقته، إلا إذا كان من طبقة الفلاحين المحمية، ففي كل قريةٍ يوجد من يفلح أرضَ أُناسٍ فقراء مثله تقريبًا، لكنهم كسالى، أو أنهم يعتقدون أنه من العيب أن يفلحوا أراضيهم، مفضلين على ذلك القتالَ والنهبَ، وحين ينتهوا من ذلك يبدؤون بالتباهي والتبجح.

يُذكرني ذلك بقصة بني إسرائيل في عهد القضاة[V]، حين كان كل شخصٍ يفعلُ ما يعتقد أنه الصواب برأيه. سرقةُ الدانيين[VI] بيتَ ميخا[VII] نسخةٌ مطابقةٌ لما يحصل اليوم في جبال النصيرية. نهبوا في وضح النهار، "فَاسْتَدارُوا وَمَضَوا فِي طَرِيقِهِمْ، وَوَضَعُوا صِغارَهُمْ وَمَواشِيهِمْ وَمُمْتَلَكاتِهِمْ فِي المُقَدِّمَةِ. وَكانُوا بَعِيدِينَ جِدًّا عَنْ بَيتِ مِيخا عِندَما اسْتُدعِيَ الرِّجالُ السّاكِنُونَ فِي البُيُوتِ قُرْبَ بَيتِ مِيخا، لَكِنَّهُمْ أدرَكُوا الدّانِيِّينَ. وَنادُوا عَلَى الدّانِيِّينَ، فَالْتَفَتَ الدّانِيُّونَ وَقالُوا لِمِيخا: «ما لَكَ قَدِ اسْتَدعَيتَ رِجالَكَ؟» فَقالَ لَهُمْ: «لَقَدْ أخَذْتُمْ آلِهَتِي الَّتِي صَنَعْتُها وَكاهِنِي وَغادَرْتُمْ. فَماذا تَبَقَّى لِي؟ وَكَيفَ تَقُولُونَ لِي: ‹ما لَكَ؟›» فَقالَ لَهُ الدّانِيُّونَ: «لا تَرفَعْ صَوتَكَ بَيننا، وَإلّا هاجَمَكَ رِجالٌ غاضِبُونَ، وَقَتَلُوكَ أنتَ وَأهلَ بَيتِكَ.» ثُمَّ مَضَى الدّانِيُّونَ فِي طَرِيقِهِمْ. فَلَمّا رَأى مِيخا أنَّهُمْ أقوَى مِنْهُ، عادَ إلَى بَيتِهِ[VIII]".

[I] مثلما ذكر سابقًا، ص 166.

[II] عام 1853 سُمم أحد أفراد عائلة جبور المسيحية من المزيرعة في قرية فديو النصيرية، وكان مسيحيو قرية المزيرعة مرتبطين بكتابة الدم (ميثاقٌ تتعهد بموجبه عشيرةٌ نصيريةٌ بحماية عائلةٍ مسيحيةٍ مثل حماية آل شمسين لعائلة بَشُور) مع بيت الشلف النصيرية، فهجم بيت الشلف على قرية فديو، ونهبوها انتقامًا؛ فأرسلت الحكومة قواتٍ غير نظاميةٍ من فرقة باشبوزق إلى قرى بيت الشلف، فأحرقوا بعضها تأديبًا لهم. المترجم

[III] إستانبول، المترجم

[IV] القرش يعادل 40 پارة. في ذلك الوقت كانت الليرة تصك من الذهب، والقرش من الفضة، والپارة من النحاس. المترجم

[V] مدة استمرت ما يقرب من 4 قرونٍ، جعل فيها يوشع بن نون على رأس كل سبطٍ من أسباط بني إسرائيل رئيسًا، وجعل عليهم جميعًا قاضٍ يحتكمون إليه. المترجم

[VI] أبناء دان بن يعقوب أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر. المترجم

[VII] قصة توراتية. المترجم

[VIII] (القضاة 18: 21-26).

يستحيل أن يدرك المرء الحقيقة الساطعة من تلك القصة، ما لم يعش في مجتمعٍ مشابهٍ. ويذكرني ذلك بحالة إنجلترا في العصور الوسطى، عندما حارب لورد إحدى القلاع لوردًا آخر، بمعزلٍ عن الحكومة المركزية، واستمرت العداوة ما يقرب من 200 عامٍ، وفي تلك الأثناء كان الطرفان يضطهدان الفلاحين الفقراء. ومع ذلك، كانت العصور الوسطى أفضل من بعض مناطق بلاد الشام التي لا سلطة للقانون فيها، فعلى الأقل كانت توجد تشريعاتٌ لحماية الفلاحين، وتحديد أيام الأسبوع التي يُسمح القتال فيها.

من المحزن أن يعيش الإنسان في تلك الأحوال التي تُكبت فيها خصال الإنسان المفيدة، ويكون فيها أصحاب الجدارة الخيِّرون من الخاسرين. من المحزن أن يقفر المكان، وأن نرى قرىً عامرةً، تُحرق، ويُقتل، ويُشرد سكانها، وأن تغزو الأشواك الأراضي الزراعية، في الوقت الذي نأمل فيه أن تدب الحياة في الخرابات أعلى الروابي. لكن الأمور في سنجق اللاذقية الآن، تسير في هذا الاتجاه، وعدد السكان لا يزيد. لا يذكر أحدٌ أن الأوضاع ساءت أكثر مما هي عليه الآن منذ الحرب الروسية[I]. في ذلك الزمن كان هناك شيءٌ من العدالة، وكانت معظم الأماكن هادئةً بجهود القناصل الإنجليز والفرنسيين، لكن الآن، كُفَّت يدي القنصل الإنجليزي، وأصبح عرضةً للتأنيب إن تجاوز حدود مهامه للدفاع عن أشخاصٍ ليسوا من رعايا إنجلترا، ولو كان ذلك التدخل لإنقاذ حياتهم. أين سيجد الفلاح المسكين النصيري والمسيحي العدالةَ؟ لقد تحطمت أماله في تنامي ضعف الحكومة التي لا تحميه، ولا تقدر على حمايته، لأنها وجدت سندًا من أصدقائها الأقوياء[II]، ما رجَّح بقاءها مدةً أكبر في هذه الحالة من العجز.

مع تناقص أعداد السكان، تزداد أعداد وحوش البراري الضارية وزواحفها. ومن المحزن أن تسمع في الشتاء أصوات بنات آوى اللاتي تتغذين على جثث القتلى، وأن ترى أحد الضواري ينظر إليك دون خوفٍ من على بعد عدة أقدامٍ، وأنت راكبٌ في أرض خاويةٍ بين شجيرات الآس. سيؤدي ازدياد عدد السكان إلى تناقص الحيوانات الضارة، أما في الوضع الراهن؛ فإن أعدادها في ازديادٍ. عند تنظيف مزرعتي من شجيرات الآس، ماتت ثعابين كثيرةٌ، وتوجد ثعابين شديدة الخطر في البيت وحوله. في إحدى الأُمسيات رأيت ثعبانًا مميتًا عند دخولي الصف، وكان ينزل فوق الأولاد النائمين؛ فضربته، لكنه استطاع الهروب بين أحجار الحائط.

العقارب منتشرةٌ في المكان، وبالكاد نجد شخصًا لم تلدغه عقربٌ. يزول الألم عادةً خلال 24 ساعةً، ويمكن التخلص منه بعدة قطراتٍ من ماء النشادر[III]، تُؤخذ داخليًا. في أحد الأيام سمعت صوت هرجٍ، قادمٍ من المدفأة، فوجدت عقربا وحريشًا[IV] مشتبكين في قتالٍ عن قربٍ، فكان من السهل التدخل، وتسوية الأمر. وفي إحدى المرات نهضت من النوم في الصباح، فوجدت عقربًا تحتي مباشرةً. يمكن للمرء أن يتجاهل وجود هذه المخلوقات حوله، لكنه لا يستطيع تجاهل عضاتها ولدغاتها.

عندما يتوقف القتال تُرفع الأعلام عادةً. للكلبية ولسكان كل منطقةٍ علمٌ مميزٌ، فعلم الكلبية أبيض، وعلم المهالبة أحمر.

تقسيم الأملاك أحد أسباب الخلافات، فعلى سبيل المثال، والد الخادم النصيري عنه خمسة أبناءٍ من زوجتين، حصل أخواه الكبيران من زوجة أبيه على حصتيهما عندما بلغا سن الرشد. وسيطالب الثلاثة الباقون بحصصهم عند بلوغ سن الرشد، ولن يتبقى للأب شيءٌ يملكه، وسيقوم أبناؤه الصغار بتوفير احتياجاته. وفي بعض الأحوال يحتفظ الأب بحصةٍ مساويةٍ لحصة كل ولدٍ. يضمن الابن للأُمّ دعمًا ماديًا، فعند بلوغه سن الرشد، يستطيع المطالبة بحصته من الأملاك. لا يقسم أبناء القرية أو أفراد العائلة الأرضَ دائمًا تقسيمًا نهائيًا، بل يتركونها مشاعًا، ويتفقون سنويًا على

[I] حرب القرم (1853-1856) بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية التي انضمت إلى جانبها لاحقًا فرنسا، وبريطانيا، وسردينيا. المترجم .

[II] لا بد أنه يقصد بريطانيا، وروسيا، وپروسيا، والنمسا. المترجم

[III] هيدروكسيد الأمونيوم. المترجم

[IV] أم أربعة وأربعين. المترجم

حصة كل حيٍّ أو عائلةٍ بما يتناسب مع مكانة أصحاب الحصص وأعدادهم؛ وينشأ عن ذلك نزاعاتٌ كثيرةٌ. يستطيع الرجل الحصول على زوجة أخيه المتوفى، لو وافق كلاهما على ذلك.

تُحصّل الضرائب بطريقةٍ غريبةٍ. بالإضافة إلى ضريبة الأراضي التي تسمى "الميري"، وضريبة الفردة[I]، أُضيفت منذ عهدٍ قريبٍ على كاهل الناس الفقراء ضريبةٌ ثالثةٌ ظالمةٌ تسمى "العشر[II]"، وكانت تُجبى فقط من دافعي ضريبة الفردة. وعلاوةً على ذلك، في آخر مدة إقامتي في الجبال، طالبتْ الحكومةُ بدفع نصف ضرائب السنة القادمة على سبيل القرض، فدَفعتُ حصتي عن قطعة الأرض التي أملكها في القرية. وازدادت طلبات الحكومة التي ترافقت مع محاصيلَ شحيحةٍ، وارتفاعٍ في ضرائب تصدير التبغ، وحظر إرسال القمح من المدينة إلى الجبال. سبب كل ذلك ارتباكًا شديدةً للسكان، فأخبروني بأنهم سيكافحون حتى النهاية وسيحاولون الخروج للعيش في مكانٍ آخر، بدلًا من الموت جوعًا في هذا المكان.

سأعود إلى موضوع تحصيل الضرائب. ترسل الحكومة عددًا من الخيالة إلى زعماء المناطق، فيوزعونهم على قرىً وبيوتٍ معينةٍ، فيجب على رب البيت تقديم الطعام والعلف لضيفه الثقيل وحصانه، حتى يستلم إيصالًا بدفع الضريبة. وأحيانًا تبقى بعض الضرائب غير مدفوعةٍ، فسألت زعيم القرية كيف يمكن أن يحصل ذلك؛ فأجاب: "في اليوم الأول، نُطعم الضيف جيدًا، ثم نقلل حصته من الطعام حتى لا يبقى لديه شيءٌ يفعله سوى المغادرة". في إحدى المرات استخدم خادمي النصيري خطةً أُخرى. ينمو في اللاذقية الزُّوان بكثرةٍ بين سنابل القمح، ويسبب الخبز الذي يحتوي على زّوان تسممًا أو دوارًا، وقد يسبب الوفاة إذا أكل بكمياتٍ كبيرةٍ. يضع كميةً لا بأس بها من الزّوان في خبز الرجل؛ فيصاب بنوعٍ من الإغماء، ويطلب الرحمة مُغَمْغمًا. دعوني أُضيف أن لفظ الزّوان يشابه كثيرًا لفظ زيزانيا المذكور في الإنجيل، وهو نوع من القمح الهجين يشبهه كثيرًا، ولكنه يختلف عن الزّوان في إنجلترا[III].

ينتقم النصيرية من الحكومة[IV] التي تضطهدهم بالنزول إلى السهول، وممارسة أعمال النهب، كما تفعل معظم قبائل الجبال شبه البربرية، ويبادلون كره المسلمين لهم بسلبهم وقتلهم دون رحمةٍ، عندما يضمنون الإفلات من العقاب. تشتهر منطقتي، وخصوصًا قريتي، بهذا النوع من الجرائم، وكان أشقاء الخادم النصيري وخادمي النصيري الخاص من زعماء تلك العصابات. اشتريت أرضي من هذا الرجل، ولأنه جاري، جعلته خادمي، مقابل طعامه وخمسة شلناتٍ في الشهر[V]. وقد استفادت عائلته من عمله عندي بعدة طرائق، فعلى سبيل المثال، عندما أشتري قمحًا للمدرسة، يضيع ربعه عند غربلة الزوان، وقد وجدت عند المطحنة أن ربعه قد سُرق، وتأكدت من ذلك بعد وزنه، ثم نعطي الباقي لزوجة خادمي النصيري لتخبزه على شكل أرغفةٍ مسطحةٍ، وفي إحدى المرات تواقحت جدًا، فأخذت الثلث أجر خَبزها، وإذا اعترضنا على ذلك، تُضرِب عن العمل، فلا نجد خبزًا نأكله في الصباح؛ بسبب حرد تلك المرأة السليطة.

ارتكب الرجل جرائم كثيرةً في ذلك الوقت، وقُتل أبوه في عملية نهبٍ، وشكرتني زوجته لأني كنت "سبب توبته"، وربما أكون بذلك قد أنقذت حياته. في إحدى المرات جرحه شخصٌ في رجله وهاجمه، فانحنى وأطلق عليه النار، وأرداه قتيلًا، ثم رمى جثته في حفرةٍ عند نهر السن. قتل أحد إخوة الخادم النصيري الكثير من الناس. لا شيء ينخز ضميرهم؛ يقتلون المسلم لأنه عدوهم الطبيعي، ويقتلون المسيحي لأنه نجسٌ. فقد أوضحت سابقًا بالأمثلة أنهم يحتقرون المسيحي أكثر من المسلم، لأن المسلم، على الأقل، يعترف بمحمدٍ ﷺ، مع أنهم قد يحبون المسيحي أكثر من المسلم؛ لأنه غير مؤذٍ، ولأنه مضطَهَدٌ مثلهم.

[I] ضريبة فرضها إبراهيم باشا على الأفراد الذكور فوق سن 14 عامًا. المترجم

[II] ضريبة بنسبة 10% على بعض المحاصيل الزراعية. المترجم

[III] زيزانيا لفظةٌ يونانيةٌ. يُعتقد أن الزوان المذكور في إنجيل متى هو Lolium Temulentum. أما المكافئ لكلمة زوان (بمعنى قمح وزوان) في الثقافة الإنجليزية فهي البيقية Tares، واسمها العلمي Vicia. المترجم

[IV] أعني بذلك الحكومة المحلية دائمًا. ومع عيوب حكومة القسطنطينية، وعجزها من تلك المسافة البعيدة؛ إلا أنها عادلةٌ مع رعاياها المختلفين.

[V] ربع جنيه إسترليني. المترجم

سأقتبس من سجلٍ كتبته في ذلك الوقت عن حادثةٍ حصلت في بيت الشيخ حبيب. في إحدى الأمسيات كنا نجلس حول نارٍ موقدةٍ بحضور أناسٍ أتوا إلى بيت الشيخ لحل نزاعٍ على قطعة أرضٍ. تحدث رجلٌ من عائلة الوحش في وادي بيت أحمد (في منطقة الكلبية) عن إحدى رحلاته بالقرب من قلعة الحصن. رأى الرجل وجماعتُه شخصين مسلمين، فقيدوهما، وألقوهما على جانب الطريق، وقال الرجل إن شخصًا آخر حاول أن يطلق تنبيهًا؛ فقتله ورماه بين شجيرات الآس، ثم سألوه عن دين القتيل، فأجاب بأنه مسيحيٌّ. ظهر الاستياء على الشيخ حبيب، فقلت للرجل إنه مذنبٌ بتلك الجريمة، ويجب عليه أن يبرر لنا فعلته؛ فضحكوا من كلامي. قال الشيخ حبيب إن الجلوس معهم حرامٌ، فقال شقيق الرجل مُبرِرًا إن "أباهم مات، وتركهم فقراء".

قُتل منذ مدةٍ قصيرةٍ خمسة بائعين متجولين مسلمين في نفس المكان.

التقيت في منطقةٍ بعيدةٍ رجلًا كان يرافق خادمي في رحلات النهب، وكان خادمي يقطع مسافةً كبيرةً للوصول إليه، ثم يقطعان مسافةً كبيرةً أُخرى في السهول ليلًا، ويعودان بسرعةٍ لا تصدق. وإذا داهمهما الفجر، يختبئان مع غنائمهما في أحد الكهوف حتى يحل المساء. عندما تُكتشف السرقة، ويصل الخبر إلى مسامع الحكومة، يُرسل زعيم المنطقة للمطالبة بالمسروقات، لكن اللصوص لا يعيدون المسروقات، قبل أن يحصلوا على حلوانٍ من أصحابها، وهذه مكافأةٌ على السرقة.

عندما كان خادمي يرافقني إلى جبلة أو إلى أماكنَ أُخرى، كنا نلتقي أناسًا فيقول: "آه، أعرف هذا الرجل، لقد نهبته أو نهبت أخاه".

في أثناء إقامتي عندهم، اعتزل خادمي وآخرون السرقة بالكامل. وجدت له أعمالًا أُخرى يقوم بها، فكنت أُرسله لجمع بيض الطيور، أو لمرافقة خادمي المسيحي المكلف بشراء الزبدة أو القمح، أو لإيصال رسائل في الجبال. كنت أحيانًا أُوكل إليه مهمةً صعبةً مثل مساعدة المسيحيين في تقطيع وتحميل الخشب؛ فيعود متعبًا وغاضبًا، بعد أن فعل ما بوسعه للتهرب من مهماته. أكثر ما كان يضايقه تسميةُ المرأة له بالحطاب الصغير؛ فكان يقول: "آه، ما كان عليَّ أن أعمل هذا". كان التعامل معه صعبًا، فتارةً تراه مبتسمًا وتارة عابسًا.

لا ينهب هؤلاء القومُ الأقوامَ الأُخرى فحسب، بل ينهبون بعضهم أيضًا. شعارهم: "ليأخذ من يقدر على الأخذ، وليحتفظ بما عنده من يقدر على الاحتفاظ".

أنتقل الآن للحديث عن المساوئ الأخرى للشخصية النصيرية؛ فبعد ما تقدم، سيصبح القارئ مستعدًا للأسوأ. كيف يمكن لأُناسٍ يعتنقون الدين الذي وصفناه أن يكونوا خالين من هذه العيوب؟ تَغرس هذه الديانة في النفوس عمل الخير "للإخوان"، والامتناع عن أذيتهم، والابتعاد عن الزنا والكذب والغيبة، والتذكر بأن "المؤمنين حبلهم متصل بحبل مولاهم"، ومن يؤذيهم يؤذيه، والتصرف الحسن في بيوت الله، والتواضع دون زهوٍّ ولا تبهرجٍ بالزينة، والامتناع عن الحديث والضحك وقت الصلاة، حين تكون "الجوارح كلها متفرغةً لذكر الله". كل ما ذكرته سيرد لاحقًا في الخطبة في الفصل التالي. واستعاروا من الإنجيل المبدأ العظيم للواجبات تجاه الجار: "حتى يرضى لأخيه كما يرضى لنفسه، ويكره له كما يكره". لكن هذه الوصايا لا تشمل، باعترافهم، الغرباءَ؛ وتكاد تكون مجرد كلماتٍ، ولو بين "الإخوان". لا يُلقن الأطفال تلك التوجيهات الجيدة، بل يتعلمونها بعد أن يكون وقت الاستفادة منها قد مضى. لا يستخدم المشايخ المواعظ باستثناء مقولاتٍ قليلةٍ يغرسونها في الأذهان، وهم معروفون بانشغالهم الشديد في جمع الصدقات، ويخافون الدفع عكس التيار؛ كي لا يورطوا أنفسهم في مشكلاتٍ هم في غنىً عنها؛ ولذلك فإن حالة المجتمع أشبه بجهنم على الأرض.

أعتقد أنه من المستحيل فهم القوة الكاملة لكلام القديس بولص عن الشر عند الكفار في زمنه، دون العيش أو التعامل مع قبائلَ بربريةٍ منسيةٍ منذ زمنٍ بعيدٍ مثل النصيرية الذين لا يردعهم دينٌ ولا حكومةٌ مدنيةٌ. لم أدرك معانيها في السابق، لكنني أحسست بها بالكامل بعد أن أقمت في الجبال. سأشير إلى الإصحاح الأول في رسالة بولص

إلى أهل رومية[1]: "إِنَّهُمْ مُمتَلِئُونَ مِنْ كُلِّ إِثمٍ وَشَرٍّ وَأنانِيَّةٍ وَخُبْثٍ. وَهُمْ مُمتَلِئُونَ حَسَدًا وَقَتلًا وَخِصامًا وَخِداعًا وَحِقدًا. مُحِبُّونَ لِلنَّمِيمَةِ، مُفتَرُونَ عَلَى الآخَرِينَ، كارِهُونَ للهِ، وَقِحُونَ، مَغرُورُونَ، مُتَباهُونَ، مُختَرِعُونَ شُرُورًا، لا يُطِيعُونَ وَالِدِيهِمْ، حَمقَى، لا يَحفَظُونَ وُعُودَهُمْ، خالُونَ مِنَ الحَنانِ وَالرَّحمَةِ". تجلت جميع تلك الصفات السيئة بفظاعةٍ في الناس من حولي، مثل عدم طاعة الوالدين، والحسد، والخصام، والنميمة، وغيرها.

عند قدومي إلى الجبال لبدء أعمال البناء، نُصبت خيامنا فوق بعض بيوت القرية، كما أسلفت، وكان ضجيج الشجار يعلو كل صباحٍ ومساءٍ. وكان الأخ يرفع سيفه في وجه أخيه، ويلعن أباه وأمه دون خوفٍ، ولا حياءٍ. كانت العودة إلى داخل البيت كدخول الجنة بالمقارنة مع خارجه؛ ومع بزوغ الفجر، يبدأ صياح الرجال والنساء بأبشع وأقذر الألفاظ.

في بعض الأوقات يبدأ الحسد بفعل فعله، فتبدأ الغيبة؛ لمنع عمل الخير، ولو مع أحد الإخوان؛ وتكفي رؤية أحدهم يحسن لآخر، حتى ينسى كل الإحسان الذي فعله معه. من الصعب أن أُصدق أن نكران الجميل الذي رأيته هنا يمكن أن يحصل في مكانٍ آخر، لولا أن فهمت من قراءتي لتقارير المبشرين أن نكران الجميل هو القاعدة، وليس الاستثناء، عند الهمج وأشباه الهمج.

في البداية وقعت عقدًا لبناء بيتي، ثم لاحظت أن عمال البناء الذين بلغ عددهم بين ثلاثين وأربعين شخصًا، كانوا يعملون نصف الوقت فقط، ويختبؤون للراحة. وفي أول يوم عملٍ استأجرت ثلاثة عمالٍ، كان أحدهم من أهالي قريةٍ أُخرى، فقد وجدته رجلًا كادحًا. أثار ذلك استياء رجلٍ مسنٍ في القرية، فهرول إليه وقال: "لن ترفع حجرةً أُخرى"؛ فانتظرت لأرى ما سيقول الحاضرون، فاصطفوا معي، فأخبرتُ الرجل المسن بأنني، كرجل إنجليزيٍ، أحسست بالضيق، وإذا كان البناء سيحصل تحت الضغط، فلن أبني أبدًا. وأخبرت من طالبوا بالعمل أنه لا عمل عندي سوى هدم ما بُني حتى الآن، أو بناء حائطٍ يصل إلى اللاذقية. باتخاذي موقفٍ فوريٍ، قَلّتْ المشكلاتُ التي واجهْتها فيما بعد؛ لكن جيراني كانوا منزعجين جدًا، واستمرت نقاط الخلاف بالظهور، فتصورهم لأهميتهم وحقوقهم كان على مستوىً عالٍ. إذا غضبوا؛ لعنوا ديني في بيتي، ولكن من وراء ظهري، وبعد قليلٍ يعود لهم التهذيب. في إحدى المرات شاهد معلم المدرسة الإنجليزي أحدهم يسرق بطيخي، ويخفي القشر تحت شجيرات الآس. وعند مواجهته بذلك جن جنونه، ومشى في القرية يشجب المعلم، وسماه "أبو طنجرة"، في إشارةٍ إلى قبعته. وبعد يومٍ أو يومين، رأيته جالسًا يأكل بهدوءٍ في إحدى الغرف في بيتي. لم أستطع تمالك نفسي، وأخبرت خادمي النصيري أنه من العيب عليه أن يسمح لشخصٍ مثله، بالدخول إلى بيتي، بعد كل ما قاله وفعله. وكاد المذنب أن ينفجر غضبًا، ولكن بعد مدةٍ قصيرةٍ في عيد القوزلة، أتى مع آخرين لإلقاء السلام عليّ. وكان قبل ذلك قد سأل الطباخَ ما عساه أن يفعل للتقرب مني، وقبل أن أستطيع إيقافه قبّل الأرض، ثم رجلي. تذكرني هذه التصرفات بالأولاد المدللين، فمرةً أنا الأب والسلطان، ومرةً أخرى لا يجدون نعتًا قبيحًا يليق بي.

لا شيء يرضيهم؛ حين يجلس خادمي معهم على الطعام، يأخذون الخبز من فمه كالجراد بعد أن ينهوا طعامهم. ومن أكبر الإهانات أن ألمح إليهم أني أفضل عدم حضورهم في أوقاتٍ معينةٍ، وفي بعض الأوقات كنت أخاف أن يأكلوني بكل ما للكلمة من معانٍ. عندما يولد طفلٌ في مكانٍ قريبٍ، تأتي النساء، بما في ذلك نساء الزعماء، لطلب الزيت من أجل دهن الطفل، وتأتي امرأةٌ أُخرى لطلب الرز للطفل المريض، فيحبون الرز فجأةً، ويصبح وجبةً لهم. ومثل كل الفقراء، الطريق إلى قلوب النصيرية تمر عبر معدتهم التي يحبونها حبًا جمًا؛ فيقطعون أميالًا للوصول إلى بساتين جبلة، والحصول على بعض الفاكهة الفجة.

إكرام الضيف إحدى مناقبهم. وهم يقولون إن للمرء أن يفعل بهم ما يشاء؛ إن أطعمهم. ومن "يعطيهم خبزًا ليأكلوا" يكون شخصًا منزهًا. وبالتالي مشايخهم أسخياء، وقد ساقوهم لي مثالًا؛ لتشجيعي على أن أحذو حذوهم. كان من

---

[1] الآيات 29-31.

العبث أن أقول إنني سأحذو حذوهم بصدرٍ رحبٍ؛ لو سُمح لي فعل ما يفعلونه من السؤال بيدٍ والعطاء باليد الأُخرى، لكنني لا أستطيع أن آخذ على كاهلي مسؤولية إطعام المنطقة بأسرها، وأنا أشتري كل شيءٍ بأغلى الأسعار.

وقد لاحظ الدكتور تايلور أن: "الجود وحسن الضيافة من أسمى الفضائل عند العرب. وتلك خاصيةٌ موجودةٌ دائمًا عند أشباه البرابرة، فاليد المفتوحة تُكَفِّر عن كل المساوئ عند عوام جميع الأقوام، لأنهم يلمسون مزاياها بأنفسهم، ولأن أولئك الناس وصلوا في تحضرهم إلى درجة أنهم أدركوا جيدًا مفهوم الملكية، ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى اكتشاف أن التبذير ذنبٌ، وأن الحرصَ فضيلةٌ[I]".

يأتي الناس أليَّ طلبًا للمساعدة، ويتباهون بذلك في بيوتهم. يتوقع كل الزوار دعوتهم للطعام، ولو قدموا من مكانٍ يبعد نصف الساعة. ومن الفظاظة والجشع ألا يصرّ المرء على ضيفه بالأكل، ويحلف يمينًا بأنه سيأكل. حسن الضيافة أمرٌ هامٌ عند الجوعى والفقراء.

أما موضوع الفضيلة، فقد تكلمت عنه سابقًا، وبرأتهم من أسوأ ما اتهموا به. وقد لا يكونون أفسق من الأمم الغربية. يحافظ الزواج المبكر على الفضيلة، ومن ناحيةٍ أُخرى تتعزز الرذيلة بتجميع العوائل في غرفةٍ واحدةٍ، وترك الإناث بلا دينٍ وبلا تعليمٍ.

يقول لين في وصف مصر[II]: "يمكن بسهولةٍ تصور الآثار المفسدة لحرية الطلاق على الجنسين، تزوج كثيرٌ من رجال البلد عشرين أو ثلاثين مرةً، وربما أكثر في مدة عشرة سنين، وبعض النساء في منتصف العمر قد تزوجن أكثر من عشر مراتٍ على التوالي". لا يتمادى النصيرية إلى هذه الدرجة في الفجور، لكن الطلاق أمرٌ اعتياديٌ عندهم. لم ينتج من عدم ارتدائهن الحجاب زيادةً في المفاسد.

وبمناسبة الحديث عن النساء، يجب أن أعترف أنهن كادحاتٌ، ويمتلكن بعض الصفات التي تعوض عن مساوئهن. ولسوء الحظ، في أمور العنف والكلمات النابية، يقلدن الرجال، ويتفوقن عليهم أحيانًا.

بوجود آباءٍ وأمهاتٍ من هذا النوع، لا داعي للقول ما ستكون عليه حال الأولاد في استخدام الكلمات البذيئة والرذائل الأُخرى. لم يصدمني شيءٌ، كما صدمني عدم اكتراث أولاد المدرسة بمنظر الدماء عند حصول قتالٍ في القرية، بل تراهم مسرورين بهذا المشهد المشوق، ويجعلونه موضوعًا للمزاح.

حلفان الأيمان أمرٌ مترسخٌ لا طارئٌ عند الكبار والصغار. يحلفون أيمانًا لا داعي لها، وقليل من كلامهم يقال دون حلفان. مفردات الحلفان في جملهم أكثر من بقية كلماتها. وعندما أُحاججهم في هذا الموضوع، يخبرونني بأن عليهم أن يحلفوا كي يصدقهم الناس؛ فأصبحوا يحلفون كذبًا دون خوفٍ.

احتجت إلى وقتٍ طويلٍ لتعليم الأولاد كيف يتركون هذه العادة السيئة. وحين علمتهم قول "نعم" سمّوا ذلك "الحلفان بنَعَم". لأنهم يعتقدون أن الجمل التوكيدية يجب أن تكون مشفوعةً بيمينٍ. وعندما يودون الإجابة بنعم يقولون: "بِحَقِ نعم". فسميتهم "بَيْتْ حق نعم". وفي أحد الأيام سمعت أحد الأولاد الصغار في المدرسة يكرر في حديثه قول "ذلك الشيء"، فلم أفهم قصده في البداية، لكنني أدركت أنه يملأ الفراغ الذي نتج عن عدم الحلفان. ذكرت سابقًا أنهم يحلفون بالمزارات بين بعضهم؛ أما عند الحكومة، فيحلفون بالسيف والقرآن.

من المعروف أن الكذب إحدى المساوئ المنتشرة عند الأمم الشرقية؛ فهم لا يجيبون مباشرةً على سؤالٍ مباشرٍ، بل يجيبون بسؤالٍ لا يرجون من ورائه الحصول على معلوماتٍ، بل لكسب الوقت لأنهم ينوون الكذب، ويفكرون في نوع الكذبة وشكلها ولونها، ولأنهم يخشون أن يلزموا أنفسهم بشيءٍ، إن ظهر في كلامهم أثرٌ للحقيقة. ديانة النصيرية

[I] "تاريخ المحمدية وطوائفها"، تايلور، ص 57.

[II] "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الأول، ص 251.

سريةٌ، وهم ملزمون بالحفاظ على سريتها تحت طائلة أشد العقوبات، وبالإضافة إلى براعتهم في الكذب، فقد تعاقدوا على عادةٍ جديدةٍ، وهي الخداع الذي يستخدمونه كدرعٍ واقٍ. لا يوجد أجمل من كذبهم.

السُّكْرُ إحدى مساوئهم التي يمكن أن تكبر لو توافرت إمكانيات الانغماس فيها؛ ويفرط الكثيرون في الشراب في أعيادهم السنوية، فيشربون عرقًا يجلبونه من المدينة، وعرقًا يُقَطَّرُ في الجبال من التين المجفف، وهو نوعٌ من العرق يصيب من يسرف في شربه بنوعٍ من الجنون.

هذه بعض مساوئ النصيرية، وخصالهم السيئة، ولن يتعلموا أشياء أفضل بذهابهم إلى المدن، ولا بمخالطتهم المسلمين وأهالي المنطقة المسيحيين. ويبدو أن سنجق اللاذقية فاسدٌ بأكمله. يتعلم النصيرية أشياء سيئةً من أهل المدينة، إذ يعتاش الكثير من سكانها على التجارة مع النصيرية، وبسبب هذا الاحتكاك مع النصيرية ينحدر مستوى أهل المدينة عن بقية أبناء دينهم في المناطق الأُخرى. تجنبت الحديث عن فساد سكان اللاذقية لأسبابٍ معينةٍ، لكنني سأعطيكم مثالًا عن جهل المسيحيين. أصبح خادمي ملمًا بعض الشيء بالإنجيل في أثناء إقامته معي، فسمع أحد القساوسة يوبخ طفلًا، لأنه تكلم في الكنيسة، بالعبارة الشائعة: "يلعن أبوك". فسأله خادمي: "أبتاه، هل تجوز اللعنة؟"، فأجال القس: "إنها من الشفاه فقط". فسأل خادمي: "لكن ألا يقول كاتب المزامير أَقِمْ يَا رَبُّ حَارِسًا لِفَمِي". فأجاب القس: "هذا فقط في الإنجيل الإنجليزي".

لا أستطيع التغاضي عن ذكر حادثةٍ تُظهر كم هي رخيصةٌ الحياة في نظر الناس، وفي نظر المسيحيين، وكيف يتساهلون في موضوع القتل. حصلت جريمةٌ مروعةٌ في أثناء إقامتي في اللاذقية منذ عامين، وبعد عودتي من إنجلترا التي أرسلوني إليها بدواعي المرض. حصل حال وصولي ما يلي: كانت ابنة أحد التجار المسيحيين المحترمين على علاقة غراميةٍ مع الخادم. ولتسهيل هذا الاتصال الآثم لجأتْ إلى السم، وأعطت الخادم الزرنيخ ليدسه في طعام العائلة. تناول الطعام 16 شخصًا، ومات الأب فقط. قبضت الشرطة على الخادم، وأخذوه ليلًا إلى القبور، وأخافوه؛ فاعترف بارتكابه الجريمة. أمسك به المسيحيون الروم في المدينة، وآثروا تهريبه إلى الجبال. وعند صعودي إلى منزلي رأيته في الساحة، فطلبت منه أن يغادر المكان فورًا. وعند نزولي إلى المدينة، سألت أحد المسيحيين الروم من أصحاب النفوذ أليس من العار السماح لشخصٍ مثله بالهرب؟ فأجابني: "يا له من مسكينٍ، لقد قسى عليه المسلمون وظلموه"، فهرب كي لا يعاقب المسلمون مسيحيًا. فسألت ماذا سيحل بالفتاة، وكان الجواب: "لا شيء"، اتقاءً لفضيحة العائلة. ومنذ زمنٍ قريبٍ عدت إلى بيتي، فوجدت أنه مازال هناك، ووجدت عريضةً تافهةً كتبها للحاكم قائلًا إن المسيحيين اتهموه زورًا. كان وجودي في القرية يخيفه، وأخبروني أنه رحل إلى طرسوس؛ ولم يغير الاشتباه بارتكابه لجريمةٍ مروعةٍ من تصرفات النصيرية معه.

عندهم خصلةٌ حميدةٌ، وهي حماية الضيف، مع أنهم قد يأكلونه بالمعنى المجازي، ولكن تلك الخصلة الحميدة تصبح سيئةً عند تطبيقها على من لا يستحق، وهذا ما يحصل عادةً.

وعندم خصلة حسنةٌ أخرى يشتركون فيها مع البهائم، وهي حبهم لأولادهم الذي لا يسبقهم فيه أحدٌ.

ليس عند النصيرية أصدقاء كثرٌ من غير جنسهم، ولذلك فالابتعاد عن الجبال مدةً طويلةً كالموت بالنسبة إليهم، وهم يكرهون زيارة المدينة، ولو كانت زيارةً قصيرةً.

سأعطي الآن بعض الملاحظات على مظهر النصيرية، وطعامهم، وأسلحتهم، ومساكنهم.

أفضل شيءٍ أقوله عن مظهرهم هو بعض الاقتباسات عن السيد والپول، لأن وصفه دقيقٌ: "ضخامة بنيتهم حسنةٌ، وعظامهم وعضلاتهم أكبر من باقي الشرقيين، وأسمر من العثمانيين، وأكشف من العرب، والشعر البني شائعٌ عندهم.

البنات الشابات جميلاتٌ، وبشرتهن بيضاء، وشعرهن كاشفٌ، وعيونهن سوداوات كالفحم، ويوجد نوعٌ من الجَمال النادر من العيون الكاشفة، والشعر والحواجب السوداء كالفحم"[I].

يتسلحون ببندقياتٍ طويلةٍ ذات زند له صوانةٌ، وبارودٍ خشنٍ يصنعونه عادةً في الجبال. من المعتاد أن تخفق بندقياتهم في إطلاق النار بقدر ما تنجح، وهذا مضرٌ جدًا لهم في القتال. عندهم أيضًا سيفٌ أعقف، دائمًا ما يكون ثلمًا، وقليلًا ما يصلحونه، ولا يستخدمون سيوفهم بطريقةٍ علميةٍ. عندما يحتاجون لمادة الرصاص، يستعيرونها من سقف مزار جعفر الطيار، ثم يرممونه في وقتٍ لاحقٍ. يحملون كميةً قليلةً من الكرات[II] من قياساتٍ غير نظاميةٍ، فلا يصيبون أهدافهم. لم أُشاهد رماةً جيدين بينهم، وهم يعدّون الطلقة التي تسير في الهواء إنجازًا. وعلى الرغم من شجاعتهم، فقد أظهر قتالهم الأخير مع الحكومة عدم قدرتهم على مواجهة قواتٍ نظاميةٍ، فقد كانت أعدادها صغيرةً، فيما تجمع ما يقرب من ألفي أو ثلاثة آلاف نصيريٍ. أثبتت الحرب في المغرب أن القوات نصف المدربة، لا يمكنها فعل الكثير في مواجهة القوات الأوروبية بأسلحتها الحالية[III].

منازلهم سيئة البناء، ولها بابٌ واحدٌ فقطٌ، دون نوافذ ولا مداخن. وتبنى بشكلٍ واحدٍ: أربعة جدرانٍ من أحجارٍ غير مرتبةٍ وغير مصقولةٍ، تُكدّس فوق بعضها في صفين اثنين، توضع بينهما حصياتٌ. يستند السقف إلى أعمدةٍ خشبيةٍ تحمل عوارض، تستند إليها شعبٌ أصغر فأصغر، يوضع فوقها نبات الآس أو الجولق، وفوقها طبقةٌ من ترابٍ بسماكة عدة بوصاتٍ، تُطَيّن عند اقتراب فصل الشتاء. وفي الداخل مدفأةٌ، فالوقود وفيرٌ، وهذا يعطي المسكن جوًا من الراحة. ويوجد بساطٌ ولحافٌ أو اثنان، وإناءٌ من الطين لحفظ القمح ولإكمال أثاث البيت.

تحدثت مع أحد المشايخ عن تفوق أوروبا، وحالة النصيرية البائسة، فقال إنه لا يشاركني الرأي، فالجميع هنا عندهم بساطٌ من اللباد، ولحافٌ، وطعامٌ كافٍ.

أما بالنسبة إلى الطعام فهو من النوع العادي جدًا، ومع ذلك فهم ليسوا في وضعٍ شديد السوء، وإذا أخذنا المناخ بعين الاعتبار، نجد أن بؤسهم أقل من بؤس سكان المدن الكبيرة، بما في ذلك مدن إنجلترا. جل ما يتمنوه الأمان على أرواحهم، وامتلاك عقارٍ. ولو حصلوا على ذلك، ستبقى قلوبهم معلقةً بالطعام لمئة عامٍ قادمةٍ. طعامهم الأساسي البرغل، وهو قمحٌ يُسلق ويُجفف، ثم يُحفظ، ويُطحن، ثم يُسلق مرةً أُخرى مع قليلٍ من الزبد المسال. نادرًا ما يأكلون اللحم، وفي الصيف يتناولون البطيخ والتين الطازج، ويأكلونه مجففًا في الشتاء، مع القليل من الزبدة والحليب. ويُعدُّ الرز رفاهية نادرةً[IV].

تلك كانت صورةٌ تُظهر أوضاع النصيرية الحالية والمناطق التي يعيشون فيها، بالطريقة التي تجرأت بها على الوصف. إذا كان القارئ يعتقد أنها مأساويةً، أؤكد له أنها قد تكون مشوهةً لخلوها من جميع التفاصيل، لكن ليس فيها أية مبالغةٍ؛ ومع وجود ما جذبي للعيش هناك؛ بقي المشهد محزنًا. كنت دائمًا أُواسي نفسي ببعض أبيات الشعر من كتاب "السَنة المسيحية":

"تأمّل مَنْ أنتَ، وأين أنتَ، مجردُ آثمٍ في دنيا الحزن".

[I] "النصيرية أو الحشاشون". فريدريك والپول، الجزء الثالث، ص 345. سيجد القارئ ملاحظاتٍ أخرى على اللباس وغيره من الأشياء.

[II] كانت تسمى "كلل"، جمع "كل" (تلفظ الكاف مثل الجيم المصرية). المترجم

[III] على الأرجح يُلمِّح إلى معركة إسلي بين المغرب وفرنسا عام 1844، حين كان التفوق العددي في صالح المغرب، وكانت الغلبة للقوات الفرنسية. المترجم

[IV] لم يكن شرب المتة شائعًا حتى نهاية القرن التاسع عشر، حين بدأت هجرات السوريين إلى أمريكا الجنوبية، وجلب العائدون منهم تلك العادة إلى سوريا. المترجم

يبدو أنه ما يزال لله شأنٌ مع الساكنين في أرض الشام[I]، "لا يُوجَدُ صِدقٌ وَلا رَحمَةٌ وَلا مَعرِفَةُ اللهِ في أهلِ هَذهِ الأرْضِ. بَلْ هُناَكَ لَعنَةٌ وَخِداعٌ وَقَتلٌ وَسَرِقَةٌ وزنىً وَفَوضَى وَسَفكُ دَمٍ لا يَتَوّقَّفُ. لِذَلِكَ سَتَجِفُّ الأرْضُ، وَسَيَذْبُلُ سُكّانُها. وَسَيُطرَدُ النّاسُ مَعَ الحَيواناتِ البَرِّيَّةِ وَطُيُورِ السَّماءِ، وَيَتَلاشَى سَمَكُ البَحرِ. عَلَى قِمَمِ الجِبالِ قَدَّمُوا ذَبائِحَ، وَعَلَى التِّلالِ أحرَقُوا بَخُورًا. فَعَلُوا ذَلِكَ تَحتَ أشجارِ البَلُّوطِ وَالحُورِ وَالبُطمِ، لأنَّهُ كانَ لَها ظِلٌّ جَمِيلٌ[II]".

لم تكن أخبار مهمتي التبشيرية من ضمن موضوعات هذا الكتاب؛ ولذلك أغفلت الإشارة إلى المشكلات التي أدت إلى إنهائها السابق لأوانه. وربما يكون من بين القراء بعض الأصدقاء الطيبين الذين ساعدوني في المدرسة؛ لهؤلاء أقول إنني اضطررت بسبب المرض المفاجئ إلى تعليق أشغالي، ولكن عندي أسبابي التي تجعلني أرجو نتائجَ طيبةً من البعثة؛ وإن كان في العمر بقية، أنوي العيش مجددًا مع النصيرية، وعمل ما بوسعي لإفادتهم[III].

[I] "أرض إسرائيل" في الأصل كما وردت في سفر هوشع. المترجم

[II] سفر هوشع (4: 13،3،2،1).

[III] كما ذُكر في تصدير الكتاب، لم يمتد العمرُ بالمؤلف حتى يرى كتابه المطبوع. ومع ذلك، فالاحتمال كبيرٌ بظهور النتائج الطيبة التي توخاها.

الفصل التاسع

مقتطفات من "كتاب المشيخة"

أعتزم تخصيص هذا الفصل لوصف المخطوطة النصيرية، وترجمة أهم فصولها. أردت ترجمتها بالكامل، ولكنني قررت أن أكتفي بإعطائكم ملخصًا لمحتوياتها، والمقاطع التي أشرت إليها في الفصول السابقة؛ والسبب في ذلك أنني سبق أن أعطيتكم أهم ما فيها، ولأن نصوص المخطوطة متشابهةٌ لدرجة أنه بإمكانكم تكوين فكرةٍ عامةٍ عنها من إحدى أفكارها. وقد استفدت منها في كتابة بعض الملاحظات على كتاب تعليم الديانة.

تتألف المخطوطة من 188 صفحةً بحجم 12 مو[I]، وعنوانها "المشيخة" أو "كتاب المشيخة". وهي مكتوبةٌ بخط يد الشيخ محمد من قرية بشراغي[II]، الذي يقول إنه نسخها بمناسبة منح ابن أخيه[III] عليّ ابن الشيخ عيد صفةَ المشيخة في العام 1239 هجري (1824 ميلادي). كُتبت الخاتمةُ بخطٍ سيئٍ جدًا، ويعذر الشيخُ نفسَه ملقيًا اللوم على رداءة الحبر. وقد كُتبت معظمُ أقسام المخطوطة بخطٍ جيدٍ، لكنها ملأى بأخطاءٍ قواعديةٍ سخيفةٍ، لا يمكن تبريرها، وتوجد أخطاءٌ أُخرى أيضًا[IV]. وقد وُصف عليٌّ بكلمة "مُفَزِّع"، في حين كان المقصود "مَفْزَع"، فأصبح عليٌّ مخيفًا، بدلًا من أن يكون الشخص الذي يلجأ إليه الناسُ.

يحتوي هذا الكتاب على جميع المكونات الأساسية للدين النصيري. ولأنه كُتِب ليكون دليلًا، فقد اشتمل على جميع صلوات الأسرار المقدسة وغيرها، ويُختَتَمُ بوصف طقوس عملية الإدخال في الدين، ولهذا الكتاب ترتيبٌ معينٌ. ففي أوله، نجدُ أدلةً على ألوهية عليّ، وإشاراتٍ إلى الثالوث، والمعنى، والاسم، والباب، والمراتب، ووصْفها، وأسماء كلٍ منها، مبتدئًا من الأسفل، ومارًا بالأيتام، والباب، والاسم، والمعنى، وأسماء عليّ. وبعد شهادة محمدٍ ﷺ لعليٍّ، نجد نصوص القداسات المختلفة، ووصف القداس، وأخيرًا عملية الإدخال في الدين، وخطبة القداس.

القسم الأول: يبدأ الكتابُ بإثبات ألوهية عليٍّ من شهادته لنفسه في شرحه لآياتٍ قرآنيةٍ جعل نفسَه المقصود بها، ومن خُطبٍ عديدةٍ قالها على المنابر. وينتهي هذا القسم، على غرار بقية الأقسام، بابتهالاتٍ لعليٍّ بحق كل ما توسلوا به، أن يُقَدِّس ويرحم أرواح الإخوان المؤمنين الغائبين والحاضرين، وينعم عليهم بالخيرات.

القسم الثاني: يبدأ هذا القسم بحديثٍ عن محمدٍ ﷺ، بما معناه أن من يقترب من الله، يقتربُ اللهُ منه. "ما طلبني عبدي المؤمن وجدني، لأن السماوات والأرض لم تساعني ولم يساعني إلا قلب عبدي المؤمن، لأن قلب عبدي المؤمن حرمي، وحرام على حرمي أن يسكن فيه أحدٌ غيري"، وينتهي هذا القسم بابتهالةٍ إلى عليٍّ، لكي يُذَكِّر المؤمنين ما نسوا من أُمور دينهم.

[I] حجم ورق (5–5.5 × 7.125–7.5) بوصة. المترجم

[II] قرية تابعة لمحافظة جبلة في سوريا. المترجم

[III] استخدم المؤلف كلمة "nephew"، وتعني ابن الأخ أو ابن الأخت. ويبقى غامضًا السبب الذي جعل المؤلف يعتقد أن الولد الذي يُدخَلُ في الدين هو ابن أخي الناسخ أو ابن أخته، وخصوصًا أن الناسخ استخدم عبارتين للإشارة إلى الولد: "ابن العم العزيز"، وعبارة "ولد عمنا". وبالنظر إلى اسمَي الولد والناسخ الثلاثيين، يتضح عدم وجود قرابةٍ بينهما، من طرف الأب على الأقل. ويبقى احتمال الخطأ في الترجمة قائمًا، أو أن المؤلف علم بوجود قرابة بينهما من مصادرَ أخرى لم يذكرها، أو أن كلمة ولد العم استعملت بالمعنى الواسع (ابن عمٍ بعيدٍ)، أو أن المقصود بكلمة عم هو الشيخ الذي أدخل الناسخ في الدين كما يسمونه. المترجم

[IV] لمعرفة المزيد عن المخطوطة وناسخها؛ راجع مقدمة المترجم. المترجم

القسم الثالث: يبدأ القسم الثالث بحديثٍ مرويٍ عن محمدٍ ﷺ، يعني الشيء نفسه، ويُسمى فصل المذاكرة، بمعنى ذِكر أولياء عليٍّ له، وذِكره لهم.

القسم الرابع: صلاةٌ لعليٍّ على المراتب السبعة في العالمين، تنتهي بالابتهالة المعتادة بحق ما ذُكرَ.

القسم الخامس: ابتهالةٌ بأسماء المراتب السبع للعالم الكبير النوراني، ودرجهم التسع والأربعين.

القسم السادس: ابتهالةٌ بأسماء المنبئين السبعة عشر.

القسم السابع: ابتهالةٌ بأسماء النجباء الثمانية والعشرين في البشرية والنورانية.

القسم الثامن: ابتهالةٌ بأسماء سياقة باب الله العظيم المطوق بالنور، وهي أسماءُ ظهورات الباب السبعة من جبريل إلى سلمان الفارسي، ومن تلاهم إلى الإمام الحادي عشر.

القسم التاسع: ابتهالةٌ بأسماء الأيتام الخمسة والعشرين.

القسم العاشر: ابتهالةٌ بأسماء الباب من كُتُبِ أهل التوحيد.

القسم الحادي عشر: ابتهالةٌ بأسماء الباب وأيتامه في المقامات الستة الروحانية، ولم يَرِد مقام سلمان السابع.

القسم الثاني عشر: ابتهالةٌ بأسماء الباب في القباب البهمنية (ملوك فارس). يحتوي هذا القسم على أسماء فارسيةٍ فقط.

القسم الثالث عشر: ابتهالة بأسماء الباب في الأحد عشر مطلعًا من سلمان إلى أبي شعيب بن نصير، باب الإمام الحادي عشر الحسن العسكري.

القسم الرابع عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم في اصطلاح اللغة.

القسم الخامس عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم في التسعة الذاتية.

القسم السادس عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم في الأضلة، كُتِبَتْ هذه الكلمة كما يلفظها النصيرية (وقد وردت في الصفحة 109 في وصف عليٍّ بأنه مُكَوِّنُ الأضلة) ويصبح لها معنىً بافتراض أنهم استعملوا حرف الضاد عوضًا عن حرف الظاء، كما يلفظونها في جبالهم، وكما وردت في المخطوطة؛ وقد تعني ظلال أو خيالات[1].

القسم السابع عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم في القبة الإبراهيمية.

القسم الثامن عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم في القبة الموسوية.

القسم التاسع عشر: ابتهالةٌ بأسماء الاسم الخمسة في القبة المحمدية.

القسم العشرون: ابتهالةٌ بأسماء الاسم المثلية الثلاثة والستين، التي قام فيها في النبوة والرسالة.

القسم الحادي والعشرون: ابتهالةٌ بأسماء أشخاص الصلاة.

القسم الثاني والعشرون: ابتهالةٌ بالأسماء الصفاتية التي تَسمّى بها الاسمُ وهي للمعنى.

---

[1] مفردها ظل، وهي أول ما خلق الله، "ومن تسبيحهم خَلَقَ الأشباح ....." مذكورة في عدة كتب نقلًا عن كتاب "الهفت والأظلة"، للمُفَضَّل بن عمر الجعفي. المترجم

القسم الثالث والعشرون: أسماء عليٍّ في الفصل الخامس من الرسالة المصرية[I]، وهي حديثٌ مرويٌ عن فلان وفلان، عن الخصيبي، عن أبي شعيب بن نصير، عن الحسن العسكري؛ ويُختتم هذا القسم بالابتهالة المعتادة.

القسم الرابع والعشرون: أسماء عليٍّ في صحف شيث وإدريس ونوح وإبراهيم، كما رواها أبو سعيدٍ في كتابه "الرد على المرتد"، عن الخصيبي في كتابه "الهداية الكبرى"، وهو حديث عن الحسن العسكري.

القسم الخامس والعشرون: العنوان: "ويتلوه خطبة بيعة الدار لمولانا أمير المؤمنين، وهي هذه إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق".

في هذا القسم شهادةٌ ملفقةٌ لمحمدٍ ﷺ على ألوهية عليٍّ، وسأُعطيكم ترجمتها مع ما فيها من تكرارٍ؛ لإعطاء فكرةٍ أفضل عن نوعية النصوص التي تستهوي النصيرية الجاهلين؛ ومن المستحيل ترجمتها مع الحفاظ على السجع الذي تُسَرُّ الآذان العربية لسماعه[II].

"بسم الله الرحمن الرحيم. وبالإسناد عن أبي الحسن رايق ابن خضر الغساني المعروف بالمهلمي رحمه الله تعالى، قال: حدثني أبو عبد الله إسحاق ابن فهد رضي الله عنه مرسلًا عن سيدنا سلمان الفارسي إليه التسليم، قال سلمان: دعاني مولانا السيد الأكبر محمد منه السلام يومًا في منزل أم سلمة، وأحضر جماعةً من خواص صحابه، منهم المقداد ابن الأسود الكندي، وأبو الدر جندب ابن جنادة الغفاري، وعمار ابن ياسر، وأبو أيوب خالد ابن زيد الأنصاري إلى تمام أربعين رجلًا، وكان فينا محمد ابن أبي بكر[III]، وهو في ذلك الوقت صبيًا، فاءتانا بطعامًا، فأكلنا وغسلنا أيدينا. ثم قال لنا رسول الله منه السلام: اطمئنوا فإنكم على خيرًا، وما دعوتكم إلا لخيرًا، اسمعوا وعوا ما يقول لكم نبيكم، أمنتم بالله تعالى وبي؟ قلنا بأجمعنا آمنا بالله تعالى وبك، فقال ألست صادقًا عندكم غير كاذبًا؟ قلنا والله يا رسول الله، ما شككنا فيك لحضة قط أبدًا، فقال السيد محمد ﷺ، الله عليكم من الشاهدين، لا تكذبون فيما أقول لكم، فقلنا سمعًا وطاعةً لك في جميع الأُمور، فقال اسمعوا الآن ما أقول لكم، وإياكم الشك فيما تسمعون مني، اعلموا أني أدعوكم إلى عليًا ابن أبي طالب كما أدعوكم إلى الله عز وجل، ألا إن عليًا مولاي ومولاكم؛ لأنكم خواص أنصاري، أقول لكم كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصار الله، قالوا الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[IV]، فهم شهود الله ونقباؤه، وأدعوكم إلى عليٍّ علا بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين [الذين يُلحقون بالله آلهةً أُخرى]، أدعوكم إلى عليٍ بأمر منه وإياكم الريبة، ألا إن نبوتي تحت ولاية عليّ؛ لأن عليّ الذي نباءني إليكم لأني خلقت من نور ذاته، ألا إن عليًا علمني القرآن، ألا إن عليًا بعتني إليكم، ألا إن عليًا أرسلني إليكم، ألا إن عليًا ربي وربكم، ألا إن عليًا خالقي وخالقكم، فأطيعوه. ألا إن عليًا باريكم فاعرفوه، ألا إن عليًا إلهكم فاتقوه، ألا إن عليًا فاطركم فارهبوه، ألا إن عليًا معافيكم فخافوه، ألا إن عليًا شاهدكم وقايدكم وسايقكم فاحذروه، ألا إن عليًا حاكمكم فاعلموه، ألا إن عليًا ميزانكم فتقلوا موازينكم وزينوا بالقسطاس المستقيم ذلكم خيرٌ لكم وأحسن تأويلًا. ألا إن عليًا حافضكم فارغبوا إليه، ألا إن عليًا حافضكم ويراكم إن غاب فاحذروه، ألا إن عليًا رازقكم فاسلوه، ألا إن عليًا هو المعطي والمانع فابتغوه من فضله، ألا إن عليًا قريبٌ مجيبُ دعوة الداعي فادعوه يستجب لكم إن كنتم صادقين، ألا إن عليًا ربكم فآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى، ويدخلكم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز العظيم[V]،

[I] تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن البغدادي المهلهلي، ورواها عنه عصمة الدولة أبي الفتح محمد بن الأمير معز الدولة. المترجم

[II] النص الإنجليزي فيه بعض الجمل الناقصة، ففضلت اقتباس النص الكامل من المخطوطة العربية. المترجم

[III] كان من كبار مناصري عليّ، وكان حاضرًا في بيت عثمانَ حين قُتلَ؛ وحين سجنه معاوية، وضعوا جثته في جيفة حمار، ثم أحرقوها وهو حيٌّ.

[IV] السورة رقم 61، الآية رقم 14. {النص الكامل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)"سورة الصّف. المترجم}

[V] السورة رقم 61. {النص الكامل للآية: "يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)"، سورة الصّف. المترجم}

ألا إن عليًا صاحب العرش وله أسلم كل شيء وقيل يسبح له ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ألا إن عليًا يعلم سركم وجهركم ونجواكم، يعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، ألا إن عليًا معبودكم فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانا[I]، ألا إن عليًا خالق السماوات والأرض، ورب المشارق والمغارب، لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلًا، ألا إن عليًا هو الحي لا إله إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين، ألا إن عليًا لا إله إلا هو، يحيي ويميت، ربكم ورب أبائكم الأولين. ألا إن عليًا لا إله إلا هو إن كنتم موقنين، ألا إن عليًا لا إلهه إلا هو، رب العرش العظيم، لا إله إلا هو، خالق كل شيءٍ فاعبدوه، وهو على كل شيءٍ وكيلًا، ألا إن عليًا له مقاليد السماوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو على كل شيء قدير، ألا إن عليًا لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ، وهو اللطيف الخبير، ألا إن عليًا قابض الأرواح، وإليه تصير الأمور، ألا إن عليًا هو المومن من آمن به، وقبِل ولايته، ألا إن عليًا المسلم من أسلم له بحقيقة المعرفة والطاعة، ألا إن عليًا الشهيد من شهد له بالربوبية، وقرَّ له بالوحدانية، ألا إن عليًا من تنالُه رحمته فقد فاز فوزًا عظيمًا، ألا إن عليًا المرحوم من تناله رحمته، ألا إن عليًا المغفور من غفر له عليًا، ألا إن عليًا معادكم فاتقوه، وطيعوه، ووحدوه، وسبحوه، وقدسوه، ومجدوه وهللوه، وكبروه، ذلك خيرًا لكم إن كنتم تعلمون؛ لأنه لا مهرب منه إلا إليه، وإليه المرجع والمآب، فسارعوا إلى معرفته، وأقبلوا إلى طاعته، وآمنوا به، ولا تخالفوه، واعرفوه، ولا تعصوه فيما أمركم به، ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون. والآن اجتنبوا قول الزور ولا تتمسكوا به، ولا يغركم الإمهال، ولا تتخلفوا عن عليًا، فاعلموا أنه إمامكم، ومن خلفكم، وقدامكم، وهو من وراكم، وعن يمينكم، وعن شمالكم، ومن فوقكم، ألا إنه بكل شيء محيط، يعرف ضمايركم، وسرايركم، وما تخفاه صدوركم، وما ترمق به عيونكم، وقد بينت لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ألا إن عليًا خالقكم، ومصوركم، ورازقكم، ومحييكم، ومميتكم، ثم إليه ترجعون، ألا إن عليًا شاهدكم، وناشركم، وباعتكم، وحاشركم، وسايلكم عنما كنتم تعملون، ألا إن عليًا لا يحد ولا يوصف ولا ينعت، وهو لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يتجسد في جسد، ولم يتخذ صاحبة لا ولد، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له وليًا من الذل وكبروه تكبيرًا[II]، لا شريك له في المُلك ولا نصيرًا ولا عونًا ولا ظهيرًا ولا شبيهًا ولا مثيل، ولا عديل، ولا نضير، وهو الأول بلا مثال، ولا بداية، وهو الآخر بلا فناء، ولا زوال، ولا نهاية، وهو الظاهر بالآيات، وهو الباطن بالكاينات، ألا إن عليًا هو الله الذي لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيءٍ من علمه، إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات، والأرض، ولا يئوده حفظهما، وهو العليّ العظيم[III]، ألا إن عليًا بيده الخير والرحمة وهو على كل شيءٍ قدير، ألا إن عليًا داريها وباريها ولا يطيق أحدًا لرؤيته ولا يقوم أحدًا لرويته[IV]، ثم التفت، ومولانا أمير المؤمنين عز عزه عن يمينه جالس، فقال له: أسألك بعز عزك، وعز جلالك، وكبريايك، وهيبة لاهوتيتك، وعظم ملكوتك، فما استتم كلام السيد محمد ﷺ منه السلام، إلا وقد غيَّب مولانا أمير النحل جل وعلا شخصه، فأضا لنا نورًا عظيم، لا يحاط بكيانه، ولا يدرك عيانه ونهايته، وقد أخدتنا الخشوع من شدة ضوه، فكأنا نراه في الأحلام، ولو كان ذلك في رؤية الأبصار لذهبت أبصارنا، وذهلت العقول منا، إلا أنه وقع علينا شبه السبات والغشية، فكنا نقول سبحانك ما أعظم شأنك، أمنا بك وصدقنا رسلك، وما منا أحد إلا وهو ساجدًا يرا الحلم مما وقع علينا من الهيبة والخشية، وقد نالنا الرجفان والخفقان، فذهبت أرواحنا وصرنا شبيهًا بالموتى ونحن لا نعقل بل نحلم ونرا كما يرى النايم، وقد فارقت أرواحنا أجسادنا، حتى مضت علينا ساعة من النهار، ثم فقنا ونحن كهيت[V] النايم، إذا انتبه من نومه، فرأينا رسول الله عليه السلام، فقال لنا كم لبتم[VI]؟ قلنا ساعة أو بعض ساعة،

[I] كلمات تتكرر في القرآن.

[II] السورة رقم 17، الآية رقم 111. {النص الكامل للآية: "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)"، سورة الإسراء. المترجم}

[III] السورة رقم 2، الآية 256. {سورة البقرة، الآية رقم 255 وهي آية الكرسي. المترجم}

[IV] يقصد لا يتحمل أحد رؤيته ولا يقف أحد في مرمى نظره، وربما يقصد لشدة النور في وجهه. المترجم

[V] كهيئة النائم. المترجم

[VI] لبثتم. المترجم

قال بل لبتم سبع ليال وثمان أيام، فنَكَثَ[I] من القوم رجلان كفرا، وقالوا هذا سحر مبين، أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدين[II]؟ وهذا يوم يعرفوه أهل الظاهر، ويسمى بَيْعَت الدار، وإن هذه البيعة قبل بيعت الغدير، فأي بيان وأي شاهد أعظم وأي برهان أعدل مما قد ورد في هذا الخبر عن السيد الأكبر محمد صلا الله عليه وسلم، وما قد أظهره لأهل الحقايق والإيمان، ونشره لذوي العقول والأذهان، من التصريح والإعلان بتوحيد مولاه ودلالته عليه لقدر غايته ومعناه، تعالى الله وتقدست أسماؤه.

"اللهم إني أسألك يا مولاي بحق هذه خُطْبَت بَيْعَت الدار، وبحق محمد المختار، وبحق سلمان الأبرار، وبحق الأيتام الأطهار، وبحق ياسر وعمار[III]، وبحق جُمْلَت الأنوار، وبحق حقايق الأسرار، وبحق الكنز والجدار[IV]، والسبعة عشر من آذار[V]، وبحقهم عندك وجاهك عليهم يا عزيز يا جبار، يا خالق الليل والنهار، بأن يا مولاي تغفر لنا ولساير إخواننا المؤمنين جميع الذنوب والأوزار، وتخلصنا من عالم الأمزاج والأكدار، وتنقلنا إلى مجاورة الأطهار، وتدفع عنا شر الأشرار، وكيد الفجار، وغضب الجبار، وحر النار، وجور الجار، وتلبسنا قمصان الأنوار، وتخلف وتبارك لأصحاب هذا الخير وهذا الفضل وهذا الآثار، وتجعل يا مولاي الصلا والسلام على سيدي الخضر الأخضر، والملك جعفر الطيار[VI]، وتقدس وترحم أرواح إخواننا المؤمنين في ساير الأقطار، وساير الأمصار، يا أمير النحل يا عليًا يا عظيم".

القسم السادس والعشرون، العنوان: "ويتلوه أخر خطبةٍ وهي خطبة الأوهام"، تحتوي هذه الخطبة على مديحٍ لعليٍّ بنعوتٍ مختلفةٍ، فهو مبدع الأرواح، والبحار، والأنهار، وهلم جرًا، يعسوب الدين، أس الأسوس، يسوع الإنجيل، خالق الحجب، رب كل ربٍ، عنصر العناصر، الأول، الآخر، الباطن، الظاهر.

القسم السابع والعشرون، العنوان: "ويتلوه التوجيه وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم. الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا، وجهت وجهي إلى القدرة الظاهرة والعظمة الباهرة"، وهلم جرًا. يوجد عند المسلمين أدعيةٌ مشابهةٌ وأحدها يبدأ بكلماتٍ مشابهةٍ، وهو تحضيرٌ للصلاة[VII]. يُقرأ هذا الدعاء مع غيره في القداس.

القسم التاسع والعشرون[VIII]: يحتوي هذا القسم على صلاة الصبح والمساء التي يجب على النصيرية أداؤها، وقد تَرجَمتُ معظم القسم الذي يُختتم بحديثٍ لمحمدٍ ﷺ، ثم يأتي القداس بعدها. وقد كُتِبتْ ملاحظةٌ على طرف الورقة، وهي كلمة "الخطبة"، كما ذُكِرت في عنوان القداس في تعداد الأشياء الواجب قراءتها في القداس.

القسم الثلاثون، العنوان: "ويتلوه توجيه الصلات وتفسيرها، فإذا قريت [الشيخ] أسامي أمير المؤمنين تمام [موجودة في القسم السابق]، وكانت الصلات قداس تُفَوِّتْ الخطبة [راجع القسم الأخير] والتوجيه [راجع القسم ما قبل السابق] والخبر [خطبة في آخر الكتاب] وتقرا الخمسة الأشباح [ربما كانت الأجسام الخمسة النورانية أو الأيتام الخمسة[IX]

[I] فنكثَ. المترجم

[II] عبارة مأخوذة من القرآن.

[III] كان عمار بن ياسر من صحابة محمد ﷺ، وله تقديرٌ خاصٌ عند النصيرية، "ولاه عمر على الكوفة وعزله عثمان، وقد مات وهو يقاتل دفاعًا عن عليّ في وقعة صفين سنة 37 هجرية"، اقتبسها نيكولسون عن المسعودي، ص 112. {مخطوطة عربية نسبت بالخطأ إلى المسعودي وترجمها جون نيكولسون إلى الإنجليزية. مؤلف المخطوطة هو المؤرخ عريب بن سعد القرطبي. المترجم}

[IV] "الكنز علم الباطن، والجدار علم الظاهر"، "رسالة الجوهرية"، أبو الحسين محمد بن عليّ الجليّ. المترجم.

[V] راجع المذكور آنفًا، في الفصل السابع.

[VI] راجع المذكور آنفًا، في الفصل الخامس.

[VII] يقصد دعاء الاستفتاح: "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وما أنا من الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ....". وهي آية في سورة الأنعام: "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ". المترجم

[VIII] يوجد خطأٌ في الترقيم، فالقسم رقم 29 يجب أن يكون 28، وهلم جرًا. المترجم

[IX] "الخمسة أشباح النورانية" هم: محمد، وفاطر (فاطمة)، والحسن، والحسين، ومحسن. المترجم

وتقرا القداس الأول والإشارا[I] [التي ضمنه] والقداس التاني والعين العلوية، هذا صلات القداس ركعتين من جلوس[II]، وإذا الزيادة[III] تقرا إلى الشهادة [عند نهاية القداس بكامله]، وأما صلات التمام تقرا أسامي أمير المؤمنين والخطبة، والتوجيه والخبر، و تقرا الأول [القسم المذكور سابقًا الذي فيه أسماء عليّ وغيرها] وتنقف الشراب، وتتلو الآية وقوله تعالى: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"، واذكر اسم ربك في نفسك تضرعًا وخيفةً، ودون الجهر من القول بالغدق والآصال، وألا تكون من الغافلين، إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته وله يسجدون[IV]، ثم تقول إلى الأرض، ثم تقرأ التانية [القسم الثاني من الأقسام التي يجب قراءتها] متل الأول، وتقبل يد اليمين والشمال، وتقرا السجدة وقوله تعالى: "طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)[V]". أرض. وقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)[VI]". الأرض. "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15)[VII]". أرض. وقوله تعالى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9)[VIII]". القوس [هي انحناءة على شكل قوس، وهي جزء من صلاة المسلمين]، ثم تامر بالدعا على اليمين كل من يدعا بما تيسر، وتتلو الآية قوله تعالى: "أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)[IX]". أرض. ثم تامر الذي على يمينك في دعا السجود، والذي على يمينه في دعا المراتب [قسم سابق]، وتقبلوا أيادي بعضكم بعض، وتقول عند بوس اليد: عليك السلام يا خي وأحسن التسليم، بحق الخضر وإبراهيم، ثم تاخد الكاس، وتقرا عليه القداس الأول وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله على التمام، عليّ نور الأنام، عليّ رب العزة، عليّ فالق الحبة[X]، عليّ إمام الأئمة، عليّ باري الشمة، عليّ إمام المحراب [مكان توجه المصلين في الجامع نحو مكة]، عليّ قالع الباب[XI]، عليّ مفرج الكربات، عليّ صاحب المعجزات، عليّ رافع السما، عليّ مجري الماء، عليّ داحي الأرض، عليّ بيديه القبض، عليّ نزهت الشيب، عليّ عالم ما في الغيب، عليّ رب الأرباب، عليّ مالك الأرقاب، عليّ سر الأسرار، عليّ موفي الندر، عليّ مطلع على السر، عليّ صاحب الدنيا، عليّ رب الآخرة والأولى، عليّ بديع الزمان، عليّ رفيع الشان، عليّ كتير العجايب، عليّ رب المشارق والمغارب، عليّ فارس الفوارس، عليّ محي العظام الدوارس، عليّ نور البصر، عليّ شق القمر[XII]، عليّ الإمام المغوار، عليّ الضارب بذو الفقار، عليّ حيدرة الكرّار، عليّ خالق الليل والنهار، عليّ قادر قاهر، عليّ أول آخر، عليّ باطن ظاهر، عليّ موجود حاضر، عليّ سامط ناطق [استخدم الإسماعيليون الأصليون تعبير الأنبياء الناطقين والصامتين، راجع الفصل الرابع]، عليّ فاتق راتق، عليّ بناء عظيم، عليّ الصراط المستقيم، عليّ حيدرة الأصلع، عليّ

[I] قداس الإشارة. المترجم

[II] لفهم معنى هذا، وفهم أوضاع الصلاة الأُخرى مثل السجود، والانحناء، وغيرها، عليكم مراجعة "وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم"، إدوارد وليم لين، الجزء الأول، ص 107.

[III] إذا أردت الزيادة في القراءة. المترجم

[IV] السورة رقم 7، الآية رقم 203. سأعطيكم ترجمة سيل لتلك الآية والآيات التي ستلي، فقد أقر علماء عربٌ مشهورون أنها ترجمةٌ صحيحةٌ بالمجمل، وسأكون متحذلقًا لو فعلت غير ذلك الآن، وقد راجعت القرآن بدلًا من الاقتباسات الملأى بالأخطاء النحوية في المخطوطة، والتي أغضبت الشيخ المحمدي غضبًا شديدًا. {سورة الأعراف، الآية 204. المترجم}

[V] السورة رقم 26. الآية رقم 1. {سورة الشعراء، الآية 1-4. المترجم}

[VI] السورة رقم 15، الآية رقم 28. {سورة الحجر، الآية 28. المترجم}

[VII] السورة رقم 32، الآية رقم 15. {سورة السجدة، الآية 15. المترجم}

[VIII] السورة رقم 53، الآية رقم 1. {سورة النجم، الآية 1-9. المترجم}

[IX] السورة رقم 53، الآية رقم 58. {سورة النجم، الآية 57-62. المترجم}

[X] تعبير قرآني يصف الله بأنه يُنبت الحَبّ.

[XI] يقال إنه عند حصار اليهود في خيبر التي فتحت بفضل شجاعة عليٍّ، قلع عليٌّ بابَ خيبر واستخدمه درعًا.

[XII] يلمح إلى الآية القرآنية: "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ"، وأحد التفاسير يقول إن ذلك قد حصل وهي واحدة من معجزات محمد ﷺ الأربع المذكورة في القرآن.

مواخي يوشع، عليّ صاحب ذو النون، عليّ عين العيون، عليّ ساحر البحور، عليّ البيت المعمور، عليّ النافخ في الصور، عليّ قديم الدهور، عليّ الناطق بالحق، عليّ الصادق بالنطق، عليّ دليل السماوات، عليّ أنيس المسبحات، عليّ عنده علم الكتاب، عليّ مسير السحاب، عليّ إمام الأئمة، عليّ مفتاح الرحمة، عليّ مكسر الأصنام، عليّ قايم حجة الدين والإسلام، عليّ دعمة الجبار، عليّ نور الأنوار، عليّ صادق الوعد، عليّ أحد فرد، عليّ هابيل، عليّ شيث، عليّ يوسف، عليّ يوشع، عليّ آصف، عليّ شمعون الصفا، عليّ أمير المؤمنين [أمير المؤمنين اسم خاصٌ بعليٍ وحده]، لذكره الجلال والتعظيم. ولمتل هذا يا خوان نعني ونقصد وتشير كما شارة إليه الأولين، ودلت على قدم ذاته الموحدين، من أول البدا إلى هذه الحين، نشير إليه كما شار شيخنا، وسيدنا، وتاج روسنا، وفقيه عصرنا، شيخ الأوان، وقدوة الزمان، أبي عبدالله الحسين ابن أحمد، نشير إلى ما شار إليه شيخه وسيده أبو محمد عبدالله الزاهد الجنان، نشير إلى ما شار إليه يتيم الوقت محمد ابن جندب، نشير إلى ما شار إليه الباب، ودلت على معنويته الحجاب، في السبع قباب، إشارتي وإشارتكم بكل اليقين إلى مولانا علي أمير المؤمنين، الأنزع البطين، الجزو الأصم الذي لا يتجز، ولا يتبعض، ولا يتفرق[تلميح إلى النظرية الذرية الفلسفية[I]]، ولا ينقسم، الذي لعظم جلاله وهيبته تخضع له الأرقاب، وهانت له أمور الصعاب.

"ثم ينهضوا قيام ويأخذ في يده الجام[II] ويقرا النوروز وهو هذا [في شِعْرٍ سخيف]:

نوروز حق مستفيد غانم — متحقق بولاء أكرم هاشم
يوم أبان الله فيه ظهوره — قبل الأعارب في قباب أعاجم
وسما بها نحو السماء فأبصروا — فيها مراجيحًا برأي حازم
ولسلسل فيه ظهور مهيمن — متتابع لقديمنا المتقادم
فاشرب من الخمر الزلال فإنه — يوم تجلى نوره بغمائم.
يوم الغدير، وقد أشار محمد — بالقصد نحو إلهٍ ربٍ عالمٍ

"ثم تقول الإشارة إلى آخرها[III] وتقرا القداس الثاني وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم. روا الخبر عن شيخنا وسيدنا أبي عبد الله الحسين ابن حمدان الخصيبي، صاحب الرأي المصيب، رضوان الله عليه، عن كل إشراق مغيب، قال إنه كان إذا حضر بين يديه عبد النور يأخذ القدح في يمينه وينهل منه ثلاث نهلاتٍ، ويترنم عليه في هذا القداس المبارك ويقول[IV] الحمد لله وحده الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وعز جنده، وأهلك ضده، وهزم الأحزاب[V] وحده، فلا إله قبله ولا إله بعده، مفزع الطالبين، وغاية العارفين، إله الأولين وإله الأخرين، له الدين الخالص، وإنما تدعون من دونه الباطل[VI]، وإن الله هو العلي القدير، أمير المؤمنين، الملك الحق المبين، اللهم صلى الله سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى سلسل وآل سلسل، مصابيح الظلم، مفاتيح الكلم، هدات الخلق في القدم، شهادة الإخلاص إلى حين ولات مناص، اللهم إن هذا عبدك عبد النور، شخص حللته وكرمته وفضلته لأولياك العارفين بالحلال طلقًا، وحرمته على أعدايك الجاحدين المنكرين لكل حرام نصًا، اللهم مولاي، كما حللته لنا، ارزقنا به الأمن، والأمان، والصحة من الأسقام، وانف عنا به الهم والأحزان، وواصل اجتماعنا للسادة وأمتالها، فأتينا الحسنة بنظايرها واجعلها خالصًة في طاعتك، ووفقنا للعمل بما يرضيك، وابرأ إخواننا المؤمنين في مشرق الأرض ومغربها وقبلها وشمالها، وألّف كلمتنا وكلمتهم في توحيدك، وزيّنا بعدهم، إنك عليّ عظيم، وعلى ما تشا قدير. وقوله تعالى: "وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا

[I] بدأت النظرية الذرية التي تقول إن المادة مؤلفةٌ من وحداتٍ منفصلةٍ كمفهوم فلسفيٍ في اليونان القديمة والهند، وبقيت كذلك حتى القرن التسع عشر حين أصبحت نظريةً علميةً. المترجم

[II] إناءٌ للشرب كالكأس. المترجم

[III] لا يبدو واضحًا ما هو. قد تدل هذه الكلمة على الإشارات التي تُعمل باليد لأنها تستخدم بهذا المعنى، وتستخدم بمعنى الإشارة بالكلمة. {المقصود عَقْدُ الإشارة بمعنى رفع اليدين وعقدهما على الصدر، مع وضع اليمنى فوق اليسرى، وتوجيه الإبهام نحو الأعلى. المترجم}

[IV] يستخدم المسلمون القسم الأول من هذا القداس في أحد أعيادهم.

[V] كلمة من القرآن تشير إلى عبدة الأصنام العرب المعادين.

[VI] من القرآن.

وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (22)[I]"، من عيون التسنيم[عين ماء في الجنة] سقا رحيقًا سلسليًا مُختم بعبير، سقانا الله وإياكم يا خوان شربة من كف سلسل، لا ظماء بعدها، يوم العطش الأكبر، تذكروا سر العين، الله يرزقكم بركتها ورضها فإذا خلصت تنقف الشراب وتسقي اليمين والشمال وتقول يا أخي اشرب من قدحي، الله يجعل لك فيه الشفا والعفا وتقول يا أخي اسقيني من قدحك سقاك الله شربةً من كف سلسل لا ظماء بعدها يوم العطش الأكبر، ثم تتلو الآية وقوله تعالى: "عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (22) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)[II]". قوس. وقوله تعالى: "وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (116)[III]". قوس. ثم تامر برش الطيب وتقرا شهدت بأن إله الورا عليًا مقلب ما في القلوب،

وما احتجب الله عن خلقه　　ولكن هم حجبوا بالذنوب
فلو أنهم آمنوا واتقوا　　لصاروا ملايكة في الغيوب
يسبحون في ملكوت القديم　　وقد طهروا من جميع الذنوب

ثم تتلوا الآية قوله تعالى: "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ[IV]". قوس. ثم تامر بالدعا على اليسار كل يدعو بما تيسر، وتتلو الآية قوله تعالى: "الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)[V]". أرض. ثم تامر الذي على اليسار في دعا السجود، والذي على يساره في دعا السلام، ثم يدعو الإمام بالتنعشر إمام، ويقول اللهم أقمنا إلى طاعتك بأحسن قيام، ثم تقروا الإمامية [ربما تكون أسماء الأئمة بصيغة معينة]، وتتلو الآية قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)[VI]". أرض.

"ثم تُقبِّل الأرض، وتقول: هذا لله وللإمام، ثم تأخذ الجام، وتقول سر الإمام الطالب الغالب الضارب الهامات بحق القواضب عليًا ابن أبي طالب، وهذا سره، ثم تنقف الشراب، وتقول: سر إمام كل إمام، سر سيدي عليّ صاحب كل عصر وكل زمان، سر حجابه السيد محمد ﷺ، سر بابه السيد سلمان، سر الأيتام، ومراتب السلام، سر شيخنا وسيدنا أبي عبد الله الحسين ابن حمدان الذي شرع لنا الأديان في سائر البلدان، عليه وعلى تلاميذه من الله أفضل الصلاة والسلام، سر الجلي وأبو سعيد[VII]، ومشايخ العلم والتوحيد، سر كل مؤمن ديّان في ساير البلدان، ومن ذلك سرك[VIII]، أيها الشيخ الجليل، والندب الفضيل، والحسام الصقيل، والفرع الزكي الأصيل، حرسك الله وأبقاك، ومن أنعامه لا يُخليك، ويرحم أمك وأباك، عمر الله فيك مجالس التوحيد، بحق "كتاب التجريد[IX]"، سرك وسر الشخص القايم بازايه[X] عليّ أمام الأمة، الله يرزقكم منه وإلى ساير إخوانكم المؤمنين الرضا والرحمة، سرك وسر يمينك وشمالك وتفضلك على

[I] السورة رقم 76، الآية 20. {سورة الإنسان، الآية 20-22. المترجم}

[II] السورة رقم 76، الآية 22. {سورة الإنسان، الآية 21-26 المترجم}

[III] السورة رقم 2، الآية 109. {سورة البقرة، الآية 115-116 المترجم}

[IV] السورة رقم 2، الآية 239. {سورة البقرة، الآية 238. المترجم}

[V] السورة رقم 4، الآية رقم 1. {سورة الرحمن ورقمها 55، الآية 1-6. المترجم}

[VI] السورة رقم 3، الآية 37. {سورة آل عمران، الآية 42-43. المترجم}

[VII] مرجع أو عالم نصيري ذُكر في "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848، ص 166. {المقصود هو أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني. المترجم}

[VIII] يقرأ الشيخ القسم الأكبر، ويبدو مما سبق، ومما سيأتي لاحقًا وجود شيخ أساسيٍ، له دور الإمام، أو رئيس الاجتماع. {قد يتواجد في القداس نفسه ثلاثة مراتب من الشيوخ: الإمام والنقيب والنجيب، ولكلٍ دوره. المترجم}

[IX] عند المسلمين كتاب اسمه التجريد، وربما يوجد عند النصيرية كتاب بهذا الاسم. {"كتاب التجريد" النصيري تأليف حاتم الطوباني الجديلي. المترجم}

[X] الشخص الواقف بالقرب منه. المترجم

ساير إخوانك، سركم أيها الجمع المحمدي، وسر جامع شملكم إلى هذا الديار، الله لا يقطع لكم سر ولا أسرار في ساير الأزمنة والأعصار تجاه الأئمة الأطهار، والسبع تعشر من آذار[I]، سركم الله لا يضركم، ثم تنقف الشراب، وتبايع [بِمَسكِ يد صاحب السيادة وحلف اليمين له] اليمين والشمال وتقول: شربنا سر الإمام، وشربت سرنا وشربنا سرك، الله يسر قلبك في معرفت ربك، أدام الله مشروبك، بلغ الله مطلوبك، خلصك الله من كربك وكروبك، حسابك الله حسابًا يسير من غير عسير، ثم تقروا الخير وتتلوا الآية قوله تعالى: "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)[II]". قوس. ثم يقروا الطور وتتلوا الآية قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)[III]". أرض. ثم تشرب سر أهل البيت وتقول: سر المنزل وما حوا المنزل، سر سيدي محمد ﷺ، صاحب كل منزل، سر أربع أركان البيت أصحاب المنزل حمزة وطالب وجعفر وعقيل، اخوت أمير المؤمنين علينا من دكرهم الرضا والرحمة، سركم يا خوان جميع الله لا يقطع لكم سر، بحق الأربعون[IV]، ثم تبايع اليمين والشمال، وتقول: شربنا سر أصحاب المنزل، وشربت سرنا وشربنا سرك، الله يسر قلبك في معرفة ربك، أدام الله مشروبك، بلغك الله مطلوبك، خلصك الله من كربك وكروبك، حسابك الله حسابًا يسير من غير عسير، ثم تقول الحجبية، وتتلوا الآية قوله تعالى: "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ[V]". قوس. ثم تقول النقيبة، وتتلوا الآية قوله تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)[VI]". قوس. ثم تشرب سر أهل البيت، وتقول سر سيدي نقيب النقبا، وسر سيدي نجيب النجبا، سر الاتنعشر نقيب، سر التمانة وعشرين نجيب، سر الأربعين قطب[VII]، سر محمد ابن سنان الزاهري، سر عبد الله ابن سبأ[VIII]، سرك يا نقيب، وسر نقابتك، سرك يا نجيب، وسر نجابتك، ثم تبايع اليمين والشمال، وتقول: شربنا سر النقبا والنجبا، وشربت سرنا وشربنا سرك، سر الله ما في قلبك في معرفت ربك، أدام الله مشروبك، بلغك مطلوبك، وخلصك الله من كربك وكروبك، حاسبك الله حسابًا يسير من غير عسير، ثم تقول يا خوان الذي معه دعا يدعي، والذي ما معه دعا يأمن[IX]، ومن أمن دعا، وعلى الله القبول والإجابة، وقال مولانا أمير المومنين: إذا فرغ أحدكم من صلاته فليرفع يده بالدعا إلى السما، ثم تتلوا الآية قوله تعالى: "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ

[I] أحد أعياد النصيرية، وهو عيدٌ فارسيٌ يصادف نزول الشمس برج الحمل في المقام الجعفري، والأصل فيه 13 آذار، وفي إحدى المرات، أخروا الاحتفال به أربعة أيامٍ خوفًا من الأعداء، فأصبح التأخير عادةً. المترجم

[II] السورة رقم 2، الآية 119. {سورة البقرة، الآية رقم 125. المترجم}

[III] السورة رقم 22. {سورة الحج، الآية رقم 77. المترجم}

[IV] يطلق اسم جبل الأربعين على أكثر من جبلٍ في بلاد الشام، وأنا قصدت الجبل الذي يقع بين جبال النصيرية.

[V] السورة رقم 12، الآية رقم 4. {سورة يوسف، الآية رقم 4. المترجم}

[VI] السورة رقم 30، الآية رقم 62. {سورة الفرقان ورقمها 25، الآية رقم 61-64. المترجم}

[VII] القسم 35 من كتاب الأعياد النصيري حسب وصف كاتافاغو. "المجلة الآسيوية"، فبراير 1848. ويحتوي على "خبر النقيب محمد بن سنان الزاهري". {حسب الاعتقاد النصيري محمد بن سنان نقيب النقباء في زمن جعفر الصادق، وقد روى عنه؛ مع أن الصادق توفي في سنة 148 هجري، في حين توفي سنان سنة 220 هجرية؛ أما عند الشيعة الاثني عشرية، فقد روى عن الكاظم والرضا والجواد، أو ابن الرضا وابن ابنه وابن ابن ابنه، وهذا أقرب للمنطق الزمني، وينسب إليه النصيرية كتاب "الحجب والأنوار". المترجم}

[VIII] أول من نادى بألوهية علي.

[IX] يقول آمين. المترجم

عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)"[I]. إذ قال نوح وهو الرسول المبين: ربي أنزلني منزلًا مباركًا وأنت خير المنزلين[II]. أرض. تمت المشيخة بحمد الله وحده، والاسم والباب بعده".

ثم يكتب الناسخُ التاريخَ، ويخبرنا عن نَسبه، والمناسبة التي نُسخت المخطوطة بسببها، وهي تنصيب ابن أخيه شيخًا[III].

والموضوعات الثلاثة الملحقة أُضافها لاحقًا الشيخ نفسه، وللشيخ نفسه، وكتبها بخطٍ أسوأ متحججًا بأن الحبر لا ينفع لشيء: "ماشي حبر ينفع".

القسم الواحد والثلاثون: "نكتب العقاد [عقد بين الولد الذي يراد إدخاله في الدين، وسيده أو الإمام، أو العم الذي سيعلمه الصلاة]، وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم المعنى القديم، والاسم العظيم، والباب المقيم، ونهج المهتدين، وعين اليقين، وأساس الدين، أعقد بينكما على رضاءٍ منكما وفسحة من رأيكما، على ما تراضيتما عليه بين أيدي هذا السادات الحاضرين عقد الاختيار وليس هو الاضطرار، فإذا قال اعقد قل إن تقيموا حدود الله بإقامتها، وان تعقلوا مطاياه عن المخالفة بازمتها، وإن حق السيد على ولده لا يفشي له سرًا، ولا يعصي له أمرًا، ولا يوغل له صدرًا، ولا يكشف له سترًا، ولا يوالي له عدوًا، ولا يعادي له وليًا، وينصره في ساير زمانه، في عينه ويده ولسانه، وان حق الولد على سيده حسن التربية، ولطف التغدية، لا يوكلفه شططًا، ولا يحفظه غلطا، ويلقي إليه مثلما لقوا التقات، ويحذره عن جميع البغي والشهوات، وان كلام السيد مقبول في حق ولده، وليس كلام الولد مقبول في حق سيده، هل انتم قبلان راضيًا تحت ما شرطته عليكما، فاذا قالوا قابلان قل: اللهم اني أُشهدك وأُشهد ملايكتك عنما التزما من فروضك وسلوك سنتك، وقد طاعون لوفا[IV] بعهدك، وقد عقدت بينكما بعقد عين ميم سين عدة المتقين، وانت ولي النعم للمؤمنين، ومنزل النقم على الكافرين الجاحدين، كما قال في كتابه المنزل على نبيه المرسل: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)"[V].

القسم الثاني والثلاثون: يحتوي هذا القِسْم على القَسَم الذي يقسمه الولد قبل الدخول في الدين، العنوان: "ويتلوه خطاب التلميذ بعد السّال[VI]، والكتاب في يده تقرا عليه الفاتحة، وتقول: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد الله عليه، فسايوته الله أجرًا عظيمً[VII]، ثم تقول أيها الولد البار، والتلميذ المختار، وفقك الله لطاعته ورضاه فأخبرني بماذا احتمل رايك، وصح عندك بتمكين عقلك، وما أنت طالبه من سيدك، فيقول: مرادي أن يخلص رقبتي من رق العبودية، ويرشدني إلى معرفة الله بالحقيقة، وينقدني من ظلمة العما والشنبوية[VIII]، ويحييني الحيات الأبدية، فتقول: اعلم وفقك الله لإرشادك، وبلغك نهاية مرادك، فانك قد أهّلت نفسك إلى طلب أمرٍ عظيم، وخطابٍ جسيم، فهو سر الأسرار، وعقيدة الأبرار، فلا تسعه إلا

[I] السورة رقم 2، الآية 285. {سورة البقرة، الآية رقم 285-286. المترجم}

[II] لم يرد في المخطوطة عبارة "وقوله تعالى" مع أنها آيةٌ قرآنيةٌ، والنص الكامل: "وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ"، سورة المؤمنون، الآية 29. المترجم

[III] لمعرفة المزيد عن المخطوطة وناسخها؛ راجع مقدمة المترجم. المترجم

[IV] وقد طاعوا الوفا بعهدك. المترجم

[V] السورة رقم 48، الآية 10. {سورة الفتح، الآية 10. المترجم}

[VI] يقصد السؤال. المترجم

[VII] لم يرد في المخطوطة عبارة "وقوله تعالى" مع أنها آيةٌ قرآنيةٌ، والنص الكامل: "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"، سورة الفتح، الآية رقم 10. المترجم

[VIII] لم يقدر المعلم المسلم شرح معنى كلمة "الشنبوية"، فهي غير موجودةٍ في القاموس، ويَعتقد أن أصلها "شُنْبَة" بمعنى البرودة. {شنبوية اسم شخصٍ بمقته النصيرية، وفي أبياتٍ شعريةٍ للخصيبي، ورد اسم شنبوية مقترنًا باسم حبتر: "من نسل شنبوية من حبتر......ومن حمين الكافر الغادر"، وحبتر هو أحد الأسماء التحقيرية التي يطلقها الشيعة على عمر بن الخطاب من باب التقية، ولذلك يمكن أن يكون أبو بكر الصديق المقصود بشنبوية؛ فعادةً ما يزم الشيعة الاثنين معًا. المترجم}

صدور تقية، وادنها صافية، ولا تقبله إلا قلوب مضية، وعقول جوهرية، وقد قال مولاك الصادق منه السلام وإليه التسليم: من أخذ علمنا في القبول فقد فتح عليه قفل قلبه حتى يعود فقيهًا، ومن أخذه في الشك والارتياب فلا يزداد منا إلا بعدًا، وقوله تعالى: "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)"[I]، فيقول الولد: ستجدني انشاء الله من الصابرين، فتقول: اعلم وفقك الله تعالى إن الذي تريده مني سر كريم، وخطاب عظيم، وعلم جليل، وخطر تقيل، فلا تحمله الجبال، ولا تقبله أهل الضلال، ولا تطاوعني نفسي على كشفه، لعظم محله وشرفه، فهو الترياق الشافي لمن حفظه، ودان به، واتقاه؛ والسم القاتل لمن إلى غير أهله كشفه، وفشاه، وهو صعب مستصعب، واعلم اذا عرفته وداخلك فيه شك، أو رتبت فيه، أو ذيعته إلى غير أهله، أو كشفته إلى غير مستحقه، فتكون من المبذرين الذين هم إخوان الشياطين، واستحقيت بذلك المسوخية، والسلوك في القمصان الدنية، ما سمعت ما روا عن مولانا أمير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم، انه قال: علمنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا ملكًا مقرب، أو نبيًا مرسل، أو مومنًا امتحن الله قلبه في العلم والإيمان، وأنت في فسحتٍ من أمرك، قبل أن تعرف هذا السر، فاعلم انك اذا عرفته، أو نكرته وداخلك فيه شك، أو ارتبت فيه، نُقلت إلى المسوخية، وكررت في الأكوار، وعُذَبت في الأدوار، فانظر ماذا تختار، فيقول الولد: إني تابت على معرفة الله، إن شاء الله تعالى، فتقول: ثبتك الله في القول الثابت، في الحياة الدنيا والآخرة، وجعل ما تسمعه من مكنون سر الله تعالى معك مستقرًا، غير مستودعًا، فيقول: أنعم عليي يا سيدي في معرفة الله تعالى.

"فتقول: إن الذي تريده مني أمر كبير، وعلم جليل، وستر كريم، وخطاب عظيم، وهو صعب مستصعب، ما سمعت ما روى عن باقر العلم منه السلام انه قال: سرنا سر مستصعب، لا يحمله إلا ملكًا مقرب، أو نبيًا مرسل، أو مومنًا امتحن الله قلبه في العلم والإيمان، والملايكة كتيرة، فعلمنا لا يحمله منهم إلا من كان مقربًا، والأنبياء كتيرة، فعلمنا لا يحمله منهم إلا من كان مرسلًا، والمومين كتيرة، فعلمنا لا يحمله منهم إلا من كان ممتحنًا، وأنت في فسحةٍ من أمرك، قبل ما تسمعه، فاعلم أنك اذا سمعته مني، فتذيعه، أو تكشفه إلى غير مستحقه، فيديقك الله حر الحديد وبرده، فانظر لنفسك ماذا تختار، فيقول: إني تابت على معرفة الله، إن شاء الله تعالى، فتقول: ثبتك الله في القول الثابت، في الحياة الدنيا والآخرة....."[II]، ما سمعت ما روي عن العالم منه السلام انه قال: حديثنا صعب، مستصعب، حس، محسوس، لا يحمله....، ومن حديثنا سر مستتر، مقنع بالسر، لتضعه إلا في صدور حصينة، وقلوب أمينة، وقد قال إن صدور الأحرار حصون الأسرار، وقال من أودع المعرفة عند غير أهلها، كان بقوله اثم، وعلى فعله نادم، وقال من أودع المعرفة عند غير أهلها، كان كمن علق الدر في رقاب الخنازير، وقال احذر وافشاء السر، فأنه يقطع الرزق، وينقص العمر، وقال: من اداع لنا سرًا أدقناه حر الحديد وبرده، فاصغي إلى هذا القول بعقلك، وتدبره بفهمك، وأنت في فسحة من أمرك، قبل ما تسمع هذا السر، فانظر إلى نفسك ماذا تختار، لأن بعد النذر ما بقى من حذر، ولا يقع المسخ بعد الإجابة إلا من الشك بعد اليقين والإنكار، فيقول: إني تابت على معرفة الله، إن شاء الله تعالى، فتقول ثبتك الله في القول الثابت، في الحياة الدنيا والآخرة، ويجعل ما تسمعه من مكنون سر الله تعالى معك مستقرًا غير مستودعًا، وتابتًا غير مسترجعًا، فيقول: أنعم عليي يا سيدي في معرفة الله تعالى.

"فتقول: إن كنت بقولك صادق وعلى هذا العهود واثق، فإني آمرك في أمر وأنهاك عن أمر، فإن خالفت أمرًا منهم فيكون ذلك سبب هلاكك، وتخرج من حد الإيمان، و ترجع إلى درج النقصان، فيقول عرفني ذلك يا سيدي، فتقول أما الأمر الأول محافضة إخوانك ومراعاتهم، ومداراتهم، والمواضبة على تفقدهم، وبرّهم وصلتهم، وجميع ما ترضاه لنفسك ترضاه لهم، فاعلم أن خمس مالك حلالًا مطلقًا لهم، في كل عام، وتقيم الصلاة في أوقاتها، وتودي الزكات إلى أهلها، وتواضب على عمل المفترضات، وتسارع في أوقات الحقوق الواجبات، وتكون لسيدك مجيبًا داعيًا شاكرًا ذاكرًا مبرًا له في جميع ما تقدر عليه ويرضاه، متجنبًا عن جميع ما يكره من ساير ما يكون من البواطل، وأما الأمر الثاني التحرس عن مظالم إخوانك، ولا تتعدا على أحد منهم، وتجنب خطاهم، ولا تخالف رضاهم، واحدر اساءهم، واعلم أن العمل مكتسب من النظر إلى محارمهم بعين الريبة، والطرش مكتسب من استماع الغيبة والنميمة فيهم، والبرص

[I] سورة المزمل، الآية رقم 5. المترجم

[II] الكلمات التالية نفس ما قيل سابقًا بهذا الخصوص.

والجذام مكتسب من الاستهزاء بهم والاستنقاص من مقاديرهم، والفقر والفاقة من الشح والبخل عليهم، وما من علةٍ ظاهره ولا باطنه إلا وهي مكتسبة من أجلهم، لأن المؤمنين حبلهم متصل بحبل مولاهم، وغضبه بغضبهم، ورضاه رضاهم، واتجنب الكدب وجميع أفعال المحارم والفواحش، والمنكر ما ظهر منها وما بطن، فإن قبلت ذلك ما قصصته عليك في قبول حسنًا، طايعًا مختارًا بغير كرهًا ولا إجبار، فإني امر سيدك يجيب دعوتك إلى ما فيه نجاتك، وينعم عليك في النعمة الدايمة، والحياة الأبدية، ويخرجك من الظلمة، والعما، ويوردك إلى منار الضيا، بعد أن اخد عليك عهد الله وميثاقه الماخود على أنبياه ورسله، هل انتم قابلًا راضيًا بما اشرطته عليك، فيقول التلميذ قبلت ورضيت.

"ثم تعرض عليه الدين والإيمان بعد أن تطلب له كفلا، وتقول قبلا أن تحلفه اللهم إني بريًا من خطيتكم، فأنت أمرت بذلك في كتابك المنزل على نبيك المرسل فتقول[I]: إذا جاءك المؤمنات مهاجرةٍ، فامتحنهن الله أعلم بايمانهن، فان علمتهن مومنات، فلا ترجعهن إلى الكفار، فامرت بذلك فلا تعطوا المعرفة إلى أهلها إلا من بعد العهود والميثاق.

"ثم تقول الله وبالله وتالله وسابع يمينًا بالله اني واثقًا بالله، وبما تلقيه إلي من سر الله، وإني لا أبيعه ولا أذيعه ولا اماري فيه إلى الجهال، ولا ابادي فيه أحدًا من الناس إلا أخًا من إخواني يبادني واباديه، وان فعلت غير ذلك اكون بريًا من الله وكتبه ورسله، والله على ما أقول وكيل وشهيد، ثم قول والله وبالله وثاني والله وسابع يمينًا بالله، قسمًا عظيم، وبما اتخذ على النبيين من العهد والميثاق إني واثق بالله بما تلقيه إلي من سر الله، واني أستر جميع الذي اسمعه وأعلمه من سيدي وأتبع ما يرشدني إليه وأنتهي عما ينهاني عنه والله على ما أقول وكيل وشهيد، ثم قول والله وبالله وثالث يمينًا بالله وسابع يمينًا بالله وثمانين يمينًا بالله أربعين من قيام وأربعين من قعود إني واثق بالله وبما تلقيه إلي من سر الله وإني لا أبيعه ولا أذيعه ولا امر بكتبه إلى غير مستحقه لا في حياتكم ولا بعد وفاتكم لا في حال طمع ولا في حال رضا ولا في حال شك واني تحت هذه الشروط واني منتهي عن ساير ما يضر إخواني من قتل نفس وزنا وحرام وفساد وكدب وعوان وربا وما يشبه ذلك ولا أكشف على ما ظهرتموني عليه من سر الله لا أحدا من جميع خلق الله تعالى إلا لأخ من إخواني يباديني وأباديه وان خالفت ذلك اكون بريًا من الله وكتبه ورسله والله على ما أقول وكيل وشهيد ينكث بالناكث.

"ثم قول له: قوم جعلك الله من المؤمنين الذين يسبحون في الأرض وبنور ربهم يهتدون.

"ثم يسلمه إلى إخوته العشرة والكفلا يحلفوه، ويسلمه إلى النقيب إلى سيده يسقيه سل التنين، بعد يقراهم ويقرا الإمام آية، ويسجدون، ويدعون بالسجود والسلام، ويقرا الفاتحة إلى أهل الطريقة، وأهل الحقيقة مما وفق. تم الدخول المبارك، بحمد الله وحده، وصلواته على خير خلقه محمد ﷺ وأله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم القيامة والدين، والحمد لله رب العالمين.

"وهو من ايراد المعلم السديد، الموفق، الرشيد، بقراط عصره، ورستطاليس وقته، السيد الجليل، والندب الفضيل، والغيث الهطيل، العالم الهجين، والسيد الرئيس، البطل النفيس، الشيخ الأوجد، الأوحد، والليت الممجد، والباز الأصيل، ابن العم العزيز والندب الحريز الشيخ حسن ابن الشيخ رمضان، أناله الله الرضا، وبلوغ الإرادة والمنا، وألحقه الله بعالم اللاحقين، آمين. وقد كتبنا برسم ابن العم العزيز الشيخ علي بن الشيخ عيد[II]".

القسم الثالث والثلاثون: خطبة الخبر ملأى بالأخطاء ومكتوبةٌ بخط رديءٍ، مع تركيبٍ سيئٍ للجمل وقواعد اللغة.

[I] السورة رقم 9، الآية رقم 10. {نص الآية: "فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، سورة التوبة، الآية 11. المترجم}

[II] لمعرفة المزيد عن المخطوطة وناسخها؛ راجع مقدمة المترجم. المترجم

"بسم الله الرحمن الرحيم. يروي الخبر عن ما يحل ويحرم فوق الريحان. اسمعوا يا إخوان، الله يصبحكم بالخير يا أسياد، ويمسكم بالرضا والسعادة [هكذا يصبح النصيرية على بعضهم ويمسون]، قال مولاكم جعفر ابن محمد الصادق عند ذكره يجوز سمط الناطق، وعند ذكر الله يجوز الصمت والاستماع وقيام حقوق الله تعالى، ويتخذ العلوم الباطنة من العلما البالغين، والانتهى عن الأباطل والمساوي، في الليل والنهار، وقال في الخبر عن صاحب المعاجز والقدر أنه قال من دخل لاحقًا وتكلم فيه شيء غير ذكري، فأنا بريّا منه وهو بريّا مني، ومن كتر الحديث فوق الريحان يبقا أخرس، ومن كتر اللغو والغيبة والنميمة، فيهبط الله عمله الصالح، ومن تبهرج بالزينة على اخونه، خفضه الله تعالى ووطاه، ومن ضرب أخيه بالباطل، كأنما اخد عصاة وضربني بها، ومن اخد بعرض أخيه ظلمًا، كأنما اهدم بيتي بيده، ومن تكبر وتجبر على الإخوان، له عندي من الأوزار تقل الجبال الرواسي، ومن جعل نفسه بغير محلها، ثقلت ومن رد على الإمام قوله، خالف الله ورسوله، ومن عنا على غير نيت الصلاة، كانت صلاته غير جايزة، ومن دخل في نيت الأكل والشرب، لا في نيت الصلاة والعبادة، كان عمله هباءً منثورًا، ومن تكلم بخلاف الطاعة، ليس له عندي بضاعة، ومن تكلم وقت الأذان، يتلجج لسانه عند الموت.

"ويحب على كل مؤمن عارف اذا حضر في مجالس أهل العلم والتوحيد، فانه يكون صادق النية بالله، يسبح الله في وقت التسابيح، ويآمين الله وقت التآمين، ولا يذكر حديث الدنياوي، ويجعل نفسه أصغر ما في المجلس، ولا يشك ولا يشرك في الرحمن، ولا يتكره في واحد من الإخوان، ويكون اعتماده الصلات تايبًا لله وراغبًا في رضاه، ويرضا بما يحصل من رزقًا، جزيلًا كان أم قليلًا، ففي حسن صدق مودته، وخلاص نيته تتصاقط عنه الدنوب، ولو كانت عدد الرمال، وأما الرجل المنافق، اذا دخل في مجلس أهل العلم والتوحيد، يكون بقصده الأكل والشرب، ويلهي يمينه وشماله، ويشك بربه وإخوانه، وينقل الأخبار، ويتخلا عن المواعظ، ويخفي ما يشاهد من الصالحات، ففي اختلاف نيته، وقلت مودتهن يحمله الله تعالى دنوبًا غلاظًا شدادًا، واعلموا أيها الإخوان، أيدنا الله وإياكم من إن القمص الموسخة [في الاجتماعات الدينية]، الذي بلا الله بها أهل الكدر [اللباس غير المغسولة تدل على العزاء عند النصيرية[I]]، لم يوجب لهم لبسها إلا من بعد عرفان الحق وإنكاره واستماع الندا من الإمام، ومخالفته، والخوض في الباطل، وما من علة تحل في أجسام البشر، مثل برص وجذام وجنون وبرسام[II] وخرس وطرش وفقر ومرض وخطا[III]، وساير الأوجاع، إلا من التنقيص في حقوق الإخوان، ومخالفة الرحمان، واعلموا أيها الإخوان أن الله حرم على عبيده المؤمنين المهما[IV] مخالفين الهرج، والمرج [ربما مع الغرباء] والأخد، والعطان، والبيع، والشران، والشركة، والضمان، والارتياب، والغيبة، والنميمة، والمقاطعة، والجدال، والمكاشرة[V]، والمنافرة[VI]، والغل، والحقد، والحسد، ولعب القمار، وسوء الظن، والاستنقاص بقدر أولاد الوجاقات[VII]، ولبس الحذا، وشقع العبا[VIII]، وحمل السلاح[كل ذلك في الاجتماعات الدينية]، والتمهذي بالفقرا، والمساكين والناقص الدين. يحرم أكل الربا، وتغير الأشخاص عن مواضعها[IX]، وشهادة الزور، والكدب،

[I] لا اتفق مع تفسير المؤلف، وأعتقد أن القمص الموسخة تعني الأجسام التي يمسخ فيها من أنكر ألوهية عليّ. المترجم

[II] مرض ذات الجنب/التهاب الجنبة (التهاب الغشاء المحيط بالرئة). المترجم

[III] الحوادث، حسب ترجمة المؤلف الإنجليزية. المترجم

[IV] من الواضح وجود خطأٍ في الكلمة التي وردت هنا، فالكلمة التي تليها هي "مخالفين"، وقد يصبح المعنى أن الله حرّم عمل الأشياء التي تليها مع الغرباء، وقد تعني تلك الكلمة "ما عدا"، فيقع التحريم على كل ما يليها وأن كل الناس سيطيعون ذلك ما عدا المخالفين؛ وفي تلك الحالة سنتساءل فيما إذا كان المقصود الإجحاف في البيع والشراء، أم البيع والشراء عند المشايخ.

[V] كَشَرَ فلانٌ لفلان أي تَنَمَّرَ له وأَوْعَده. معجم لسان العرب. المترجم

[VI] أن ينفر من أخيه ويتجنبه. المترجم

[VII] أولاد الوجاقات تعني الشيوخ، حسب ترجمة المؤلف الإنجليزية. المترجم

[VIII] وضعها فوق الكتف، حسب ترجمة المؤلف الإنجليزية. المترجم

[IX] يقصد في المجالس، حسب ترجمة المؤلف الإنجليزية. المترجم

ولبس المتشابهات[I] متل شملة السوداء[II]، وعصبة الزرقا، وكشتبان العظم، وسكين بحدان، ولبس التبان[III]، والنظر فوق السجود، والسجود قبل سجود الإمام، والقيام قبل قيام الإمام، ورفع الصوط فوق صوط الإمام، لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2)[IV]". ويحرم العوان، وكنز القال والقيل، والمسافرة، والمتاجرة، والحكاية، والرواية، وطول العانة، وقميص العثماني[V]، وطول الشارب، وشعر الباط، وعقد الزرار[VI]، وشمر الزندين، وفقع الأصابع[VII]، والتخليل[VIII]، ويحرم التتون لأنه مذموم فوق الريحان[IX].

"اعلموا أيها الإخوان إن الله حلل لعبيده المؤمنين في مياقت الصلا صفاوت النية، وخلاص الأعمال، وتطهير القلوب، والمؤالفة، والمسامحة بعضكم لبعض، فإذا كان أحد بينه وبين أخيه عداوة، أو غل، أو متشابه، من أمور الدنيا يسمح له، وصفوا المودة بينكم أيها الإخوان، واطلبوا العفوا والغفران لقول سيدنا العالم [محمد الباقر[X]]، منه السلام، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يرضا لأخيه كما يرضا لنفسه ويكره له كما يكره، واعلموا أيها الإخوان أن ما جمعكم أخيكم صاحب هذه المجلس، إلا لأجل الدعا والتوحيد لله عز وجل، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: "وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (205)[XI]"، يعني في أوقات الصلا لا يجوز لأحدٍ يكون في صدره حاجة لغير الله، وتكون الجوارح كلها متفرغة لذكر الله سبحانه وتعالى، وصفوا نواياكم حتى تبقى النية نية واحدة، واعلموا أيها الإخوان أنكم قدمتم ادلكم وأحقركم وأفقركم وأصغركم يصلي فيكم، ولم أقدر اقيم فيكم إمام، بل اني عبدًا وأصغر الخدام، أخدمكم بالذلة والاحتقار، بغير رياسة ولا افتخار، وروى سيدنا أبو سعيد في كتاب "الحاوي في علم الفتاوي"، قال: لا يجوز لأحد يتقدم على الجماعة وهو يعلم من في المجلس أعلى منه، إلا من بعد رضاه واذنه، وانا اشهد على نفسي أني أقلكم علم وعمل، وأكبركم اثم وذنوب وخطأ وزلل، وأرجي من الله العظيم، ومن بحر جودكم العميم، ان تسمحوا لي وتسعغوني في دعاكم، لعل الله يقبل منا ومنكم الدعا. وراسي يعفر مواطي تراب أقدامكم، وهذه لله ولكم تقبيلة الأقدام، الله يسمح للذي يسمح. تم الخبر، تعالى ربي، قلنا بأجمعنا أمنّا".

[I] التشبه بلباس غير النصيرية. المترجم

[II] كما يلبسها المسيحيون حول الرأس، وكانوا ملزمين على استخدام اللون الأسود (مع ألوان مشابهةٍ) حتى عهدٍ قريبٍ، وهو لون العباسيين في بغداد، أعداء آل بيت عليّ؛ ويرتدي المسيحيون أيضًا عمامةً زرقاء.

[III] يرتدي رجال النصيرية قمصان طويلةً لها فتحاتٌ جانبيةٌ ترتفع إلى مستوى الورك، فيصبح مظهرها مستهجنًا وغير محتشم.

[IV] السورة رقم 49، الآية رقم 2. {سورة الحجرات، الآية رقم 2. المترجم}

[V] أكمامه ليست طويلةً مثل قمصان النصيرية التي يطول فيها الجزء أسفل المعصم إلى أن ينتهي بنقطة.

[VI] أحد الأشياء الكثيرة الواردة في هذه الخطبة، والتي لا يلتزم النصيرية بها.

[VII] بعض هذه التعليمات تنطبق على أوقات الاجتماعات فقط، على غرار التعليمات التي سبقتها.

[VIII] إمرار أصابع اليد باللحية. المترجم

[IX] يدل هذا على أن هذه المخطوطة للطائفة الشمسية التي لا يدخن مشايخها.

[X] يعتقد المؤلف أن المقصود بالعالم هو محمد الباقر، ربما لأنه كان مشهورًا بالعلم؛ ولكنهم يشيرون إلى جعفر الصادق في كتبهم بعبارة "العالِم منه السلام"، دون ذكر اسمه. المترجم

[XI] السورة رقم 7، الآية رقم 204. {سورة الأعراف، الآية رقم 205. المترجم}

الفصل العاشر

مقتطفات من وثائق نصيرية منشورة

سأُعرض في هذا الفصل ترجمةً لأهم وثيقةٍ نشرت عن الديانة النصيرية، وأول كتابٍ كاملٍ وممتعٍ لتعلمها. أرسل كاتافاغو هذا الكتاب إلى ملك پروسيا[I] مع نسخةٍ مترجمةٍ إلى اللغة الفرنسية؛ فقد كان يعمل مترجمًا لقنصلها العام[II] في بيروت[III]. ولأن فرصة رؤية المخطوطة الأصلية[IV] لم تتح إلي؛ فقد اعتمدت في ترجمتي على مقتبساتٍ عديدةٍ منها، نشرها الدكتور ڤولف باللغة الألمانية في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية[V]"، فقد أعاره كاتافاغو نسخةً من الكتاب، في أثناء إقامته في بيروت؛ وقد أضفت عليها بعض الملاحظات عند الحاجة. وعند مقارنة هذا الكتاب بكتاب المشيخة الذي أعطيت نبذةً مختصرةً عنه، نجد تماثلًا في معظم المحتويات والنسق، ونجد شبه تطابقٍ في عباراتٍ كثيرةٍ، وقد نجد تطابقًا تامًا في تلك العبارات في النسخ العربية. يبدو أن الكتاب أصليٌّ، وهو، في جميع الأحوال، يحتوي بالتأكيد على عقائدهم الموجودة في كتبٍ أُخرى. لا شيء يثير الشك في الكتاب سوى عنوانه: "كتاب تعليم ديانة النصيرية[VI]"، وربما أُضيفَ العنوان لاحقًا.

يقول الدكتور ڤولف: "يتألف الكتاب من 38 ورقةٍ بحجم اوكتافو الكبير[VII]، ويسمّى كتاب تعليم ديانة النصيرية. تحتوي المقدمة على ابتهالةٍ إلى الإله القديم، وشكره:

"فاتحة الكتاب. بسم المعنى القديم، والاسم العظيم، والباب المقيم، وهو الله الرحمن الرحيم. اللهمّ يا عنصر العناصر، وجوهر الجواهر، يا سرّ السراير، وعالم ما في الضمائر، الظاهر من عين الشمس، القابض على كل نفس، إننا نحمدك على ما أوحيته لنا من أسرارك الإلهية، وأظهرته لنا من نور أنوارك الشعشعانية، كما نحمدك حمدًا سرمديًا على ما علمتنا إيّاه من حقائق دينك القويم، الكائن بمعرفة معناك القديم، واسمك العظيم، وبابك المُقيم المتّحد بك، والموجود فيك، الذي لا يتجزأ، ولا يتبعّض، ولا ينفصل عنك، وبظهورك العجيب في عبدك عبد النور الذي حللته وكرّمته لأوليائك العارفين بك، حلالًا طلقًا، وحرّمتَه على أعدائك الجاحدين المنكرين لك حرام نصًا. اللهم إنّا نحمدك حمدًا لا بداية لأوله، ولا نهاية لآخره على أنعامك هذا العظيم، وفضلك العميم إلى دهر الداهرين، أما بعد، نبتدي بكتابة التعليم، وهو هذا، ويتلوه المشيخة والعقاد[VIII].

"ويتبع ذلك قسمان: قسمٌ نظريٌّ يحتوي على تعاليم، وقسمٌ عملي عن الممارسات والشعائر. يحتوي القسم الأول النظري على الأسئلة التالية:

س 1: من هو ربنا الذي خلقنا؟

[I] فريدريش ڤيلهلم الرابع، "Friedrich Wilhelm IV". المترجم

[II] لودڤيج ڤون ڤيلدنبروخ، "Ludwig von Wildenbruch". المترجم

[III] "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية"، 1845-1846، ص 130.

[IV] المخطوطة العربية محفوظةٌ في المكتبة الوطنية الفرنسية في پاريس بالرقم "ARABE 6182". المترجم

[V] الجزء الثالث، ص 302.

[VI] أُشاركُ المؤلفَ الاعتقادَ بأن هذا العنوان أُضيف لاحقًا، وقد يكون كاتافاغو من أضافه؛ فقد كُتب على غلاف المخطوطة عبارة: "كتاب تعليم ديانة النصيرية، ملك يوسف كاتافاغو في بيروت"، أما في متن المخطوطة فلا ذكر لهذا العنوان. ويشير ناسخ المخطوطة إليها بكلمة "التعليم"، فنجد في المخطوطة: "أما بعد، نبتدئ بكتابة التعليم، وهو هذا ويتلوه المشيخة والعقاد .....، تمَّ التعليم". المترجم

[VII] 8 × 5 بوصة. المترجم

[VIII] فضلت اقتباس النص الكامل من المخطوطة العربية لأسبابٍ ذكرتها في مقدمتي (مقدمة المترجم). المترجم

ج: هو مولانا أمير المؤمنين، أمير النحل عليّ بن أبي طالب، وهو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

س 2: من أين نعلم أنّ مولانا أمير المؤمنين، عليٌّ بن أبي طالب هو الله؟
ج: من شهادته ووصفه لنفسه في خطبة له مشهورة، نطق بها على المنبر أمام كافة مَن حضر، وعلمها أهل العقل والنظر، فقال: أنا عندي علم الساعة، وعليَّ دلّت الرسلُ، وبتوحيدي نطقتْ، وإلى معرفتي دعت. أنا سمّيتُ أسماءها، وأسطحت أرضها، وأرسيتُ جبالها، وأجريتُ أنهارها، وأخرجت أثمارها، أنا غسقتُ الغسق، أنا أطلعتُ شمسها، وأنرتُ قمرها، أنا خلقتُ الخلق، وبسطت الرزق، أنا ربّ الأرباب، ومالك الأرقاب، أنا العليُّ العلاّم، أنا قرم من حديد، أنا المبدي المعيد، أنا أولجتُ عيسى في بطن أمّه ايلاجا، أنا أرسلتُ الرسل، ونبأتُ النبيين.

س 3: مَن دعانا إلى معرفة مولانا أمير المؤمنين؟
ج: رسوله محمد صلعم، كما قوله في خطبة بيعة الدار: اسمعوا الآن ما أقول لكم، وإياكم تشكّون، اعلموا أني أدعوكم إلى علي بن أبي طالب، كما أدعوكم إلى الله عزّ وجلّ، ألا إنّ عليا مولاي ومولاكم، لأنكم أخواص أنصاري. أقول لكم كما قال عيسى بن مريم للحواريين: نحن أنصارًا إلى الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدْنا الذين آمنوا على عدوهم، فأصبحوا ظاهرين[I]. فهم شهود الله ونقباؤه، وأدعوكم إلى عليٍّ، على بصيرةٍ، أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين، أدعوكم إلى عليٍّ بأمر منه وإياكم الريب، ألا أنّ نبوَّتي تحت ولاية عليٍّ، لأن عليّ الذي نبّأني إليكم، وهو الذي خلقني من نور ذاته، وهو ربي وربّكم، وخالقي وخالقكم، فاتقوه وطيعوه ووحدوه وسبحوه وقدّسوه واعبدوه، لأنه هو الله الذي لا إله إلا هو، إلى آخره.

س 4: إن كان مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو الله، فكيف تجانس مع المتجانسين؟
ج: اعلم أنّ مولانا أمير المؤمنين لا يتجانس مع المتجانسين، بل إنه احتجب بمحمدٍ ﷺ في كوره ودوره، وتسمّى عليًا.

س 5: كم مرة احتجب مولانا وظهر بالإنسانية؟
ج: احتجب سبع مراتٍ، ففي الأولى احتجب في آدم في كوره ودوره، وتسمّى هابيل، وفي الثانية في نوح وتسمّى شيث، وفي الثالثة في يعقوب وتسمى يوسف، وفي الرابعة بموسى وتسمّى يوشع، وفي الخامسة بسليمان وتسمّى آصف، وفي السادسة بعيسى وتسمى شمعون، وفي السابعة أخيرًا بمحمدٍ ﷺ، وتسمّى عليًا، وهو خالٍ من الأسماء التي تسمّى بها وهم لا يخلون منه.

س 6: كيف احتجب مولانا في الحجب في كورهم ودورهم وظهر بالإنسانية؟
ج: اعلم أن سرّ الاحتجاب سرٌّ عظيمٌ لا يعلمه سوى الله وحده، كقوله تعالى[II]: فلا يعرفون منّي إلا ما حملته قلوبهم، وعاينته أبصارهم، واحتملته عقولهم.

س 7: هل أنّ مولانا أمير المؤمنين يحتجب ويظهر بالعالم مرة أخرى؟
ج: يظهر من دون احتجابٍ في آخر الزمان بمجدٍ وبهاءٍ عظيمٍ، ويخلّص أرواح المؤمنين من قبورها التي هي قمصانها اللحمية، ويجعلها أن تسكن بالأنوار الأبدية.

س 8: ما هو الظهور الإلهي؟
ج: هو ظهور الباري بواسطة الحجب بالإنسانية، وألطف غلافٍ في جوف غلافٍ[III].

س 9: فسّر لي قولك هذا وكيف مولانا ظهر بالإنسانية؟

[I] كلام مأخوذ من الآية: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)"، سورة الصف، الآية رقم 14. المترجم

[II] في العادة تأتي آية قرآنية بعد عبارة "كقوله تعالى"، لكن ما أتى بعدها ليس من القرآن. المترجم

[III] أي أنه غلافٌ علويٌ بجوف غلافٍ سفليٍ. الغلاف العلوي: ظهوره بالصورة المرئية؛ الغلاف السفلي: ظهوره بنور الذات. المترجم

ج: اعلم أنّ المعنى دخل بالباب، واحتجب بالاسم، وتسمّى به، كما قال مولانا جعفر الصادق، علينا من ذكره السلام: اذكروا الله حق ذكره، واذكروا اسمه وبابه.

س 10: ما هو الاسم والمعنى والباب؟
ج: هو ثالوث غير منفصل، تدل وحدانيته على ألوهية مولانا، ولهذا نقول بسم الله الرحمن الرحيم، فلفظة الله تدلّ على المعنى، ولفظة الرحمن الرحيم تدل على الاسم والباب[I].

س 11: كيف المعنى اخترع الاسم وكيف الاسم اخترع الباب؟
ج: اعلم أنّ عنصر العناصر، وجوهر الجواهر قد اخترع الاسم من نور وحدانيته، وجعله نورًا منجبلًا من جوهر معنويته، وحركه من سكونه، واصطفاه، وسمّاه باسمه واجتباه، ولم يكن له ربٌّ سواه، وجعله وحده الخالق، ولسانه الناطق، وأقامه بالأمر العظيم، والسبب القديم، وجعله دائرة الوجود، ومحرابَ السجود بأمر العلي المعبود، وقال له: كن مسبب الأسباب، ومبوب الأبواب؛ فعندها الحجابُ خلق البابَ بأمر مولاه، وأمره أن يخلق العوالم العُلْوية، والعوالم السفلية.

س 12: هل أن الباب والمعنى ينفصلان عن الاسم؟
ج: كلا بل إنهما متصلان به، كما قال تعالى في خطبة الأوهام، وتحياته الزكية على حجابه المتّصل ولا عنه منفصل.

س 13: ما هي الأسماء المتعلّقة بالمعنى والاسم والباب وكيف تُقسّم؟
ج: إن الأسماء المتعلّقة بالمعنى والاسم والباب تقسم إلى مثلية، وذاتية، وصفاتية؛ فالمثلية المعنى، والذاتية الاسم، والأسماء الصفاتية هي التي تسمّى بها الاسم وهي للمعنى خاصة، كقولنا: الرحمن الرحيم، الباري.

س 14: أخبرني عن الأسماء الثلاثة وستون، المثلية المعنى والذاتية الاسم وهي التي قام فيها في النبوة والرسالة؟
ج: اعلم أنّ هذه الأسماء المثلية المعنى والذاتية الاسم هم سيدنا آدم، وأنوش[II]، وقينان[III]، ومهلاييل[IV]، ويارد[V]، وإدريس، والمتوشلخ[VI]، ولمك[VII]، ونوح، وسام، وأرفخشاد[VIII]، ويعروب[IX]، وهود، وصالح، ولقمان، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإلياس، وقصي، وإسحاق، ويعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وكولب[X]، وحزقيل[XI]، وشمويل[XII]، وطالوت[XIII]، وداود، وسليمان، وأيوب، ويونس، وأشعيا[XIV]، واليسع[XV]، والخضر، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ودانيال، والإسكندر، والأزدشير، وسابور[XVI]، ولؤي، ومرة، وكلاب، وقصي، وعبد مناف، وهاشم، وعبد المطلب، وعبدالله، ومحمد المصطفى، والحسن المجتبى، والحسين الشهيد بكربلاء، وعلي زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا،

[I] لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع، راجع باب ملخص أهم عقائد النصيرية في آخر الكتاب. المترجم

[II] أنوش بن شِيْت بن آدم، وقد ورد ذكره في سفر التكوين وإنجيل لوقا باسم "أَنُوشُ ابْنُ شِيْت". المترجم

[III] قينان بن أرفَكْشاد بن سام بن نوح، وقد ورد ذكره في إنجيل لوقا باسم "قِيْنانُ ابْنُ أرْفَكْشاد". المترجم

[IV] مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم، وقد ورد ذكره في إنجيل لوقا باسم "مَهلَلْئِيلُ ابْنُ قِيْنانَ". المترجم

[V] يارد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم، وقد ورد ذكره في إنجيل لوقا باسم "يارِدُ ابْنُ مَهلَلْئِيلَ". المترجم

[VI] المتوشلح بن إدريس بن يارد بن مَهلَلْئِيل، وهو وجد نوح؛ وقد ورد ذكره في سفر التكوين وإنجيل لوقا باسم "مَتُوشالَحُ ابن أخنُوخ"، ويعتقدُ كثيرٌ من الناس أن أخنوخ وإدريس هما الشخص نفسه. المترجم

[VII] أبو نوح عليه السلام. المترجم

[VIII] أرفَكْشادُ بن سام بن نوح، وقد ورد ذكره في سفر التكوين وإنجيل لوقا باسم "أرفَكْشادُ ابْنُ سام". المترجم

[IX] يقصد يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفَكْشاد بن سام بن نوح. المترجم

[X] يقصد كالب بن يوفنا، أحد أصحاب النبي موسى، والقائم بأمر بني إسرائيل. المترجم

[XI] نبي مذكور في التوراة، وتذكر كتب التاريخ العربية أنه كان القائم بأمر بني إسرائيل بعد كالب بن يوفنا. المترجم

[XII] النبي صموئيل، مذكور في التوراة. المترجم

[XIII] نبي مذكور في التوراة. المترجم

[XIV] نبي مذكور في التوراة. المترجم

[XV] اسم نبيٍ مذكور في التوراة والقرآن. المترجم

[XVI] الأزدشير وسابور هما أول ملكين من ملوك فارس الساسانيين. المترجم

ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، والإمام محمد بن الحسن الحجة القائم المهدي البشير، النذير، المؤمل، المنتصر، صاحب العصر والزمان، علينا من فضل ذكرهم السلام.

س 15: ما هي الأسماء الصفاتية التي تسمّى بها الاسم وهي للمعنى خاصة؟
ج: اعلم أنّ الأسماء الصفاتية التي تسمّى بها الاسم وهي للمعنى خاصة هي: الرحمن، الرحيم، البارئ، المصوّر، الفاطر، الأول، الآخر، الباطن، الظاهر، الملك، العزيز، الجبار، المتكبر، المؤمن، السلام، المهيمن، القادر، السميع، البصير، العليم، الحكيم، القوي، الشديد، الغني، الحميد، المبدي، المعيد، الواحد، الخالق، المنّان، الديان، الخبير، القدير، المنير، السراج، العلي، المولى، الكبير، القديم[I]، سبحانه وتبارك الحمد.

س 16: ما هي أسماء الاسم في اصطلاح اللغة؟
ج: أسماء الاسم في اصطلاح اللغة هي أحمد، محمّد، المصطفى، الأمّي، الأمين، الدليل، العاقب، الناجي، الحاشر، الباعث، يس، الحواميم السبعة[II]، الطواسين الثلاثة[III]، كهيعص، الم، المص، الر، طه، التين، الزيتون، المزمّل، المدّثر، ص، ق، ن، المجيب، وفي التوراة ماد الماد، الوفي، الأمين، وفي الإنجيل الفرقليط، وفي الزبور مهيمنا، وفي القرآن محمد.

س 17: أخبرني عن أسماء الاسم في التسعة الذاتية.
ج: اعلم أنهم آدم، ويعقوب، وموسى، وهارون، وسليمان، وعيسى، وعبد الله، ومحمد رسول الله، ومحمد بن حسن الحجة.

س 18: أخبرني عن أسماء الاسم في الأظلة.
ج: اعلم أنّ أسماء الاسم في الأظلة هي المشيئة، والفطرة، والعلم، والقدرة، واللطف الخفي.

س 19: أخبرني عن أسماء الاسم في القبة الإبراهيمية.
ج: أسماء الاسم في القبة الإبراهيمية هم: إبراهيم، وإسماعيل، وإلياس، وقصي، وإسحاق.

س 20: أخبرني عن أسماء الاسم في القبّة الموسوية.
ج: اعلم أنهم موسى، وهارون، وشبر، وشبير، ومشبر [IV].

س 21: ما هي أسماء الاسم في القبة المحمدية؟
ج: هم محمد ﷺ، وفاطر[V]، والحسن، والحسين، ومحسن.

س 22: ما هي أسماء باب الله العظيم الجليل الكبير المنير المطوّق بالنور؟

[الأسماء نفسها التي وردت في كتب الدروز]

ج: هم سيدي جبرائيل، ويائيل، وحام، ودان، وعبد الله، وروزبة، وسيدنا سلمان الفارسي، علينا من ذكرهم السلام، وسفينته أبو عبد الرحمن وهو قيس بن ورقة الرياحي، ورشيد الهجري، وكنكر أبو خالد وهو عبد الله بن خالد الكابلي، ويحيى بن معمّر بن أم الطويل الثمالي، وأبو الطيبات محمد بن أبي زينب الكاهلي وهو البزاز الموصلي، والمفضّل بن عمر الجعفي، ومحمد بن المفضل، وعمر بن الفرات الكاتب، والسيد أبي شعيب محمد بن نصير،

[I] جميعها من أسماء الله الحسنى باستثناء: الفاطر، والشديد، والمنان، والديان، والقدير، والمنير، والسراج، والمولى، والقديم. المترجم
[II] سورٌ قرآنيةٌ سبع تبتدئ بـ "حم". المترجم
[III] سورٌ قرآنيةٌ ثلاث تبتدئ بـ "طس". المترجم
[IV] شبر وشبير هما أولاد هارون، وقد يُقصد بهما الحسن والحسين، وربما أُضيف "مشبر" ليدل على المحسن وزنًا. المترجم
[V] يسمي النصيرية فاطمة بصيغة المذكر فتصبح فاطر. المترجم

وسلسل، وسلسبيل، ودحية بن خليفة الكلبي، وسيدتنا أم سلمة المخوّلة بالأنعام الدالة بولايتها على ظهورات المعنى والاسم والباب.

س 23: أخبرني عن أسماء أشخاص الباب في كتب أهل التوحيد.
ج: إن أسماء أشخاص الباب في كتب أهل التوحيد هم: الكرسي، الماء، السماء، الباب، الروح الأمين، روح القدس، رب الناس، الجبل، طور سيناء، الغراب، الفلك، الناقة، العصا، الخاتم، النملة، الهدهد، الكالي، المهد، العرش، سلسل، سلسبيل، دان، القدوم، الصّور، السور، الخلق، الشراب، الشاه[I]، الدلو، السبب، الكوثر، الميزان، العدل، القسط، البرهان، البيان، الداعي، المنادي، السبيل، البشير، النذير، النور، القمر، النية، النصير، المسجد، الحية، الرسول، النبي، الحفيظ، أخو يوسف، السفينة، سبحان العليم، اللوح والقلم، سارق الصاع، سفراء البقرة، جبرائيل علينا منهم السلام؛ هذه هي أسماء الباب الرمزية في كتب أهل التوحيد.

س 24: أخبرني عن أسماء الباب في الستة مقامات الروحانية.

ج: اعلم أنّ أسماء أشخاص الباب في المقام الأوّل: جبرائيل عليه السلام وأيتامه، ميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورضوان.

س 25: أخبرني عن أسماء أشخاص الباب في المقام الثاني.
ج: اعلم أنهم يائيل بن فاتن؛ وأيتامه: أنقيل، وأفراقون، وقينان، وأفريق، وأفريقا.

س 26: أخبرني عن أسماء أشخاص الباب في المقام الثالث.
ج: اعلم أنّ أسمائهم في المقام الثالث حام بن كوش؛ وأيتامه: يهودا، وهيروش[II]، ومالك، وهملك، وأنقيل.

س 27: أخبرني عن أسماء أشخاص الباب في المقام الرابع.
ج: أسماؤهم دان بن أصباووط؛ وأيتامه: يهودان، وهيروق، وعبد الله، وإسرائيل، وعمران.

س 28: أخبرني عن اسم الباب في المقام الخامس.
ج: اعلم أنه عبد الله بن سمعان؛ وأيتامه: شعيرا، وشتلخ، وهرشة، ومسقول، وأشيرا.

س 29: أخبرني عن اسم الباب في المقام السادس.
ج: اعلم أن اسمه روزبة؛ وأيتامه: يوحنا فم الذهب، ويوحنّا الديلمي، وبولس، وبطرس، ومتّى، عليهم أفضل السلام.

س 30: أخبرني عن أسماء أشخاص الباب في القباب البهمنية.
ج: اعلم أنّ أسماء الباب في القباب البهمنية هم: سيراؤوس، أردوان، كنانة، جم قباض، فيروز، أنوشروان، كيكاووس، يزدان، شاهبور، بهرام، جور، فريدون، دوشت، شاهمدان، يزرجمهر، شهريار، جيل، جيال، خددان، روزبة، تركان.

س 31: ماذا يُدعى الباب؟
ج: إنه يُدعى أيضًا النفس الكلّية، روح القدس، جبرائيل، ويُسمّى العزيز الأعلى سلمان.

[ملحوظة: أخطأ الدكتور ڤولف في ترجمة عبارة "النفس الكلية"، وهي اسم الحد الثاني عند الدروز[III]]

س 32: أخبرني عن أسماء الباب في الأحد عشر مطلعا التي مَنَّ الله علينا بمعرفتها وأوصلنا إلى حفظها.
ج: اعلم أنّ أسماء الباب وأيتامه في المطلع الأول: سيدنا سليمان وهو روزبة بن المرزبان الفارسي، ومن كناه أبو الطاهر، وأبو اليقين، وأبو عبد الله؛ وأيتامه: المقداد بن عمر بن عثمان بن الأسود الكندي، وأبو الذر جندل بن جنادة

[I] وردت "الرشا" في كتبٍ أُخرى، ولم ترد "الشاه" إلا في هذه المخطوطة. المترجم
[II] وردت هيشور في كتبٍ أُخرى. المترجم
[III] لا معنى لهذه الملاحظة، لأن النص منقولٌ من أصله العربي. المترجم

بن سكن الغفاري، وعبدالله بن رواحة الأنصاري، وهو في الظاهر أخو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله من الرضاع[I]، وعثمان بن مظعون النجاشي الهلالي، وهو رضيع مولانا أمير المؤمنين، عزّت الاؤه، وقنبر بن كادان الدوسي، وهو عبد مولانا أمير المؤمنين، منه الرحمة، ما عُرِفَ له أبٌ، ولا رد له في الظاهر نسب.

س 33: أخبرني عن أسماء الباب وأيتامه في المطلع الثاني.
ج: اعلم أنّ أسماء الباب وأيتامه في المطلع الثاني هي: أبو عبد الرحمن قيس بن ورقة الرياحي، ويُكنّى بأبي المصابيح، ولقبه "سفينة" صلوات الله عليه؛ وأيتامه: صعصعة بن صوحان العبدي، وزيد بن صوحان أخوه، وعمّار بن ياسر تراب رسول الله وآله، هو الذي قال فيه: عمّار جلدة بين عيني تقتله هذه الفئة الباغية لا أنالها الله شفاعتي، ومحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عثمان، ومحمّد بن أبي حُذيفة.

س 34: ما هي أسماء الباب وأيتامه في المطلع الثالث؟
ج: اسمه أبو العلاء الرشيد الهجري، ويُكنّى بأبي الناميات، صلوات الله عليه؛ وأيتامه: عمر بن الحمق بن محمد بن صفوان الخزاعي، والحارث الأعور الهمداني، وميتم التمّار النهرواني، وحجر بن عدي الكندي، والأصبغ بن نباتة الطائي.

س 35: ماهي أسماء الباب وأيتامه في المطلع الرابع؟
ج: اسمه أبو خالد عبد الله بن غالب الكابلي، ولقبه كنكر، ويُكنّى بأبي التحايا[II]، صلوات الله عليه، وأيتامه: سعيد بن المسيّب، وحكيم بن جبير، وجابر بن عبد الله السلمي الأنصاري، والقاسم والحبيب ابنا محمد بن أبي بكر.

س 36: ما هي أسماء الباب وأيتامه في المطلع الخامس؟
ج: اسمه يحيى بن معمّر بن أم الطويل الثمالي، صلوات الله عليه، وكان في الظاهر ابن داية مولانا علي بن الحسين عزّ وجلّ، يُكنّى بأبي الحسين؛ وأيتامه: يحيى بن أبي العقب الثمالي، وأبي حمزة ثابت بن أبي صفية الثمالي، وكميل بن زياد، وقرة بن أحنف، وحمران بن أعين.

س 37: ما هو اسم الباب في المطلع السادس؟
ج: اسم الباب في المطلع السادس هو أبو محمد جابر بن يزيد الجُعفي، صلوات الله عليه، ويكنّى بأبي التحف؛ وأيتامه: فرات بن أحنف، وحمران بن أعين، وجابر بن يحيى المعبراني، وبنان بن المغيرة، وميمون بن إبراهيم التبّان.

س 38: ما هي أسماء الباب وأيتامه في المطلع السابع؟
ج: اسمه أبو إسماعيل، محمد بن إسماعيل بن أبي زينب الكاهلي البزاز الموصلي، ويُكنّى بأبي الطيبات، صلوات الله عليه؛ وأيتامه: إسماعيل ولده، وأبو محمد سفيان بن مصعب العبدي، وبشار الشعيري، والمعلا بن خنيس، وأبو أيوب القمّي.

س 39: ما هي أسماء الباب وأيتامه في المطلع الثامن؟
ج: اسمه أبو عبد الله المفضّل بن عمر الجعفي، ويُكنّى بأبي الزكيات صلوات الله عليه؛ وأيتامه: أبو أيوب القمّي، ويونس بن ظبيان الصخري، وأبو الغصن حجي، وهو ثابت بن الدكين، ويحيى بن زيد[III]، وأبي الغمر الثمالي.

س 40: أخبرني عن أسماء الباب وأيتامه في المطلع التاسع.

[I] ليس للنبي إخوةٌ من الرضاعة سوى أبناء حليمة السعدية. المترجم
[II] وردت "التحيات" في كتابٍ آخر. المترجم
[III] وردت "يزيد" في المخطوطة. المترجم

ج: اسم الباب في المطلع التاسع، أبو جعفر محمد بن المفضّل ابن عمر الجعفي، ويُكنّى بأبي الطيبات، صلوات الله عليه؛ وأيتامه: أسد بن إسماعيل، والحر النخّاس للدواب، وصالح بن عبد القدّوس، ومحمد بن عبد الله الهرثمي، وقيل عبد الله بن محمد الهرثمي، وعلي بن عبد الله الملك القمي.

س 41: أخبرني عن اسم الباب وأيتامه في المطلع العاشر.
ج: اعلم أن اسم الباب في المطلع العاشر، أبو القاسم عمر بن الفرات الكاتب، ويُكنّى بأبي السهل، صلوات الله عليه؛ وأيتامه: الحسن ووهب ابنا قاران، وخالد بن أبي الأشعث[I]، ونصر بن سلام، ومحمد بن عمر الكناسي.

س 42: أخبرني عن أسماء الباب وأيتامه في المطلع الحادي عشر.
ج: اعلم أنّ اسم الباب في المطلع الحادي عشر أبو شعيب محمد بن نصير البكري النميري العبدي، صلوات الله عليه، ويُكنى بأبي القاسم، ومن كناه العربية أبو طالب وأبو الحسن؛ وأيتامه: محمد بن جندب، وعليّ بن أم الرقاد، وفادويه الكردي، وإسحاق بن عمار الكوفي، وأحمد بن محمد بن الفرات الكاتب، على جميعهم أفضل الصلاة والسلام.

س 43: أخبرني عن أسماء مولانا أمير المؤمنين بسائر اللغات المختلفة مع تفصيلها ومعناها.
ج: اعلم أنّ العرب سمّت مولانا أمير المؤمنين عليًا، وسُمّيَّ الأنزع البطين، وبيضة الوادي وأصلع قريش، وسمّته أمّه حيدرة، وسمّاه أبوهُ زيد والصميدع وظهيرا، وسمّاه النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا، وسمّاه عمه المقوّم بن عبد المطّلب الصلصال، وسمّته دايته ظهيراً وميمونًا ومجمع ميمون، وسمّته جدته خبيراً، وسمّاه أخوه جعفرُ رضيًا، وسمّاه الراهب الناموس الأعظم وشمعون الصفا، وسمّى نفسه على المنبر أرسطوطاليس، واسمه في التوراة بريا[II]، واسمه في الإنجيل إيليا، تفسيره عليًا، واسمه عند الكهنة بوبا، واسمه عند الهند كنكرة، واسمه في الزبور أرّيا، واسمه عند الروم بطرسيا، واسمه عند الفرس باريّا، واسمه عند الزنج حبينا، واسمه عند الحبشة تبريك، وسمته الأرمن أفريقا، وسمّته العامة والخاصة الدرياق. وقال في بعض خطبه: أنا الصدّيق الأكبر، والفاروق الأعظم، وسمّته الديلم هو، وكان سلمان يقول في دعائه: يا هو يا هو يا مَن لا يعلم ما هو إلاّ هو، ومن أسمائه سبحانه وتعالى التي تدعوه به الأمم الذين كانوا في الدار قبل البشر، وهم الجن والبن والطم والرم والجان والجن وقوله جلّ من قائلُ أخبارا عنهم، أنّا كنّا ندعوه من قبل هو البر الرحيم، فهذان من أسمائه التي كان يدعوه بها من أسميناهم من هؤلاء العوالم الخمسة. ولله تعالى أسماء كثيرة لا تُحصى ولا تًعد من وقت إبداء العوالم إلى وقت عالمنا هذا لم يُسمّى بها غيره، وله في القرآن تسعة وتسعون اسمًا، منها المسيح المقدّس، الثاني، الشاكر، الذاكر، الحامد، المصلّي، وما أشبهه، وهذه الأسماء وهي معروفة مشهورة كما قال عزّ وجلّ: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها تصلح أن تكون في شدة فتقول يا مسيطر يا مدمدم يا سلام سلّمني، يا حافظ احفظني، وتخصه سبحانه وتعالى من هذه الأسماء بثلاثة، أسماؤهم حيّ قادر عالِم وسمي الموت، وسمي في بدر السنحنح[III]، وسمّاه السيد محمد ﷺ الإيمان والهادي والوكيل والقاضي والمفتي والسلام والمؤمن والمهيمن والغني والحميد، ولا إله إلاّ هو الحق المبين والولي والساعة وأرحم الراحمين.

س 44: أخبرني عن أسماء مولانا أمير المؤمنين مع شرحها وتفصيلها.
ج: اعلم أنّ أسماء مولانا أمير المؤمنين من صحف شيث، وإدريس، ونوح، وإبراهيم بالسرياني، الهيولى، والأمين، والبيان، واليقين، والإيقان، والناصر، وفي كتب الفرس نمير، وهو اسم النار، وفي كتب الترك تبيرا، وفي لغة الزنج كييّنا، وفي لسان الحبشة تبريك، وسمّي يوم القليب، وقد سقط ابن دايته الهلالية فيه، فعلّقه برجله وأخرجه ميمونا.

[I] وردت "الأشعة"، في المخطوطة. المترجم

[II] ذكر محمد باقر المجلسي أسماء عليٍّ في كتابه "بحار الأنوار"، الجزء 35، وهو من أمّات كتب الشيعة الاثني عشرية، وسأعرض عليكم الجزء الذي يتشابه مع ما ورد في الكتاب النصيري: "وفي التوراة (إيليا) وفي الزبور (إريا) وفي الإنجيل (بريا) وفي الصحف (حجر العين) وفي القرآن (عليا) وعند النبي (ناصرا) وعند العرب (مليا) وعند الهند (كبكرا) -ويقال: لنكرا- وعند الروم (بطريس) وعند الأرمن (فريق) -وقيل: اطفاروس- وعند الصقلاب (فيروق) وعند الفرس (خير) -وقيل: فيروز- وعند الترك (ثبيرا وعنيرا) ...... المترجم

[III] الذي لا ينام الليل. المترجم

س 45: ماذا تُدعى بالظاهر أمّ أمير المؤمنين؟
ج: تُدعى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، ولم يكن في زمانه هاشمي ابن هاشمية غيره.

[وكذلك فاطمة اسم زوجته ابنة محمد ﷺ]

س 46: مَن هم إخوة مولانا أمير المؤمنين؟
ج: هم حمزة، وجعفر، وطالب، وعقيل[I].

س 47: مَن هم أبناء مولانا أمير المؤمنين بالظاهر؟
ج: هم الحسن، والحسين، وابنتيه زينب، وأم كلثوم.

س 48: أين يوجد مشهد مولانا أمير المؤمنين؟
ج: اعلم أنّ مشهده، تقدّست أسماؤه، بالذكوات البيض[II] غرب الكوفة.

س 49: ما هي الأسماء التي هي خاصة لمولانا أمير المؤمنين، ولا يجوز أن يتسمّى بها غيره، ولا يُشار باطن بالدعاء إلاّ إليه؟
ج: هي المعنى، الأزل، القديم، الأحد، الصمد، العلي، معنى المعاني، ربّ المثاني، غاية الغايات، نهاية النهايات، مؤزّل الأزل، مؤبد الأبد، حيّ داري، الحي القيّوم، العلي العظيم، سيدي ومولاي هابيل، شيث، يوسف، يوشع، آصف، شمعون، أمير المؤمنين، الأنزع البطين.

س 50: لماذا ندعو مولانا أمير المؤمنين أمير النحل وما هو معناه الرمزي؟
ج: اعلم أنّ المؤمنين تشبهت بالنحل، لأنها تلتقط من الأزهار أحسنها. وبما أنّ مولانا علي بن أبي طالب هو أمير المؤمنين، فلُقّب بأمير النحل.

س 51: ماذا كانت تدعو مولانا أمير المؤمنين الأمم الذين كانوا بالعالم قبل البشر؟
ج: كانت تدعوه الهو، أعني الذي هو، ولهذا سلمان كان يقول: يا هو يا هو يا من لا يعلم ما هو إلاّ هو.

س 52: من هم الأمم الذين كانوا في الدار قبل البشر؟
ج: هم الجنّ والبن والطم والرمّ والجان.

س 53: كم هي العوالم؟
ج: اعلم أن العوالم هي كثيرةٌ، لا يعلم عددها إلاّ خالقها، ومنها العالم الكبير النوراني، والعالم الصغير البشري الترابي الجنس.

س 54: ما هو العالم الكبير النوراني؟
ج: هو السماء التي هي نور الأنوار.

س 55: ما هو العالم الصغير البشريّ الترابي الجنس؟
ج: هو الأرض.

س 56: ماذا يحتوي العالم الكبير النوراني؟

[I] المعروف أن لعليٍّ ثلاثة إخوة، ليس بينهم حمزة. المترجم
[II] وردت "الدكوة البيضاء"، في المخطوطة. المترجم

ج: يحتوي على السبعة مراتب قبل ظهورهم في العالم البشري، وهم الأبواب، والأيتام، والنقباء، والنجباء، والمختصين، والمخلصين، والممتحنين.

س 57: اشرح لي أسماء درج السبعة مراتب.
ج: اعلم أنّ أسماء درج المرتبة الأولى وهي الأبواب الأربعمائة، هي الأسماء، والحجُب، والآية، والأنوار، والشموس، والأفلاك، والغمام.

س 58: ما هي المرتبة الثانية؟
ج: هي الأيتام، خمسمائة، ولها سبعة من الدرج وهي المشارق، والمغارب، والأقمار، والأهلّة، والنجوم، والرعود، والبروق.

س 59: ما هي المرتبة الثالثة؟
ج: هي مرتبة النقباء، ستمائة، ولها سبعة من الدرج وهي الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والهجرة، والجهاد، والدعاء.

[الأسماء نفسها الموجودة في المخطوطة]

س 60: ما هي المرتبة الرابعة؟
ج: هي مرتبة النجباء، سبعمائة، ولها سبعة من الدرج وهي الجبال، والمعصرات، والبحار، والأنهار، والرياح، والسحاب، والصواعق.

س 61: ما هي المرتبة الخامسة؟
ج: هي مرتبة المختصين، ثمانمائة، ولها سبعة من الدرج وهم الليل، والنهار، والغداة، والعشاء، والغُدو، والأصيل والسبل.

س 62: ما هي المرتبة السادسة؟
ج: هي مرتبة المخلصين، تسعمائة، ولها سبعة من الدرج وهم الأنعام، والدواب، والإبل، والنحل، والطير، والصوامع، والبيَع.

س 63: ما هي المرتبة السابعة؟
ج: هي مرتبة الممتحنين، ألف ومائة ولها سبعة من الدرج وهم البيوت، والنخل، والأعناب، والرمّان، والزيتون، والتين.
فهذه السبعة مراتب وكل مرتبة لها سبع درجات، الجملة تسعة وأربعون درجة.

س 64: اشرح لي كيف السبع مراتب قبل ظهورهم في العالم الصغير البشري، كانوا في العالم النوراني؟
ج: اعلم أن سبعة مراتب العالم الكبير النوراني كان لها غير أسماء في السماء قبل ظهورها على الأرض، وقبل أن تُسمّى عندنا هذه الآلات في الدنيا، مثل التين والزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الأسماء المذكورة في نطق القرآن، فصارت هذه الأسماء لهذه الآلات في الدنيا بإزاء أسماء درج المراتب في العالم النوراني، فيكون نطق القرآن بهذه الأسماء التأويلية ظاهرًا على آلات الدنيا، وباطنًا على أسماء الدرج والمراتب من العالم النوراني.

س 65: ماذا يحتوي العالم الصغير البشري الترابي الجنس؟
ج: يحتوي على المقرّبين، أربعة عشر ألفًا، ثانيا الكُروبيين خمسة عشر ألفا، ثالثًا الروحانيين ستة عشر ألفا، رابعًا المقدّسين سبعة عشر ألفًا، خامسًا السائحين ثمانية عشر ألفًا، سادسًا المستمعين تسعة عشر ألفا، سابعًا اللاحقين عشرين ألفا. الجملة مائة وتسعة عشر ألف.

س 66: اشرح لي أسماء النجباء وعددهم في العالم النوراني الكبير والعالم البشري الصغير.

ج: اعلم أنّ أسماء النجباء في العالم البشري الصغير هي هذه: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وأبو سعيد الخضري[I]، وقيس بن عبادة بن ديلم الخزرجي، وسعد بن مالك الأنصاري، وأبو الطفيل عمرو بن واثلة، وزيد بن نفيع، وعثمان بن حُنيف، وحذيفة بن اليماني، وعمر بن أبي خدّان، وسهم بن عمّار، وحبيب بن جندب بن جنادة الأنصاري، وحويرثة بن مشهر[II]، وأبو سفيان الأنصاري، وأبو عمرة بن كميل بن بشير، وأبو ليلى، وهشام بن هشام، وجبير بن مطعم، والمسيب بن عقلة، وقيل بن نجبة، وأبو بركة، وذو اليمين، وسهل بن حُنيف، وسهمان بن حنيف، وهو مولى فضة وريحانة، والمخول الكلبي، وعبد الله بن سبأ وهو سيد النجباء.

س 67: قد فهمت أسماء النجباء في البشرية، فأخبرني عنهم في النورانية.
ج: اعلم أنّ أسماء النجباء في النورانية هم[III]: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرفة، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعوى[IV]، والسماك، والغفرة، والزبانان[V]، والإكليل، والشولة[VI]، والنعايم، وبلدة، وسعد دابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع المقدّم، وفرع المؤخّر، وبطن الحوت، وهو الرشا المثبوت.
س 68: ما هو معنى قولك في البشرية والنورانية؟
ج: اعلم أنّ النجباء كل واحد منهم له اسمان قائمان به، أحدهما بالنورانية وهو روحاني والآخر بالبشرية وهو جسماني. مثلًا أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري يدعى بهذا الاسم بالبشرية، وبالنورانية يُدعى الشرطين وهكذا بقية أسماء النجباء.

س 69: ما هي أسماء المنبئين وكم هي؟
ج: اعلم أنهم سبعة عشر شخصًا وهذه أسماؤهم: أولهم زيد بن الحارث داعي رسول الله، وهو رأس طبقة المنبّئين وأجلّهم مرتبة، ثانيًا سعد بن معاذ، وثابت بن أبي الأفلح، وأبيّ بن كعب، وتميم الضاري[VII]، وسعد بن مالك، ومعاذ بن عمر، وثابت بن قيس، وعمر بن تغلبة، وخزيمة بن ثابت، وحارثة بن النعمان، وأبو دجانة سمّاك بن خرشة[VIII] الأنصاري، وعمّار بن ياسر، وعبد الله بن عمر بن حزّام، وحزّام ابن حيان[IX]، وأبو الهيثم مالك بن التيهان، وعمر بن الحمق وقيل بن الجموع.

س 70: ما هي أسماء الخمسة والعشرين يتيمًا وما هم.
ج: اعلم أنّ أولهم أيتام السيد سلمان وهم: المقداد بن عمر بن عثمان بن الأسود الكندي، وأبو الذر جندب بن جنادة بن سكن الغفاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعثمان بن مظعون النجاشي الهلالي، وقنبر بن كادان الدوسي، غلام مولانا أمير المؤمنين. وبعدهم أيتام السيد محمد ﷺ وهم: جعفر بن الحارث، وأبو الهياج بن الحارث، وأبو سفيان بن الحارث، ويحيى بن أمامة، وصالح بن أُمامة، عليهم السلام. وبعدهم أيتام السيد فاطر[X]، وهن: السيدة فضة، وريحانة، وأسماء بنت عميش الخثعمية، وزينب الحولاء العطّارة، وفاختة أم هانئ عليهن السلام. وأيتام السيدة أم سلمة وهن: ميمونة بنت الحارث، وأمة الله ابنة مالك، وأمّ إسحاق، وآمنة بنت الشريد، وأم مالك

[I] يقصد أبو سعيد سعد بن مالك الخدري. المترجم
[II] أظن أن المقصود هو جويرية بن مسهر العبدي. المترجم
[III] هذه هي أسماء منازل القمر العربية. المترجم
[IV] العواء. المترجم
[V] الزبانا. المترجم
[VI] أغفل ذكر "القلب" وهو بين الإكليل والشولة. المترجم
[VII] أظن أن المقصود هو تميم بن أوس الداري. المترجم
[VIII] وردت "خرشنة"، في المخطوطة. المترجم
[IX] المقصود "أبو لبانة حيان". المترجم
[X] يسمي النصيرية فاطمة بصيغة المذكر فتصبح فاطر. المترجم

عليهن السلام. وأيتام السيد السفينة: صعصعة بن صوحان، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وعمّار بن ياسر[I]، على جميعهم أفضل الصلاة والسلام.

س 71: كم كتب أهل التوحيد؟
ج: اعلم أنّ كتب أهل التوحيد هي، مائة وأربعة عشر كتابا.

س 72: ما هو القرآن؟
ج: هو دليل سابق على ظهور مولانا بالإنسانية.

س 73: من علّم القرآن لمحمد صلى الله عليه وسلّم؟
ج: مولانا أمير المؤمنين، وهو المعني على لسان جبريل الذي هو روح القدس، وهو الباب.

س 74: ما هي عدّة إخواننا المؤمنين؟
ج: اعلم أنّ عدتهم في كل وقت وحين، وهي العين العلية، والميم المحمدية، والسين السلسلية.

س 75: هل أنّ المسيح صُلب وقتل كما تقول عنه النصارى في قصته؟
ج: اعلم أن لا حقيقة لذلك، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبّه لهم، والله رفعه إليه كما قوله تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)[II]".

س 76: ما هو القدّاس؟
ج: هو تقديس الشراب وشربه بسر النقباء والنجباء.

[ربما تكون ترجمة خاطئة للدكتور ڤولف "شرب نخب صحة[III]"]

س 77: ما هو القربان؟
ج: هو القربان الذي يقرّبه المؤمنون عن أرواح إخوانهم وبه يُقال القداس.

س 78: مَن هو الذي يقدّس القدّاس ويقرّب القربان للمؤمنين؟
ج: هو إمامهم وخطيبهم العظيم.

س 79: ما هو سرّ الله الأكبر؟
ج: هو سرّ اللحم والدم الذي قال المسيح عنه لتلاميذه عليه السلام: هذا لحمي ودمي، فكلوا واشربوا منه لأنه حياة الأبدية[IV].

س 80: إلى أين تذهب أرواح إخوتنا المؤمنين عند خروجها من قبورها التي هي قمصانها اللحمية الدموية؟
ج: تذهب إلى العالم الكبير النوراني، وتحظى بالنعيم والحياة الدائمة إلى أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وتلبس قمصان الأنوار وهم النجوم.

س 81: ماذا يحل بالمشركين الكافرين الجاحدين لاهوت مولانا؟
ج: يحلّ بهم العذاب في جميع الأكوار والأدوار.

س 82: ما هو سرّ إيمان الموحدين الذي هو سرّ الأسرار وعقيدة الأبرار.

[I] لم يذكر في المخطوطة اليتيم الخامس وهو زيد بن صوحان. المترجم

[II] سورة آل عمران، الآية 169. المترجم

[III] لا معنى لهذه الملاحظة، لأن النص منقولٌ من أصله العربي. المترجم

[IV] مأخوذة من "مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ"، يوحنا (6: 54). المترجم

ج: هو سرّ التنين، وهو معرفة الله بالحقيقة وهو سرّ كريم، وخطاب عظيم، وعلم جليل، وخطر ثقيل، فلا تحمله الجبال العظيمة محلّه وشرفه، وهو الترياق الشافي لمن حفظه ودان به واتقاه، والسمّ القاتل لمن إلى غير أهله كشفه وفشاه، وهو سر احتجاب مولانا في النور أعني عين الشمس، وظهوره في عبده عبد النور. اعلم أنّ هذا السر يُدعى أيضًا سر الخير والشر، سرّ النور والظلمة، سرّ الماء والنار، سرّ اللحم والدم، سرّ الأكل والشراب، سرّ الموت والحياة، سرّ الحرّ والبرد، سرّ النوروز والمهرجان.

س 83: ماذا يحلّ بالذي يعرفه ويُداخله به شكّ أو ريب.
ج: يكون من المبذرين الذين هم الكافرون إخوان الشياطين، ويستحقّ المسوخية والسلوك في القمصان الردية الدنية، ويذيقه الله حرّ الحديد وبرده.

س 84: ما هي الشروط الواجبة على المؤمن حفظها عند قبوله سرّ الأسرار؟
ج: الأمر الأول الواجب عليه هو أن يفرغ جهده بمحافظة إخوانه، ومراعاتهم، ومداراتهم، والمواظبة على تفقّدهم، وبرهم، وصلاتهم، وجميع ما يرضاه لنفسه يرضاه لهم، ويجعل خمس ماله حلالًا مُطلقا في كل عامٍ، ويقيم الصلاة في أوقاتها، ويؤدّي الزكاة إلى أهلها، ويواصل على عمل المفترضات، ويسارع في إقامة الحقوق الواجباتِ، ويكون لسيده مجيبًا داعيا شاكرًا ذاكرًا أمينًا في جميع ما تقدّر عليه، ويرضيه ويتجنب كل ما يكرهه له من البواطل.

س 85: ما هو الأمر الثاني الواجب امتناع المؤمن عنه عند قبوله سرّ الأسرار؟
ج: اعلم أنّ من الواجب عليه التحرّص عن مظالم إخوانه، ولا يتعدى على أحد منهم، ويتجنّب أخطاءهم ولا يُخالف رضاهم، ويحذر الإساءة لهم[I].

س 86: هل يمكن للمؤمن أن يبادي لأحد بسر الأسرار؟
ج: إنه لا يمكنه أن يُبادي به لأحد من الناس سوى لأخ من إخوانه، وإن فعل غير ذلك يكون بريئًا من الله وكتبه ورسله.

س 87: ما هو القدّاس الأوّل؟
ج: هو الذي يُقال قبل النوروز.

س 88[II]: ما هو القدّاس الثاني؟
ج: هو الذي يُقال بعد النوروز.

س 89: ما هو النوروز؟
ج: هو تقديس الشراب بالجام.

س 90: قل لي النوروز.
ج: اعلم أن النوروز هو هذا:

نوروز حق مستفيد غانم — متحقق بولاء أكرم هاشم
يوم أبان الله فيه ظهوره — قبل الأَعارب في قباب أعاجم
وسما بها نحو السماء فأبصروا — فيها مراجيحًا برأي حازم
ولسلسل فيه ظهور مهيمن — متتابع لقديمنا المتقادم

[I] وردت "يحذر أساهم"، في المخطوطة. المترجم
[II] هذا السؤال غير موجود في النص الإنجليزي ولا في النص الألماني لمجلة الجمعية الشرقية الألمانية، ويبدو أنه سقط سهوًا، ولكنه موجود في الأصل العربي، فأضفتهُ. المترجم

فاشرب من الخمر الزلال فإنه يوم تجلى نوره بغمائم.
يوم الغدير وقد أشار محمد بالقصد نحو إلهٍ ربٍ عالمٍ

[هذه الترجمة تختلف عن ترجمتي التي عرضتها في الفصل التاسع، وأعتقد أن ترجمتي هي الأصح ، فقد ساعدني فيها عالمٌ مسلمُ قدير في القاهرة[I]]

س 91: ماذا يُدعى الخمر المقدّس الذي يشرب منه المؤمنون؟
ج: يُدعى عبد النور.

س 92: لماذا يُدعى عبد النور؟
ج: لأنّ الله ظهر به، ولهذا روي عن سيدنا أبي عبد الله الحسين الخصيبي، صاحب الرأي المصيب، إذ كان يحضر بين يديه عبد النور، كان يأخذ القدح في يمينه، وينهل منه ثلاث نهلاتٍ، ويترنّم عليه قائلًا: اللهم إنّ هذا عبدك عبد النور شخصٌ حللته وكرمته وفضّلته لأوليائك العارفين بك، حلالًا طلقا، وحرّمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك، حرام نصًّا، اللهم مولاي كما حللته لنا، ارزقنا به الأمن والأمان والصحة من الأسقام، وانفِ عنّا به الهمّ والأحزان، إلى آخره. إنّ عبد النور هو شخص النار والذي جعله الله قرباني الأعظم وشخصه الأكرم، وحكم على نفسه بالمغفرة فيه.

س 93: ما هو سرّ الله المكنون الحائط بين الكاف والنون؟
ج: هو النور، لقوله تعالى: ليكن النور، فكان النور[II].

س 94: ما هو النور؟
ج: هو المعنى القديم لأنّه احتجب بالنور.

س 95: إن كان مولانا احتجب بالنور فبأي شيء يظهر؟
ج: اعلم أنّ مولانا يظهر بالحق كقوله في النوروز.

س 96: لماذا يوجه المؤمن وجهه حين الصلاة إلى الشمس؟
ج: اعلم أنّ الشمس هي نور الأنوار، وقبلة أهل الولاء والجلال، لأنها ستر الجميل، ومحل التفضيل، الساكن بها الأزلي الدائم الأبدي القائم، سرّ الأسرار ونور الأنوار.

س 97: لماذا ندعو مولانا أمير المؤمنين صاحب الكرّات والرجعات؟
ج: لأنه يكسر، ويرجع، ويظهر في الأكوار والأدوار، وهم القباب البهمنية من هابيل إلى أبي تراب[III].

س 98: ما هو الباطن وما هو الظاهر؟
ج: اعلم أنّ لفظة الباطن تدل على لاهوت مولانا، والظاهر يدل على إنسانيته، ففي الظاهر نقول مولانا علي بن أبي طالب، ومعناه في الباطن: المعنى والاسم والباب، وهو الله الرحمن الرحيم.

س 99: من هو شيخنا الذي شرّع لنا الأديان في سائر البلدان؟
ج: هو سيدنا أبو عبد الله الحسين ابن حمدان، عليه وعلى تلاميذه من الله أفضل الصلاة والسلام.

س 100: لماذا نُدعى الطائفة الخصيبية؟
ج: لأننا تابعون تعليم شيخنا ابن عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، قدّس الله سره.

I لا معنى لهذه الملاحظة، لأن النص منقولٌ من أصله العربي. المترجم
II مأخوذة من العهد القديم: "فِي ذَلِكَ الوَقتِ، قالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ.» فَصَارَ نُورٌ"، سفر التكوين (1 :3). المترجم
III عليّ بن أبي طالب. المترجم

[أنا اكتبها الخَصيبي لأن الخادم النصيري قال لي انهم يلفظونها بهذه الطريقة]

س 101: قد فهمت ما شرحته لي، فأخبرني الآن عن أسماء أشخاص الصلاة وفروضها ونوافلها.
ج: اعلم أنّ الصلاة بالجملة، السيد محمّد ﷺ، وبالتفصيل لها واحد وخمسون ركعة لواحدٍ وخمسين شخصًا:

- الوقت الأول صلاة الظهر أو الزوال ثماني ركعات، وهم القاسم، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقيّة، وأم كلثوم، واسمها آمنة، وفاطمة الزهراء، فهؤلاء السبعة أولاد رسول الله من خديجة ابنة خويلد، وإبراهيم من مارية القبطية. وبعدهم الفرض، أربعة، محمد ﷺ، وفاطر، والحسن، والحسين. وبعدهم نافلة العصر ثمانية، وهم عبد الله، ومحمد، وعون أبناء جعفر بن أبي طال؛ وأبو سفيان، وجعفر، ومحمد، وأبو الهيجاج أبناء الحارث بن عبد المطّلب، ومحمد بن حذيفة.
- الوقت الثاني العصر، الفرض أربعة: محمد ﷺ، وفاطر، والحسن، والحسين.
- الوقت الثالث المغرب، الفرض ثلاثة، وهم محمد ﷺ، وفاطر، والحسن. والنافلة أربعة: ثوبان مولى رسول الله، وخزيمة بن ثابت، وأبو الهيثم مالك التيهان الأشهلي، وأبو سعيد الخضري.
- الوقت الرابع العشاء الأخير، الفرض أربعة: محمد ﷺ، وفاطر، والحسن، والحسين، ونافلة العشاء ركعتين من جلوس يُحسبان بواحدة، وهما زينب الحولاء العطّارة، وآمة الله ابنة خالد بن سنان العبسي. صلاة الليل ثمانية وهم عبد الله، وعبد مناف، وحمزة، والحارس، والزبير، وحجل والمقوّم، والغيداق، أولاد عبد المطّلب، وبعدهم ثلاثة وهم الشفع، والوتر، الشفع أسد، وعمران، ابنا حصين، والوتر عبادة بن بشير بن الصامت الخزرجي الأنصاري.
- الوقت الخامس الفجر، ركعتان وهما سعد بن مالك الأنصاري، ونعيمان الأنصاري عليهما صلاة العلي الباري. وبعدهم الفرض ركعتان وهما محمد ﷺ، وفاطر عليهما السلام.

فهذه الواحد وخمسين شخصا، كما قال شيخنا أبي عبد الله الحسين ابن حمدان الخصيبي، قدّس الله العلي روحه، في قصّته:

كما الصلاة رجالٌ أشخاصهم تأويلُ
خمسون شخص وشخص مقدّس بهلول
محمد ﷺ ثم فاطر والشبران أصول
الكل منهم ومعهم هم الهدى والسبيل
كما الزكاة هي الباب اسمه جبريل
سلمان ليس سواه إلى الرسول دليل

"وهذا هو القسم النظري من كتاب تعليم الديانة. يحتوي القسم الثاني العملي على صلاةٍ، وبعدها قداس، وحسب ما ورد في الكتاب، عند إعطاء الكأس يُقال ما يلي: يا أخي اشرب من قدحي الله يجعل لك فيه الشفا والعافية، اسقيني من قدحك سقاك الله شربة من كف سلسل لا ظمأ بعدها يوم العطش الأكبر".

[ملحوظة: أشك مرةً أُخرى في صحة ترجمة الدكتور ڤولف[I]]

ومرةً أخرى يشربون نخب صحة عليٍّ، ومحمدٍ ﷺ، وأبي عبد الله، والشيخ (شيخ الطائفة)، وفي أثناء ذلك يقرأون سورًا من القرآن، مثل صورة الطور، ويسجدون عدة مراتٍ.

[I] لا معنى لهذه الملاحظة، لأن النص منقولٌ من أصله العربي. المترجم

[ملحوظة: "يشربون نخب صحة علي" ترجمة خاطئة دون شك. انظر ما ذكر آنفًا]

"بعد القداس يُقرأ ما يقال عند قبول الولد في الجماعة. وحسب ذلك، يجب أن يُجيب الولد على السؤال كما يلي: [مرادي أن يُخَلِّص رقبتي من رق العبودية، ويرشدني إلى معرفة الله بالحقيقة، وينقدني من ظلمة العما والشنبوية[I]، ويحييني الحياة الأبدية]. وفي الختام يؤكد الولد عند كل الأسئلة بأنه ثابت على معرفة الله، ويُنَبّه على ضرورة تجنب الكذب وجميع أفعال المحارم والفواحش. وبعد ذلك يؤدي الولد القَسَمَ، ويجلس الجميع على ركبهم. ويُختتم الكتاب بما يُقرأ عند الزواج[II]. ويلي ذاك ملحقًا يحتوي على تقويمٍ للأعياد".

[ملحوظة: هل تسرّع الدكتور ڤولف، فظنّ أن العقد بين الولد والسيد هو عقد زواجٍ؟]

***

أود أن أُعرض ترجمة البحث الذي أرسله كاتافاغو إلى "المجلة الآسيوية[III]"، لأنني أشرت إليه كثيراً، ولأن الحصول عليه ليس ميسرًا لمن يطالع بالإنجليزية.

رسالة إلى السيد ڤيلدنبروخ، القنصل العام لپروسيا

سيدي، يُشرفني أن أعلن لك عن اكتشافي لمخطوطةٍ نصيريةٍ ممتعةٍ جدًا، وحيازتي لها.

تحتوي هذه المخطوطة على 440 صفحةً بحجم 4 تو[IV]، وعنوانها: "كتابٌ مجموعٌ فيه الأعياد والدلالات والأخبار المبهرات، وما فيها من الدلائل والعلامات، جلّ مظهرها عن الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات. تأليف الشيخ الأجل الأجمل معدن الجود والتوحيد والفضل والتأييد، الشاب الثقة أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني قدس الله روحه ونور ضريحه".

وبعد العنوان تأتي مقدمة المؤلف، وهي إقرارٌ بالإيمان يَشكُر فيها عليًا الإله الذي يتميز بالأسس الثلاثة التالية:

1. الألوهية كما تسمى، أو جوهر الأشياء.
2. النور أو الحجاب الذي يظهر للبشر بهيئتهم في أشخاص الأنبياء والرسل.
3. الباب، وهو الروح الأمين، أو الماء المعين.

وبعد تلك المقدمة يدخل المؤلفُ في موضوع الكتاب الأساسي، ويقول إن حديثه مرويٌ عن أحد الأئمة الاثني عشر، وهو الإمام العالم بمدينة طرابلس الشام سنة 398 للهجرة (1007 ميلادي)[V].

يُقَسِّمُ الأعيادَ الدينية إلى أعيادٍ عربيةٍ، وأعيادٍ فارسيةٍ، ويُعدد تلك الأعياد، ويصف كل عيدٍ منها على حدته، بما في ذلك صلاته، وتاريخه، وخُطبه، وهذا هو جلّ محتوى الكتاب.

[I] شنبوية اسم شخص يمقته النصيرية، وفي أبيات شعرية للخصيبي ورد اسم شنبوية مقترنًا باسم حبتر "من نسل شنبوية من حبتر......ومن حمين الكافر الغادر"، وحبتر هو أحد الأسماء التحقيرية التي يطلقها الشيعة على عمر بن الخطاب من باب التقية، ولذلك يمكن أن يكون أبو بكر الصديق المقصود بشنبوية؛ فعادةً ما يزمُّ الشيعة الاثنين معًا. المترجم

[II] ليس عقد زواج، بل العقد بين الولد والعم، والمسمى "العقاد"، الوارد في الفصل 31 من المخطوطة المشروحة في الفصل التاسع. المترجم

[III] "ملاحظة على النصيرية"، "المجلة الآسيوية"، جوزيف كاتافاغو، فبراير 1848.

[IV] 11.25 × 8.75 بوصة. المترجم

[V] حسب ما ورد في كتاب "مجموع الأعياد"، فالتاريخ المذكور ليس تاريخ نطق الحديث على لسان الإمام، ولكنه التاريخ الذي روى فيه أحمد بن محمد بن إسحاق الحديثَ إلى أبو سعيد الطبراني مؤلف الكتاب. المترجم

لا تُعطِي أسماءُ أبواب الكتاب فكرةً كافيةً عن محتواه، ولكنني سأُعرض فهرس محتويات الكتاب بالترتيب نفسه الذي وضعه المؤلف:

1. أخبار شهر رمضان، وما ورد فيه عن الموالي منهم السلام
2. دعاء شهر رمضان
3. ذكر عيد الفطر
4. خطبة عيد الفطر
5. دعاء عيد الفطر
6. ذكر عيد الأضحى
7. دعاء عيد الأضحى
8. كتاب شرح السبعين الذين لا ينجون، وهو حديثُ أبي علي البصري في منزله بشيراز سنة 327 هجرية (938 ميلادي)
9. خطبة عيد الأضحى
10. ذكر يوم عيد الغدير
11. القصيدة الغديرية لأبي عبد الله الخُصيبي[I]
12. دعاء عيد الغدير
13. خطبة يوم الغدير
14. خطبة أُخرى لليوم نفسه
15. خطبة يوم الغدير التي خطبها مولانا أمير المؤمنين
16. نفس ما ذُكِرَ آنفًا
17. خبرُ الفهري لعنه الله
18. ذكر عيد المباهلة
19. باب التجليات
20. باب ذكر حرف اللام، أعنى التجلّي للشيء
21. دعاء عيد المباهلة
22. دعاء ثانٍ للمباهلة
23. ذكر عيد الفراش
24. القصيدة التي لعيد الفراش في المعنى
25. دعاء عيد الفراش
26. ذكر عيد عاشور
27. يوم كربلاء (تليه ثلاث قصائد)[II]
28. الغيبة والظهور
29. خبر الطفوف
30. زيارة يوم عاشور
31. زيارة أُخرى
32. مقتل دلام[III] لعنه الله
33. دعاء يوم مقتل دلام

[I] يقول الخادم النصيري أنهم يلفظون كلمة الخُصيبي بهذه الطريقة.
[II] ينكر النصيرية مقتل الحسين، ويعتقدون أنه غاب وألقى شَبَهَهُ على حنظلة بن أسعد، على مبدأ "ولكن شبه لهم". المترجم
[III] دلام هو عمر بن الخطاب، وهم يحتفلون بيوم مقتله. المترجم

34. ذكر ليلة النصف من شعبان
35. خبر النقيب محمد بن سنان الزاهري
36. الزيارة الأولى المعروفة بالنميرية
37. الزيارة الثانية
38. الزيارة الثالثة
39. دعاء ليلة النصف من شعبان
40. خبر ضلال ووبال[I] لعنهما الله
41. ومن أخبار النصف من شعبان
42. ذكر ليلة الميلاد[II]، وهي ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول، وهي آخر السنة الرومية؛ لأن السيد المسيح أظهر الولادة في هذه الليلة من السيدة العذراء مريم ابنة عمران الطاهرة.

[ملحوظة: أظهر الولادة، وردت بهذه الصيغة في نسخة كاتافاغو العربية أيضًا]

43. دعاء ليلة الميلاد[III]
45. ذكر يوم السابع عشر من آذار، وهو مما استخرج من كتاب الأكوار والأدوار النورانية
46. دعاء يوم السابع عشر من آذار
47. ذكر يوم النوروز، وهو اليوم الرابع من نيسان، وهو اليوم الأول من السنة الفارسية
48. خبر الإكليل
49. خبر في باطن النوروز
50. نفس ما ذكر آنفًا
51. خبر النوروز وما يعمل به من البر والصدقة
52. ذكر المهرجان والنوروز
53. دعاء إلى الشمس
54. دعاء النوروز
55. خطبة يوم النوروز
56. دعاء للمهرجان
57. دعاءٌ ثانٍ للمهرجان

تلك كانت محتويات الكتاب، وأعتقد أني كنتُ صائبًا حين عرضتها بالترتيب نفسه الذي وضعها فيه مؤلفه. لا يمكن تقدير أهمية الكتاب إلا بعد قراءته، فهو يعرفنا بالديانة النصيرية على نحوٍ كاملٍ، ولا يترك شيئًا إلا ويخبرنا عنه بالتفصيل[IV].

وبمساعدة المخطوطة، وكتاب تعليم الديانة، بت أعتقد أنني أنجزت عملًا عن النصيرية، على غرار العمل الذي أنجزه دي ساسي عن الدروز، وسأحاول ترجمة أمتع النصوص في المخطوطة، لأن حجمها الكبير لا يسمح لي بترجمتها بالكامل، ولو أردت ذلك.

[I] أبو بكرٍ وعمر. المترجم

[II] وهو بداية يوم الميلاد في الشرق.

[III] الباب 44 الذي أغفله المؤلف، هو "دعاء ثانٍ للميلاد". المترجم

[IV] بالغ كاتافاغو في وصف الكتاب الذي اكتشفه، فكتاب "مجموع الأعياد" غير كافٍ لفهم الدين النصيري. وبغض النظر عن الأسباب الشخصية التي تدفعه لمدح اكتشافه، فإن ندرة المعلومات المتاحة في ذلك الزمن، جعلت ذلك الكتاب يبدو كموسوعةٍ شاملةٍ. لكن ظهور العديد من كتب النصيرية في السنوات القريبة بيَّن خطأ اعتقاد كاتافاغو شموليةَ الكتاب. المترجم

آملين التكرم بإفادتنا بما علينا فعله ....

أنا ......

ج. كاتافاغو

***

ذكر ليلة الميلاد وما فيها من الفضل

ليلة الميلاد[I]، وهي ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول، وهي آخر السنة الرومية، وهي في العشر الأخير من الشهر، لأن السيد المسيح منه السلام أظهر[II] الولادة في هذه الليلة من السيدة العذراء مريم ابنة عمران الطاهرة الزكية، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز وأبان فضلها في قوله: "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)[III]".

وهي في القبة المحمدية هي آمنة بنت وهب أم السيد محمد ﷺ، وقد ذكرها بعض الإخوان من الطائفة أنها فاطر على ذكرها السلام، لأن السيد محمد ﷺ قال لها وهي مقبلة إليه: ادخلي يا أم أبيها، وقيل مرحبًا يا أم أبيها، وإنما أشار إليها الرسول بهذا القول لأنها أم الحاءات الثلاث الحسن والحسين ومحسن.

ولم تكن أم السيد محمد ﷺ إلا آمنة بنت وهب، لأنها كانت في القبة المسيحية مريم، أظهر السيد المسيح الظهور منها، وكذلك أظهر السيد محمد ﷺ الظهور من أُمّه وهي آمنة بنت وهب، ودليل ذلك ما حدثني به شيخي وسيدي قال: وفدت على مولاي الشيخ الثقة أبي الحسين محمد بن عليّ الجلي رضوان الله عليه، وسألته في بعض سؤالاتي له عن مريم بنت عمران فقال: هي في القبة المحمدية آمنة بنت وهب أم السيد محمد منه السلام، وقد ذكرها الله تعالى في التنزيل بقوله: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18)".

وقد أورد سيدنا الخصيبي نضر الله وجهه في قصيدته التي أولها:

وابنة عمران مريم قليت	من قومها إذا أتوا بتهجين
أنطقه في القماط قال لهم	إني عبد الإله ينجيني
بل روحه جل وهو أنشأني	يميتني إن يشاء ويحييني

وقال الله تعالى في موضع آخر في الكتاب: "وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)[IV]".

وقد قال الخصيبي في قصيدته المنظومة التي يقول في أولها: بحت بسري فكم تسبوني، إلى قوله فيها رضي الله عنه:

وربوة ذات قرار معين	بها مريم ولدت بالغلام
بعيسى المسيح فديت المسيح	وإني به لشديد الغرام
ومعراج أحمد نفسي الفدا	لمعراجه بين هاء ولام

[I] راجع الحاشية السابقة. {حاشية المؤلف وليس المترجم. المترجم}

[II] يتبين من الجزء الصغير للنص العربي الذي عرضه كاتافاغو أنها ترجمةٌ للكلمة العربية "ظاهر"، مما يعني أن الولادة والظهور كانتا في الظاهر فقط.

[III] سورة التحريم، الآية رقم 12. المترجم

[IV] سورة المؤمنون، الآية رقم 50. المترجم

فأظهر منه السلام الولادة منها بالنطق، كما خبر الله تعالى في كتابه: "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)"[I].

فلما أظهر السيد المسيح منه السلام في هذه الليلة النطق، فبظهوره فيها شُرفت وعُظمت منزلتها، ووجب القيام بحقها، وأداء فرضها والتبرك فيها بالدعاء إلى الله سبحانه.

دعاء ليلة الميلاد

وهو أن تقول: "اللهم يا مولاي أنت العلي العظيم، الأحد الفرد الصمد، لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفوًا أحد، أظهرت في هذه الليلة اسمك، ونفسك، وحجابك، وعرشك الذي عرشته على جميع خلقك بالطفولية في صورة عبادك، وهو أعظم من جميع ما في ملكك وأعلاهم عندك، لتبين لهم قدمك ولاهوتيتك، وتظهر عليهم بحجتك، لتُذكر من اهتدى بربوبيتك في وقت نداء دعوتك بنفسك وبذاتك، فتبارك اللهم من عظيم ما أعظمك، وحكيم ما أحكمك، وكريم ما أكرمك، بتفضلك على جميع خلقك، وبلطفك تذكرهم بظهوارتك في سائر أكوارك وأدوارك، وقت كل كشفٍ، وزمانٍ، وعصرٍ، وأوانٍ، رحمةً منك لمن سبقت له من لدنك الحسنى.

"أسألك بمثلك الأعلى وباسمك العظيم، وبابك الكريم، أن تزيدنا من فضلك ونعمتك، وأن تتم علينا ما أنعمت به علينا من توحيدك ومعرفتك، وبحق هذه الليلة عندك لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة كاملة، وعفوًا، وغفرانًا جميلًا، وخولنا لقاءك، وهب لنا رضاك، وأعطنا ما لا يعطينا أحد سواك.

"يا مولانا لا تسلبنا نعمتك، ولا تسلط علينا من يزين لنا شهوات ليست فيك، يا أمير النحل، يا علي، يا عظيم، أنت حسبنا ونعم الوكيل". وتسجد بعقب الدعاء وتدعو لك ولإخوانك؛ تجاب إن شاء الله تعالى.

ذكر يوم النوروز

وهو اليوم الرابع من نيسان في كل سنةٍ أبدًا، وهو اليوم الأول من السنة الفارسية في الشهر الذي يسمى افروز ديرماه[II]، وهو يوم عظيم الخطر جليل القدر عند الله تعالى وعند الموالي إليهم التسليم، وما ورد فيه من الفضل العظيم عنهم، وأنا أذكر يا سيدي ما سمعته ونقلته بعون الله تعالى وحسن توفيقه.

اعلم أيدك الله بطاعته أن ملوك الفرس الأكاسرة استعملته، وأظهرت تعظيمه، واستعملت فيه أكاليل الآس والآذريون، ورش الماء؛ فلذلك سمي النوروز، وأظهرت في التحايا بعضهم لبعض بالآس، والآذريون، وورق الزيتون، والهدايا، واستبركوا فيه أكثر بركة تكون.

وقد كان المولى عز عزه ظهر في ملوك الفرس، وأظهر أسماءه، وأبوابه، ومراتب قدسه العالم الكبير النوراني منهم السلام.

وقد أوضح ذلك سيدنا الخصيبي قدس الله روحه في رسالته وبين في مقالته في السياقة.

[ملحوظة: المقصود بالسياقة جبرائيل وميكائيل وغيرهم من حملة العرش[III]]

[I] راجع القرآن، السورة الثالثة. {سورة آل عمران، الآية رقم 46. المترجم}

[II] لم أجد هذه الكلمة في قاموس ريتشاردسن الفارسي-العربي. {الاسم الفارسي لهذا الشهر هو "فَرَوَردين"، وتعني الحَمَل فأسماء الشهور الفارسية على أسماء الأبراج. المترجم}

[III] يعتقد النصيرية أن عليًّا هو الرب وهو خالق الكون، وقد ظهر سبع مراتٍ في صورٍ بشريةٍ، فقد ظهر أو احتجب الربُ أول مرة في شخص آدم باسم هابيل، وتوالى ظهوره حتى احتجب آخر مرة في محمدٍ ﷺ باسم عليٍّ، فالثالوث عندهم (المعنى، الاسم، الباب) وفي الظهور الأخير كان الثالوث (الرب عليّ، محمد ﷺ، سلمان الفارسي)؛ وتعني السياقة انتقال الثالوث عبر التاريخ ضمن سلسلةٍ منتظمةٍ من آدم إلى محمدٍ ﷺ، كما يذكر المؤلف في المقطع الذي يليه. راجع باب ملخص أهم عقائد النصيرية في آخر الكتاب. المترجم

فقال وغاب آدم وظهر بآنوش، فأزاله المعنى، وهو شيث، وظهر بمثل صورته.

وظهر آدم بالإسكندر، وهو ذو القرنين، فأزاله المعنى، وهو دانيال، وظهر بمثل صورته.

وظهر آدم بأزدشير بن بابك الفارسي في القبة الفارسية، وهو أول ملوك الفرس الأكاسرة، فأزاله المعنى، وهو ذو القرنين[I]، وظهر بمثل صورته.

وظهر آدم بسابور بن أزدشير، فأزاله المعنى، وهو أزدشير، وظهر بمثل صورته.

وظهر آدم في بيت العرب في لؤي بن غالب[II]، وإنما سمي لؤيا لأنه لوى الأنوار من أرض فارس إلى أرض الحجاز[III]، لظهور المعنى والاسم والباب فيها، وخلف مقامات حكمته في الفرس تجري في ملوكهم، فأقام مثالًا للمعنى والاسم والباب: شروين، وخروين، وخسرو، إلى كسرى أبرويز بن أنوشروان، فإنه غيَّر، وبدَّل، واستكبر، وخالف السيد محمدًا ﷺ[IV]؛ فانقرض المُلك من الفرس بمعصيته، فأظهرت المقامات الفارسية النوروز والمهرجان، واستعملت فيه الإكليل من الآذريون، والآس، والزيتون، وجعلت فوق الرؤوس مفصلة بالآذريون، ورش الماء وشروط النوروز.

فاستعملت ذلك ملوك الفرسِ والفرسُ بأجمعها، حسبما أظهرته المقالات، كما أظهر السيد محمد ﷺ علينا سلامه في القبة المحمدية الأعياد، عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الغدير، فصارت سنّةً جاريةً في ملوك الفرس في القبة الفارسية، وسنّةً في القبة المحمدية حسب ما أمروا به وأظهروا، فهي سنّةٌ جاريةٌ إلى ظهور القائم (الإمام الأخير) منه السلام.

وقد قال سيدنا الخصيبي شرف الله مقامه في فصل آخر من فقه رسالته تشريفًا للفرس يعني الباب، ونسب حكمته إليهم بمكان ظهور المعنى والاسم فيهم في مقامين كانا من أول ملوك الفرس، وهما أزدشير بن بابك وسابور ابنه، وذكروا أن في ملوك الفرس حكمة جارية إلى آخرهم، وهم شروين وخروين وخسرو. وإنهم يقومون بالحكمة بمقام المعنى والاسم والباب؛ لأنهم عبيد المعنى العارفون به وبالاسم والباب[V].

وإن المولى، جلت قدرته، خلف حكمته في الفرس، وانتقل عنهم وهو راضٍ عليهم، ووعدهم أنه يعود فيهم، وهو الذي قال إن الله تعالى أودعكم سرًا، وأظهر فيكم أمرًا، ووفقكم لقبوله، وإنكم ضيعتموه، وإن الفرس حفظته، وإنه لما أظهر فيهم الغيبة بالنار والظهور بها والنور والظهور به، وهو قوله في قصة موسى: "فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)[VI]" وفي وجه آخر: "إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)[VII]"، إلى قوله في الفقه، فعظمت الفرس النارَ وارتقبت الظهور منها؛ فلذلك الظهور فيهم، فهي دائمًا تقيمها، وتبديها، وتوقدها، وتترقب ظهوره ووعده؛ فلذلك استعملت الفرس النوروز والأكاليل.

[I] يسمون الإسكندر الأكبر ذي القرنين، استنادًا إلى صورته على العملة التي يظهر فيها بقرنين على أساس أنه ابن الإله جوبيتر آمون.

[II] الجد الثامن للنبي محمد ﷺ. المترجم

[III] للمعاجم العربية رأيٌ مخالفٌ في معنى اسم لؤي. المترجم

[IV] من الأشياء اللافتة للنظر رؤية الارتباط والتعاطف القائم بين جميع الفرق السرية المبتدعة في الشرق. قضى أنوشروان على أتباع مزدك الاشتراكيين المجوس، وكان الملك قباد أبو أنوشروان يميل إليهم؛ ولذلك نرى أن سمعة أنوشروان سيئةٌ عند النصيرية.

[V] تُظهر هذه الكلمات تناقضًا مع المنهج النصيري؛ فملوك الفرس المذكورون ليسوا ظهوراتٍ حقيقيةً للمعنى والاسم والباب؛ ولكنهم تمثيلٌ لهم بطريقةٍ ما؛ وأود أن أُضيف أني كنت أُفضل أن أرى النسخة العربية الأصلية، ولكن ليس عندي سوى النسخة الفرنسية التي ترجمها كاتافاغو.

[VI] سورة القصص، الآية رقم 29. المترجم

[VII] سورة طه، الآية 10-12. المترجم

مقتطفات من باب خبر في باطن النوروز كما شرحه الإمام الصادق لعُمَر المفضّل[I]

إن الله جل اسمه لما خلق آدم الآدام، وأمر الملائكة له بالسجود فسجدوا، وأمر إبليس بالسجود فأبى واستكبر هو وذريته، وكان المؤمنون في ذلك الوقت أبدان بغير أرواح نورانية، وكان إبليس وذريته يدخلون في تلك الأبدان ويتعجبون من نورها وظلمتهم، وإبليس لا يعلم ما السبب في ذلك.

فلما أظهر الله آدم على صورة تلك الأبدان، وأمر الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا، وأمر إبليس لعنه الله، فأبى؛ ليتنفذ حكم الله فيه، وتظهر حجة الله عليه، فقال: أنا أقوى من هذه الأبدان التي أمرت لها بالسجود، وآدم هو مثلها، فادخل فيها ولا تدخل فيَّ، فلما علم الله منه ذلك أمر السماء، وزجر السحاب، فمطرت مطرًا، فكانت النقطة تقع في بدن من تلك الأبدان النورانية فتنطق بتوحيد الله عز وجل؛ فتصير النقطة فيه روحًا، فمن هذا المطر روح كل شيء. وأمر الله عز وجل معصية إبليس أن تصير نارًا عليه تلظى من حوله، ومن حول أتباعه، فلما رأى إبليس ذلك سأل النظرة إلى يوم القيامة والبعث؛ فلم يُجب إلى ذلك، وأُجيب إلى يوم الوقت المعلوم[II]، وهو ظهور القائم منه السلام؛ لأن القائم المهدي يقتل إبليس وكل كافرٍ، حتى يكون الدين كله واحدًا.

فسمى الله ذلك اليوم النور، وسمته الفرس نوروز مشتق من النور والزي والمراجيح[III] التي تعمل فيه، مثل سعي الأبدان بعضها إلى بعض حين صارت لها أرواح. وأما الماء الذي يصب فيه للتطهير، فهو نظير المطر الذي أمطر على الأبدان النورانية؛ والنار وما تحرق من السماجات، مثل على النار التي كانت من معصية إبليس وذريته وجنسه.

مقتطفات من الباب نفسه

وروى عن أبي الخطاب عليه السلام أنه قال روز بالفارسية أمان من المسوخية، تفسيره بالعربية من عرف الله تعالى في يوم النوروز؛ أمن من المسوخية.

وروى عن المفضل بن عمر أنه قال: قال الصادق أنه كان المعنى، عز عزه في، زمن الفرس يظهر في كل عام مرتين: في انقضاء البرد من الحر، وانقضاء الحر من البرد، فسمي انقضاء البرد من الحر النوروز، وسمي انقضاء الحر من البرد المهرجان، واتخذوهما عيدين لهم، وكان المعنى الأكبر إذا ظهر في الأكوار ظهر بالإكليل، وقيل بالأكل والشرب، فمنهما استعملت الفرس في هذين العيدين الأكل والشرب[IV].

قال المفضل: إنما يتذكر أولوا الألباب[V]، ويوم النوروز هو اليوم الرابع من نيسان في كل سنة ويوم المهرجان هو اليوم السادس عشر من تشرين الأول أبدًا.

***

لإكمال الموضوع، سأعرض ما قاله نيبور عن الكتاب النصيري الذي كان في حوزته؛ ومع أن الحصول عليه سهلٌ، إلا أنني أود أن أجمع في هذا الفصل أهم الوثائق التي نُشرت عن النصيرية. يتضمن هذا الاقتباس والاقتباسان السابقان تقريبًا كل الكتابات الموثوقة عن الديانة النصيرية.

[I] المفضل بن عمر، أخطأ كاتافاغو والدكتور ڤولف في هذا الاسم، وقد ذُكر المفضل بصفته الباب الثامن لسلسلة الأئمة.

[II] يبدو أن اللفظ مأخوذ من القرآن: "قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)" سورة الحجر، الآية رقم 38. المترجم

[III] شرحت سابقًا من أين اشتقت كلمة نوروز، ويُظهر ذلك الجهل المطبق لذلك العالم النصيري.

[IV] تحدث كاتافاغو في "المجلة الآسيوية"، يوليو 1848 عن تقديس الأكل والشرب، وهي لفظٌ آخر للقداس.

[V] يبدو أن اللفظ مأخوذ من القرآن: "أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)"، سورة الرعد، الآية 19؛ وآيات أُخرى في القرآن. المترجم

يعتقد نيبور[I] احتمال عثور ضباطٍ أتراكٍ على الكتاب في غرفة أحد النصيرية، عندما تفاجأ بقدومهم ليلًا؛ لأخذه إلى السجن ويقول:

"الكتاب أصليٌّ، لكنه ناقصٌ، ومكتوب بخطٍ سيئٍ، وفيه الكثير من العبارات المبهمة، إذ يقول المؤلف إن النصيرية بنو سورًا يفصلهم عن بلاد يأجوج ومأجوج، وهذا يدل على استخدامهم عباراتٍ مبهمةً؛ لإخفاء أسرارهم عن الكفار. ولا يعلم أحدٌ غيرهم ما المقصود بجبرائيل[II]، والغُراب[III]، والسفينة[IV]، والخاتم[V]، وبلقيس[VI] وعصا موسى[VII]، وناقة صالح[VIII]، وعجل بني إسرائيل[IX]، والرسل المحجوبين. ونعثر على تعابير مشابهةٍ في كل صفحةٍ، دون شرحٍ لمعناها ورمزيتها. وسأُضيف بعد الملاحظات التي أخذتها من الكتاب[X]:

"يلقَّب النصيرية بالمؤمنين، ويتحدثون عن وحدانية الله (عليّ) الذي سيظهر من عين الشمس، ويحكم على العالم، كما يتحدثون عن خمسة أشخاصٍ متحدين معه، وهم: 1. المعنى، 2. الاسم الذي يملك الحكمة الحقيقية، ويهتدي بالمعنى، 3. الباب، 4. الأيتام، 5. الحسين. وأعترف بأنني لا أفهم معنى هذه "الخمسية"، لأنني لم أدخل في دينهم، ولم أقدر على فهم ما كُتب بعد ذلك، ولكنني سأعرضه عليكم؛ لأنه يتعلق بعقائدهم الأساسية، ويمكن لمن لا يود قراءتها أن يتخطى هذا المقطع[XI].

"ظهر الله سبع مرات في العالم:

"في المرة الأولى كان المعنى هابيل، وكان الاسم آدم، وكان الباب جبرائيل؛ وكان الأيتام خمسة: ميكائيل (ربما كان كبير الملائكة)، وإسرافيل (ربما كان من ينفخ في الصور يوم القيامة حسب المعتقد المحمدي)، وعزرائيل (ربما كان ملاك الموت)، ومالك (ربما كان خازن النار حسب المعتقد المحمدي)، ورضوان (ربما كان خازن الجنة)؛ وظهر الحسين أول مرةٍ باسم كاسح بن مفلوش؛ وكان أعداء الله في التجسد الأول[XII]: قابيل، وأخته عناق، ووزيره بهلوان والحية والطاووس[XIII].

"في المرة الثانية كان المعنى شيث، وكان الاسم نوح، وكان الباب يائيل بن فاتن؛ وكان الأيتام: أنقيل، وأفراقون، وقينان، وأفريق، وأفريقا؛ وظهر الحسين في شخص حنسه؛ وكان أعداء الله: حام بن نوح، والشيخ حسا، ويغوث، ويعوق، ونسر[XIV].

[I] "رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة" نيبور، الجزء الثالث، ص 358. {يقصد الجزء الثاني، فالكتاب في جزئين فقط. المترجم}

[II] الباب في أولى القباب، وعمومًا تختلف تفسيرات المعاني الباطنية لتلك المفردات باختلاف الكتب التي تفسر معانيها. المترجم

[III] تعني الباب. المترجم

[IV] لها عدة تفسيراتٍ: المعنى الذي من ركب الطريق إلى معرفته نجا من المسوخية، وقد تعني الباب، وقد تعني أهل البيت، وقد تعني أبي عبد الرحمن قيس بن ورقة. المترجم

[V] تعني الباب، وقد تعني النبي محمد ﷺ. المترجم

[VI] بلقيس هي صفية الخيبرية. المترجم

[VII] عصا موسى تعني سلسل (سلمان الفارسي). المترجم

[VIII] صالح اسم سلمان الفارسي، والناقة معرفته. المترجم

[IX] العجل هو الضد وهو أبو بكر، وبنو إسرائيل هم أهل التوحيد العارفون الذين حققوا بواطن الأسرار. المترجم

[X] ليس غريبًا استصعاب نيبور لفهم تلك العبارات، وقد أخطأ في كتابة الكثير من الأسماء، ولكنني سأعرضها كما وجدتها مطبوعةً في كتاب رحلاته، وأود تذكير القارئ بوجوب قراءتها باللفظ الفرنسي. يجب لفظ الكثير من أحرف "J" كما تلفظ بالألمانية، أو كما يلفظ حرف الياء، لأن الكتاب مترجم من الألمانية إلى الفرنسية.

[XI] لا يمكن الاعتماد على ما كتبه نيبور عن معتقدات النصيرية، فالاقتباسات التالية ملأى بالأخطاء. المترجم

[XII] قابيل واخته ووزيرهم "الضد" حسب المصطلح النصيري، أما الحية والطاووس فهما رمزٌ للشيطان. المترجم

[XIII] شعار اليزيديين.

[XIV] قد تكون ترجمةً سيئةً لخطٍ سيئٍ، وأظن أن الأصل العربي قد يكون: "وكان الضد حام ابن نوح وأشخاصه يغوث ويعوق ونسر"، و"الشيخ حسا" ليست سوى "أشخاصه". المترجم

"في المرة الثالثة كان المعنى يوسف، وكان الاسم يعقوب، وكان الباب حام بن كوش؛ وكان الأيتام: يهودا، وهشور، ومالك، ومملك، وأنقيل؛ وظهر حسين في شخص مامهي بن منصور؛ وكان الأعداء الذين وقفوا ضد الله: شادسيلدول، وسيما، وملك الهند، وحبتر، ونعثل.

"في المرة الرابعة كان المعنى يوشع، وكان الاسم موسى، وكان الباب دان بن أصباووط؛ وكان الأيتام: يهودان، وهيروق، وعبد الله، وإسرائيل، وعمران؛ وظهر الحسين في روبيل بن صالح[I]؛ وكانت الأضداد: فرعون، وهامان وقارون.

"في المرة الخامسة كان المعنى آصف، وكان الاسم سليمان، وكان الباب عبد الله بن سمعان؛ وكان الأيتام: شعيرا، وشتلح، وهرشة، ومسقول، وأشرا؛ وظهر الحسين باسم ينتوريس دكنة؛ وكانت أضداد الله: النمرود وعاد وثمود.

"في المرة السادسة كان المعنى سمعان (بطرس)، وكان الاسم عيسى، وكان الباب روزبة بن المرزبان؛ وكان الأيتام: يوحنا فم الذهب، ويوحنّا الديلمي، وبولس، وبطرس، ومتّى؛ وظهر الحسين في ايوش بن منكيدسيا؛ وكانت الأضداد: هيرود، ويابس، وتاوس.

"وفي المرة السابعة كان المعنى عليّ، وكان الاسم محمد ﷺ، وكان الباب سليمان بن بحيري الشدري[II]؛ وكانت الأيتام: المقداد بن الأسود الكندي، وأبو الذر بن جنادة الغفاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعثمان بن مظعون النجاشي، وقنبر بن كادان الدوسي؛ وكان اسم الحسين حمدان؛ وكان أعداء الله: أبو سامل، وسيجدو، وسينيكوك.

"في مكان آخر يقول المؤلف إن على النصيري الإيمان بأن محمدًا ﷺ، وفاطر (فاطمة)، والحسن، والحسين، ومحسن (أبناء فاطمة من عليٍّ)، يُكوِّنون شيئًا واحدًا، وحدة تعني عليًا. ويجب على المؤمن اعتقاد وجود خمسة أيتامٍ دائمين، واثني عشر نقيبًا (سادة عائلة محمد ﷺ[III])، وثمانية وعشرين نجيبًا (المختارون)، والمختصين (المفردون)، والمخلصين (الورعون)، والممتحنين (المنتخبون). ويجب عليه الإيمان بأربعة "أسطر" وهي: سطر الإمام، وهي سلسلة الأئمة من هابيل إلى عليٍّ، وسطر الأئمة (البطاركة) من الحسن الأول إلى الحسن الآخر، وسطر الرسالة أو سلسلة الرسل مثل إدريس ونوح، وهود، وغيرهم، وسطر النبوة بمعنى سلسلة الشعراء والناس المرموقين مثل آنوش، وإسحاق، ويعقوب وغيرهم.

"يقول المؤلف إن آدم، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا ﷺ أنبياء؛ وأن يائيل، وحمدان، وعبد الله، وسلمان، وأبو الشطيل، ومحمد، ومفضّل، وأبو شعيب رسلٌ. ويذكر اسم إسحاق على أنه أكبر أعداء النصيرية؛ لأنه أراد قتل سيدنا أبو شعيب".

وقد ذكرت سلفًا ما اقتبسه نيبور عن التناسخ وأكل الأشياء غير النظيفة، ثم يختم نيبور قائلًا: "ويفرض المؤلف على النصيرية عدم البوح بأي شيءٍ عن دينهم إلى الغرباء، وأن يحبوا إخوانهم، ويكونوا محسنين، وألا يسرقوا، ولا يحلفوا، وأن يصبروا على الفقر وأن يحتملوا سوء معاملة نسائهم".

***

سأُضيف وثيقةً أُخرى وهي ترجمة كاتافاغو للقداس الأول كما وردت في "مجلة جمعية الاستشراق الألمانية[IV]"، وهي مقتبسةٌ من كتاب "مجموع الأعياد" الذي عرضت بعضًا منه في السابق. سأعرض عليكم هذه الفقرة؛ لأنها نوعٌ من الأدعية النصيرية الموجودة في المخطوطة، ولأنها، والاثنتان الأُخريان، مماثلاتٍ تقريبًا للأدعية التي عرضها ڤيكتور

[I] روبيل ابن النبي يعقوب وليس ابن النبي صالح. المترجم

[II] الباب هو سلمان الفارسي. المترجم

[III] عائلة موسى؟

[IV] الجزء الثاني، ص 388.

لانجلوا[I]، ولأن مقدمتها تعطينا فكرةً عن أفضل ما في كتب النصيرية. ليس فيها شيءٌ من العقلانية؛ ولا يرتجى منها نفعٌ؛ ولكنها نادرة الوجود.

قداس الطيب[II]

بسم الله الرحمن الرحيم. أيها المؤمنون، اسمعوا وطيعوا، وانظروا إلى مقامي هذا الذي فيه مجتمعون، انزعوا الغِلَّ والحسد والحقد من قلوبكم، يكمل لكم دينكم، ويستجب الله لدعائكم، واعلموا أن الله حاضر موجودٌ بينكم، يسمع ويرى، إنه عليم بذات الصدور. إياكم، يا مؤمنين، من الضحك والقهقهة في أوقات الصلاة مع الجهال، فمنها تهبط الأعمال، وتتغير الأحوال، لأنها من طريق إبليس اللعين، لعنه الله تعالى. اسمعوا ما يقول لكم الإمام لأنه قائم فيكم في طاعة العليّ العَلاّم: إنّ هذا قُدّاس الطيب بعد عقد النية الصلاة الحقيقية التي خصّ بها السيد المسيح إلى سين، عطاء كل نفس هواها. قال في القداس المبارك: سبحان مَنْ جعل من الماء كل شيءٍ حيّ[III]. سبحان من يُحْي الميت في صرصر[IV] بقدرته، العليّ الكبير. الله أكبر. أسألك اللهمّ مولاي بحق هذا قداس الطيب، بحق السيد محمد ﷺ الحبيب الذي اخضرّ في يده القضيب، تحل في دياركم البركة، يا أصحاب هذا الفضل، وهذا الطيب، ونُقَدِّس أرواح إخواننا المؤمنين، البعيد والقريب. يا مولاي، يا أمير النّحل، يا عليّ، يا عظيم.

النهاية

[I] "مجلة الشرق"، يونيو 1856. الملاحظة التي أشرنا إليها مرارًا في السابق.

[II] الطيب عند النصيرية هو أي شيء له رائحةٌ عطرةٌ.

[III] السورة رقم 21، الآية رقم 31. {النص الكامل للآية: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)"، سورة الأنبياء، الآية رقم 30. المترجم}

[IV] رياحٌ باردةٌ مدمرةٌ مذكورةٌ في القرآن.

فهرس الأعلام

الاسم الكامل	الاسم الأجنبي	شرح
ابن الشحنة		فقيه ومؤرخ حلبي 1348-1412
أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي البويهي		سلطان بويهي 915-967
أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي		مؤرخ عربي أندلسي 1214-1286
أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ السجاد		الإمام الخامس عند الشيعة 659-71
أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعودي		مؤرخ 896-957
أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير		رحالة أندلسي 1145-1217
أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري		الحد الرابع عند الدروز
أبو الفتح الشهرستاني		عالم إسلامي 1086-1153
أبو الفضل جعفر المتوكل على الله		عاشر الخلفاء العباسيين 822-861
أبو الفضل محمد بن محمد		مؤرخ حلبي 1401-1485
أبو القاسم محمد بن عليّ بن أبي طالب		أخو الحسن والحسين 636-700
أبو أيوب خالد ابن زيد الأنصاري		صحابي، توفي 674
أبو بكر الصديق		أول الخلفاء الراشدين 573-634
أبو جعفر محمد بن عليّ الباقر		الإمام الخامس عند الشيعة 677-733
أبو جعفر هارون بن محمد		خامس الخلفاء العباسيين 766-809
أبو حفص عمر بن عبد العزيز		ثامن الخلفاء الأمويين 381-720
أبو حمزة أنس بن مالك النجاري الخزرجي		صحابي توفي 709
أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفيّ		صاحب المذهب الحنفي 699-767
أبو ذر الغفاري		صحابي، توفي عام 652
أبو سعيد الجنابي		زعيم قرمطي توفي 913
أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني		شيخ نصيري 961-1036
أبو شعيب محمّد بن نصير العبدي البكريّ النميّري		مؤسس الديانة النصيرية
أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب		عم النبي محمد ﷺ 540-619
أبو طاهر سليمان بن حسن الجنابي		زعيم قرمطي 906-944
أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي		زعيم نصيري 874-969
أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي		الباب في المطلع الثامن
أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق		الإمام السادس عند الشيعة 700-765
أبو عبد الله شمس الدين الذهبي		عالم ومؤرخ إسلامي 1274-1348
أبو عبد الله محمد الطنجي		رحالة مغربي 1304-1378
أبو عبد الله محمد المعتز بالله		ثالث عشر الخلفاء العباسيين 847-869
أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي		جغرافي ومؤرخ 1100-1165
أبو عليّ الحسن بن أحمد بن أبي سعيد حسن بن بهرام		زعيم قرمطي 891-977
أبو محمد عبد الله الجنان الجنبلاني		زعيم نصيري 850-897
أبو منصور ظاهر الدين طغتكين		أتابك دمشق، توفي عام 1128
أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي		صحابي 603-681
أبو همدان قَنْبَر بن حمدان		خادم عليّ

إتيان مارك كاترمير	Étienne Marc Quatremère	مستشرق فرنسي 1782-1857
أحمد سلهب		زعيم منطقة البهلولية
أحمد صقر		مقدم قرية عين شقاق
أحمد قرفيص		شيخ نصيري توفي 1214
إدوار جيبون	Edward Gibbon	مؤرخ إنجليزي 1737-1794
إدوارد پوكوك	Edward Pococke	مستشرق إنجليزي 1604-1691
إدوارد وليم لين	Edward William Lane	مستشرق إنجليزي 1801-1876
أرسطوطاليس	Aristotle	فيلسوف يوناني 384 ق.م - 322 ق. م
إرم بن سام بن نوح		جد العرب
إسحاق بن محمد النخعي الأحمر		زعيم الفرقة الإسحاقية، توفي عام 899
الإسكندر الثالث المقدوني		ملك مقدوني 336-323 قبل الميلاد
إسماعيل بن حيدر بن جنيد الصفوي		مؤسس الدولة الصفوية 1487-1523
إسماعيل بن علي بن محمود		مؤرخ وصاحب حماة 1273-1331
إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي		الحد الثاني عند الدروز توفي نحو 1030
إسماعيل بن جعفر بن محمد		الإمام السادس عند الإسماعيلية 719-762
إسماعيل خير بيك		زعيم نصيري من صافيتا
إسماعيل عثمان		أحد مقدمي القرداحة، شُنق عام 1870
أفلاطون	Plato	فيلسوف يوناني 427 ق.م - 347 ق. م
أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية		زوجة الرسول 580-680
أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب		629-681
الآمر بأحكام الله أبو عليّ منصور بن أحمد		عاشر الخلفاء الفاطميين 1096-1130
أنطوان إيزاك سيلڤستر دي ساسي	Antoine-Isaac Silvestre de Sacy	مستشرق فرنسي 1758-1838
إيلي سميث	Eli Smith	مبشر أمريكي 1757-1801
بابك الخرمي	Babak Khorramdin	زعيم فارسي ثار على العباسيين 798-838
بارتيلمي هربلو	Barthélemy d'Herbelot de Molainville	مستشرق فرنسي 1625-1695
بدر الدين الجمالي		أمير جيوش فاطمي 1015-1094
بزرك آميد		ثاني حكام الحشاشين 1138
بنيامين التطيلي	Benjamin of Tudela	رحالة يهودي 1130-1173
بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن أحمد السموقي		الحد الخامس عند الدروز 979-1043
بورشارد من دير جبل صهيون	Brocardus Monachus/Burchard of Mount Sion	قس ألمان حج إلى فلسطين وتوفي 1285
بولس الطرسوسي	Paul	قديس مسيحي 5 67
بيار أميدي جوبير	Pierre Amédée Jaubert	مستشرق فرنسي 1979-1847
بيرتراندون دي لا بروكيير	Bertrandon de la Broquière	أحد حجاج بيت المقدس 1400-1459
تانكرد	Tancred	قائد صليبي حكم أنطاكيا 1075-1112
تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزي		شيخ المؤرخين 1364-1442
تيتوس ليڤيوس	Titus Livius Patavinus	مؤرخ روماني 59 ق.م - 17 ميلادي
ج. ا. فورد	G. A. Ford	مبشر أمريكي القرن التاسع عشر
جاك دي ڤيتري	Jacques de Vitry	مؤرخ وأسقف عكا 1160-1240
جان باپتيست جوزيف روسو	Jean-Baptiste Joseph Rousseau	قنصل فرنسا في حلب 1780-1822
جرجس بن العميد/جرجس المكين	George Elmacin	مؤرخ مصري 1223-1274
جعفر بن أبي طالب		أحد أخوة عليّ، توفي 629

جنكيز خان	Genghis Khan	حاكم مغولي 1165-1224
جوزيف توسان رينو	Joseph Toussaint Reinaud	مستشرق فرنسي 1795-1867
جوزيف فرانسوا پوجولا	Jean Joseph François Poujoulat	مؤرخ فرنسي 1808-1880
جوزيف فرانسوا ميشو	Joseph François Michaud	مؤرخ فرنسي 1767-1839
جوزيف ڤولف	Joseph Wolff	مبشر ومستشرق ألماني 1795-1862
جوزيف ڤون هامر	Joseph von Hammer-Purgstall	مستشرق نمساوي 1774-1856
جوزيف كاتافاغو	Joseph Catafago	مترجم من أصل إيطالي مولود في حلب
جوسياز ليزلي پورتر	Josias Leslie Porter	مبشر أيرلندي 1823-1889
جون باركر	John Barker	دبلوماسي إنجليزي 1771-1849
جون كينريك	John Kenrick	مؤرخ بريطاني 1788-1877
جون مالكوم	John Malcolm	مستشرق إسكوتلندي 1769-1833
جيمس جونستون	James Finlay Weir Johnston	كيميائي إسكتلندي 1798-1855
الحاكم بأمر الله المنصور		خليفة عبيدي 985-1025
الحسن الأعصم		زعيم قرمطي
الحسن الثاني بن محمد		زعيم الحشاشين توقي 1166
الحسن العسكري		الإمام الحادي عشر عند الشيعة 846-874
حسن بن على بن محمد الصباح		مؤسس فرقة الحشاشين 1037-1124
الحسن بن عليّ بن أبي طالب		حفيد النبي ﷺ والإمام الثاني عند الشيعة 624-670
حسن بن محمد الصبّاح		مؤسس فرقة القرامطة 1037-1124
حسين الأهوازي		داعية إسماعيلي أستاذ قرمط
حمدان بن الأشعث		مؤسس القرامطة
حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزني		الإمام الأعظم عند الدروز
ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري		مؤرخ مملوكي 1247-1325
ركن الدين خورشاه بن علاء الدين		آخر حاكم للحشاشين 1230-1256
ريتشارد پوكوك	Richard Pococke	رجل دين إنجليزي 1704-1765
ريتشارد قلب الأسد	Richard I of England	ملك إنجليزي 1157-1199
ريمون الثاني، كونت طرابلس	Raymond II, Count of Tripoli	قائد صليبي 1116-1152
ريموند صنجيل/ ريمون دو سان جيل	Raymond de Saint-Gilles	حاكم صليبي 1041-1105
الزبير بن العوام		صحابي مبشر بالجنة 594-656
زرادشت بن اسبتمان		مؤسس الزرداشتية
زكرويه بن مهرويه القرمطي		زعيم قرمطي
زينب بنت علي بن أبي طالب		626-682
سترابو/سطرابون	Strabo	مؤرخ وجغرافي يوناني 64 ق. م.-24 ميلادي
سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي		جغرافي، توفي 1447
السلطان الغازي سليم الأوّل		سلطان عثماني 1470-1520
سلمان الفارسي		صحابي، توقي عام 656
سلوقس الأول المنصور	Seleucus I Nicator	ملك مقدوني 358-281 قبل الميلاد
سنان بن سلمان راشد الدين البصري		زعيم الحشاشين في الشام 1132-1193
شارل فرانسوا ديفريميري	Charles François Defremery	مستشرق فرنسي 1822-1883
شمس الدين بن خلكان		مؤرخ دمشقي 1211-1282
شمسين سلطان		زعيم نصيري من عشيرة الجهنية
شمعون الصفا/بطرس	Saint Peter	تلميذ النبي عيسى، توفي عام 67

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد النويري		مؤرخ مصري 1279-1333
شهاب الدين محمود		صاحب حماة
شيخ الجبل سنان بن سلمان بن محمد		زعيم الحشاشين في الشام 1132-1193
صخر بن حرب الأموي		سيد قرشي 560-650
صقر فاضل		أحد مقدمي البودي
صلاح الدين الأيوبي		صلاح الدين الأيوبي 1137-1193
طالب بن أبي طالب		أحد أخوة عليّ، 571-624
طلحة بن عبيد الله		صحابي مبشر بالجنة 594-656
الظاهر ركن الدين بيبرس		سلطان مملوكي توفي 1277
عائِشة بنت أبي بكر		زوجة النبي محمد ﷺ، توفيت 678
العباس بن عبد المطلب		عم النبي محمد ﷺ 568-653
عبد الغني النابلسي		رحالة وكاتب 1640-1731
عبد الله المستكفي بالله		خليفة عباسي 905-949
عبد الله بن سبأ		يقال إنه مؤسس فكرة التشيع
عبد الله بن ميمون القداح		داعية إسماعيلي
عبد الله بن هارون الرشيد		سابع الخلفاء العباسيين 867-833
عبيد الله بن الحسين المهدي		مؤسس الدولة الفاطمية 873-934
عثمان بن عفان		ثالث الخلفاء الراشدين 576-656
عريب بن سعد القرطبي		مؤرخ وطبيب، توفي عام 980
عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلي		مؤرخ 1160-1233
عطاء ملك الجويني	عطاملک جوینی	مؤرخ فارسي 1226-1283
عقيل بن أبي طالب		أحد أخوة عليّ، توفي 679
علي بك		قائم مقام اللاذقية، قتل عام 1854
عليّ بن أبي طالب		رابع الخلفاء الراشدين 599-691
عليّ حبيب		زعيم نصيري من عشيرة العمامرة
عمار بن ياسر		صحابي 570-357
عمر بن الخطاب		ثاني الخلفاء الراشدين 584-644
عمر بن مظفر بن الوردي المعرّي الكندي		جغرافي ومؤرخ وأديب 1292-1349
عموري الأول	Amalric of Jerusalem/Amaury Ier de Jérusalem	ملك صليبي 1136-1174
غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي	Gregory Bar Hebraeus/ Abulpharagius	لاهوتي وعالم سرياني 1226-1286
فاطمة بنت محمد ﷺ		ابنة النبي محمد ﷺ 609-632
فخر		زعيم نصيري من القدموس
فخر الملك رضوان بن تتش		توفي عام 1113
فريدريك والپول	Fredrick Walpole	ضابط وسياسي بريطاني 1822-1876
فيثاغورس	Pythagoras of Samos	فيلسوف يوناني 570-495 قبل الميلاد
ڤانسان إيڤ بوتان	Vincent-Yves Boutin	عقيد فرنسي 1772-1815
ڤيكتور لانجلوا	Victor Langlois	مستشرق فرنسي 1829-1869
قسطنطين فرانسوا ڤولني	Constantin-François, comte Volney	مستشرق فرنسي 1757-1820
قيس بن ورقة		باب الإمام الحسن، توفي 689
كارستن نيبور	Carsten Niebuhr	مستكشف ألماني 1733-1815
كارل ريتر	Carl Ritter	جغرافي ألماني 1859-1779

كايوس پلينيوس سكوندوس	Gaius Plinius Secundus/ Pliny the Elder	مؤرخ روماني 23-79
كلوديوس بطليموس	Claudius Ptolemy	جغرافي يوناني 100-170 قبل الميلاد
كورنيليوس فان آلن ڤانديك	Cornelius Van Alen Van Dyck	مبشر أمريكي 1818-1895
كونراد الأول	Conrad I of Germany	ملك فرانكفونيا 881-918
كونراد من مونفيراتو	Corrado di Monferrato	قائد صليبي اغتيل عام 1192
لودڤيج ڤون ڤيلدنبروخ	Ludwig von Wildenbruch	قنصل پروسيا في بيروت 1803-1874
لويجي مرتشي	Ludovico Marracci/Lewis Maracci	مستشرق إيطالي 1612-1700
لويس التاسع	Louis IX	ملك فرنسي وقائد صليبي 1214-1270
ماركو پولو	Marco Polo	مستكشف إيطالي 1254-1324
متى الإنجيلي	Matthew	تلميذ النبي عيسى، توفي عام 74
المحسن بن عليّ بن أبي طالب		حفيد النبي محمد ﷺ
محمد آغا يوميسو		زعيم تركماني
محمد المغربي		شيخ مغربي عاش في اللاذقية، توفي 1823
محمد باشا ابن المن		متسلم اللاذقية، قتل عام 1823
محمد بدور		زعيم نصيري من عشيرة الدراوسة
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق		الإمام السابع عند الإسماعيلية 740-813
محمد بن إسماعيل نشتكين الدَرَزي		داعية درزي تبرأ منه الدروز لاحقًا
محمد بن جعفر		زعيم نصيري من عشيرة العمامرة
محمد بن جندب		زعيم نصيري في القرن التاسع
محمد بن مخلوف		أول المستوطنين من عشيرة الكلبية
محمد بن وهب القرشي		الحد الثالث عند الدروز
محمد راغب باشا		سياسي عثماني ألّف بالعربية 1698-1963
محمد ساتر		زعيم نصيري من عشيرة القراطلة
محمد سعيد		زعيم نصيري من عشيرة الدراوسة
محمد عدرا		زعيم نصيري مالك قلعة المرقب
محمد عليّ خضرو		زعيم نصيري من قرية عناب
مصطفى آغا بربر		متسلم طرابلس 1767-1834
معاوية بن أبي سفيان		صحابي 602-680
معد المعز لدين الله		ثالث الخلفاء الفاطميين 932-975
المقداد بن الأسود الكندي		صحابي 589-653
المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي		سلطان مملوكي 1222-1290
موسى بن جعفر الكاظم		الإمام السابع عند الشيعة 745-799
مير خواند	ميرخواند	مؤرخ فارسي 1433-1498
ناصر الدين محمد بن قلاوون		سلطان مملوكي 1285-1341
نزار المصطفى لدين الله		خليفة إسماعيلي 1047-1097
النقيب بروكر	Lietenant Brooker	نقيب في البحرية الملكية البريطانية
هادريان	Publius Aelius Hadrianus Augustus	إمبراطور روماني 76-138
هادريان/أدريان	Hadrian/Hadrianus	إمبراطور روماني 76-138
هاشم بن حكيم المقنع الخرساني		زعيم ادعى الألوهية توفي 783
هاشم بن عبد مناف		الجد الثاني للرسول، توفي 497
هنري موندريل	Henri Maundrell	رجل دين وأكاديمي بريطاني 1665-1701
هنري هاريس جيساپ	Henry Harris Jessup	مبشر أمريكي 1910-1832

هنري يول	Henry Yule	مستشرق إسكوتلندي
هولاكو خان	Hulagu Khan	حاكم مغولي 1217-1265
هيرودوت أو هيرودوتس	Herodotus	مؤرخ يوناني 425/481 قبل الميلاد
هيستر ستانهوب	Lady Hester Stanhope	سيدة مجتمع بريطانية 1776-1839
وصاف الشيرازي	وصاف شيرازى	مؤرخ فارسي 1257-1329
وليم الصوري	William of Tyre	مؤرخ ورئيس أساقفة صليبي 1130-1186
وِلْيَمْ أوزلي	William Ouseley	مستشرق بريطاني 1767-1842
وِلْيَمْ جويت	William Jowett	مبشر إنجليزي 1787-1855
وِلْيَمْ كوك تايلور	William Cooke Taylor	كاتب إيرلندي 1800-1848
وِلْيَمْ مكلور تومسون	William McClure Thomson	مبشر أمريكي 1806-1894
وِلْيَمْ مكين دي سلان	William McGuckin de Slane	مستشرق فرنسي 1801-1878
وورتابيت	Gregory M. Wortabet	مبشر أمريكي
يزيد بن معاوية		ثاني الخلفاء الأمويين 647-683
يوثام ملك يهوذا	Jotham of Judah	حَكَمَ 742-735 قبل الميلاد
يوسف سمعان السمعاني		أسقف ومترجم 1684-1768
يوليان	Julian	إمبراطور رواني 331-363
يوهان لودڤيك بوركهارت جون لويس بوركهارت	Johann Ludwig Burckhardt Jean Louis Burckhardt	رحالةسويسري 1784-1817

المراجع

Abu Al-Fida .(1840) .*Géographie d'Aboulféda .تقويم البلدان* = Paris: L'Imprimerie royale.

Abu Al-Fida .(بلا تاريخ) .*Concise History of Humanity .*

Al-Maqrizi .(بلا تاريخ) .*Kitab al-mawaiz wa-al-itibar bi-dhikr al-khitat wa-al-athar* .Cairo: Bulaq.

Arib ibn Sad Al-Kurtubi .(1840) .*An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty In Africa: Being the Annals of That Province From the Year 290 of the Heg'ra to the Year 300, Extracted From an Ancient Arabic Ms. Ascribed to El Mas'ûdi, Belonging to the Ducal Library of Saxe-Goth* .Tübingen: L.F. Fues.

Assemano, S. (n.d.). *Bibliotheca juris orientalis.*

Bar Hebraeus. (1663). *Historia compendiosa dynastiarum = تاريخ مختصر الدول.* Oxoniae: excudebat H. Hall Celeberrimae Academiae typographus.

Bar Hebraeus. (1806). *Specimen historiæ arabum, (Edward Pockocke, Trans.).* Oxonii: e typographeo Clarendoniano.

Benjamin, o. T. (1840). *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela.* London: A. Asher & co.

Burckhardt, J. L. (1822). *Travels in Syria and the Holy Land.* London: J. Murray.

Catafago, J. (1848, February). Notice sur les Anseriens. *Journal Asiatique.*

Charles F Defremery .(1854) .Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathiniens de Syrie .*Journal Asiatique.*

De Sacy, A. I. (1838). *Exposé de la religion des Druzes.* Paris: L'Imprimerie royale.

Deutsche Morgenländische Gesellschaft .(46/1945) .*Jahresbericht Der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.*

Gibbon, E. (1811). *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.* Edinburgh: Printed for Bell and Bradfute, Peter Hill, Silvester Doig and A. Stirling, and John Ogle.

Grynaeus, S. (1532). *Novus orbis regionum ac insularum veteribus incognitarum.* Basileae: apud Io. Hervagium.

Hammer, J. V. (1835). *The History of the Assassins: Derived from Oriental Sources, (O. C. Wood, Trans.).* London: Smith and Elder.

Hawqal, M. A.-Q. (1800). *The Oriental Geography of Ebn Haukal: an Arabian Traveller of the Tenth Century, (William Ouseley, Trans.).* London: Printed by Wilson for T. Cadell, and W. Davies.

Ibn-al-Amid, G. a. (1625). *Historia Saracenica = تاريخ المسلمين, (Thomas Erpenius, TRANS.).* Erpeniana, prost. apud J. Maire [and] Elzevirios.

Idrisi. (1836). *Géographie d'Edrisi, (Pierre Jaubert, Trans.).* Paris: Impr. royale.

Johnston, J. F. (1855). *The Chemistry of Common Life.* Mew York: D. Appleton.

Jowett, W. (1826). *Christian Researches in Syria and the Holy Land.* London: Published for the Society by L. B. Seeley and J. Hatchard.

Jubayr, I. (1852). *The Travels of Ibn Jubair = رحلة ابن جبير, (William Wright, Ed.).* Leyden: E.J. Brill.

Kenrick, J. (1855). *Phoenicia.* London: B. Fellowes.

Khallikan, I. (1842). *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, (William MacGuckin de Slane, Trans).* Paris: Printed for the Oriental translation fund of Great Britain and Ireland.

Kieser, H.-L. (2001). Muslim Heterodoxy and Protestant Utopia. The Interactions between. *Die Welt des Islams*, 92.

Krieger, B. T. (2013). The Rediscovery of Samuel Lyde's Lost Nuayrī Kitāb alMashyakha. *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1-16.

Lane, E. W. (1837). *An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians.* London: Charles Knight and Co.

Langlois, V. (1856, June). Religion et Doctrine des Noussairis. *Revue d'Orient et de L'Algerie et des Colonies.*

Lyde, S. (1853). *The Ansyreeh and Ismaeleeh, a Visit to the Secret Sects of Northern Syria.* London: Hurst and Blackett.

Malcolm, J. (1829). *The History of Persia: from the most early period to the present time.* London: Murray.

Mann, H. (1854). *Census of Great Britain, 1851. Religious Worship in England and Wales.* London: George Routledge and Co.

Marracci, L. (1691). *Prodromus ad refutationem Alcorani.* typis Sac. Cong. de Prop. Fide.

Maundrell, H. (1823). *A journey from Aleppo to Jerusalem: at Easter, A.D. 1697.* London: Printed for C. & J. Rivington.

Michaud, J. F., & Poujoulat, J. J. (1829). *Bibliothèque des croisades.* Paris: A. J. Ducollet.

Muhammad Raghib. S*afinat al-raghib wa-dafīnat al-matalib* .Cairo: Bulaq.

Niebuhr, C. (1776-80). *Voyage en Arabie & en d'autres pays circonvoisins.* Amsterdam: S.J. Baalde.

Nogent, G. o. (1611). *Dei gesta per Francos.* Hanoviæ: Typis Wechelianis, apud heredes Ioan. Aubrii.

Pococke, R. (1743). *A Description of the East, and Some Other Countries.* London: Printed for the author by W. Bowyer.

Porter, Josias Leslie. (1858). *A Handbook for Travellers in Syria and Palestine.* London: J. Murray.

Quatremère, É. M. (1840). *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte.* paris.

Ritter, K. (1855). *Die Erdkunde im Verhältniss zur Natur und zur Geschichte des Menschen.* Berlin: G. Reimer.

Rousseau, Jean-Baptiste Louis Jacques. (1809). Mémoires sur les Ismaelis et Nossairis de Syrie, adressé à M. Silv. de Sacy, par M. Rousseau. *Annales des Voyages*, cahier xlii.

Simon Ockley .(بلا تاريخ) .*The History of the Saracens; comprising the lives of Mohammed and his successors, to the death of Abdalmelik, the eleventh caliph .*

Taylor, W. C. (1851). *History of Mohammedanism, and Its Sects.* London: John W. Parker.

The Koran: Commonly Called the Alcoran of Mohammed, (George Sale, Trans.). (1801). London: Printed by T. Maiden, Sherbourne-Lane, for J. Johnson.

Volney, C. F. (1798). *Travels through Syria and Egypt, in the years 1783, 1784.* New York: Printed and sold by John Tiebout, for E. Duycknick.

Walpole, F. (1851). *The Ansayrii, or (the Assassins).* London: R. Bentley.

Wright, T. (1848). *Early Travels in Palestine.* London: H. G. Bohn.

Yule, H. (n.d.). *The Book of Sir Marco Polo.*

ترجمة المراجع

التاريخ السرياني. ابن العبري	
إذاعة المبشرين	The Missionary Herald
أفعال الرب على أيدي الفرنج. جيبير دي نوجان	Dei gesta per Francos. Guibert of Nogent
البحوث المسيحية في الشام والأرض المقدسة. وِلْيَمْ جويت	Christian Researches in Syria and the Holy Land. William Jowett
بواكير الرحلات إلى فلسطين	Early Travels in Palestine. Thomas Wright
تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية. إدوارد جيبون	The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Edward Gibbon
تاريخ الحروب الصليبية. جوزيف فرانسوا ميشو، جوزيف فرانسوا پوجولا	Bibliothèque des croisades. Joseph François Michaud, Jean Joseph François Poujoulat
تاريخ الحشاشين. جوزيف ڤون هامر. ترجمة وود	The History of the Assassins. Joseph Von Hammer. Translated by Wood
تاريخ السلاطين المماليك. إيتيان مارك كاترمير	Histoire des sultans mamlouks. Étienne Marc Quatremère
التاريخ الطبيعي. پلينيوس الأكبر	Gaius Plinius Secundus. Naturalis Historia
تاريخ المحمدية وطوائفها. وِلْيَمْ كوك تايلور	History of Mohammedanism, and Its Sects. W. C. Taylor
تاريخ فارس. جون مالكوم	The History of Persia. John Malcolm
تاريخ مختصر الدول. ابن العبري	
تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف باسم "تاريخ ابن الوردي". عمر بن مظفر بن الوردي المعرّي الكندي	
تقويم البلدان، أبو الفداء	Géographie d'Aboulféda. Joseph Toussaint Reinaud, Mac Guckin de Slane
جغرافيا الشرق لابن حوقل، وِلْيَمْ أوزلي	The Oriental Geography of Ebn Haukal. William Ouseley
جغرافيا طبيعة الإنسان وتاريخه. كارل ريتر	Die Erdkunde im Verhältniss zur Natur und zur Geschichte des Menschen. Carl Ritter
الجغرافيا. ابن سعيد المغربي	
الجمعية الشرقية الألمانية	Deutsche Morgenländische Gesellschaf
الحاوي في علم الفتاوي. أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني	
خريدة العجائب وفريدة الغرائب. سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي	
دليل المسافرين إلى بلاد الشام وفلسطين. جوسياز ليزلي پورتر	A Handbook for Travellers in Syria and Palestine. Josias Leslie Porter
رحلات الجزيرة العربية والبلدان المجاورة. كارستن نيبور	Voyage en Arabie & en d'autres pays circonvoisins. Carsten Niebuhr
رحلات بلاد الشام والأراضي المقدسة. يوهان لودڤيك بوركهارت	Travels in Syria and the Holy Land. Johann Ludwig Burckhardt
رحلات بلاد الشام ومصر. قسطنطين ڤولني	Travels Through Syria and Egypt. Constantin-François, comte Volney
رحلة ابن جبير. وِلْيَمْ رايت	Travels of Ibn Jubayr. William Wright
رحلة من حلب إلى القدس في فصح العام 1697. هنري موندريل	A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter, A.D. 1697. Henry Maundrell
الرد على المرتد. أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني	
الرسالة الدامغة في الرد على الفاسق النصيري. حمزة بن عليّ الزوزني	
الرسالة المصرية. عصمة الدولة أبي الفتح محمد بن الأمير معز الدولة	

Lettres édifiantes et curieuses. Compagnie de Jésus	رسائل منورة ومشوقة. الرهبنة اليسوعية
Annales des voyages, de la géographie et de l'histoire. Jean-Baptiste Joseph Rousseau	السجلات الجغرافية والتاريخية للرحلات. جان بابتيست جوزيف روسو
	سفينة الراغب ودفينة المطالب. محمد راغب باشا
Exposé de la religion des Druzes. Antoine-Isaac Silvestre de Sacy	عرض ديانة الدروز. أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي
Phoenicia, John Kenrick	فينيقيا. جون كينريك
	الكامل في التاريخ. ابن الأثير
Geography. Cornelius Van Alen Van Dyck	كتاب الجغرافيا. كورنيليوس فان آلن ڤانديك
The Chemistry of Common Life. James Finlay Weir Johnston	كيمياء الحياة العامة. جيمز فينلي وير جونستون
Specimen historiae Arabum. Edward Pococke	لمع من أخبار العرب. إدوارد پوكوك
Journal Asiatique	المجلة الآسيوية
Jahresbericht der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft	مجلة الجمعية الشرقية الألمانية
Revue d'Orient	مجلة الشرق
	مجموع الأعياد. أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني
Historia Compendiosa Dynastiarum. Translated by Edward Pococke	مختصر تاريخ الدول. ابن العبري، تقديم إدوارد پوكوك
	المختصر في أخبار البشر. أبو الفداء
	مروج الذهب ومعادن الجوهر. المسعودي
	مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري
Prodromus ad refutationem Alcorani. Ludovico Maracci	مقدمة إلى ضحد القرآن. لويجي مرتشي
	الملل والنحل. أبو الفتح الشهرستاني
Novus Orbis Regionum ac Insularum Veteribus Incognitarum. S. Grynaeus & J. huttich	مناطق العالم الجديد وجزره القديمة. س. جريناس، ج. هاتيش
	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. المقريزي
Géographie d'Edrisi. Pierre Jaubert	نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي
The Ansayrii, (or Assassins,). Fredrick Walpole	النصيرية أو الحشاشون. فريدريك والپول
The Ansyrereh and Ismaeleeh. Samuel Lyde	النصيرية والإسماعيلية. صموئيل لايد
	الهداية الكبرى. الحسين بن حمدان الخصيبي
A Description of the East, and Some Other countries. Richard Pococke	وصف الشرق وبلاد أُخرى. ريتشارد پوكوك
An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians. Edward William Lane	وصف عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم. إدوارد وليم لين
Ibn Khallikan's Biographical Dictionary. Translated by William McGuckin de Slane	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ابن خلكان

فهرس الأماكن

ملخص أهم العقائد النصيرية

عقائد النصيرية خليطٌ من عقائد دياناتٍ شتَّى، جمعها أناس شتَّى في أزمنة شتَّى؛ ليزداد غموضُها غموضًا بقصدٍ، ودون قصدٍ. ومن أجل إزالة الضبابية والالتباس؛ قررت أن أدلو دلوي بين الدلاء، بعرض شرحٍ مبسطٍ لأهم عقائد النصيرية التي وردت في الكتاب، والتعريف بكل معقدٍ منها تعريفًا مقتضبًا، اسهامًا في إزالة الغموض المرافق لكثيرٍ من النصوص في هذا الكتاب، مع علمي أن إزالة الغموض عنها مهمةٌ مستحيلةٌ.

قال مؤلف هذا الكتاب: "وإذا لم نقدر على فك معاني الجمل الخيالية في العقيدة النصيرية، يجب علينا ألا نتعجب، ولا نحزن". وهذا قول غير مبالغ فيه وله أسبابه الموضوعية، ولا يمكن استثناء النصيرية منه؛ ولكنه ليس غريبًا على طبيعة البشر؛ ولو عرفنا كم من الشيوعيين لم يفهموا جدلية هيغل، وكيف حولها ماركس إلى ماديةٍ جدليةٍ؛ لما استغربنا هذا الأمر على قومٍ تلقوا كل تلك الألغاز سماعًا، وتعلموها مشافهةً.

الألوهية

يؤمن النصيرية بوجود إلهٍ لم يلد ولم يولد، خَلَقَ كل شيءٍ من نوره. هذا الإله هو الله، وقد ظهر في صورة بشرٍ سبع مراتٍ، فقد ظهر في هابيل، وشيث، ويوسف، ويوشع، وآصف، وشمعون الصفا (القديس بطرس)، وعليّ بن أبي طالب، وهو أفضل الظهورات وآخرها؛ فعليٌّ هو الله، والله هو عليٌّ. وقد ظهر الله على هيئة بشرٍ؛ لتكون له الحجة على خلقه، وليأنس إليه المؤمن إذا رآه من جنسه في البشرية.

الثالوث النصيري

علي-محمد-سلمان، أو المعنى-الاسم-الباب، أو (ع م س). هؤلاء هم الأشخاص أو الأقانيم الثلاثة الذين يكوِّنون الثالوث النصيري. المعنى هو عليٌّ الإله الذي اخترع[1] من نور ذاته محمدًا ﷺ الاسم (ويسمى الحجاب أيضًا)، وخلق محمدٌ ﷺ سلمانَ الباب من نوره. يُظهِرُ الاسمُ المعنى كما يُظهِرُ نورُ الشمس قرصَها، والباب هو المدخل إلى المعنى عن طريق الاسم.

نلاحظ أن أشخاص الثالوث ليسوا متساوين في المنزلة، فهم خالقٌ ومخلوقٌ، ويجب على النصيري عبادة عليٍّ دون محمدٍ ﷺ وسلمان. وهذا ما يميز الثالوث النصيري عن الثالوث المسيحي الذي تتساوى فيه الأقانيم الثلاثة (الأب، والابن، وروح القدس).

لم أعثر على ذكرٍ صريحٍ للثالوث النصيري في كتابات محمد بن نصير التي ركز فيها على ثنائية المعنى والاسم. ويبدو أن دخول الثالوث إلى العقيدة النصيرية حصل في وقت لاحقٍ بعد أن انتقلت النصيرية من العراق إلى الشام. وقد يُفسر ذلك بالانتقال من التأثر بالثنوية المجوسية في العراق إلى التأثر بالثالوث المسيحي في بلاد الشام. فظاهرة التوفيق بين الأديان (Syncretism) ليست أمرًا غريبًا ولا جديدًا على بني البشر.

أما أشخاص المعنى والاسم والباب في الظهورات السبعة فهي كالتالي:

المعنى	الاسم	الباب
هابيل	آدم	جبريل
شيث	نوح	يائيل بن فاتن
يوسف	يعقوب	حام بن كوش

[1] يستعمل النصيرية لفظة "اخترع" بدلً من "خلق" فقط فيما يخص تكوين عليٍّ لمحمدٍ، أما بقية التكوينات فتسمى خلقًا.

يوشع	موسى	دان بن أصباووط
آصف	سليمان	عبد الله بن سمعان
شمعون الصفا	عيسى	روزبة بن المرزبان
عليّ	محمد ﷺ	سلمان الفارسي

نظرية الخلق

سنجد بعض التناقضات والاختلافات في قصص الخلق المذكورة في مصادرَ مختلفةٍ؛ وقد يستحيل جمعها في قصةٍ واحدةٍ بتوالٍ منطقيٍ لأحداثها المتنوعة. وعلى العموم يؤمن النصيرية بأن البشر كانوا أجسامًا نورانيةً تعيش في العالم النوراني، فعصوا ربهم، فأنزلهم إلى العالم الأرضي الذي نعيش فيه. وخلق من معصيتهم إبليسَ، وخلق من معصية إبليس النساءَ. ومَنْ عرف المعنى والاسم والباب وآمن بهم سيعود إلى العالم النوراني.

اخترع عليٌّ محمدًا ﷺ من نور ذاته، ثم خلق محمدٌ سلمان الفارسي من نوره، ثم خلق سلمانُ الأيتامَ الخمسة[I] من نوره، وخلق الأيتامُ العالمَ والخلقَ من نورهم[II]. ويؤمنون بوجود أُممٍ سكنت الدار قبل البشر: الحِنّ والبنّ والطمّ والرمّ والجان والجن.

التناسخ

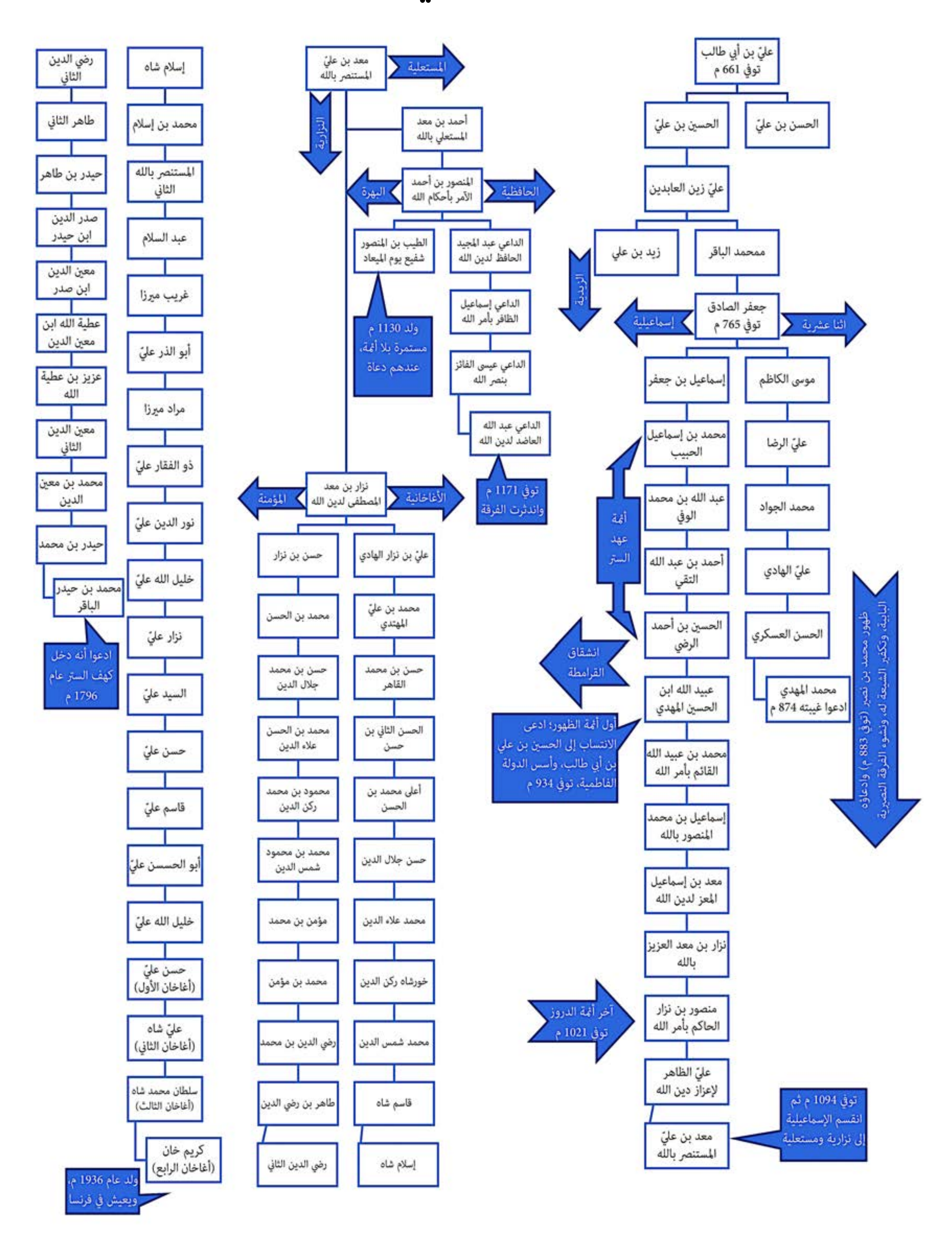
يؤمن النصيرية بأن الروح تغادر الجسد عند الموت، وتنتقل إلى جسد مولودٍ جديدٍ، وتتكرر هذه العملية سبع مراتٍ، ثم تعود الروح إلى العالم النوراني، وفي إحدى الروايات تصبح نجمًا في السماء. هذه هي الدورة المثالية لحياة النصيري المؤمن، ولا تنطبق على غير النصيرية، ولا على النصيرية المشككين. ومن أنواع العقاب التي ينزلها الله بمن لم يعرف المعنى والاسم والباب، ويؤمن بهم، انتقالُ أرواحهم إلى أجسامٍ أدنى من البشر (المسوخية). وللتناسخ أنواعٌ: النسخ، وهو انتقال الروح من جسدٍ إلى آخر؛ والمسخ هو أن تمسخ الروح في هيكلها فتصبح خنزيرًا أو قردًا مثلًا؛ الوسخ هو المسخ ولكن في حيواناتٍ صغيرةٍ وحشراتٍ؛ الفسخ هو خروج الروح قبل الموت؛ الرسخ هو انتقال الروح إلى جمادٍ مثل الفضة أو الحجر.

المراتب

لكل عالَمٍ مراتبه، فللعالم النوراني سبع مراتب: الأبواب، والأيتام، والنقباء، والنجباء، والمختصون، والمخلصون، والممتحنون. وللعالم الأرضي سبع مراتب: المقربون، والكروبيون، والروحانيون، والمقدسون، والسائحون، والمستمعون، واللاحقون.

[I] المقداد ابن أسود الكندي، وأبو الذرّ الغفاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعثمان بن مظعون النجاشي، وقنبر بن كادان الدوسي.
[II] مأخوذ عن مبدأ الفيض في الأفلاطونية المحدثة (القرن الثالث الميلادي).

أئمة الشيعة



عليّ بن أبي طالب توفي 661 م
الحسن بن عليّ
الحسين بن عليّ
عليّ زين العابدين
ممحمد الباقر
زيد بن علي
الزيدية
جعفر الصادق توفي 765 م
إسماعيلية
اثنا عشرية
موسى الكاظم
إسماعيل بن جعفر
عليّ الرضا
محمد بن إسماعيل الحبيب
محمد الجواد
عبد الله بن محمد الوفي
عليّ الهادي
أحمد بن عبد الله التقي
أئمة عهد الستر
الحسن العسكري
الحسين بن أحمد الرضي
محمد المهدي ادعوا غيبته 874 م
عبيد الله ابن الحسين المهدي
انشقاق القرامطة
أول أئمة الظهور؛ ادعى الانتساب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وأسس الدولة الفاطمية، توفي 934 م
ظهور محمد بن نصير (توفي 883 م) وادعاؤه البابية، وتكفير الشيعة له، ونشوء الفرقة النصيرية
محمد بن عبيد الله القائم بأمر الله
إسماعيل بن محمد المنصور بالله
معد بن إسماعيل المعز لدين الله
نزار بن معد العزيز بالله
منصور بن نزار الحاكم بأمر الله
آخر أئمة الدروز توفي 1021 م
عليّ الظاهر لإعزاز دين الله
معد بن عليّ المستنصر بالله
توفي 1094 م ثم انقسم الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية
معد بن عليّ المستنصر بالله
المستعلية
النزارية
أحمد بن معد المستعلي بالله
البهرة
المنصور بن أحمد الآمر بأحكام الله
الحافظية
الطيب بن المنصور شفيع يوم الميعاد
الداعي عبد المجيد الحافظ لدين الله
ولد 1130 م، مستمرة بلا أئمة، عندهم دعاة
الداعي إسماعيل الظافر بأمر الله
الداعي عيسى الفائز بنصر الله
الداعي عبد الله العاضد لدين الله
توفي 1171 م واندثرت الفرقة
المؤمنة
نزار بن معد المصطفى لدين الله
الآغاخانية
حسن بن نزار
عليّ بن نزار الهادي
محمد بن الحسن
محمد بن عليّ المهتدي
حسن بن محمد جلال الدين
حسن بن محمد القاهر
محمد بن الحسن علاء الدين
الحسن الثاني بن حسن
محمود بن محمد ركن الدين
أعلى محمد بن الحسن
محمد بن محمود شمس الدين
حسن جلال الدين
مؤمن بن محمد
محمد علاء الدين
محمد بن مؤمن
خورشاه ركن الدين
رضي الدين بن محمد
محمد شمس الدين
طاهر بن رضي الدين
قاسم شاه
رضي الدين الثاني
إسلام شاه
إسلام شاه
محمد بن إسلام
المستنصر بالله الثاني
عبد السلام
غريب ميرزا
أبو الذر عليّ
مراد ميرزا
ذو الفقار عليّ
نور الدين عليّ
خليل الله عليّ
نزار عليّ
السيد عليّ
حسن عليّ
قاسم عليّ
أبو الحسسن عليّ
خليل الله عليّ
حسن عليّ (أغاخان الأول)
عليّ شاه (أغاخان الثاني)
سلطان محمد شاه (أغاخان الثالث)
كريم خان (أغاخان الرابع)
ولد عام 1936 م، ويعيش في فرنسا
رضي الدين الثاني
طاهر الثاني
حيدر بن طاهر
صدر الدين ابن حيدر
معين الدين ابن صدر
عطية الله ابن معين الدين
عزيز بن عطية الله
معين الدين الثاني
محمد بن معين الدين
حيدر بن محمد
محمد بن حيدر الباقر
ادعوا أنه دخل كهف الستر عام 1796 م

الخرائط



خريطة السناجق كما كانت بعد العام 1856، أما الولايات الظاهرة حدودها في الصورة، فقد تأسست لاحقًا:

ولاية حلب 1864 م

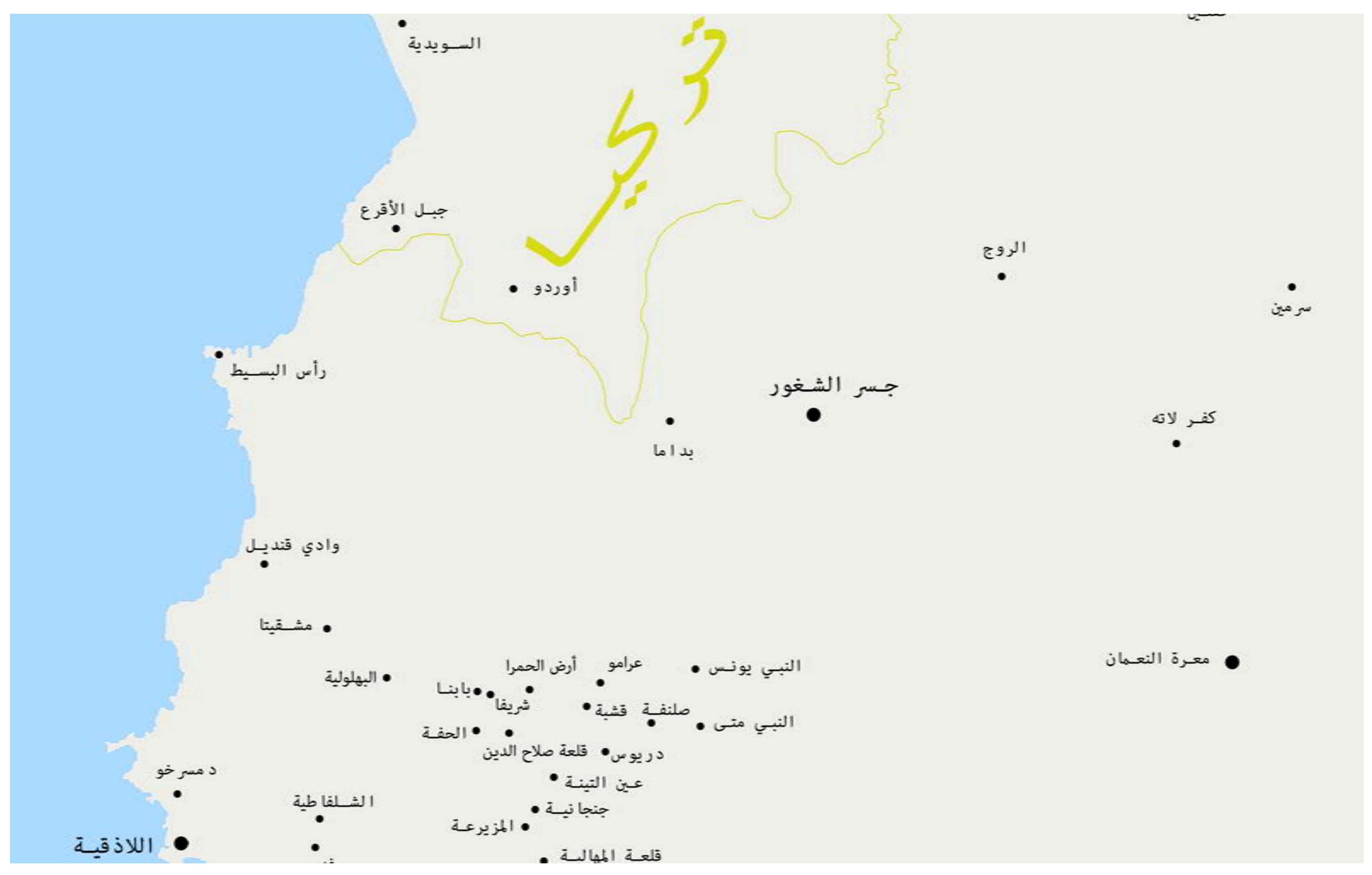
ولاية الشام 1864 م

ولاية بيروت 1888 م

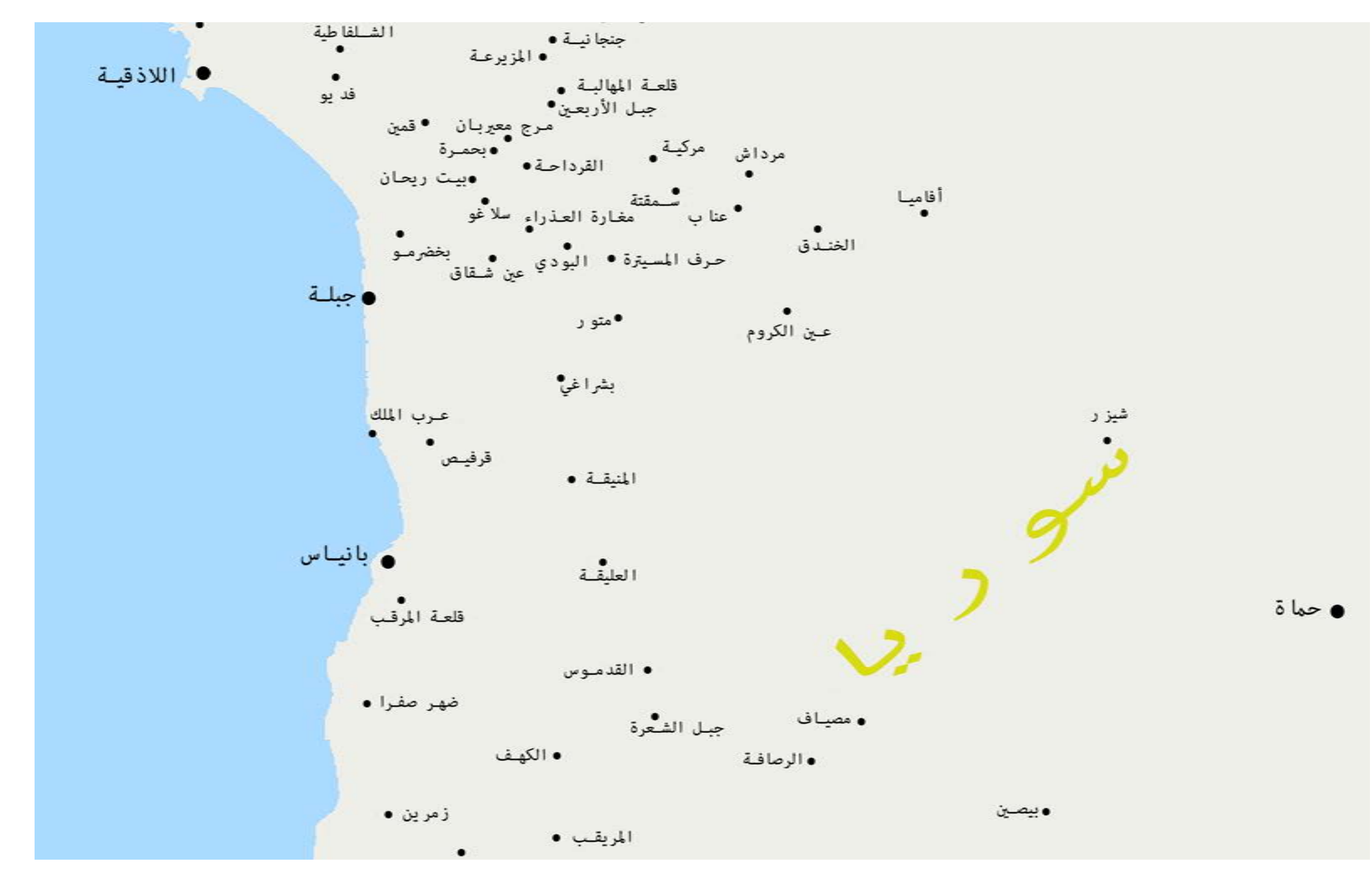
متصرفية القدس الشريف 1872 م


وادي التيـم
لبنـان
سوريا
الغجـر
بانيـاس
عـين فيت
زعورة
الجولان


إسكندرونة
بيلان
أرسوز
جسر الحديد
أنطاكيا
قلعة حارم
بتياس
حربيات
القصير
سلوقية
كفتين
السويدية



السويدية
جبل الأقرع
أوردو
رأس البسيط
الروج
سرمين
جسر الشغور
بداما
كفر لاته
وادي قنديل
مشقيتا
معرة النعمان
البهلولية
بابنا
شريفا
أرض الحمرا
عرامو
النبي يونس
قشبة
صلنفة
النبي متى
الحفة
قلعة صلاح الدين
دريوس
دمسرخو
عين التينة
الشلفاطية
جنجانية
المزيرعة
اللاذقية
قلعة المهالبة

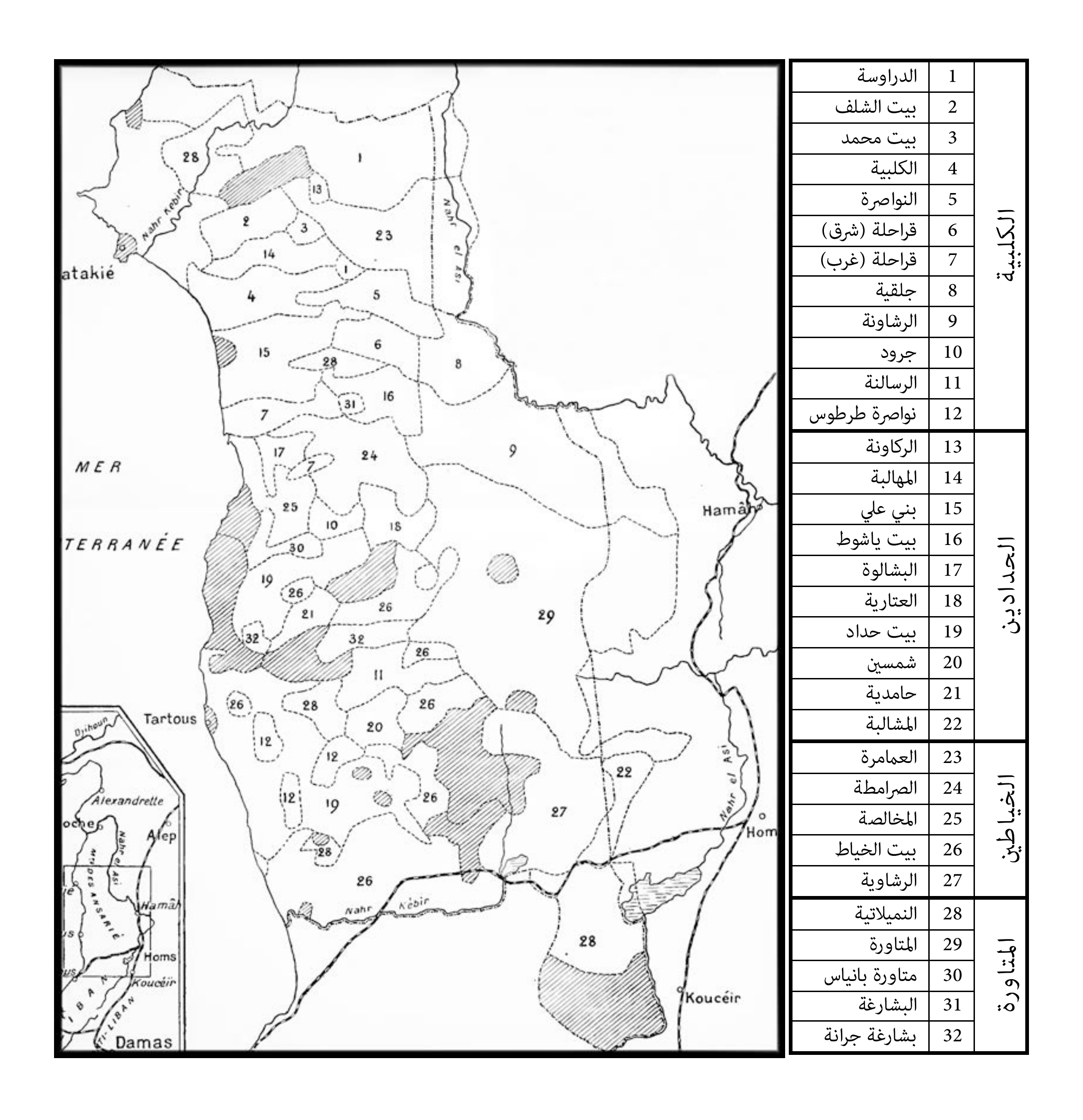


اللاذقية
الشلفاطية
فديو
جنجانية
المزيرعة
قلعة المهالبة
جبل الأربعين
قمين
مرج معيربان
بحمرة
القرداحة
مركية
مرداش
بيت ريحان
سلاغو
مغارة العذراء
سمقتة
عناب
أفاميا
بخضرمو
عين شقاق
البودي
حرف المسيترة
الخندق
جبلة
متور
عين الكروم
بشراغي
عرب الملك
قرفيص
المنيقة
شيزر
سوريا
بانياس
العليقة
حماة
قلعة المرقب
القدموس
ضهر صفرا
جبل الشعرة
مصياف
الكهف
الرصافة
زمرين
المريقب
بيصين


المريقب
الخوابي
بعرين
رفنية
الرستن
القليعة
طرطوس
بشنين
أرواد
صافيتا
الهيشة
قلعة الحصن
حمص
صيميرا
الدريب
عكار
تل عرقة
لبنان
طرابلس

خريطة التوزع العشائري

خريطة فرنسية نُشرت عام 1922



الكلبية	1	الدراوسة
	2	بيت الشلف
	3	بيت محمد
	4	الكلبية
	5	النواصرة
	6	قراحلة (شرق)
	7	قراحلة (غرب)
	8	جلقية
	9	الرشاونة
	10	جرود
	11	الرسالنة
	12	نواصرة طرطوس
الحدادين	13	الركاونة
	14	المهالبة
	15	بني علي
	16	بيت ياشوط
	17	البشالوة
	18	العتارية
	19	بيت حداد
	20	شمسين
	21	حامدية
	22	المشالبة
الخياطين	23	العمامرة
	24	الصرامطة
	25	المخالصة
	26	بيت الخياط
	27	الرشاوية
المتاورة	28	النميلاتية
	29	المتاورة
	30	متاورة بانياس
	31	البشارغة
	32	بشارغة جرانة

نفوس اللاذقية وجبلة عام 1866

كما ورد في كتاب "آثار الحقب في لاذقية العرب" لمؤلفه إلياس صالح اللاذقي: "العدد المرقوم في القضائين ينقص عن العدد الصحيح فإنه مأخوذ عن دفاتر الحكومة وهو معلوم أن الأهالي كتموا نفوسًا كثيرًا عن المحررين الذين عينوا من طرف الحكومة سنة 1866 لتقييد النفوس لكي يقل عدد الأشخاص الذين يُطلَبون سنويًا للدخول في العسكرية". ويضيف: "العدد الموضوع في عمود النصيرية لمقاطعات الخوابي والقدموس هو شامل للنصيرية والإسماعيلية الذين في تلك المقاطعات وعددهم في مقاطعة القدموس نحو ثلاثة آلاف نفس وفي ناحية الخوابي نحو خمسمائة نفس".

	المقاطعة	القرى	مسلمون	مسيحيون	نصيرية	الإجمالي
اللاذقية	ساحل اللاذقية وقرى الجسرين	75	1,206	478	10,258	11,942
	البهلولية	44	0	34	4,166	4,200
	الباير والبوجاق	63	7,306	354	580	8,240
	صهيون	53	3,930	100	1,760	5,790
	جبل الأكراد	121	7,592	100	112	7,804
	بيت الشلف	113	0	100	7,366	7,466
	المهالبة	47	0	0	3,664	3,664
	نفس اللاذقية	0	8,189	2,381	0	11,200
	إجمال	**516**	**28,223**	**3,547**	**27,906**	**60,306**
جبلة	قرى الوقف والشمسيات	36	592	0	4,328	4,920
	السمت قبلي	59	0	0	6,716	6,716
	بني علي	22	0	0	3,354	3,354
	القرداحة (أو الكلبية)	68	0	0	5,644	5,644
	المرقب	43	2,932	712	1,414	5,058
	زمرين	35	358	1,134	1,652	3,144
	الخوابي	82	578	1,194	5,512	7,284
	القدموس	58	0	0	5,564	5,564
	الضهر الغربي	58	0	0	5,224	5,224
	جرد العليقة	20	0	0	3,666	3,666
	نفس جبلة	0	3,100	0	0	3,100
	إجمال	**481**	**7,560**	**3,040**	**43,074**	**53,674**
	إجمال الإجمال	**997**	**35,783**	**6,587**	**70,980**	**113,980**

فهرس مفصل لمحتويات الكتاب الأصلي[1]

الفصل الأول (وصف بلاد النصيرية وجغرافيتها): جبال النصيرية، قبر النبي يونس، وادي بيت ناصر، قضاء البهلولية، قلعة المرقب، سهول طرطوس، القلاع، عدد السكان، الأشجار، شمال بلاد الشام.

الفصل الثاني (تاريخ الفرق الإسلامية السرية المبتدعة): الإمامة، ظهور الفرق المبتدعة، عبد الله بن ميمون القداح، القرامطة، الحشاشون.

الفصل الثالث (تاريخ النصيرية): الأصل العرقي، أصل التسمية، ظهور الفرقة، موجز الأصول، بدايات الفرقة.

الفصل الرابع (المنهج الديني للفرق الإسلامية السرية المبتدعة): المنهج الديني، عقيدة الحلول، منهج عبد الله بن ميمون القداح، منهج قرمط، الفرقة الإسحاقية، المنهج الدرزي، منهج الحشاشين، المتاولة، الصوفية، تهم الفجور.

الفصل الخامس (المنهج الديني النصيري: الإيمان أو العقيدة): نبذة عن الدين، عليّ إله النصيرية، أسماء علي، الثالوث الذي لا ينفصل، المعنى، الاسم، الاسم محمد، أسماء الاسم، ابتهالات لعليّ، الباب، أسماء الباب، الأيتام، المراتب، تبجيل النور، الإيمان بالتناسخ، يوم الحساب، كتب النصيرية، بقاء الدين على ما كان عليه.

الفصل السادس (المنهج الديني النصيري: الممارسات والشعائر): مواقيت الصلاة، سجود النصيرية، السر النصيري، طرائق تأدية الطقوس، الإدخال في الدين، الماسونية.

الفصل السابع (عادات النصيرية): المزارات، أعياد النصيرية، المناسبات الدينية، عادات النصيرية.

الفصل الثامن (الوضع الحالي للنصيرية): مقتل النقيب بوتان، شراء الموقع، القتال مع المهالبة، هجوم عليّ بيك، مقتل عليّ بيك، مقتل سجين، هجوم آخر، الرغبة في الأمان، العداوات، تقسيم الأملاك، السلب والقتل، خصال سيئة أخرى، إنكار الجميل، الضيافة، عادة الحلفان، حب الأبناء، الطعام.

الفصل التاسع (مقتطفات من كتاب المشيخة): الابتهالات، الشهادة لعليّ، مقتطفات من الكتاب.

الفصل العاشر (مقتطفات من وثائق نصيرية منشورة): كتاب تعليم الديانة النصيرية، وثائق السيد كاتافاغو، نيبور، قداس الطيب

[1] كما وجدت في رأس كل صفحةٍ من صفحات الكتاب.

المحتويات